أصول الثقافة العربية

بقلم
أنور الجندى

دار المعرفة
شركة ذات مسئولية محدودة
١٥ شارع صبرى أبو علم بالقاهرة
تليفون ٥٨٥٠٥ - سجل تجارى ٩٦٠٦٨

الموسوعة العربية الإسلامية

آفاق البحث ومواده

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن أكبر حاجة أمتنا فى مجال الفكر والثقافة أن نستكشف ذاتنا ونسترد شخصيتنا ، ونصحح مفاهيم قيمنا ونعيد النظر فى المصطلحات والكلمات فى ضوء الحقائق التى كشفت عنها السنوات الأخيرة والوثائق التى رفع عنها الستار ، والتى تدعو العرب والمسلمين إلى التعرف على أبعاد حملة الغزو والتغريب والحرب النفسية التى تشنها القوى الاستعمارية والصهيونية من أجل القضاء على ذاتية العرب والمسلمين ومقومات فكرهم المستمدة من أصول الفكر العربى الإسلامى .

إن الوثائق الكثيرة التى ظهرت فى السنوات الأخيرة (وخاصة ما كشفت عنه بروتوكولات صهيون وموقفها من الثقافات والنظريات الفكرية والاجتماعية المطروحة) كل هذا قد أوضح مدى خطورة المخطط التى يحاول الأعداء إغراق العرب والإسلام فيه رغبة فى تدمير كيانهم وتحطيم معنوياتهم وشخصيتهم حتى لايستطيعوا مواجهة حركة الغزو التى تنشب أظفارها بقوة فى فلسطين وتتخذها رأس جسر إلى محنة كبرى للأمة العربية والعالم الإسلامى .

من هذا المنطلق تجىء الدعوة إلى محاولة تصحيح القيم والمصطلحات وتحريرها من الزيف الخطير الذى يراد صبغها به حتى يتحقق هدف الاستعمار والصهيونية من داخل دائرة الفكر الإسلامى والثقافة العربية .

وهذا هو أخطر ما يحفز الهمم نحوة إعادة صياغة المفاهيم الأساسية فى ضوء الأصول الأصيلة لها المستمدة أساساً من الإسلام والقرآن .

إن حركة الغزو الفكرى والتغريب تقوم على أساس تزييف الحقائق ، وتمويهها وإفساد مضامينها . ولقد تنبه المفكرون المسلمون منذ وقت بعيد إلى هذه المحاولة وعملوا على الكشف عن الحقائق ، ولقد أصيبت هذه الموجة بضربات متعددة ، ولكنها مازالت تضيف وقوداً جديدا وتتحرك فى أساليب جديدة ، واعتقد أنها هى كبرى قضايانا التى لاينفد الجهد فى العمل لها مهما اتسع وتشعب واستمر جيلا بعد جيل .

وإذا لم يكن من اليسير القضاء على هذه الموجة فلا أقل من العمل الدائب على الوقوف فى وجهها وتصحيح ما تزيفه ، ورفع الاغشيةعما تموه به ، ودحض الشبهات عما تحاول اسباغ صفة الطابع العلمى عليه .

إن الغزو الثقافى هو قضية هذا الجيل وهذا العصر ، لأنه المحاولة الباقية للقضاء على قوة المقاومة النفسية القادرة دوما على إعلان الحذر واليقظة إزاء مخططات الاستعمار والصهيونية .

إن آية الجهاد أن لا تجد موجةالتغريب العاصفةالكاسحة ، استسلاما أوقبولا ، ولكن تجد دوما معارضة ومقاومة ومواجهة وكشفا عن خططها .

وإذا كان الفكر والثقافة هو أخطر مجالات الغزو فإن هذا الميدان وحده هو أكبر ميادين المقاومة والصمود ، فهذه هى خطوط المواجهة الواسعة والثغور العديدة التى تحشد لها القوى وتجند لها الأقلام بالمرابطة ، وهذا هو خط الدفاع الفكرى الذى يوازى تماما خط الدفاع العسكرى الصامد .

من المعتقد أن مرحلة التبيعة الفكرية القائمة على عقدة الأجنبي ، أو الجرى وراء بريق الفكر الغربي وتقليده والاعجاب به والدعوة إلى نقله كاملا قد انتهت وأن مرحلة من الرشد الفكرى والاستقلالية وبروز الذاتية والقدرة على التماس قاعدة أساسية مستمدة من الأصول والقيم الأساسية التى عرفها العرب والمسلمون منذ وقت بعيد وأقاموا عليها كيانهم وحضارتهم ، هذه المرحلة قد بدأت فعلا .

لقد بلغنا مرحلة التشبع والامتصاص ، ومضى دور التقليد والمتابعة وبدأ دور الوضوح ، والرشد ، واكتشاف المزاج النفسى الاجتماعى الأصيل .

ولقد كشفت حركة اليقظة العربية الإسلامية المتصلة عن مخططات الاستعمار والتغريب والتبشير والغزو الثقافى وعملت على ردها ودحض زيفها وإبراز ذاتية الفكر الإسلامى والثقافة العربية القادرة على امداد العرب والمسلمين بأسباب القوة والحركة والتقدم .

وإذا كان الاستعمار والتغريب قد حرصا على تشويه الفكر الإسلامى والثقافة العربية كوسيلة للحط من شأن العرب والمسلمين فإن ظاهرة واضحة قد أثبتت وجودها وأكدت ظهورها هى : بروز طابع اليقظة والحيطة والحذر من هذه التيارات المسمومة ، بعد أن انكشف أمرها ، وعرفت الدوافع الخفية والخلفيات التى تدفع اليها ، فقد كان للصيحات المتوالية أثرها العميق فى العقل العربى الإسلامى والنفس العربية الإسلامية للتعرف إلى هذا الخطر الكامن من وراء نظريات

كثيرة ومذاهب متعددة ما تزال تطرح فى أفق العالم العربى الإسلامى وكلها تحاول تدميره والقضاء على مقوماته .

ومن خلال مظاهر الثقافة والأدب ، والقومية ، والفلسفة والحضارة واللغة وفى مجالات الاجتماع والاقتصاد والقانون والتربية والسياسة تطرح مفاهيم متعددة متضاربة لتصارع المفهوم الأصيل الذى يستمده العرب والمسلمون مـــن قيم فكرهم الأساسية .

ولقد طرحت نظريات وافدة فى هذه المحاولات جميعا ، جرت معها الثقافة العربية شوطا حتى استوعبتها ثم كشفت عن زيفها ومعارضتها للقيم الأصيلة التى بنيت عليها أسس الفكر الإسلامى والثقافة العربية منذ أربعة عشر قرنا .

ومن هنا فقد كان من الضرورى إعادة تقييم هذه المصطلحات والمفاهيم ، والنظر فيها من جديد فى ضوء أصولها الأصيلة ، وفى مواجهة هذه التحديات التى فرضها الغزو الثقافى والتغريب وذلك لوضعها فى الصيغة المحررة بعيدا عن تشويهات التبشير والاستشراق أو مغالطات التغريب والشعوبية .

هذا التحرر من مفاهيم الغرب والشرق ، والتماس المنابع الأصيلة لفكرنا فى مختلف هذه القضايا هو الطريق الوحيد لنهضته العربية الإسلامية ثمرة اليقظة ، وأمامنا كل الحقائق التاريخية تؤكد أن الأمم لم تنهض نهضة البناء الا بالتميز والتفرد عن غيرها ، ذلك هو الطريق الذى يشكل للأمم وجودها وحضارتها .

أما التشابه والتبعية والغرق فى أتون الامم ، والتماس مفاهيم الثقافات والحضارات فإنه هو العامل الأساسى للبقاء فى مرحلة الانتقال التى لا تنتهى والتى تحول دون أن يصل العرب والمسلمون إلى مكانهم الحق الذى أقامتهم فيه قيمهم أو أن يستأنفوا دورهم التاريخى فى مجال الحضارة .

وأولى الحقائق التى تكشف ذاتية الفكر الاسلامى والثقافة العربية هى ذلك التباين الواضح بين العوالم والأمم ، فهنا عالمان منفصلان لكل منهما قيمه ومقدراته وفلسفته وذاتيته ، قام عالم الغرب على مفاهيم الفلسفة اليونانية والحضارة الرومانية فى إطار المسيحية الغربية ، وقام عالم العرب والاسلام على مفاهيم القرآن وحدها . وعندما نقل الغرب الفكر الاسلامى رفض أن يقبله كاملا ، وصاغه فى قوالبه الأصيلة المستمدة من اليونان والرومان.

فقد أخذ عصارة العلم الاسلامى متمثلا فى المنهج التجريبى ولكنه رفض أن يأخذ إطار الإسلام القائم على التوحيد والأخلاق ، وظل أكثر من أربعمائة عام ، وهو ينكر هذا الأثر وهذه الصلة ، ولايرى أن فى العالم حضارة غير حضارة الرومان التى انطفأت منارتها فى القرن الرابع وحضارة أوربا التى أوقدت أضواءها فى القرن الخامس عشر ، فى تجاهل عنيد متعصب للدور الضخم الذى قدمه الاسلام للحضارة والعلم حتى جاء فى السنوات الأخيرة من يعترف بالفضل ويحاول أن يكشف هذه الصفحة الفاخرة ، ومن حقنا أن نعرف دورنا فى الحضارة والعلم والفكر الانسانى كله ليكون ذلك قوتنا على مواجهة التحديات فى محاولة إقامة أساس وطيد للثقافة العربية .

ومن الحقائق التى لاسبيل إلى تجاوزها أن الاسلام ليس دينا على مفهوم الأديان أو على مفهوم إصطلاح كلمة « دين » التى يعرفها الفكر

الغربى بأنها تمثل اللاهوت أو العلاقة بين الله والانسان ، والاسلام بهذا المفهوم ليس دينا ولكنه دين ومنهج حياة ومجتمع وحضارة ، والثقافة العربية لاتنفصل عن الاسلام ، كما أن مفاهيم الاسلام ، مترابطة بأصول الثقافة العربية وقد جاء الاسلام بنظام كامل ولم يقتصر على التوحيد والعبادات .

ومن الحقائق الهامة أن طريقتنا فى النظر إلى الأمور وأسلوبنا فى الفكر تختلف فى مجال الأدب والتاريخ جميعاً فإن النظرة العربية الاسلامية هى نظرة جامعة شاملة لاينفصل فيها المجتمع عن العقيدة ولا السياسة عن الأخلاق ولا الروح عن المادة ولا القلب عن العقل ولا الدنيا عن الآخرة .

ومن هذا المنطلق تختلف طريقتنا فى النظر إلى الامور عن أسلوب الغرب القائم على الفصل بين القيم وصاحب النظرة المادية الخالصة إلى التاريخ والانسان والحياة ، والطابع الأخلاقى هو القاسم المشترك الاعظم لمختلف القيم والمقومات يستمد وجوده من التوحيد ولاينفصل عنه وهذا عامل آخر يوسع شقة الخلاف والتنظر بين الفكر الغربى والفكر العربى .

وليس فى الثقافة العربية كله لغة دينية ، أو نظرة دينية ، أو حركة دينية فالنظرة الاسلامية تتسم بالشمول بين ماهو دينى وماهو دنيوى ولاتنفك عنه .

ويقوم الفكر فى الاسلام على الحرية ذات الضوابط . ومن ناحية العقيدة فإن الاسلام يقرر أنه « لا إكراه فى الدين » ولحرية الفكر والرأى مناطق لايجوز اختراقها محافظة على كيان والأمة ووجودها ومحافظة على الشخصية الانسانية وتماسكها .

(٤)

ولعل أخطر ماواجه الفكر الاسلامى والثقافة العربية فى ظل النفوذ الاستعمارى هو عدم القدرة على امتلاك الإرادة الحرة فى الاقتباس والنظر فى الثقافات والحضارات ، وانعدام فرصة الحرية الكاملة للإذاعة بأيدلوجية الفكر الاسلامى وكشف جوهره وإبراز حقائقه ومدافعه الشبهات عنه أو تطبيقه وذلك إزاء مزاحمه الفكر الغربى له وفرض المناهج الغربية فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية ، فقد كانت قوى التغريب فى مراكز القوة والنفوذ ، وكانت قادرة على مهاجمة كل صيحة صدق ، غير أن تراخى الزمن قد كشف عن زيف المعطيات الاستعمارية الغربية وعجزها عن أن تقدم العطاء الصادق للنفس العربية الاسلامية ثم كان رفض المزاج العربى الاسلامى لها شهادة دامغة لها ، ومن هنا فقد بدأت عودة الفكر الإسلامى الى إلتماس قيمه، لقد حال التغريب دون قيام امتزاج فكرى شامل ، تذوب فيه الخلافات ويلتقى العرب والمسلمون على « وحدة فكر » تصهر العناصر المختلفة وتعيدها إلى فطرتها الصادقة النقية ، ولكن ضوءاً جديداً يبدو اليوم من وراء الأفق يؤذن بقرب انهدام الفواصل الفكرية والروحية وذلك فى مواجهة التحديات الاستعمارية والصهيونية .

إن الطريق الوحيد أمام العرب والاسلام هو طريقهم الأصيل (وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) إنه هو المنطلق الوحيد الذى عرفه العرب والمسلمون صادقاً لهم كلما مروا بالأزمات ومراحل الضعف وواجهوا التحديات والغزو ، لاطريق غيره ولاسبيل سواه .

إننا فى الواقع لسنا فى حاجة إلى أن يصرعنا هذا الفكر الغربى ، وليس من مصلحتنا أن نذوب فيه ، وان نتمزق مع ألوانه وتياراته المختلفة ، بل أن علينا أن نستمد من قيمنا أساساً ونتفتح لكل وسيلة ، والوسائل مواد خام تشكل وتسبك فى قالب ذاتيتنا وشخصيتنا ، ولقد كان الفكر العربى الاسلامى دوماً ، ثابت الجوهر متغير الصورة ، قابل لكل المعطيات التى تزيده قوة ، دون أن تفقده كيانه وقيمه الأساسية .

واذا كنا قد قطعنا مرحلة فى طريق اليقظة إلى النهضة فإذا ما أريد لها أن تستكمل الطريق وتؤتى ثمارها فلابد من بناء الأساس على القواعد التى صمدت أربعة عشر قرناً دون أن تهتز للأحداث والأزمات .

إن الفكر الاسلامى هو الذى صنع هذا المجتمع العربى الاسلامى وبدأه من نقطة أولية ، ولذلك فقد كان امتزاج الروح والمادة فيه من نسيج البناء الذى لاسبيل الى عزله إلا إذا أعيد البناء من جديد وهو فى حد ذاته أكبر عوامل التباين بين الثقافة العربية والثقافات الشرقية والغربية جميعاً .

(١)

الفصل الأول

مقومات الثقافة العربية

(١) مدخل إلى مفهوم الثقافة .

(٢) ماهى مقومات الثقافة العربية .

(٣) معالم الثقافة العربية وخصائصها .

الفصل الأول

— ١ —

« مدخل إلى مفهوم الثقافة »

من أعظم القضايا وأخطرها فى تاريخ الامم،قضية « الثقافة » من حيث أصالتها واحتفاظها بمقوماتها فى مواجهة التحدى بغزو ثقافة أمة أخرى لها،فى ظل ظرف من ظروف الضعف أو التخلف التى قد تفرض فيه الأمة الغازية ثقافتها وسيطرتها الفكرية .

والأمة العربية قد وقعت تحت النفوذ الأجنبى قبل منتصف القرن الماضى ثم أخذت تتحرر من هذا النفوذ منذ منتصف هذا القرن ، ومن هنا فإن بقايا هذا النفوذ وآثاره ماتزال لم تنحسر بعد ، لاسيما وقد ترك الاستعمار جذوراً وقواعد ومؤسسات ماتزال تعمل تابعة له فى محاولة لاستمرار نفوذه : بعد أن تخفى عن هدفه الأصيل ، وتحول من الغزو العسكرى والسياسى إلى الغزو الثقافى والفكرى .

وفى مرحلة ما بعد الاحتلال الأجنبى وانحسار النفوذ الاستعمارى ، وفى مطالع مراحل التحرر والاستقلال يبدو من أهم الأمور وأجلها خطراً العمل على تحقيق التحرر الثقافى والاستقلال الفكرى من نفوذ الاستعمار المنسحب .

فإذا عرفنا أن الأمة العربية مازالت تواجه بالرغم من تحررها السياسى خطراً إستعمارياً جاثما هو « الصهيونية وإسرائيل واحتلال فلسطين والقــدس » كان من الأهمية بمكان أن تظل على يقظة كاملة ، وهى فى مرحلة المواجهة والمقاومة ، لما تروجه الدعايات المغرضة وما تكتبه الأقلام المسمومة ، مما يدخل تحت اسم « الحرب النفسية » التى أعلنها العدو ، والتى ما زالت معلنة على الأمة العربية كلها بعد النكسة فى محاولة لتشكيكها فى مقدرتها على الصمود ضد هذا الخطر الذى تواجهه الأمة العربية ممثلا فى الاستعمار الثقافى والحرب النفسية جميعا ، إذن فقد تحتم علينا إعادة النظر فى أمور كثيرة واصبح بالضروة أن ننتقل إلى مرحلة جديدة لا شك فيها ولا سبيل إلى الفكاك منها ، تلك هى مرحلة :

« تحرير الثقافة من كل محاولات الغزو الثقافى الغربى ممثلة فى أكاذيب المبشرين وأباطيل الصهيونية وتحريفات الماسونية وترهات التغريب ومفاسد الشعوبية بالإضافة إلى وثنيات اليونان والمجوسية ودعوات الإلحاد والإباحة » .

فمن حق الأمة العربية ، شأن كل أمة ، أن يكون استقلالها الثقافى عن الثقافات الأجنبية أكيد، واصبح عليها أن تستمد ثقافتها من كيانها ومواريثها وإيمانها وأمجادها، ولابد لكل أمة تحررت من الاستعمار العسكرى والسياسى أن تتحرر من الاستعمار العقلى والثقافى وأن تكون لها ثقافة قومية مستقلة تستمدها من آدابها وتراثها العقلى والفكرى .

ومن هنا تتجدد الدعوة إلى اليقظة إزاء محاولة الاستعمار التى ترمى إلى إضعافنا بتقديم آراء منحرفة مضللة فى ثوب علمى وتحت أسماء براقة، وهى آراء لا تخرج عند الفحص الدقيق والمراجعة العلمية عن الشبهات والأكاذيب التى هوجمت بها الثقافة العربية والفكر الاسلامى دوما وفى مراحل مختلفة متعددة من تاريخنا ، فقد كانت أهداف الغزو الذى حاول الاستعمار فرضها فى سبيل تأكيد وجوده وتثبيت بقائه، العمل على تقديم مفاهيم تتعارض مع مفاهيمنا وقيم تتعارض مع قيمنا ، عن طريق النفوذ الذى يفرضه باسم المدرسة والصحيفة والكتاب، حيث أخذ الاستعمار يقذف الأمة العربية بفيض غامر لانهاية له من هذه المذاهب والنظريات والدعوات ، فى محاولة للقضاء على وحدة الأمة العربية والفكرية ، ودفعها خارج نطاق قيمها ووجودها وذاتيتها ، وفى مقدمة هذه المحاولات :

بدع الالحاد فى العقيدة ، والعامية فى اللغة ، والتبذل فى علاقات المجتمع هذا بالاضافة إلى حملات الهجوم والتشكيك الزاحفة على ثقافتنا وعقائدنا ونظمنا بالهدم وإثارة الشبهات حتى لا يكون هناك سد يقف داخل نفوسنا يحول دون احتوائنا فى مناطق النفوذ .

إن سلامتنا من النفوذ الاستعمارى ليس لها إلا وسيلة واحدة هى تحررنا الثقافى وصمود عقائدنا وقيمنا .

من هنا ، فإن من حق كل ثقافة أن تعرف مقوماتها وخصائصها المستمدة من وجودها وكيانها وشخصيتها ومصادرها الأصيلة ، وأن تحافظ عليها فى وجه الغزو الذى يحاول تذويبها أو إحتوائها أو إزالة معالمها أو التأثير عليها بحيث تفقد جانبا من مقوماتها لتنصهر فى الثقافة الغازية المسيطرة .

هذه هى أخطر قضايا الثقافة العربية اليوم: هذه الثقافة ذات الأصالة الواضحة فى طوابعها المميزة .

— ٢ —

اشتق اسم الثقافة من « ثقف » وهو لفظ قرآنى أساسا لم يكن من اشتقاق أحد ممن يدعون اشتقاقه من غير القرآن ، والثقافة كلمة عريقة فى لغتنا بمعنى صقل النفس: والمنطق والفطانه . وهو بمعنى تثقيف الرمح أى تسويته وتقويمه (١) .

ثم استعمل للدلالة على الرقى الفكرى والأدبى والاجتماعى للأفراد والجماعات ولكى يكون معنى الثقافة متميزا ، يجب التفريق بينها وبين الحضارة والعلم والتربية والتعليم ، فهى ليست مجموعة من الأفكار ، ولكنها نظرية فى السلوك ، وبها هى طريق الحياة إجمالا ، فيما يتمثل عليه الطابع العام الذى ينطبع عليه شعب من الشعوب ، أو هى الوجود المميز لمقومات الأمه ، أو هى الايدلوجيه التى تميز جماعة من الناس عن الجماعات الأخرى بما تقوم به من العقائد واللغه والقيم والمبادىء والسلوك والمقدسات والقوانين والتجارب . ومن هنا فلكل مجتمع ثقافته التى يتسم بها ، ولكل ثقافة مميزاتها وخصائصها التى تحدد شخصيتها ، وبالجملة فإن الثقافة طريقة خاصة تميز أمه معينة عن أمم أخرى ، وتتمثل فى العقائد والنظم وكل ما هو إجتماعى وخلقى (٢) .

---

(١) فى القاموس المحيط للفيروز بادى : ثقف ككرم وفرح ، ثقف وثقفا وثقافة ، صار حاذقا خفيفا فطنا وثقفه تثقيفا سواء .

(٢) يعرف هنرى لاوست (الثقافة) بأنها « مجموعة الافكار والعادات والموروثات التى ==

ويخلق الإنسان شبيه بكل انسان فى شكله وتركيبه البيولوجى ولكن يختلف إنسان عن إنسان بما يؤمن به كل منهم من عقيدة وما يتكلم من لغة وما يعتنق من مبادىء وقيم، فالثقافة القومية موقف فكرى وعملى ، هو تحقيق للقيم الثابتة فى أمة معينه ، ويمكن القول أنه قد تركزت فى ضمير الأمه العربية أصول ثقافه قومية واحدة تتفتح على مشكلات الإنسان .

٢ ـ لابد من التميز بين عنصرين فى المدنيه :

(أ) العلوم والمعارف والاختراعات والصناعات والوسائل المــــادية ، وهذه هى « الحضارة » .

(ب) العقائد والآداب والتقاليد واللغه والقوانين والنظم (أو ما يطلق عليه الجوانب الخلقيه والاجتماعية والفكرية) وهذه هى « الثقافه » .

فالعنصر الأول عالمى لا يختص به قوم دون قوم ، أو أمه دون أمة ، بل هو ميراث الإنسان بوصفه إنسانا ، أما العنصر الثانى فهو قومى خاص لأنه يختلف باختلاف الشعوب والأمم .

٣ — لما كانت « الثقافة تنحصر فى الأمور الذهنية والمعنوية وحدها فانها تختلف عن « الحضارة » التى لها طابع الانتشار والانتقال بين الأمم ، بينما تبقى الثقافة خاصة بكل أمة على حدة ، وأن أثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها فى بعض قليلا أو كثيرا .

٤ — ومن هنا يبدو الفارق الواضح من الثقافه والعلم :

«فالعلم» بطبيعته عالمى ، تتعاون فيه جميع الامم بدون تحفظ ، أما «الثقافه» فليست

= يتكون منها مبدأ خلق لامة ما ، ويؤمن أصحابها بصحتها وتنشأ منها عقلية خاصة بتلك الامة تمتاز عن سواها وجميع الثقافات تتكون وتتطور بعوامل داخلية ، وتتأثر ببعض المؤثرات الاجنبية » . ويعرف أرنست باركر (الثقافة) بأنها « ذخيرة مشتركة من الافكار والمشاعر تجمعت لها وانتقلت من جيل إلى جيل خلال تاريخ مشترك وتغلب عليها بوجه عام عقيدة دينية مشتركه هى جزء من تلك الذخيرة المشتركه من الافكار والمشاعر والعقيدة والدينية واللغة هى من العناصر الاساسية للثقافة ويقول (تايلو) إن الثقافة هى الكل المركب الذى يتضمن المعارف والعقائد والفنون والاخلاق والقوانين والعادات والفنون .

من الأمور التى يمكن إقتباسها ونقلها من الخارج نقلا ، بل هى من الأمور التى لابد من تكوينها فى النفوس تكوينا .

٥ — وكذلك «المعرفة» الا تخص قوما دون قوم ولا أمة دون أمة ، لأنها كالعلم إنسانية أسهمت جميع الأمم والشعوب على مر التاريخ فى تشكيلها فهى ميراث الإنسان بوصفه إنسانا .

وذلك بخلاف النظم الاجتماعية التى هى «قومية» خاصة لأنها تختلف باختلاف الشعوب والأمم، والتى هى من صنع ظروف كل أمة ، ولأنها نتيجه للعملية التاريخية التى أجتازها كل شعب ، وما يصلح منها لقوم لا يصلح للآخرين وما يكون منه شفاء لناس يكون سما زعافا لغيرهم .

٦ — وكذلك «الحضارة» فهى تتمثل فى العلوم والصنائع بوجه عام ، حين تنحصر الثقافه فى الأمور الذهنية والمعنوية وحدها .

٧ — والثقافة أيضاً من الامور المعنوية فهى لا تتبع الروابط الجغرافية ولا تتقيد بقيود المسافات ، ومن هنا فمن الخطأ أن يقال إن هناك ثقافه تسمى باسم «البحر المتوسط» مثلا .

ومن الحق أن يقال : إن هذه المنطقة التى نبتت فيها الأديان وتلاقت على ترابط واضح بين الروح والمادة قد انتظمتها فطرة واحدة كونتها العقيدة واللغة والقيم المشتركة وهى من أجل هذا تجتمع على مثل عليا للحياة موحدة .

٨ — ومن هنا كان لكل ثقافة مزاجها الخاص الذى يختلف باختلاف الامم «فالثقافه اللاتينيه مثلا لها ذوق ولون ومنحى يختلف عن السكسونية والجرمانيه والصقلبية ، بل إن الثقافة اللاتينية تختلف فى البلاد اللاتينيه نفسها ، فتراها فى إيطاليا ذات ملامح تفترق عن الثقافة الفرنسية والبلجيكية والسويسرية والاسبانية ، بل ان انجلترا وأمريكا ، مع أن أساس ثقافتهما لغة واحدة وأدابا متقاربة ، فإن ثقافه هذه تختلف عن ثقافة الاخرى » .

وهكذا تختلف الثقافات والأساليب الفكرية ومناهج التعليم فى ألوانها ومقاصدها وتوجهاتها باختلاف الأمم الصادرة عنها .

ولكن ربما تتلاقى ثقافات فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وألمانيا لوحدة غالبة في أصولها، ولكن هذه الثقافات مجموعها تختلف عن الثقافة العربية التي كونتها عوامل خاصه تختلف ، ولا شك هذه العوامل قد اعطت الفلسفة والفن والأخلاق طوابع خاصة مميزة.

وبالجملة فإن الثقافة تشمل كل نواحي النشاط والاهتمام التي تميز شعباً عن شعب وأمة عن أمة .

٩ — والثقافه العربية : عربية اللسان ، إسلامية المضمون والتاريخ ، وهي كائن حي يضم العناصر الثلاث : الوطنية والقوميةوالاسلاميه ،وهي في جملتها واقعية عملية متحررة، تقدمية إنسانيه .

ويمكن القول مع القائلين بأن الثقافة العربيه ليست ثقافة غربية ولا ثقافه شرقية وليست مركبا لهاتين الثقافتين بل هي ثقافة متميزة واضحه الذاتيه لها طابعها الخاص (١) المختلف عن ثقافات الشرق والغرب جميعاً .

---

(١) أشار إلى ذلك تشارلس مالك في كتابه .

(The near east and the great poners)

ويقول الدكتور عبد القادر يوسف في كتابه مستقبل التربية في العالم العربي : إذا أردنا تصنيف الفلسفة الاساسية للثقافات نستطيع أن تضع الثقافة العربية في الموقع التي تمثل الموقع الوسط بين ثقافة الغرب وثقافة الشرق فهي لا شرقية ولا عربية كما أنها ليست مركبا للثقافتين وليست حلقة اتصال تربط بينهما بل هي ثقافة تسمى ما بين الثقافتين .

- ٣ -

هل تكون ثقافة الأمة مغلقة أمام الثقافات الاخرى أم متفتحة !

من الحق أن يقال إن تحديد مقومات ثقافة الامه ضرورة ، وأن حماية هذه المقومات أمر لا سبيل إلى تجاوزه ، ولكن هذا لا يمنع أى ثقافه عالية كالثقافة العربيه من الانفتاح على الثقافات الأخرى على النحو الذى تقوم به الأمم فى استيراد فسائل النباتات الغريبة وتجريب زراعتها فى تربتها ، فإن صلحت وتأقلمت وانصهرت فى بيئة هذه الامم فقد نجحت ، وإلا فقد رفضتها البيئة حيث لم تستطع جذورها أن تمتد إلى أعماق التربة . ومن هنا فلا تكون ثقافة أى أمة مغلقة أمام الثقافات الاخرى إلا بقدر ما تحتفظ بجذورها وأصولها ، هذه الجذور التى يجب أن تكون ثابته أمام الوافد بحيث لا يستطيع هذا الوافد اقتلاعها .

وليس معنى إختصاص الثقافة للأمة أن تظل جامدة أو أن تنغلق دون أن تتطور ، ولكن معناه أن أسسها وقيمها هى أنسب شىء لها ، والقاعدة هى عدم إنعزال الثقافه أى ثقافة ، فهى تأخذ وتعطى ولكن عليها اولاأن تحتفظ بمقوماتها الأساسية .

الفصل الثاني

ما هي مقومات الثقافة العربية

إن الثقافه العربية — شأن كل ثقافه— تتكون من مقومات أساسيه قوامها :

(١) العقيدة: فكرية وروحيه هي « الإسلام » .

(٢) اللغة العربيه وآدابها .

(٣) التاريخ العربي الاسلامي .

(٤) التراث .

(٥) القوميه (الأمه) والوطن (الأرض) .

(٦) وحدة العقلية والمزاج النفسي .

العقيـدة

١ - لكل ثقافه جذور من فكر إنسانى أو دين له جذوره الأصيلة فى الأمه بما يرسم من أسلوب العيش عند المؤمنين به ، والعقيدة التى تمثـــل أهم مقومات الثقافه العربيه هى ، الاسلام ، والاسلام دين وزيادة، أى أنه يقوم مقام اللاهوت فى الثقافات الأجنبيه ويضيف جانبا آخر واسع المدى فى مجال الفكر والحياة والمجتمع والحضارة — وهذا الجانب ليس موجودا فى الأديان الأخرى :

فالاسلام ليس دينا فحسب ولكنه دين ونظام مجتمع له منهج كامل فى الحياة الاجتماعيه والسياسيه والاقتصادية .

٢ — قد تأكد أنه لايمكن لأى ثقافة من الثقافات أن تظهر أو تنمو إلا إذا كانت ذات صلة بدين من الأديان. فالدين وحده هو الذى يكسب الحياة الاجتماعية معناها ويمدها بالإطار الذى تصوغ فيه اتجاهاتها وآمالها ويحمى الجماهير البشرية من اليأس والملل، ولما كانت حياة الانسان إنما تحكمها القوى الروحية والقوى المادية معا ولا سبيـــل إلى الفصل بينهما فإن الايمان الدينى السليم لايتعارض مع الفكر الانسانى الحر ، بل ان الدين فى مفهوم الاسلام يدفع الانسان إلى التفكير الحر ويصده عن الجمـــود الفكرى والتعصب(١) .

كما أن الدين هو الذى يضع القيمة الخلقية للمجتمع .

٣ — أبرز مايمثله الاسلام : التوحيد وكون الاسلام دين ومجتمع ، هاتان المزيتان تمثلان أعمق الفوارق بين الثقافة العربية والثقافات الغربية ، وتكشفان عن التباين الواضح بين وجهى نظريهما بما يصل إلى التعارض أحيانا بين الثقافتين فى كثير من المواقف والقضايا .

---

(١) بتصرف — عن محمد محمود « وحدة الثقافة العربية » .

٣ — يتمثل « التوجيه » فى أمرين :

(١) الايمان بأن الله واحد لاشريك له وتنزيه الله عن كل صفة يتصف بها خلقه ، فلا ينسب إلى خلقه شيئاً من صفاته (إلا مع التأويل الصحيح) .

(٢) الايمان بالرسل والكتب والبعث والجزاء .

٤ — «القرآن»هو مصدر القيم الأساسية للاسلام ،وهو النص الموثق،و الكتاب المعجز بمبادئه وأسلوبه ، فليس فى التاريخ كتابا بقى كيوم نزل معنى ونصا ، ثم كان له من الأثر فى جميع ميادين الحياة كالقرآن فقد دعا القرآن إلى المعرفة عن طريق العقل والفكر والاستنباط .

والاسلام دين دعوة ودين أمة (عبادات ومعاملات وأخلاق) وهو لا يفرق بين الدين والاخلاق ، والنظام الاجتماعى جزء من الاسلام .

وقد نظم الإسلام صــلة الانسان بربه وصلة الانسان بالبشر ، وأقر نظام الاسرة بالزواج ، وحقوق الجماعه ،ورفع مكانة المرأة ، وأبطل الرق ، فكل رقيق يصبح بالاسلام حرا كما يصبح حراً بالعتق ونظم الإسلام كذلك الجانب الاقتصادى بالزكاة ، وجعل السياسه شورى وحث على العلم وكرم العقل والفكر .

« والسنه » هى تفصيل ما جاء مجملا فى القرآن وهى التطبيق العملى للاسلام ممثلا فى تصرف الرسول وقوله .

٥ — وقد استمدت الثقافة العربيه مقوماتها من الاسلام وتشريعه ، قاعدة وأساساً لحياة المجتمع الاخلاقيه والاقتصادية والاجتماعيه والسياسية ، وتقوم هذه الثقافة على فلسفة فى الحياة والاجتماع تتميز بتوفيقها بين سلطة الحاكم وحرية المحكوم واحترامها للملكيه الفرديه وتوجيهها للتعاون بين الغنى والفقير . وعدم تفريقها بين الالوان والاجناس وإصرارها على إقرار قسط معين من الأخلاق والآداب فى حياة الجنسين (الرجل والمرأة) والتسوية بينهما إلا فى حالات متعددة .

٦ — أكد الباحثون المنصفون حقيقة واقعة ، هى ان فى الامه العربيه والعالم الإسلامى ، ما يثبت أن الدين ينفذ إلى كل نشاط إجتماعى وعقلى للشعوب ، بل أنه

أى الدين فى الواقع : العامل المسيطر على حياة الشرق ورجاله ونسائه (١)» .

وقد أخطأ الغربيون الذين حاولوا دراسة الإسلام بل أنه « دين فقط » والذين حاولوا أن يتعرفوا إليه كما يتعرفون على أديانهم ، وجهلوا أو حاولوا تجاهل الحقيقة الواقعة من أن الاسلام حركة اجتماعية كان الدين جانبا من جوانبها ، فهو عقيدة وعبادة وإصلاحا إجتماعيا ومبدأ أخلاقيا وحكومة .

٧ — من أبرز معالم الاسلام ذات الأثر فى الثقافة العربية أنه يجمع بين المثالية والواقعية ، وأنه يحتفظ بالعمل فى صميم الحياة العامة ، وهو لا يطلب من أتباعه أن يعرضـــوا عن الدنيا أملا فى الحصول على الآخرة ، بل على أن يحسنوا العمل فى الدنيا أملا فى الفوز فى الآخرة .

٨ — طبع الاسلام حياة العرب فى الماضى ولا يزال يطبعها وسيظل يطبعها إلى مئات السنين ، لذلك فإن كل حركة فكرية وإجتماعيه فى العالم العربى تتجاهل هذا الواقع البديهى فهى تتجاهل الإطار الطبيعى الذى يجب أن تنشأ ضمنه والأساس العملى الذى يجب أن تستند إليه، فهى إذن يجب أن تكون فى داخل الاسلام(٢) ويرجع ذلك إلى الحقيقة التى لا مرية فيها وهى أن الاسلام كان أكثر من مجرد دين فقد كان طريقه فى الحياة ومنهاجا واضحا عنى بكل ناحية من حياة الفرد ليحدد سلوكه الاجتماعى والخلقى والدينى(٣).

٩ — اتسمت الثقافة العربية باستعدادها الدائم للنمو ، عن طريق الثورة أو التطور ، وقدرتها على تمثل ما تأخذ بحيث يصبح هذا المأخوذ جزءاً أصيلا من حياتها ، فقد تمثل العرب فكر الأقوام التى اتصلوا بها ولكنهم فرضوا فكرهم بلغتهم وروحهم ، وكان الاسلام هو الاطار الأساسى لكل ما تقبلوه من الفكر

---

(١) يراجع ما كتبه الدكتور عبد القادر يوسف فى كتابة مستقبل التربية فى العالم العربى « الحقيقة أن الاسلام كان ولا يزال القوة المكونة والعنصر الفعال الأساسى فى الثقافة العربية .

(٢) جورج طعمه . (٣) الدكتور عبد القادر يوسف « مستقبل التربية فى العالم العربى »

البشرى ، ورفضوا كل ما يتعارض مع التوحيـــد من الفـكر اليونانى والفارسى والهندى القديم .

١٠ — أن موقف الاسلام من الأقليات ومن الأديان يكشف عن حقيقـــة واضحة ، هى توفير حرية الفرد كى يختار الدين التى يرتضيه لنفسه وتقدير الاسلام للأديان جميعا وإفساح المجال لها فى حرية وإعطاء أصحاب الأديان المختلفة حقوقهم الاجتماعية وحماية الحرية الدينية وقد أثبت التاريخ الطويل مدى تـكريم الاسلام للأديان السماوية الموحدة وإعطائها حق المواطنة وحق الحماية وقد انطبع هذا المفهوم على الثقافة العربية فأتاح الفرصة لبقاء وحرية أقليات كثيرة فى الوطن العربى منها : الصابئة والطائفة السامرية فى الاردن والأرمن فى سوريا ولبنان والمسيحيين .

١١ — كان الاسلام روح جميع حركات النهضة واليقظة والمقاومة تحت أى اسم ،سواء أ كانت حركات إسلامية صريحة أم وطنية أو قومية وقد اعترف بهذه النظرة (هاملتون جب) حين قال :

« لم تقم فى بلادهم أى حركة وطنيـــة إلا كانت الروح الاسلامية أساسها » ويردد كانتول سميث هذا المعنى حين يقول مثل هذا.

١٢ — إن أساس كيان المجتمع العربى الذى تـكون فى أحضان الأديان يقوم على إعتقاد يبعث فى النفوس الإيمان بالله والنبوات والروح والحياة الآخرة وبالجزاء فيها على الأعمال ، يعتقدون هذا فى نفس الوقت الذى يطلقون فيه لعقولهم العناية لتتعلم وتعرف وتخترع وتـكتشف وتسخر هـــذه المادة الصماء وتنتفع بما فى الموجودات من خيرات ومميزات،والمجتمع العربى فى هذا يختلف عن المجتمع الغربى الذى يعيش حياة مادية النزعة لا تعترف بغير المادة ولا تحس بوجود غيرها على نحو ضعفت فى نفوس أبنائه عواطف الرحمة الإنسانية .

١٣ — مفهوم الاسلام فى الثقافة العربية يقوم على أساس أن الاسلام ليس عقيدة صوفية ولا فلسفة لاهوتية ولـكنه نهج فى الحياة وفق قوانين الطبيعة التى سنها الله لخلقه، وأبرز معالمه : التوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية

فى الحياة الإنسانية ، الالتقاء بينهما على نحو يحول دون وقوع أى تناقض أساسى فى حياة الإنسان الجسدية وحياته الأدبية ، والاسلام يؤكد تلازم الوجهين وعدم افتراقهما ويرى ذلك أساساً طبيعيا للحياة .

وفى هذا تختلف الثقافة العربية عن الثقافات الغربية التى تقوم على أساس الفصل بين اللاهوت والحياة وبين الأمور الروحية والأمور الجسدية (كما يفعل اللبان حينما يمخض الحليب ليستخرج زبدته) وهم لايفهمون بسهولة أن الحليب الصريح فى الاسلام يجمع هذا العنصران مع أنهما متميزان ويعيشان معا متجانسين (١) .

وأن مبدأ التوحيــــد فى الثقافة العربية هو الذى يحول دون التمزق والتشطير والانقسام فى عالم الفكر مما هو مصدر الأزمة التى تعانيها البشرية اليوم، حيث يجرى التقسيم بين الشرق والغرب والمادة والروح ، والأبيض والأسود ، والمثاليــة والطبيعية وبين الحرية والانضباط ، هذه الحواجز التى تقيمها هذه الانقسامات هى مصدر الأزمة النفسية والروحية التى تعانيها البشرية اليوم وهى أزمة غير موجودة فى الثقافة العربية والفكر الاسلامى .

١٤ — تقوم الثقافة العربية على أساس الإيمان بأن الأصل فى الإنسان الخير وذلك على خلاف ما تقول به الثقافات الغربية التى تستمد من الأديان المختلفة، من أن الانسان خلق خاطئا أو ما تراه التعاليم الهندوكية من أن الانسان كان أول أمره دنسا فهو من أجل ذلك محمول على أن يتخبط فى سلسلة من التقمص نحو هدفه الأقصى من الكمال ، بينما يقرر القرآن أن الإنسان خلق طاهراً وخلق كاملا ، وأن ليس على الإنسان مسئولية خطأ أى فرد سبقه وأن آدم قد تلقى من ربه كلمات فتاب عليه .

١٥ — التوحيد فى الثقافة العربية هو الفكرة ، فإذا غربت الفكرة بزغ الصنم وسيطر مفهوم الوثنية .

---

(١) بتصرف عن ليوبولدفايس « الاسلام على مفترق الطرق » .

١٦ – إتسمت الثقافة العربية بالحركة والتشكل والمواءمه ، مع العصور المختلفة والبيئات المتشابهة وهى تستمد هذه الميزة من الفكر الأسلامى الذى يؤمن بقاعدة الاجتهاد ، ولما كانت النصوص متناهية والوقائع غير متناهية ، ولما كان ما لايتناهى لايضبطه مايتناهى فانالاجتهاد هنا يصبح واجب الاعتبار .

١٧ — منح الإسلام الثقافة العربية عامل الايجابية والتحرر والطلاقة ، حيث لم يكن الدين معوقا ولا مصدرا من مصادر الجمود أو التخلف أو الحرمان أو فرض الوساطة بين الله والعبد . أو القسر بالتوجه إلى الرهبانيه أو الانقطاع عن الدنيا أو السلبية أو الجبرية ، بل كان دائما فى جوهر مفهومه قادراً على دفع الانسان كانسان وكجزء من المجتمع إلى العمل والحركة ، ومنحهما القوة والحيوية . وكان وفق مفاهيمه تقدميا متلاقيا مع العصور المتوالية والبيئات المختلفة وبذلك لم ينشأ فى الثقافة العربية ما تعرضت له الثقافات الغربية من الدين يتعارض مع العقلانية نتيجة للنظم الكهنوتية والإسلام لم يعرف الكهانة .

١٨ — منح الأسلام الثقافه العربية الانفتاح على الثقافات ذات الأصل الإسلامى فلم يعمل على فرض قوميه على قومية ، بل نشر صيغة إنسانية للحضارة .

وكانت معتقداته عاملا هاما فى إقرار حريه الأمم والاقوام والمساواة بينها واتساع المجال لعبورياتها وأنتاجها على أساس التعارف والتعاون .

بل ان التراث الحضارى والفكرى الاسلامى كله ليس تراثاً عربياً من حيث اللغة ولكن شاركت فيه كل العناصر والإجناس .

وكان هذا الانفتاح على الثقافات الأسلامية عاملا هاماً ، فإن الثقافة العربية هى أم هدف الثقافات لأن القرآن الكريم — حجر الاساس فى بناء الفكر الاسلامى نزل بالعربية ، وأثره واضح فى مختلف جوانب هذه الثقافات .

يقول الفيلسوف محمد اقبـــال :

أنا أعجمى الدن ، ولكن	خمرتى صنع الحجاز وروضها الفينان
إن كان لى نغم الهنود ولحنهم	لكن هذا الصوت من عدنان

فاللغة العربية بشعرها ونثرها وقواعدها ومفرداتها ، أثرت فى جميع لغات الشعوب الإسلامية على تفاوت بينها ، فهى الأصل التى استمدت منه ما تحتاج إليه من ألفاظ للتعبير عن المعانى الجديدة ، التى انتقلت إلى الاوردية والفارسية والتركية بمفهومها العربى ، كما اتخذت بعض الشعوب الحروف العربية لكتابة لغاتهم ، وماتزال اللغة العربية هى اللغة الثقافية العربية فى تركيا وباكستان واندونيسيا وافغانستان وإيـــران .

١٩ — إستطاع الإسلام أن يمد الثقافة العربية بكل علامات القوة والحيوية وكذب بذلك كل دعاوى التغريبيين والشعوبيين من إتهامها بالجمود وعجزها عن متابعة الحضارات والنهضات .

٢٠ — من خلال دراسة إبن خلدون العميقة للتاريخ العربى الاسلامى ، يبين أن هناك قوة واحدة لاتوجد غيرها ، هى القادرة وحدها على مقاومة الانحلال الناتج عن مختلف أسباب الضعف هى قوة الاسلام ، فقد نجح الاسلام بالفعل فى ربط الناس فى مجتمع واسع ، ساوى بين أفراده فلم يبق أى تميز على أساس العرق أو اللون ، أو على أساس القدم والحداثة فى اعتناق الاسلام والايمان به واصبح المسلم يشعر بأن الامة الاسلامية وحدة لا تتجزأ وأنه أينما حل فى ديارها فهو فى بيئته وبين أهله ، وقد استطاعت الشريعة الاسلامية المستندة إلى القرآن والسنة أن توجد نظاما فى الحقوق والواجبات فيه مكان لكل مسلم ، ومتسع لليهود والمسيحيين الذين تركوا أحراراً فى العيش تحت سلطة شرائعهم وزعمائهم .

(٢)

اللغـــة

« اللغة العربية » مقوم أساسى من مقومات الثقافة العربية ، فاللغـــه العربية ليست « لغة أداة » ولـكنها لغة أداة ولغة فـكر أساساً ، ولقد كانت اللغة رابطة بين المسلمين قوامها « القرآن » ، ثم هى رابطة بين العرب عن طريق الثقافة .

فاللغة العربيه لغه قومية ولغة فـكر إنسانى عالمى هو الإسلام .

والواقع أن كل اللغات هى أداة لنقل الأفـكار بينما تتميز اللغة العربية بأنها إلى ذلك « لغة فـكر » من حيث هى لغة القرآن الـكريم الذى ألقى إلى اللغه العربية وإلى الفكر الإنسانى كله أضخم شحنة من القيم والمبادىء ، ولذلك فإن محاولات تقريب اللغه العربيه من العاميه إنما يفصل بينها وبين القرآن وتقضى على مهمة خطيرة من مهمتها الرئيسيتين، والمعروف أنه بفضل القرآن بلغت العربيه من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه إية لغة من لغات الدنيا(١) وبفضل القرآن عاشت خمسة عشر قرنا حيث لم تعرف أى لغه فى العالم مثل هذا العمر المديد .

٢ — ولقد كانت اللغه العربية عاملا هاما فى مقاومة الاستعمار ، وقد كشف التاريخ عن مدى أهمية اللغـــه العربية فى الحفاظ على كيان الأمه العربيه وعلى مقومات الثقافه العربيه ، وفى الجزائر حيث تعرضت العربيه لمحنة استعماريه خطيرة، فقد استطاعت اللغه العربيه الـكلاسيكيه « الفصحى » بالذات أن تحول دون ذوبان المغرب العربى فى فرنسا وفى ذلك يقول (جاك بيرك) أن الـكلاسيكيه العربيه التى بلورت الأصالة الجزائريه وقد كانت هذه الـكلاسيكيه العربيه عاملا قويا فى بقاء الشعوب العربيه .

٣ — إمتازت اللغه العربية بخصائص أكفل بحاجة العلوم ، وقد كانت قادرة

---

(١) راجع بروكلمان .

دائماً ومتسقة دائماً لتقبل كل حاجات الفكر والحضارة ، ومثالا لذلك أن كلمات اللغه الفرنسيه (٢٥ ألفا) وكلمات اللغه الإنجليزية (١٠٠ ألف) أما العربية فعدد موادها لا كلماتها (٤٠٠ ألف مادة) ومعجم لسان العرب تحتوى على (٨٠ ألف مادة) لا كلمة ، ومواد اللغه العربية تتفرع إلى كلمات، فإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم منصرفه ، بلغ عدد ما يشتق منها نصف مليون كلمه وليس فى الدنيا لغه اشتقاقية أخرى غنية بكلماتها إلى هذا الحد .

٤ — لقد كان للغه العربية أثرها البعيد المدى فى عمق الثقافة العربية وتراثها ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل هامة ، منها أنهـــا أضخم اللغات ثروة ومقاطع وحروفا وتعبيرات ، فهى أكثر اللغات العالمية أصواتا ، وإذا أردنا مقارنتها باللغة الانجليزية التى يتحدث بها معظم سكان العالم ، فإننا نجدها تفوقها فى الأصوات وفى الألفاظ ففيها ٢٨ حرفا فى حين أن فى اللغه الانجليزية ٢٦ حرفا وليس فى هـــذه الحروف الثمانية والعشرين حروف تدل على أصوات مكررة بخلاف حروف الأصوات فى الانجليزية . وهناك فى اللغه العربية حروفا لأصوات لا توجد فى كثير من اللغات الأخرى مثل الحاء والخاء والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف ، أما غنى اللغة العربية بالألفاظ فلا جدال فيه . فقد إستطاع الأوائل أن يشتقوا منها مترادفات متعددة ، وتنوع الأساليب والعبارات فى اللغه العربية هو خير دليل على ذلك ، فالمعنى الواحد يمكن أن يؤدى بتعبيرات مختلفه : كالحقيقه والمجاز والتصريح والكنايه الخ (١) .

بل إن الاسناد فى اللغـه العربية يكفى فيه نشاء علاقة ذهنية بين الموضوع والمحمول والمسند إليه والمسند دون حاجه إلى التصريح بهذه العلاقة نطقا وكتابة فى حين أن هذا الأسناد الذهنى لا يكفى فى اللغات الأجنبية إلا بوجود لفظ صريح يشير إلى هذه العلاقه :

فنقول « فلان شجاع » دون حاجة إلى أن نقول (فلان موجود شجاعاً)

---

(١) بتصرف من بحث للاستاذ عبد الستار دياب .

ولا تحتاج العربيه فى طبيعة تركيب الجمل الجذريه فيها إلى أن تثبت ما يسمى فى اللغات الغربيه فعل الـكينونه (to do) .

٥ — اللغة العربية هى لغة أمة واحدة تحمل فكراً ما يزال حيا متفاعلا لم يتوقف أو يتجمد . وأن هذه الأمة تمتد من المغرب الأقصى إلى حدود إيران ، وهى فى هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والقيم أوثق ارتباط ، وقد أثمرت ذلك التراث الذى تضمه ألوف الـكتب والمجلدات والمخطوطات المنشورة فى مختلف مكتبات العالم ، وأن هذا الفكر الذى هو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا إنما يقوم على « القرآن » الذى هو الرابطه الكبرى وأن فى الدعوة إلى تغليب اللهجات الإقليمية من شأنه أن يقضى على هذا التراث الحى كله ، وأن يفرق هذه الأمة ، وبذلك يضيع تاريخ متصل إمتد خمسة عشر قرنا .

٦ — تعرف مدى أهمية اللغة فى حياة الامم بأنها هى علامة الحياة وأن الحرمان من اللغة هو علامة الموت « وأن الأمة التى تدخل تحت حكم دولة أجنبية تفقد استقلالها وحريتها وتسبح مستعبدة لها ، ولـكنها لا تفقد حياتها ما دامت محافظة على لغتها ، أما إذا فقدت اللغه فتكون قد فقدت الحياة وتكون قد اندمجت فى الأمة المستولية عليها » .

٧ — إستطاعت اللغة العربية فى خلال تاريخها الطويل أن تحقق عنصر الحياة والاستمرار ولم تعجز عن التعبير والاستيعاب النهضات والحضارات ، ولم تـكن لغة دينية بالمعنى الذى عرفت به اللغة اللاتينيه : فهى ليست لغة دين كهنوتى محدود بدور العبادة ولـكنها لغة دين هو فى ذات الوقت دين حياة ومجتمع وحضارة ولم تعجز فى عصر من العصور عن الوفاء بحاجات عصرها وبيئتها .

٨ — كشفت اللغة العربية عن فارق كبير بينها وبين اللغات الأخرى كاللغه اللاتينيه مثلا التى ماتت وسكنت المتاحف وتفرعت منها لغات أخرى ، بحيث أن أى فرنسى أو إنجليزى أو ألمانى لا يستطيع اليوم أن يتابع تراث لغته لأكثر من ثلاثة أو أربعه قرون ، بينما العربى يستطيع أن يتابع تراثا - يمتد إلى خمسة عشر قرنا أو يزيد ، ذلك أن اللغه العربية قد حماها « القرآن » من التفكك إلى لهجات

ونماها ، وهى لغة أمة واحدة هى الامة العربية التى تمتد من المغرب الاقصى إلى العراق ، وبوجود القرآن فليس لهذه اللهجات إستطاعة فى أن تكون لغات مستقلة لهذه الأقاليم ، إذ إرتبط التاريخ كله بالتراث الفكرى كما إرتبطت القيم الثقافية باللغه العربية أوثق إتصال ، ومن وراء ذلك الفكر الإسلامى الذى تضمه ملايين الكتب والمجلدات المكتوبة باللغه العربيه ، هـــذا الفكر وهو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا ، إنما هو يقوم فى أساسه على القرآن الكريم الذى يعد بمثابة الرابطه الكبرى فضلا عن أنه ليس هناك من شبه بين اللغات المشتقة من اللاتينية الميتة وبين اللغات العربيه الفصيحة التى هى لغة حية منذ خمسة عشر قرنا التى لم يستطع شيوع اللهجات العاميه الكثيرة من عزلها عن مكانتها .

فاللغه العربية هى إسبرانتو العالم الإسلامى وإن حال الاستعمار دون انتشارها فى السنوات المائة الأخيرة وأوقف نموها(١) .

١٠ — « أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى احتفظ بلغته الأصلية وحفظها على قيـــد الحياة وسيحفظها على مر الدهور وستموت اللغـات الحيه المنتشرة اليوم فى العالم كما ماتت لغـات حية كثيرة فى سالف العصور إلا العربيه فستبقى بمنجاة من الموت وستبقى حية فى كل زمان مخالفه النواميس الطبيعيه التى تسرى على سائر لغـــات البشر ولا غرو فهى متصله بالمعجزة القرآنية الأبديه ، فالكتاب العربى المقدس هو الحصن الحصين الذى تحتمى به اللغـه العربيـه وتقـاوم أعاصير الزمن وعواصف السياسه المعادية ودسائسها الهدامه(٢) » .

١١- تتسم اللغه العربية فى تقدير كثير من الباحثين بظاهرة عجيبه لا تتحقق لكثير من اللغات ، ذلك هو استمرار تطورها منذ ظهور اللسان العربى من عصر القرآن الكريم إلى عصرنا الحاضر ، هذا التطور الذى لم يغير منها أى شىء من وحدتها ،

---

(١) راجع (كتابنا اللغة العربية بين حماتها وخصومها) .

بل بقيت على صيغتها الأولى وهى صيغة لغـــة تـكونت على الوحدة ، بينما إذا درسنا اللغه الفرنسيه لاحظنا أنها قد تطورت عبر العصور بحيث نجد لها أطواراً فإذا ما قارنا حالة اللغه الفرنسيه فى العصور الوسطى نجد أنها مغايرة كل المغايرة للغة المستعملة فى القرن السابع عشر وهى مختلفه أيضاً عن اللغة المستعملة اليوم ، أما وحدة اللغه العربية فهى تتضح للقارىء ولو كان أجنبياً لأول وهله ، أما وحدة اللسان الفرنسى فلا تتضح إلا بالبحث ، لغة القرآن لا تزال هى لغة اليوم وهذا ما تتميز به العربيه عن اللغات الأخرى(١) .

١٢ — أن أهمية اللغه أنهـا الوجه الآخر للفـكر ، ومن هنا أهميتها فى الثقافه ، فالفـكر واللغه شىء واحد كما يقول (ماكس مولار) وهو يشبههما بقطعة النقد ويقول أن ما نسميه بالفكر ليس إلا وجها من وجهى النقد والآخر هو الصوت المسموع .

١٣ — تنحصر خاصية اللغه العربيه فى (١) إظهار الأفـكار بطريقة موجزة دون استدراج السامع إليها (٢) فى الاستناد إلى المقابله لتوضيح الغرض المقصود كاستعمال الاستثناء أو التعارض الجدلى (٣) فى إضافة الحوادث إلى الفعل أكثر من إسنادها إلى الفاعل بخلاف اللغات الأوربيه (٤) فى أن الألفاظ العربيه تعود غالبا إلى أصل ثلاثى (لويس ماسينون) .

وتتميز اللغة العربية بوفرة المفردات وبالفرق الدقيق فى المعنى بين كلمه وكلمه ، وإلى غناها بالمفردات فهى غنيـــه أيضاً بالصيغ النحويه . وتهتم العربيه بربط الجمل بعضها ببعض وهى تمتاز فضلا عن ثلاثيه الحروف الصوتيه بكثرة الحروف الساكنه وأصالة الحروف المتحركة ولها خاصيتها العجيبه فى تعريب الـكلمات الأجنبيه .

١٤ — بقيت اللغه العربيه لغه عقيدة ولغة ثقافه ولغة خطاب بين المتعلمين من أبنائها . ولم تترك لغـــه من اللغات الأوربيه إلا ولها فيها أثر ، وهى قد

---

(١) ريجسير بلاشير .

امتدت فى رقعة من ملتقى ثلاث قارات ، أصهرت إلى لغات آسيا وأفريقيا فأنشأت بذلك أسرةمن أسر اول اللغات، تلك أسرة اللغات الاسلاميه، ولذلك فهى لم تسقط كما سقطت اليونانيه واللاتينيه وأبعدت ،وكان الاسلام سندا هاما أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينه واللهجات المختلفه على نقيض ماحدث اول للغات القديمه المماثله كاللاتينيه حيث انزوت تماما بين جدران المعابد .

(٣)

التاريخ

التاريخ العربى الاسلامى مقوم اساسى من مقومات الثقافة فهو الذى يعطى الرؤيا الواضحة . ويسجل الصفحات الخالدة للامة ونضالها من أجل أداء رسالتها الخالدة وهى إسداء الضياء الاسلامى إلى العالمين .

ومفهوم الثقافة العربية للتاريخ مفهوم إيجابى وبناء ، قوامة الطابع الانسانى الداعى إلى الاخاء بين البشر ، القائم على الايمان والثقة بالله وتقوم روح الثقافة العربية فى فهم التاريخ على أساس وحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها مستمدة ذلك من مفهوم الاسلام الذى « يجمع بين الروح والجسد فى نظام الانسان ، والعبادة والعمل فى نظام الحياة . والدنيا والآخره فى نظام الدين ، والسماء والأرض فى نظام الكون (١)

والثقافة العربية فى هذا تختلف فى مفاهيمها عن الثقافات الغربيه التى تقوم على تجزئة الكون والطبيعه والفصل بين العلم والدين .

وهناك خلاف آخر : بين الثقافة العربية والثقافات الغربية : هو إيمان الثقافة العربية بوجود عناصر التطور ، كل فى مجالها من الفكر والحياة ، بينما تقوم الثقافات الغربية على الإيمان بالتطور إيماناً مطلقا ونفى فكرة الثبات على الاطلاق ، وهنا يقع خلاف بعيد المدى بين الثقافتين ، فالثقافة العربية استمداداً من الفكر الاسلامى لا تقر فكرة التطور المطلق لكل الاوضاع ولكل القيم وترى أن هناك قيما أساسية ثابتة وأن هناك فروعا متطورة أو متغيرة حسبما تجرى حركة الزمن أو اختلاف البيئات .

---

(١) عن بحث لاحمد نصيف الجنابى .

وفى الثقافة العربية ضابط من فكرة ثابت وعقيدة أساسية يفسر التاريخ على أساسها وهو فى نظرها أمر ضرورى لضبط الحركة البشرية ووجود مقوم للفكر الانسانى .

وفى مجال التاريخ من المستحيل إمكان دراسة المجتمع العربى دون ربطه بالعقيدة الاسلامية إيمانا بان التاريخ العربى الاسلامى قد انبعث من هذه العقيدة.

هذا فضلا عن أن العرب قد ارتبط تاريخهم بالاسلام ارتباطا عضويا وأن صفحات تاريخهم مندمجة فى الاسلام إندماجاً كاملا بحيث يصبح من العسير الفصل بينهما .

ومن هنا فان التاريخ لا يمكن تفسيره فى الثقافة العربيه إلا على أساس النظرة الاسلامية للحضاره الانسانية ، وكذلك فإن كل محاولة لتفسير التاريخ وفق منهج غربى وافد، إنما يوقع الباحث فى أخطاء اصيلة ناتجة عن التباين العميق بين مناهج البحث بين الثقافة العربيه والثقافات الغربية .

١ — كان المؤرخون والباحثون الذين الفوا فى الملل والنحل من اصدق الناس واشدهم انصافا فى دراسة عقائد الامم والشعوب ، كانوا — على صديقين مسترجب — ولسعى الصدر تجاه العقائد الاخرى ، فقد حاولو أن يفهمو هاوية حضوها بالحجه والبرهان ،

٢ — يمثل «التاريخ» فى الثقافة العربيه عنصراً هاماً من عناصر القوة والبناء فقد حفل التاريخ العربى الاسلامى بصفحات مشرقة ومواقف خالدة فى مجالات متعددة أهمها :

(١) نشر كلمة الله واذاعتها فى الآفاق .

(٢) نشر رواق العدل والكرامة والنصفة .

(٣) إتخاذ اسلوب كريم فى معاملة الحرب وفى مجاورة السلام .

(٤) المقاومة والدفاع والاستشهاد فى سبيل حماية الزمار والعقيدة .

(٥) لا يحارب المسلمون والعرب الا اضطراراً للدفاع أو فى سبيل فتح الطريق أمام رسالتهم إلى الآفاق .

٣ — إن الثقافة العربية تجد فى معرفة الماضى وتقضى حوادثه ضوءاً كاشفا يهدى فى الحاضر والمستقبل ، باعتبار أن حياتنا العقلية إمتداد لذلك الماضى ، والتاريخ يعلمنا أن نستخلص المميزات الخاصة التى تشكل منها كل أمة ثقافتها .

وعلينا أن نحلـــل تاريخنا وفق أهدافنا ومثلنا العليا ، فى أصالة وذاتية واضحتين ، دون أن نعتمد على تفسير دخيل أو غريب وأن يكون لتاريخنا المكان الأول من ثقافتنا لا أن يكون تاريـــخ الامم ذات النفوذ الاستعمارى مفروضا علينا مؤثرا فى طبيعة فكرنا .

٤ — إن تاريخنا — كتاريخ كل الأمم — بعيد الأثر فى ثقافتنا ومجتمعنا الذى يربط بين الجانبين الروحى والمادى فى توافق وتكامل ، باعتبارهما يؤلفان وحدة الحياة الانسانية ، وإيماننا بأن الامجاد والأعمال الخالدة والصفحات الباهرة للأمم فى تاريخنا قادرة على أن تمنحها أعظم القوى الدافعة ، والحوافز القادرة على إعطاء خطط التقدم أنبل المثل وأشرف الغايات .

٥ — لم يكن التاريخ فى مفهوم الثقافة العربية هو تاريخ الملوك والأمراء ولكنه كان تاريخ المجتمع كله بمختلف عناصره وقواه ، وأبطاله وعناصره ، (طبقات الأطباء ، وأخبار الحكماء ، والنحاة والأدباء ، ورجال المذاهب وأعيان كل عصر ، وطبقات الشافعية والحنابلة والمالكية والحنفية . فالتاريخ بصفة عامة هو تاريخ العقول والأفكار ، وجماع السياسة والدين والاقتصاد وحصيلة الحركة العقليه والأدبيه ، والمعنى الوطنى فيه مترابط بالمعنى القومى وكلاهما مرتبط بالدائرة الفكريه الأوسع المستمدة من الاسلام والقرآن .

٥ — نظرة الثقافه العربيه إلى التاريخ أنه قوة دافعه بل هو نقطه بدأ فى الاتجاه إلى الأمام ومن هنا يستطيع التاريخ أن يعطى الثقافه العربيه الايمان بحيويه هذه الأمه وبحصولها على مجد جديد لتلعب دورها الحيوى فى العالم البشرى .

٦ — ليس تاريخنا دوائر منفصلة ولا حلقات مستقلة ولكنه نسيج كامل ، والثقافة العربية تنكر قصور النظرة والزاوية الواحدة ، المحدودة ، إيماناً منها الحصول باستحالة فهم أى حدث إلا بإدراك تفاعله مع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية،فالخيوط كلها لابد أن تتجمع لتمثل وحدة كاملة .

٧ — لاسبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الاسلام منذ فجر الاسلام وإلى اليوم فمنذ بزغ الاسلام فقد ارتبط بتاريخ العرب أوثق رباط ،لقد ظهر فى الأمة العربية أولا فى حياة الرسول نفسه دانت الجزيرة به ، ومنها امتدت روافده وفروعه ، كما انبعثت منها الموجات المتوالية المختلفة التى تحركت شرقا وغربا وشمالا ، والأمة العربية هى التى حملته إلى العالم أجمع ، وكانت اللغـــة العربية أداة فكرة وثقافته وحضارته ، فالفكر الذى كونته الأمه العربية من خلال جوهر الاسلام، كان حصيلة مشتركة المسلمين والعرب جميعا بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربى خالص أو فكر إسلامى، وكذلك الحضارة ،فهو فكر عربى إسلامى وحضارة عربية إسلاميه شارك فيها الجميع وانصهرت فيها مختلف الثقافات الانسانيه:فارسيه ومصريه ويونانيه ورومانيه وهنديه وتبلورت فى (إطار الاسلام) ، فى مفهومه ومضمونه ، وقد شارك فى هذا التشكيل الأساسى : العرب وغير العرب ، شاركوا فى الحضارة والفكر وبناء الثقافة والمجتمع جميعا ، وقد رسم الاسلام مفهوم الوحدة بين معتنقيه والمرتبطين به على أساس الفكر لا على أساس العرق ، ووسع دائرة الاخاء الإنسانى وأسقط العصبية والتفرقة العنصرية ، وجعل أساس التبرير والتفوق والتفاضل قائما ومستمداً من العمل لا من اللون ، ومن الشخصية لا من الوراثة .

٨ — إن فلسفة التاريخ فى مفهوم الثقافة العربية ،لا ترضى مذهبا من مذاهب

التفسير التاريخي منفصلا سواء، التفسير المادي او التفسير الروحي او التفسير الجغرافي، او التفسير المناخي ، فكل هذه النظرات مستقلة لا تستطيع أن تعطي تفسير صحيحا للتاريخ ، فقد قام التاريخ في الثقافة العربية على أساس التكامل والترابط والشمول، وحدة واحدة بين المادة والروح ، والماضي والحاضر ، والدنيا والآخرة ، على قاعدة التوحيد والإيمان بالإنسان سيدا للكون تحت حكم الله ، وهي تحذر أيضا من النظر إلى علة واحدة دون العلل الأخرى .

[illegible]

إلى الثقافة العربية نتيجة إستلاء تراث اليونان وفلسفة الهنود ووثنيات الفرس القديمة .

٣ — لقد تأكد الارتباط بين الماضى والحاضر على نحو لا سبيل إلى التشكيك فيه ، وقد أشار المستشرق (هاملتون جب) إلى هذا المعنى حين قال :

« ليس فى وسع العرب أن يتجردوا من ماضيهم الحافل كما تجرد الأتراك وسيظل الاسلام أهم صفحة فى هذا السجل الماضى إلى درجة لا يمكن أن يغفل عنها الساعون إلى إنشاء مثل عليا ، وقال كامفماير : « لن ينفصل العرب عن الماضى المجيد فى التاريخ الاسلامى ، وأن استعارة هذا الماضى وتجدد الحديث عنه هو أحد العوامل القوية فى حركة البعث الوطنى والدينى ، وإن حركة بعث الاسلام لا يمكن أن تنقطع أو تتوقف لأن الناس فى حاجة إليها فهى إحدى مقومات نهضتهم الوطنية ، ولنا عبرة فيما يقرره أهل الثقافات المختلفة لتراثهم ، وامامى نص لنهرو يقول فيه « إن علينا أن نتطلع إلى المستقبل وأن نعمل له جاهدين عن قصد ، يحدونا الايمان القوى ، وأن يحتفظ فى الوقت عينه بتراثنا الماضى أمامنا لكى نستمد منه القوة والعزيمة ، أن التغيير أمر لابد منه ولكن إستمرار الحياة من غير اضطراب أو تقطع أمر لا يقل عن ذلك أهمية ، وخير مستقبل هو ماكان قائما على الحاضر والماضى على السواء ، أما أن نتنكر للماضى وننزع أنفسنا منه فمعناه إقتلاع أنفسنا من تربتنا ، فيخرج منا وقد يبس عودنا وجف ما فيه من عصارة الحياة الحقة .

ويقول سيمون وايل فى كتابه الحاجة إلى الجذور (The sead for Roots) إن تراث الماضى فى عنق الحاضر مسئولية قدسية فإذا إنهدم الماضى فإن عودته ضرب من المحال ، وأن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ما ورثوه عن أسلافهم من تراث ، فما علينا إلا أن نجعل هذا الأكبر الاحتفاظ بما تبقى لنا من تراث الماضى .

إن الدور المهم الذى يمارسه التراث الروحى (وهو الجزء الأهم من تراث الماضى) فى سلوك الناس ومبلغ الايحاء والقوة الدافعة التى توفرها الذخيرة الروحية للذين يتسلحون بفنون العلم .

ويقول باسكال : كل نسل لابد أن يستعين أولا من الكنز الذى تركه من سبقوه ، ثم يزيده إن كان عنده استعداد لذلك ».

٤ — يقول قسطنطين زريق : لا يعرف أحد منكم ما يردده البعض من أن الثقافة العربية قد ماتت واندثرت وانه لا سبيل إلى احيائها ، فالثقافة العربية التى سادت على العالم عصوراً طويـــلة ، التى لم تمحها أجيال من الارهاق والاضطهاد لها من القوة والحيوية ما يضمن لها البقاء ولن يضيرهـــا أن تتصل بالثقافة العربية وتأخذ عنها ، والغريب أن هؤلاء الداعين إلى نبذ التراث العربى أو اهماله إنما يرددن ذلك فى عصر نرى الامم النازعة إلى حياة جديدة تعمد إلى ثقافتها القديمة فتحييها وتجعلها عنوان مجدها وقبلة أمالها ، فى الوقت الذى تسعى كل امة نشيطه من امم الشرق والغرب إلى تقديـــس تقاليدها وتمجيد حضارتها ، لا يسع الامة العربية الا أن تعمل على بعث تراثها القديم وروحها التى ولدت تمدنها التالد ، فكل من لا ماضى له لا حاضر له ولا مستقبل ، والامة التى لا تعنى بروحها لا يمكنها أن تؤدى رسالتها إلى التمدن البشرى — ».

٥ — يقوم مفهوم الثقافة العربية للتراث على أن المـاضى هو المبدأ والقاعدة والارضية — والماضى يعين على فهم الحاضر وتهيئة المستقبل ، وليس معنى هذا هو اعادة المـاضى أو تقليده ، وليست صورة المـاضى هى صورتنا الان ، فان المثل الأعلى يتطور ، ولكن على قاعدة من القيم الاساسية الثابتة .

إن فى المـاضى بطولات ومواقف وقيم حاضرة للابداع والتماس العبرة ، وعلينا أن نؤمن بأنفسنا وتراثنا ، حتى لانحس بالقصور أمام الخصوم والغزاة ونحن نستفيد من التراث ما يزيدنا قوة ، وما يدفع عنا أخطاء السابقين ، وذلك حين نعيد النظر فيه ونفسره تفسيراً جديداً .

وفى هذا يقول عمر فروخ. إن حياة الأمة رهينة بحياة تراثها ، فإن الامة التى لاتراث لهالاتاريخ لها، وان الامة التى لاتاريخ لها ليست إلا كتلا بشرية لا وزن لها فى ميزان الامم , ولم نعلم فى تاريخ الانسانية أن ثقافة ماهوجمت بمثل العنف الذى هوجمت به الثقافة العربية .

٦ — قلما تجد أمة من الامم لهـا ما للامة العربية من تراث خالد ، فقد خلفت اثاراً بعيدة فى ميادين العلم المتعددة ، ولولا نتاج القرائح العربية لتأخر سير المدنية عـــدة قرون فقد اقاموا وجه نظر للكون والحياة تختلف عن وجهات نظر الثقافات الاخرى قوامها : التوحيد هادفه إلى الوحدة الانسانية والعدل والاخاء .

٧ — إن الثقافة العربية تؤمن بأن أى شجرة ضخمة لا يمكن أن تقوم بغير جذور ، وأنه لابناء ضخم يقوم دون أساس راسخ ذاهب فى أعماق الأرض مدعم بالصلب والاسمنت على قدر ما يحتاج له من الارتفاع فى الســماء ، كذلك ثقافتنا العريقة ذات الاصالة التى عاشت العصور لم تكن فى مقدرتها هذا البقاء الطويل وهذا التأثير البعيد فى الثقافات المختلفة دون تلك الجذور .

وفى هذا يقول علال الفاسى: إن الذى ينظر فى تاريخ الحركات العامة فى الدينا كلها يجد أنه لم تعم ثوره معينة فى بلد ما إلا وسبقتها دعوة للرجـــوع للماضى البعيد ، ذلك أن هذا الرجوع الذى يظهر فى شكل تقهقر إلى الوراء هو نفسه تحرر كبير من اشياء كثيرة وضعتها الاجيـــال العديدة والعصور المختلفة، والتحرر منها هو تخفف يسهل السير إلى الأمام بخطى واسعة وازالتها من الطريق يفتتح أفقاً عاليا يهدى السائرين للغاية الصحيحة التى يجب أن يوجهوا أنفسهم إليها .

« الأمــــة »

من أهم مقومات الثقافة العربية أنها « ثقافة أمة » :

أمة لها خصائص ومميزات أصيلة واضحة المعالم ، وهى أمة عريقة بعيدة الجذور في التاريخ ، كانت قبل الاسلام موجودة وقائمة على نحو من الانحاء ، تجمعها اللغة العربية ذات الجذور العميقة ، ثم كان الاسلام عامل وحدتها وتجمعها ، وهى أمة صانعة للتاريخ ، مؤثرة فيه ، أتاح لها الاسلام أن تنطلق إلى أوسع مدى فى العالم القديم من حدود الصين إلى حدود فرنسا ، وهى أمة موجودة اليوم كما كانت قبلا بفعل الإرث الطبيعى والاجتماعى ، وإذا كان الاسلام قد وحدها فإنه قد دعم كيانها وحفظ ماهيتها وأبقى على وجودها .

وهى أمة لها استعداد فطرى للتمسك بالعقيدة والدين والروحية ، ولها إيمان بالمثل العليا الجامعة التى كانت موجودة فيها ، ثم جاء الاسلام فصقلها ونماها ووجهها وجهة خالصة لله ورفعها من الأهداف القريبة إلى الأهداف البعيدة ودفعها من الاغراض الذاتية إلى الأغراض الإنسانية .

فقد عرفت العرب الصبر والجرأة والعزم والقوة والحمية والمروءة ، وكانت مثلا عليه قبل الاسلام ، فلما جاء الاسلام ربط بين قيم العقائد والشرائع والأخلاق وبين هذه المظاهر فامتزجت به ونماها ودعمها وحول أهدافها إلى الخير والحق ، ورفعها من الأغراض والأهواء إلى الإنسانية والعدل الاجتماعى .

والأمة العربية خصائص أساسية أهلتها لتلقى رسالة الاسلام التى كانت مصدر قوتها ونموها ، ومن هنا تكونت لها ثقافة ذات طابع واضح عميق مميز تختلف به عن الثقافات الشرقية والغربية ، وتلتقى به مع الثقافات ذات المصدر الاسلامى فى جوانب كثيرة ، بحسبان أن الاسلام هو العنصر الأقوى لها وهو العامل المؤثر والجامع بينها جميعا .

٢ — والامة العربية « تعلم أن لاحياة لها إلا بالاسلام الذى بوأها مكانتها فى التاريخ ، وهو الذى أعاد إلى بلاد العرب وحدتها القومية واللغوية ، فكان منها هذا الوطن العربى الممتد من البحر الهندى جنوبا إلى جبال الكرد فى الشمال ومن فارس شرقا إلى بحر الظلمات فى أقصى الغرب ـ وبالاسلام أوجد العرب أعظم نهضة وأرحم إدارة واعدل تشريع ، وبالاسلام صد العرب طغيان الصليبية وردوها فالامة العربية : امة ذات شخصية تاريخية مستقلة ، ولون واضح ، ومزاج خاص ، وروح متميز ، لاحياة لها الا به ، وقد واجه هذا التشكل تحديات خطيرة وازمات متعددة ، وغزو متعدد المراحل ، من قوى مختلفة كالتتار والصليبيين والفرنجة فى بغداد ودمشق وفلسطين وشواطى مصر والمغرب جميعا ، ولكن هذه القوة الذاتية القائمة وراء شخصية هذه الامة كانت قادرة على دحر الغزو وتأكيد الكيان والحفاظ عليه دون أن يدمر أو يماع أو تحتويه القوى الاخرى .

ولا تزال هذه هى معركة الأمة العربية .

٣ — وفى العصر الحديث وفى مواجه الغزو العربى الاستعمارى فقد تشكلت حركات المقاومه على مستويات متعددة :

اسلامية خالصة ، وطنية خالصة ، وقومية خالصة .

ولكنها جميعا كانت تستمد من المصدر الاول : « شخصية الامة » الجامعة بين المروءة العربية والتوحيد الاسلامى ، ولم تكن الحركات الوطنية أو القومية بجافية لهذا المعنى ، بل كانت مطابقة له ، على حد تصوير كثير من المنصفين لها يقول :

كانتول سميث :

« هذه الحركات القوميه تهدف إلى التخلص من النفوذ الأجنبى ، ولم تكن هذه الحركات مطابقة للاسلام فحسب ، بل هى جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الاسلام ، فنضال الاندونسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين ، وكفاح السوريين ومسلمى المغرب للتخلص من الفرنسيين ونضال مسلمى الهند ضد البريطانيين كل ذلك كان جزأ من حركة المسلمين لبناء مجتمع اسلامى فى العصر الحاضر ، من

هذا القبيل قيام الأتراك بطرد اليونانيين عام ١٩٢٢ والإيرانيين للقضاء على منطقة النفوذ الروسيه الانجليزيه ، فكانت جميعها خطوات نحو إحياء الاسلام فكل المسلمين مسلمون اجتماعيا وسياسيا ، وإن كان ثمة اختلاف بين الزعماء الوطنيين والزعماء الدينيين فهو خلاف لم يتخذ مظهر النضال والكفاح ، .

٤ — وإذا كانت الأمه العربية قد قاومت على كل المستويات فإن النفوذ لأجنبي كان يواجه جميع هذه المستويات ، يقول محمد على الغتيت :
إن أهداف الغرب التى عمل من أجلها منذ الحروب الصليبيه هو القضاء على البعث عربى والحيلولة دون بعث القوميه العربية على أية صورة من صورها ، باعتبار أن ذلك رأى الغرب بالاضافه إلى أنه يشكل خطراً جسيما على سياسته ، فإنه متى تحقق كان المقدمة التى تجر وراءها حتما وتلقائيا البعث الاسلامى، فإن بعث القوميه العربية فى نظر ساسة الغرب هى الطاقة القوية التى متى انبعثت كان من المحتم أن تدفع المسلمين أمامها إلى التجمع من جديد على الصورة القومية التى لا يمكن أن تتحقق فى ظل القوميه العربية دون سواها من مختلف الحركات الاسلامية ، ولم يحد الغرب عن هذه العقيدة منذ الحروب الصليبية إلى الآن ، بل أنه لم يجد فارقا بين القوميه العربية وبين التجمع الاسلامى أو بين العروبه والاسلام ، والغرب دائما يتهيب خط التجمع الاسلامى وراءه كامنا فى العروبه حيث كانت لافى الاسلام حيث كان ، فقوة القومية فى البلاد الاسلاميه غير العربية لا يرى فيها الغرب إلا مجرد حركة قوميه فحسب ، لا تتصل إطلاقا بالتجمع الاسلامى الذى يخيفه ، والحركات التى يقوم بها المسلمون غير العرب لا تعدو أن تكون فى نظر الغرب حركات سياسية فى حين أن مثل هذه الحركات فى البلاد العربية حينما كانت حركات منطويه على البعث القومى والدينى الذى عرفه الغرب بالتعصب ، وحرصوا على تزويد هذا التفكير كلما واجه الغرب هذه الحركات فى الشرق العربى » .

٥ — الوحدة العربية تمثـــل عودة إلى واقع ، وهى على فطرتها الأصيلة وقبل تعقيدات أصحاب المذاهب الفلسفية والنظريات المستوردة ، كانت مفتوحه على الاسلام فكرا وأساساً وعلى العالم الاسلامى شعوبا وأمما ، انفتاح النواة

أو البؤرة والقلب الذى كان واسطة العقد للعالم الاسلامى كله منذ بزوغ فجر الاسلام إلى اليوم . ولم يكن هدف تجمع الأجزاء العربية فى وحدة عربيه يعنى أى مفهوم من مفاهيم التعصب الجنسى أو التفرقه العنصريه أو الاستعلاء بالدم أو العرق (الرس)على الأجناس المختلفة ، ولم تكن وحدةمغلقة مخاصمة أو معارضة على نحو ما عرفنا فى الوحدات الأوربية ، بل كانت الأمه العربيه وحدة « أمه » تسعى إلى التجمع ليكون منطلقا إلى وحدة فكر » .

وأن الاسلام وإن كان عربى اللغة فهو داعية تفاهم ومساواة بين الداخلين فيه عربا وعجما ، ولقد كان العرب يذكرون عروبتهم ، ولكنهم لم يكونوا يستعلون بها على الأجناس ، بل كانوا يعلون من شأن الاخوه التى تجمعها وحدة الفكر .

ولقد كانت وحدة الفكر التى أقامها الاسلام وبناها القرآن مصدر الالتقاء والتجمع والتكامل ، دون أن تفقد الأمم عناصر حيويتها كأمم ، وقد اختلط تاريخ العرب بتاريخ الاسلام والمسلمين ، وامتزجت ثقافتهم بالثقافات الاسلامية المختلفه ، وارتبطت اللغة العربية باللغات الاسلامية وكانت حروفها عاملا مشتركا بين الكثير منها .

وبذلك كانت « وحدة الفكر » أعظم قوة من عصبية العرق وقوته .

٦ — مفهوم « العروبة » فى الثقافة العربية مفهوم سمح كريم : عبر عنه عمر ابن الخطاب حين قال « إنما العربية اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى » ومن هذا المنطق يمضى الامام ابن تيمية فيقول :

« إذا تقرر بأن من تكلم بالعربية فهو عربى وبأن من دان بالاسلام فهو عربى وبأن من تحلى بأخلاق العرب الذين خوطبوا : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » كان عربيا ، ويقول : اجتمع للعرب الكمال بالقوة المخلوقة منهم والكمال الذى أنزل الله إليهم ، وأن فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص ، وليس

سبب فضل العرب عند ابن تيميه لما ورد فيهم من نصوص فى القرآن والحديث فقط ، أو خصوا به من أحكام فى الفقه ، بل هم أفضل من ذلك لما اختصوا به من فطرة ومعدنا فى عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم(١) وابن تيميه يجعل معرفة الإسلام متوقفة على معرفة لسان العرب فلا سبيل إلى ضبط الاسلام إلا بضبط العربية . فاللسان شعار الاسلام وأهله ، يقول « وأعلم أن اعتياد اللغة يؤثر فى العقل والخلق والدين تأثيراً قوياً بينا ، والقرآن لا يجوز عنده أن يقرأه أحد بغير العربية ، فالعروبة عنـــد إبن تيميه تثبت باللغة وبالنسب وبالوطن ، فمن تكلم بالعربية فهو عربى ، والفقه العربى لا يتعلم إلا بلسان العرب، والتعايش مع العرب والتخلق بأخلاقهم ، وعنده أن اللغات أعظم شعائر الأمم ، واللغة العربية للاسلام ليست لغة فحسب ، ولكنها عقل وخلق ودين — واعتياد لغة ما ، يؤثر فى عقل المتحدث بها وفى خلقه ودينه ، وكل لغة لا تنقل إلى عارفها ألفاظها ، وصيغ الكلام بها ، ولكنها تنقل إليه عادات أهلها وأخلاقهم وعقليتهم وطرائق تفكيرهم ودينهم مع كل ذلك » .

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك مفهوم الامام الشافعى الذى خلص من بيان أن القرآن عربى إلى حكم فقهى ، هو فرض تعلم اللغه العربية وجوبا على كل مسلم ليشهد الشهادتين ويتلو الكتاب العزيز وينطق بالذكر ، وقال « إنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ماتعرف من معانيها » ورتب على ذلك مايربط الشريعة الاسلامية كلها باللغة العربية . وقد وجهه الادراك العميق لاسرار اللغة والفقه الشامل إلى أن ينظر النظرة الاصلية ، فيرفع معرفة اللغة إلى مستوى الدين ويصيرها واجبا على المسلمين ، وتلك يده على اللغة وعلى العرب وعند المسلمين : إن جعل الاسلام عربى اللسان مهما تعددت اجناس المسلمين ، يقول « وأولى الناس بالفضل من اللسان ، من لسانه لسان النبى ، ولا يجوز — والله اعلم — أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسان غير لسانه فى حرف واحد ، بل كل لسان يتبع لسانه ، وكل أهل دين قبله ، فعليهم اتباع دينه ، وكان مما عرف الله نبيه من إنعامه أن قال « وأنه لذكر لك ولقومك » فخص قومه بالذكر معه فى كتابه وقال « لتنذر أم القرى ومن حولها » وأم القرى مكة ، وهى بلده وبلد قومه ، فجعلهم فى كتابه خاصه ، وأدخلهم مع

---

(١) من بحث عن ابن تيمية بقلم محمد المنتصر الكتانى — حضارة الاسلام حزيران ١٩٦١

المنذرين عامة، وقضى أن ينذر بلسانهم العربى ، لسان قومه منهم خاصة ، فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب مابلغه جهده حتى يشهد به ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ، ويتلو كتاب الله وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك ، (١) وهكذا نرى ان « الامه » فى الثقافة العربيه . والامه العربيه بالذات تحمل معنى مختلفا عن مفاهيم « الامه » فى الثقافات الاخرى .

٧ — يرى الباحثون أن يقظة العالم الاسلامى تبدأ من نقطه يقظة الامة العربية وإن وحدة العرب انما هى مقدمة لعملين: أحدهما : وحدة الفكر الاسلامى والثانى وحدة العالم الاسلامى ؛ وهذا خلاف جذرى فى تكوين القومية العربيه والقوميات الاوربية ، هذه القوميات التى تشكلت من أجل القضاء على سلطان الوحدة البابوية .

٨ — تبين أن الامم والشعوب بعد مرحلة الغزو الاستعمارى تمر فى مراحل ثلاث : الوحدة الوطنية وهى (وحدة الارض) والوحدة القومية وهى (وحدة الامة) ثم الوحدة الفكرية وهى (وحدة الجماعة) التى تربطها قيم أساسية انسانية تعلو على الجنس والعنصر . ولقد كان المسلمين يشكلون وحدة فكر أنسانية غير أن هذه الوحدة لم تقض على وجود الامم والشعوب ، وإنما كانت هذه الامم والشعوب تتعامل على أساس اللقاء والاخاء والتكامل والتضامن النفسى والاجتماعى والسياسى ، فكانت محاولة النفوذ الاستعمارى ، هى القضاء على هذه الوحدة كمقدمة لتعميق مفاهيم الاقلية والدعوات الجنسية والعنصرية حتى تتضارب الامم والشعوب وتتصارع ، غير أن وحدة الجذور الفكرية والروحية والاجتماعية بين الشعوب الاسلامية ، قد حالت إلى حد كبير دون قيام قوميات عنصرية تقف موقف العدوان مع العناصر والأجناس الأخرى ، وكان مفهوم العرب للوحدة هو مفهوم استئناف قيام يقظة اسلامية عن طريق يقظة العرب ، وكان مفهوم المسلمين فى كل مكان أن وحدة العرب ، ويقظتهم ، هى ضرورة ومقدمة لكل يقظة شامله ، وقد

---

(١) من بحث الاستاذ عبد الحليم الجندى عن « الإمام الشافعى ناصر السنة وواضع الاصول »

رفض المفكرون العرب والمسلمون : الشبهة التي تقول بأن الاسلام عقيدة لاتساعد على نمو القومية والحقيقة أن الاسلام عقيدة لاتساعد على نمو العصبية الجنسية أو الاقليمية الضيقة العدوانية .

٩ — لم تكن فكرة العروبه واضحة طوال التاريخ المشترك (الاسلامى العربي)في المراحل الماضيه ، على النحو التي ظهر به في التاريخ الحديث،وذلك يرجع إلى أن التحدى الاستعمارى الزاحف قد استطاع أن يزيل أكبر وحدة تجمع حولها العرب وغيرهم لمواجهة خطر الغزو الخارجي وهي (الخلافة العثمانية) ، ومن هنا فقد ظهرت (الوحدة العربيه) بهذه الصورة كبديل في محاولة لتجميع قوة أعمق ترابطا واقل اتساعا لنفس الهدف وهو المواجهة للاستعمار والمقاومة للنفوذ الاجنبى ، ومن هنا نرى أن دعوة الوحدة لم تكن صدى لحركات قومية أخرى ، بل أنها تعبير عن حاجة أساسية وتحدى خارجي واضح .

١٠ — كل محاولة لتصور وحدة الامة العربية على أنها وحدة عنصرية مستقبلة مناهضة للشعوب التي تجمعها معها وحدة الفكر ، هي محاولة مغلوطة ، وكذلك كل محاولة لتطور الحضارة العربية الاسلاميه على أنها حضارة دينية أو تطور الثقافة العربية على أنها ثقافة دينية أو النظر الى الفكر العربي الاسلامى على انه فكر دينى أو الى لغة العرب على انها لغة دينية ، كل هذه التصورات مغلوطة وخاطئة ، ومصدرها قصور في فهم مضمون الفكر الاسلامى ومقوماته الانسانية التي هي أصل اصيل للثقافة العربية ذلك فان هذا الفكر يقوم على نظرة متكاملة شاملة : قوامها الدين واللغة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة في وحدة واحدة ولا سبيل إلى تطور حضارة أو ثقافة أو فكر عربي منفصل عن الاسلام ، فالإسلام هو الذى حقق وحدة العرب ، والقرآن هو الذى حقق وحدة اللغة ، وثبت هذا الاساس الجذرى لتكوين الامة (١) (إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون — وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه — لو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته — ولقد تعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذين يلحدون إليه اعجمى وهذا لسان

---

(١) عبد العزيز الدورى : الجذور التاريخية للقومية العربية

عربي مبين . الفـــرق بين الأمة العربية والأمة الاســـلامية ، يختلف من حيث أساس الوحدة ، فوحدة الأمة العربية وحدة جنس وعرق ووحدة الأمة الاسلامية هي وحدة فكر وقيم ، ولقد انطلق الاسلام فوسع دائرته بينما توقفت اللغة .

ولم تمكن الشعوب تميز في البدء بين العروبة والاســـلام ، بل بقي المفهومان مترادفين حتى أن الداخلين في الاسلام من الشعوب الأخرى اعتبروا عربا .

١١ — ما تزال فكرة القومية العربية على النحو الذي عرف في مؤلفات الباحثين المتأخرين : فكرة اكاديمية جامدة أخذناها من الغرب ، حاول اصحابها املاءها بمفاهيم وقوالب فكرية ، وجاءوا بهذ المفاهيم الغربية فاقحموها اقحاما على الواقع العربي لتطبيقها ، وكان ذلك خطوة في طريق طويل منذ الاحتلال الأجنبي ، أخذت فيه البلاد العربية النظم السياسية الأوروبية تقليداً أو إملاء دون البحث عن تناسبها او نفعها ، وقد اثبتت هذه الأنظمه فعلا فشلها في التطبيق على الأمة العربيه .

١٢ — تردد كثيراً القول بأن الرابطة الدينية ، وحدها لا تكفي لتكوين القومية وهذا حق إلى حدما ، ولكن هل الاسلام دين . ينطبق عليه هذا القول ، كما هو بالنسبة للاديان الأخرى . من الحق أن الاسلام نظام إجتماعي كامل وأنه مصدر من مصادر الوحدة والالتقاء والتقارب والتجمع وأنه حين يعترف بالاجناس والشعوب (يا أيها الناس أن جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، أن إكرمكم عند الله أتقاكم) يجعل هذا اللون من القومية مفتوحاً ، مرناً ، لا يعرف التعصب الجنسي أو التفرقة العنصرية ، بل يجعل للأساس الأكبر الأعمق وهو الوحدة الفكرية أكبر عوامل وجوده ، فان الوحدة في مفهوم الثقافة العربية هي مفهوم التماثل النفسي والعقلي الذي يتجلى في وحدة الثقافة .

١٣ — أصدر الفقهاء للعروبة شروط تفضيل : قوامها منزلة القيادة والامامة يعطيها المسلم غير العربي لأخيه المسلم العربي عن طيب نفس ، فالعربي في نظر أخوانه المسلمين غير العرب أقوى وأعمق وأقدر ، وذلك أيماناً بقول عمر « إذا ذل العرب ذل الاسلام »

١٤ — يقول شبنجلر : إن فكرة الامة عند العرب تقوم على أساس من الروابط الروحية المجردة ولذلك فالشعوب العربية فى وحدتها تريد من زعيمها أن يتمتع بصفات النبى ومؤهلاته ، لان الامة العربية ذات وجود روحى يكاد يكون مطلقاً ، فاذا أردت أن تستثير العربى فعليك أن تتوجه إلى وجدانه لا إلى معدته ، ولذا تلعب النخوة والمروءة والبطولة أدواراً هامة فى السلوك الاخلاقى للفرد العربى كما أن للإيمان لا للعقل : المركز الأول والممتاز لديهم .

١٥ — لا تقر الثقافة العربية هذا اللون من المبالغة الضبابية المحملة بالظلال والاضواء ، عن مفهوم الامة العربية ، كأن يقال : أن الامة تجربة روحانية أو أن الامة عقيدة ، أو محاولة إعطاء المعنى القومى طابعا فلسفيا لاهوتيا صوفيا على نحو روحانى ومثالى أو من نحو قول القائلين « ظهور الامة على مسرح التاريخ كظهور الالهام فى مسرح الوجدان » .

ذلك أن الثقافة العربية فى جوهرها : عقلانية وجدانيه معا ، فهى واضحة الرؤية لكل المفاهيم ، وإيمانها بوجود الامة هو فى مفهومه داخل إطار الفكر الاسلامى أقوى وجودا وأعمق أثرا من هذا التصور المهوم الخيالى الذى يحاول أن يضفى على القوميه قداسة الدين ، فى محاولة لاحلالها محله أو فى سبيل اتخاذ من هذا التصور الفلسفى عقيدة كبديل لعقائد الامة العربية ذات الجذور العميقة فى وجدانه وروحه ومزاجه . وقد تبين أن القائمين بهذه الدعوة إنما يحاولون عزل الامة العربية عن مضامين قيمها الانسانية ، وخلق مضامين جديدة بدا أنها مرفوضه أصلا ، ومن عجب أن الذين حملوا لواء الدعوات العازلة لمفهوم القومية العربية عن الاسلام أو محاولة إتخاذ القومية بديلا عن لاسلام (هؤلاء) أما ليسوا على عقيدة غالبية هذه الامة أو من الفرق الإسلامية ذات المفاهيم المنحرفة ، أو من توابع المذاهب السياسية التى نمت فى أواخر أيام الامبراطورية العثمانية وكان لها دورها فى القضاء على الوحدة العربية التركية ، أو تأريث الخلاف بين العرب والترك كالاتحاديين مثلا .

ومفهوم الثقافة العربية الأصيل لايقبل قول بعضهم إن نهضة العرب لاتتم إلا إذا أصبحت العروبه ديانة لهم يتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس

الناسك(١)ذلك أن للعرب ديانةاعمق وهى لا ترفض الوجود القومى والاتحاد إلا إذا تجاوز مفهومه فى الانفتاح على الأمم والشعوب والثقافات والا اذا حمل لواءالتعصب والاستعلاء .

١٦ — وتحاول بعض هذه الدعوات أن ترسم للامة العربية صورة ماض قبل الاسلام له طابع من القداسة ، ونحن نعترف بأن للعرب ماض قبل الاسلام ولهم قيم وشمائل ، ولكن صورة امامة العربية ذات القوة الذاتية الموحدة لم تقم ولم تتشكل إلا بالاسلام نفسه ولم تكتمل فى صورتها العلمية إلا بعد الإسلام ومن خلال تاريخ الاسلام حيث اللغة هى لغة القرآن والعرب هم القوة التى تحمل اللواء ، وحيث خضعت شمائل العرب وقيمهم الى هدف ، وتحررت من الوثنية والجاهلية . وانطبعت بطابع الانسانية والايثار واخلاص العمل له، وبالجملة فان (التوحيد) هو عقدة الوحـــدة العربية الأولى ولا يزال عقدتها ، فالتوحيد والوحدة هما شقى ثمرة واحدة .

١٧ — ومن هنافإن أسس الاساس فى تكوين وبناء القومية العربية ليس وحدة اللغة والتاريخ ولكنها ، وحـــدة الثقافة ، التى هى أساس لوحدات اللغة والتاريخ والمشاعر والمزاج العقلى والنفسى ولقد كانت وحدة الفكر هى أساس المجتمع الاســـلامى ، ولم تكن الأجناس (الرسوس) ، لقد بقيت الشعوب والأجناس ولكنها لم تكن ذات طابع يحمل الاستعلاء أو العدوان للاجناس والشعوب الأخرى ، بل كانت الوحدات القومية انما تمثل طبقة ومرحلة مهيئة الى التقاء أكثر عمقا وأوسع مجالا ، أما فى الغرب فان فكرة القوميةقد ارتبطت بالعنصرية وتغليب الجنس .

ففى ايطاليا مثلا حين ظهرت الدعوة الى الفاشية أو النازية فى ألمانيا اعتمدت أساسا على العنصرية وتغليب الآرية وعبادة الفرد مع تمـــكين فكرة السيادة والتوسع الإستعمارى .

١٨ — وكذلك يخطىء الذين يتصورون ان أثر الإسلام فى الأمه العربية

---

(١) عمر الفاخورى كيف ينهض العرب

إنما يمثل مرحلة تاريخية انطوت ، فان الإسلام بالنسبة للأمـــة العربية عامل جذري عضوى لاينفك عن الأمة العربية ولاتنفك عنه عصرا بعد عصر وجيلا بعد جيل .

وليس صحيحاً ما يحاول تصوره دعاة الغالية عن أثر العروبة فى الإسـلام أو اثر الأسلام فى العروبة ، كل منفصل عن الآخر ، فالأسلام منهج فـكر ومجتمع وليس دينالاهوتيا فقط . ومن هنـا فلا تنطبق عليـه مطلقا النظريات العربيـة التى ترى تعارضا بين الدين والقومية ، وهوالىذاك الأرضية الفـكرية والأطـار العقلى والروحى للأمةالعربية صاغ لها وجودها وكيانها ووحدتها منذ اربعة عشر قرنا فهى لاتنفك عنه ولا ينفك عنها .

ومن هنا فان علاقة الأصل بالفرع هنا واضحة ، الإسلام فـكر ، والعروبة امة ، ولـكل امة مقومات فـكر تستمدها من العناصر المختلفة :

منها اللغة والدين والتاريخ والتراث ، فاذا ذهبنا ننظر فى اللغـة او الدين او التاريخ أو التراث جميعا لرأينا كلمة واحدة جامعة تربط هذه العناصر : هى الاسلام بطابعه وأثره فى اللغه والتاريخ والتراث .

١٩ — يختلف مفهوم « الأمة » فى الثقافة العربية عن مفهومه فى الثقافات الغربية وغيرها بظاهرة الارتباط بالتراث والدين والتاريخ دون أن ينفصـــل عنها — ويعبر عن هذا (زيفلين وسيلوفكس) فى كتابهما « الشرق الأوسط المعاصر » فيقولان :

إن أول ركائز الاجتماع والثقافة فى الشرق الأوسط هو « الدين » الذى يحدد العلاقات بين أفراد المجتمع . ففى مجتمعـات الشرق الأوسـط خـلافا للمعهود فى المجتمعات العربية وحدة وثيقة بين الدين والمجتمع ولا انفصـال بين ماهو دنيوى وما هو أخروى ، والروح الدينية منبثة فى جوانب الحياة كلـا وفى مواصفاتها ولغاتها ولهجاتها .

٢٠ — ليس هناك تعارض بين الوحدة العربية او العروبة ، أو بين الدعوة

الاسلامية ، فتكتل العرب هو أمر طبيعى لهم كأمة ، بشرط ألا يفقـد مقوماته فى الاتصال الجـذرى والعضوى بالفكر الإسـلامى ، ودون أن ينزع منها قيم الثقافة العربية الأصيلة ، تحت ضغط النفوذ الأجنبى وعوامـل الغـزو الثقافى التى تريد أن تجعل مفهوم القومية غربياً مستورداً علمانيا منفصلا عن الاسلام .

وتكتل العرب أيضاً هو غاية من غايات الدعوة الاسلامية ، وقد نوه القرآن بشأن العرب ومكانتهم فى نهوض المسلمين ، وتـكريم اللغـة العربية بنزول القرآن بها ، فالاسلام هو الباعث الرئيسى إلى توحيد العرب وانسياحهم فى الأرض . ولم يعد لفظ العرب يطلق على الجنس ، وانما يطلق على الجماعة التى وحدتها الثقافة العربية وأركان العروبة فى رأى الدكتور اسحق الحسينى هى عروبة اللسـان وعروبة العقل وعروبة القلوب . وإن اسقاط ركن من هذه الأركان يخل بالعروبة ويفسدها وعنده أن عروبة اللغة مصدرها اللغة التى كانت فى أول نشـأتها وسيلة التفاهم لقضاء الحاجات ، ثم أصبحت وسيلة للتعبير عن النتاج العقلى والروحى والادبى والحضارات ، فهى اليـوم جماع الادب والعلوم والنظر الفلسـفى والروحى إلى الكائنات والتقاليد والعادات والأخلاق المنبثقة من أعماق الأمة والتاريخ واللغـة إلى ذلك صورة مرئية لتاريخ حافل بالأحداث .

وفى مجال القول بأن العروبة هى عروبة اللسان والعقل والقلب : يقف على قمتها مثل شوقى الكردى الأصل المصرى الجنسية ، كما يقف فى التاريخ القديم كثيرون .

الغزالى ، وابن سينا ، الفارابى ، ويطابق هذا المنطق عبارة الرسول :

« إنما العربية اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى » .

لقد جمعت الثقافة العربية (اللسان — التاريخ — الدين — التراث) بين جماعة أكبر من العرب بمفهوم العرق وحده ، وبجماعة أكبر من المسلمين بمفهوم الدين .

وحدة العقلية والمزاج النفسى

إن الأمة العربية بتكوينها الجامع بين الوجود العربى والعقل الاسلامى قد صنعت بناءاً ضخما لاسبيل إلى إنتفاضة يمكن أن يطلق عليه :

« وحدة العقلية والمزاج النفسى »

فالعرب مسلمون ومسيحيون ، وعديد من العناصر التى تتكلم العربية وتعيش داخل الأمة العربية ، إنما تلتقى فى وحدة عقلية ووحدة نفسية تتمثل فى تشابه العرب فى النظرة إلى مختلف أمور الحياة وفى الاستجابة للمؤثرات الخارجية . .وهم مسلمون وغير مسلمين متشابهون فى نظرتهم إلى قيمته الشخصية الانسانية وإلى العمل الانسانى وإلى الوقت وإلى المرأة والى مفاهيم للشرف والشهامة وقضية العرض والوفاء والكرم والضيافة وحماية الجار وما إلى ذلك من القيم والعادات » .

وكذلك النفسية العربية لها طابع واحد ، وإن كانت تتكيف وتتشكل بأشكال مختلفة وتكتسب صفات إضافية تحت الظروف المختلفة .

وترجع هذه الوحدة العقلية والنفسية إلى تشابه مصدر الثقافة العربية وترابط شمائل الأمة العربية واقترابها بمفهوم « القيم الاسلامية » كما رسمها القرآن (عقليا ونفسياً ،ماديا وروحياً ، دنيويا وأخروياً) ويرجع هذا إلى أن الأرض العربية كانت مصدراً للديانات السماوية الكبرى الثلاث .

يضاف إلى هذا عمل اللغة العربية بآثارها من شعر وقصص وأمثال وحكم وبأساليبها فى التعبير . وأثرها فى تكوين التقارب الفكرى للعرب ، وتوجيه اذواقهم والأدب العربى ثمرة اللغة العربية مشبع بالروح الاسلامى .

---

(١) راجعنا فى هذه الدراسة بحثنا للاستاذ نبيه أمين فارس تحت عنوان (هذا العالم العربى

ولا شك أن تشابه نفسية العرب تجعلهم متشابهين فى خصائصهم الأصلية والانسان دائما يعيش فى لغة وتاريخ أمته .

ولاشك أن ترابط الأفراد فى عقلية واحدة تسود أفراده ، هو أرق أنواع الوحدة وأعمقها وأبعدها أثراً ، ولما كانت الأمة العربية قد إشتقت قيمها العقلية والروحية من العقيدة الاسلامية ، فان الوحدة العربية إذا جاءت منفصلة عن التجربة الاسلامية فى الحكم وأسلوب العيش والقيم الأخلاقية وعن التاريخ الاسلامى العربى إنما تمثل مفهوماً مبتوراً ، فثورة الاسلام على الأصنام باسم التوحيد هو تجسيد لادارة الله فى تحرير النفس البشرية من الأوهام والعبودية ، والأصنام فى مفهوم الاسلام هى التماثيل التى تعبد ، والطبقة الغنية التى تستعبد الانسان ، وقد قاوم الاسلام البداوة وحارب الرذيلة والظلم الاجتماعى والتفرقة ، فكان بذلك ثورة تقدمية ضد كل رجعية تريد أفساد المجتمع أو الرجوع به إلى أخلاق البداوة وسلوكها فى العيش ، هذا مع الدعوة إلى العدل وحث الافراد على طلب العلم وفتح الأبواب للابداع ، ولا يمكن التحدث عن العربى إلا ويذكر معه تراثه وثقافة وحضارته .

ومن هنا فان وحدة العقلية والمزاج النفسى للامة العربية هو أكبر مظهر من مظاهر شخصيتها وذاتها المتميزة عن غيرها ، ومن حق هذه الامة أن تذود عن طمس معالمها وعن محاولة تمييع مقوماتها أو تذويب ذاتها فى أتون العالمية والأممية ولا شك أن رأس مال العروبة الفكرى هو الاسلام وتعاليمه إلى تدعو إلى التحرر من التعصب والتبعيه والتقليد ، والتى تسطيع أن تواجه موجات الالحاد والاباحة والتفسخ الخلق والمفاخرة بالرذيلة(١).

ومن هذه العوامل يتكشف الفارق الواضح بين العقلية العربية والعقلية العربية وهى التى تحاول اليوم السيطرة بالغزو والتغريب للقضاء على مقومات والذات العربية (عقلا ونفسا) .

فالعقلية العربية واضحة فى تشكلها الاسلامى الجامع بين المادة والروح والدين والدنيا والعقل والقلب ، وهو تشكل متكامل ملتزم ، عميق الجذور ، مخالف كل

---

(١) الدكتور يس خليل (الايدلوجيه العربية).

المخالفة للطابع الذى تتسم به العقلية الغربية الذى تقوم على إعلاء مفاهيم المادة والعلم والتكنولوجيا ، إعلاءاً مباشراً تفسر به مختلف ظواهر الحياة والكون ، وتقف به عند حدود معينة لا تتعداها حين تنكر الغيبيات وتتجافى عن طوابع الروح والايمان وكل ماليس حسيا ملموسا .

والثقافة الغربية بتركيبها الاسلامى الجامع بين الروح والمادة : لاترى فى منجزات التكنولوجيا العلمية مانعاً من الترابط بين حقائق العلم وحقائق الروح ولا تغالى فى الانحياز إلى الروحيات وحدها أو الماديات مما يخلق ذاك التمزق الواضح فى الحضارة الغربية والثقافات الغربية ، وما أوجد ما أطلقوا عليه أزمـــة الانسان المعاصر ، فالثقافة العربية لاتسجل تناقضا بين الايمان والعلم ولا بين العقل والقلب ، بل تمزج بينهما فى توازن وتكامل ، ولاترى فى ذاك إزدواجية أو تعارضا ، وهى فى نفس الوقت تطبع هذه النظرة الجامعة بالطابع الأخلاقى الذى ينتظم كل جوانب الفكر والثقافة : إجتماعية وسياسية ودينية وعلمية وإقتصادية حيث يقدم قانون أخلاق ثابت يحكم كل هذه الجوانب ، يميز بين الحق والباطل والحلال والحرام والخير والشر ، ويرفع من شأن العقل الانسانى إلى مكان الكرامة ويعلى من شأن النفس الانسانيه إلى مجال الثقة بالله .

الفصل الثالث

معالم الثقافة العربية وخصائصها

من حيث أن الثقافة العربية ثقافة متميزة ، تختلف عن ثقافات الغرب والشرق وتتسم باتصالها بالفكر الاسلامى والقرآن ، وتقوم على أساس «اللغة العربية الفصحى» وميراثها وتستمد من التاريخ العربى الاسلامى ، فان معالمها وخصائصها مما لا يقع تحت حصر ، ويمكن أن نستوعب أبرز خطوطها فى نقاط رئيسية :

(١) التوحيد	(٢) التكامل
(٣) الأخلاقية	(٤) استقلال الطابع
(٥) التوازن بين الروحى والمادى	
(٦) الترابط بين الماضى والحاضر .	
(٧) النظرة العقلية المؤمنة	(٨) الجمع بين الدنيا والآخرة
(٩) الحرية المتضبطة	(١٠) القدرة على التطور
(١١) القدرة على التصحيح	(١٢) الطابع الانسانى
(١٣) مفهوم التقدم	(١٤) الوسطية .

١ – التوحيد :

يعد التوحيد من أبرز العناصر المميزة للثقافة العربية ، ومن أعمق العوامل المخالفة للثقافات الغربية ، ولذلك فهو عامل أساسى فى وجود الفوارق وعوامل التباين فى كثير من وجهات النظر لعديد من القضايا الكبرى .

فالعرب يعتقدون أن الله واحد لا أول لوجوده ولا آخر لأبديته ، ومن هذه النقطة نشأ الايمان بوحدة المعرفه والحقيقة ، ووحدة الدين والفلسفة ، « فالمعرفة والحقيقة متفقتان لأن العقل واحـــد ، والحكمة والشريعه متفقتان لأن الحقيقة واحدة »(١) وقد تختلف صورة الحقيقة من عصر إلى عصر ولكن جوهرها يظل واحداً لا يتغير .

وهم حين نقلوا الفلسفة اليونانية ، حاولوا أن يخضعوها للتوحيد ، واجروها فى اطاره ، وتظهر تلك المحاولات واضحه فى كتابات ابن ســينا والفارابى فقد رفضا منها ما خالف التوحيد وبالاخص رفضوا الثنائية وقدم العالم .

وحاول الفارابى الجمع بين رأى أفلاطون ورأى أرسطو حتى لايناقض التوحيد وقد ظل « التوحيد » هو العامل الجوهرى فى الثقافة العربية ، شأنها فى ذلك شأنه فى الفكر الاسلامى ، إيماناً بوحدة العقل ووحدة النفس ، والثقه بأن الطبيعة الانسانية واحدة فى جميع الناس ، ومن الايمان بالوحدة أنطلق الايمان بالمساواة والحرية والعدل الاجتماعى .

وكان هذا مصدر انفساح العالم الاسلامى أمام العناصر المختلفة ، وطنا واحدا ، أمام القادم من المغرب إلى المشرق أو الذاهب من المشرق إلى المغرب .

يقول إرنست رينان : إن الصـفه الأسـاسيه التى تميز العـرب عن غيرهم هو الايمان بالتوحيد .

وكان « التوحيد » منطلقا للثقافة العربيه إلى « الوحدة » : وحدة اللغة ، وحدة المنازع ، وحدة المشاعر ، وحدة التاريخ ، وحدة المثل العليا .

---

(١) انتفعنا فى هذا الفصل ببحث للدكتور جميل صليبا (منازع الفكر العربى)

ولقد كان مفهوم الوحدة العربية منبعثا من الثقافة العربية ، كمصدر من مصادر القوة والمقاومة فى مراحل الغزو الاستعمارى ، وكان مفهوم الوحدة العربية بعيدا عن التعصب والتميز العنصرى ، وكان دوما مفتوحا مع العالم الاسلامى إنفتاح الثقافة العربية على الفكر الاسلامى أصلا واستمداداً منه ، وقد عجزت محاولات الاستعمار المختلفة عن فصل وحدات الأمة العربية عن إيمانها بوحدتها .

ولقد كانت الثقافة العربية قادرة دوما على أن تعطى الأمة العربية القدرة والعمق والوضوح فى مجالات المقاومة باللغة والشعر والفن على نحو جعلها قادرة على التغلب على أشد النكبات .

وما تزال عامل وحدة الثقافة مصدراً لوحدة الأمة وسيظل .

٢ ـ التكامل :

أبرز ما يميز الثقافة العربية هو « التكامل » : الذى يجمع بين الروح والمادة والقلب والعقل والدنيا والآخرة ، بينما تتسم الثقافات الغربية بالتقسيم والتوزيع ولا تستطيع أن تقتنع بهذا المزيج فى سهولة .

وعندنا أن مميزات (الثقافة العربية) وأبرز الفوارق بينها وبين العلاقات المختلفة هى الوحدة والتكامل .

ولقد نرى بعض الباحثين الغربيين حين يعرض لهذه الميزة لا يستطيع أن يهضمها هضما كاملا ، فيقول (جوته) إن العقل العربى يحب الجمع بين الأضداد والاشباه فيضعها بعضها إلى جانب بعض فى نظام بسيط ، وينتقل فجأة من ضد إلى آخر » .

ومن الحق أن يقال عن الثقافة العربية أن هذا التكامل ليس من قبيل تقريب الأضداد ولكنه إيمان بأن الشخصية الانسانيه لا تتكامل إلا بالجمع بين جوانبها المختلفة الدينية والعلمية والعقلية والروحية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فمادام الإنسان نفسه (مادة وروح) فكذلك ثقافته لاتفرق بين العقلى والوجدانى وإنما تجمع بينهما .

والتكامل طابع من التوحيد ينسحب على مجالات كثيرة ، فوحدة الثقافة العربية من شأنها أن توحد الأمة ، والمجتمع . ويقيم بين المواطنين أخوة عميقة ومن صور التكامل ذلك الانسجام بين المسجد والقصر والسد على حد تعبير بعض الكتاب .

وقد أعطى هذا الايمان بالكامل طابعا خاصا للعلماء العرب والمسلمين هو تبريزهم فى مختلف العلوم ، فلسفية واجتماعية وقانونيه وطبيعية فكان منهم من جمع بين الفلسفة والعلم والرياضيات والكيمياء والأدب والفن ، بينما لم يعرف ذلك فى تاريخ الرومانيين أو الغربيين المحدثين .

ولم يكن ذلك موضع الغرابة فى الثقافة العربية بينما هو موضع الغرابة فى الثقافة العربية فكان أحدهم كالجاحظ عالماً وأديباً .

وكانت ظاهـــرة التوفيق بين الفلسفة والدين أو بين الحكمة والشريعة من أبرز ظواهر التكامل فى سبيل تحقيق الانسجام بين معطيات العقل ومعطيات العقيـدة .

٣ ـ الأخلاقية .

طبعت الثقافة العربية سمة أخلاقية عميقة، إنتظمت مختلف فروعها وخصائصها ، ولم تنفك عنها ، وكانت فى الحق عاملا جذريا ، وطابعا عضويا ، قوامها إلتماس أساليب الصدق والرحمة والحب والوفاء وإنكار أساليب الغدر والكذب .

فإذا كان التعامل فى المجال السياسى كان تعاملا شريفا كريما ، واضح المعالم ، قوامه مفهوم الاسلام « وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » .

وفى المجال الاجتماعى تبدو علامات التجمل والحياء والبعـــد عن الجهر والكشف ، مع ضبط الرغبات الحسية فالشاعر إذا عبر كوامن حبه لم يذكر إسم محبوبته جهراً ، مفرقا بين الجوارى والحرائر .

وتفرض الثقافة العربية على أهلها قدراً من السلامة فى السلوك والعاطفة والتحرك داخل الضوابط التى ما تزال قائمة تكريما وحماية للشخصية الإنسانية وبعيدا بها عن الحيوانية والإنهيار والتحلل والرخاوة .

« وسيظل العنصر الأخلاقى ثابت باق لا يأتيه التحول ويعتريه التطور » .

وستظل الشهامة والنجدة ، والمروءة أصولا ثابتة وقيما باقيـــة مهما تغيرت

مظاهرها ، فهى طوابع عربية أمــدها الاسلام بالأصالة فعمق معانيها وحرر اتجاهاتها لجعلها خالصة لله بعد أن كانت فى سبيل الفخر والمباهاة .

ولقد كانت السمة البارزة للثقافة العربية فى هذا المجال ، والمخالفة للثقافات العربية هى : « أولية الخلق على الجمال » فالأخلاق عامل جامع وقاسم مشترك أعظم على مختلف القيم ، والأخلاقية فيه مقدمة على الجمالية ، وحيث جعل الإغريق الجماليات مقدمة ، أولى العرب بالاسلام الأخلاق أولية مطلقة . ولقد سارت الثقافات الغربية وراء مفاهيم الإغريق فى تقديم الجماليات على الأخلاقيات ، فأطلقوا الجسم الإنسانى للعرى وعبدوا الجمال على حساب الخير .

ومن هنا يجىء الخلاف فى كثير من المواقف بين الثقافة العربية والثقافات الغربية ، فالثقافة العربية تجعل السيادة الكاملة لقيم الأخلاق والخير وتجعل لها الانتصار النهائى فى كل صراع .

٤ — إستقلالية الطابع :

إتسمت الثقافة العربية باستقلالها وتميزها وبروز ذاتيتها الخاصة ، ويظهر هذا المعنى فى أوضح منهج ، فى حركة الترجمة التى عرفها الفكر الاسلامى والثقافة العربية حين نقلت آثار اليونان وفلسفات الرومان والفرس والهنود .

وقد استطاعت الاحتفاظ بذاتيتها ، ووقفت وقفة صارمة أمام ما يخالف عقائدها وقيمها ، فقد أغضت الثقافة العربية عما صدر عن اليونان من شعر غنائى مسرحى وملحمى قوامه معتقدات دينية وثنية ، وخرافات ميثولوجية .

وفى نفس الوقت الذى صدت فيه عن ما يخالف عقيدة التوحيد ، سمحت للفلسفات والعلوم ، وإن وقفت من بعض مفاهيم الفلسفة موقف النقــد وعارضت ما خالف قيمها .

وفى مجال العلم لم تقبل كل ما ترجم ولم تجعله أساساً تبنى عليه ولكنها راجعته ونقدته وكشفت عن زيف الزائف منه ، وقبلت العناصر الصالحة منه ، ليس على علاتها ، بل أعادت صياغتها من جديد وفق منهج الفكر الاسلامى المنطلق أساساً من مفهوم القرآن .

فاستطاعت بذلك أن تحرر العلوم من شبهات كثيرة وأخطاء كثيرة وقع فيها اليونان واستطاعت أن تقيم أساس المنهج العلمى التجريبى الذى صدرت عنه النهضة العلمية الحديثة .

٥ — التوازن بين الروحى والمادى :

تجمع الثقافة العربية بين (الروحى والمادى) كما يجمع بينهما الانسان نفسه ، فهما متلاقيان ممتزجان . فليست الثقافة العربية روحانية خالصة تغرق فى الغيبيات والتهاويم اللامحدودة ، ذات الغيبيات والظلال ولا هى مادية خالصة تؤمن بكثافة المادة وجفاف المحسوس . وإنما هى جماع الروحى والمادى فى توازن ومواءمة واتساق « أبداً ما حجب ما وراء الوجود عنا الوجود ، ولامحا عالم الغيب عالم الشهادة ،وما منعتنا جنات عدن تصيد نعيم من مثلها على الأرض ، فنحن روحيون روحية إيجابية ، وماديون ما كانت المادة إنسانية خلاقة »(١).

٦ — الترابط بين الحاضر والماضى :

وميزة أخرى فى مجال « التكامل » هو جمع الثقافة العربية بين الماضى والحاضر وليس فى ذلك تعارضا أوجمعا للاضداد ،ذلك أن الحاضر إنما هوحلقة تالية الماضى ووليد طبيعى له ، وليس فى الاستطاعة فصل الحاضر عن الماضى، وليس فى الامكان أن تخطو الأمم خطواتها إلى الأمام من فراغ منفصلة عن المراحل السابقة لها ، خاصة إذا كانت من مثل الأمه العربيه ذات الماضى العريق والتاريخ الحافل .

« إننا لاننظر فى الماضى إلا لننشد منه دعائم قويه تصلح لبناء مجتمعنا الجديد ، ولا نعتز بأمجادنا القديمه إلا فى سبيل إصلاح حاضرنا وبناء مستقبلنا » .

والتراث فى الثقافه العربيه تراث حى والارتباط بالماضى إنما هو إمتداد زمنى ، وليس إتصال تكرار وتشابه ، والمستقبل ليس ثمرة الحاضر ولكنه تتمة له ،والتتمة

---

(١) حق بحث للدكتور شاكر مصطفى .

لاتنفصل عن ما قبلها ولا تنقطع عما بعدها ، بمعنى أن هناك تلازما بين الماضى والحاضر والمستقبل ، تلتقى فيه طرفى الزمن الماضى والمستقبل فى بؤرة الحاضر والواقع .

٧ — النظرة العقلية المؤمنة :

تتسم الثقافة العربية بظاهرة واضحة هى : الايمان بقدرة الانسان فى الكشف عن الحقيقة عن طريق العقل المؤيد بالايمان .

فقد دعا الاسلام العقل البشرى إلى النظر والتأمل فيما حواه الكون من موجودات واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح وإثارة السحاب لانزال المياه وإحياء الأرض وإنبات النبات ، والوصول من هذه النظرات إلى الايمان بأن للكون صانعاً عالماً حكيما قادراً ، ولقد قدم القرآن آيات بينات تحث على التفكير وتدعو إلى إستعمال العقل وإقامة هذه النظرة العقلية المؤمنه ، واعتبروا ياأولى الأبصار ، وتقدم الشريعة الاسلامية على إعتبار أن العقل للدين أصلا وللدنيا عماداً ، فعلقت الدين الصحيح على كمال العقل ، وجعلت الدنيا مدبرة باحكامه وألفت به بين خلقه مع تباين أغراضهم ومقاصدهم . وفى أحاديث الرسول أمثلة كثيرة لهذا المعنى فى مقدمتها قوله : «لا دين لمن لاعقل له» ، وتقديم الرسول لفضل العلم على فضل العبادة وتضم آثار المفكرين المسلمين أقوالا كثيرة تدل على شرف العقل وعلو منزلته .

« كل عز لا يوطده علم مذله ، وكل علم لايؤيده عقل مضله »

ومن خلال النظرة العقلية نشأ المنهج العلمى التجريبى ، وجاء دعاة كالمعتزلة ذهبوا إلى القول بأن للعقل نور فى القلب يعرف الحق من الباطل ، والخير من الشر والحسن من القبيح ، وجاء الفلاسفة الذين قالوا : إن سعادة الدنيا والآخرة لاتنال إلا بالعقل ، وعندما ذهب العقليون فى الإسراف بالعقل وحدة جاء من صحيح هذه النظرة كالحسن الأشعرى الذى وضع العقل فى رابطة واحدة مع الإيمان ووضع ابن حزم مفهوم المعرفة فى الثقافة العربية جامعا بين العقل والقلب .

وكان مفهوم الثقافة العربية دوماً قائماً على التجربة والمشاهدة والبرهان لم يجنح إلى الغيبيات أو يتوقف عند الأوهام . وفى مجال العلوم نقلتهم النظرة العقلية المؤمنة

إلى الحس والتجريب فاتسعت آفاته وقامت أبحاث الطبيعة والكيمياء والطب والفلك على الملاحظة والتجربة ، وقام الأطباء بالتجارب عن طريق العمليات الجراحية وعلماء الطبيعة والكيمياء قاموا بالتجارب وعلماء الفلك صنعوا الزيجات وقاسوا ابعاد الكواكب ، فى المراصد ، وقام علماء الجغرفيا بالرحلات والأسفار .

كما عرفت لهم آثار واضحة فى مجال الأغذية والأدويه والتوليد والعدوى ودورة الدم وأمراض العين . وأضاف الرازى وابن سينا وابن النفيس إضافات جادة فى هذه المجالات على أساس الملاحظة والتجريب ووصل (البتانى) إلى معرفة الكشوف وحدد طول السنة ، كما حدد (البيرونى) خطوط الطول والعرض وبحث فى دوران الأرض حول محورها .

وأوصلتهم هذه النظرة إلى نتائج إيجابية فى مجال الفكر أيضاً ، فاعتمد الجاحظ وابن خلدون على الملاحظة والاستقراء ، فنشأ النظر العقلى والدليل البرهانى فى تمحيص الأخبار . وكان علماء الفقة قد مهدوا السبيل فى هذا المجال بتعليل الأحكام الشرعية ووضع علماء الحديث قواعد التعديل والتخريج . وكانت النظرة العقلية المؤمنة فى مجال العلم وفى مجال الفكر مقدمة للنتائج التى حققت قيام المنهج العلمى التجريبى والتى ورثتها أوربا واتخذت منها قاعدة بناء الحضارة . وستظل الثقافة العربية مؤمنة بفضل العلم على العبادة ، والعلم على إطلاقه ،

٨ — الجمع بين الدنيا والآخرة :

والثقافة العربية ترى ترابطا عضوياً بين الحاضر والمستقبل ، وترى الدنيا طريقاً إلى الآخرة ، وتؤمن بأن تعمل للدنيا كأنك تعيش أبداً وتعمل للآخرة كأنك تموت غداً ، فلا يصرفها الاقبال عن الدنيا عن حق الآخرة ولا تنصرف إلى الآخرة إنصرافا يمنعها من أداء حق الدنيا بل يجمع بينهما فى موازنة واتساق

(ليس خيركم من ترك الدنيا الآخرة ، ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه) .

وقد أباح الإسلام زينة الحياة الدنيا ومتعها فى نظام دقيق ، ووفق تحوطات تحمى من الانهيار والاسراف ، وأقامها على الاعتدال والاقتصاد والتوسط ، وبذلك ربط الفكر الاسلامى بين الروحى المثالى والحيوى الدنيوى ، وكان طلب العلم فى نظر الفكر الاسلامى والثقافة العربية بمفهوم العلم الدنيوى والأخروى معا ، وليس الأخروى وحده ،وذلك فى اتساق واضح قوامه : علم وذوق ،وعقل وقلب وفكر ووجدان .

٩ — الحرية المنضبطة :

أعتبرت الثقافة العربية (الحرية) أساساً من أسسها وقاعدة من قواعدها ، وجعلت طابع الحرية مشوبا بالتسامح ، كما أفسح الاسلام للناس فرصة الدفاع عن عقائدهم ، وأباح لهم حرية الاعتقاد والفكر إيمانا بسلامة قيمه وأسسه وقدرتها على مواجهة المساجلة والنقد والمناظرة ، وكان اعلامهم يناظرون المسلمين واليهود والمجوس على السواء .

والحرية فى الثقافة العربية لها ضوابط تمنعها من الاعتداء على حقوق الغير ، أو التماس ماليس بالحق . وستظل الثقافة العربية متحررة من استعباد العقل والجسم والروح ، ومن عبودية المال والآلة ، وعبودية الفرد للفرد ومن العبودية لغير الله وهى فى نفس الوقت تحرير للانسان من الخوف والقلق والجوع والعوز . وفى الثقافة العربية لاتقتضى حرية الفكر أن يكون الانسان غير متدين ، اذ أن الاسلام بمعنى الدين لايقف حائلا أمام الحركة والفهم والبحث والابتكار .

ولاشك أن أكبر تحرير للفكر هو تحرره من قيود المادة وتجريده من قيود الوثنية وعبادة غير الله . ولقد شهد بهذا المعنى كثير من المنصفين حين قال أحدهم :

« العرب أول من علم العــالم كيف تتفق حريه الفـكر على استقامه الدين » والعقيدة الاسلاميه أساس الثقافه العربية ومصدرها لا تقف عقبة فى سبيل حريه الفكر بل هى عون لها وسند الـكبير .

١٠ — القدرة على التطور :

تؤمن الثقافة العربية بضرورة التطور وتتمثل هذه القاعدة دوما ، فهى متفتحة أبداً على الثقافات المختلفة تأخذ منها وتترك ، وتتدرج إلى الرقى والعمق وتسمو دوما نحو تحقيق الكمال وتمضى فى طريقها الصاعد ، مؤمنة بالتقدم والنمو . وتعميق حركتها فى أصالة وحيوية .

فهى لا تعيش فى عصر بمزاج عصر سابق ، ولا تتقبل مزاجا أجنبيا تنصهر فيه ولـكنها تجعل من جذورها مرآة لاندفاعها نحو الـكمال ونحو الأمام .

وتؤمن الثقافه العربية بناموس التطور وأن التوقف والتجمد ضـــد طبيعة الحياة وتملك الثقافه العربيه القدرة على التطور دون أن تفقد عامل الوحدة والارتباط بالماضى . وستظل الثقافه العربيه قادرة على تشكيل نفسها حسب حاجات العصر ، واختلاف البيئات دون أن تتخلى عن قيمها ومقوماتها الأساسية .

وسوف تصل الثقافة العربية إلى غاية الغايات فى مجال العلم والتـكنولوجيا ويظل مجرى العقل العربى مع ذلك كله قائم على أساس الترابط بين العــلم والروح والمادة .

١١ — القدرة على التصحيح :

وتؤمن الثقافة العربيه بقانون التصحيح إلى جانب قانون التطور فهى حيث تنفتح على الثقافات المختلفة تأخذ منها مايزيدها قوة وترفض مايتناقض مع روحها وذاتها ومزاجها وهى تؤمن باصولها الأصيلة وتحرص على ألا تنصهر فى الثقافات الأخرى .

وهى حين تؤمن بقانون التطور تؤمن بأن كل مسار هو إلى أفق جديد وذلك أمر طبيعى لابد أن تصحبه ضوابط تحول بينه وبين الانحراف ، فالتحرر من الانحراف، والحاجة إلى تعديل المسار حتى لايخرج عن القيم والهدف إنما هو قانون مواز تماما لقانون التطور ، ذلك هو قانون تصحيح المفاهيم . ولقد كان الفكر الاسلامى والثقافة العربية قادرين دائما على التحرر من الانحراف بعد الكشف عنه والعودة إلى إلتماس المفاهيم الأساسية والقيم الأصيلة .

١٢ — الطابع الإنسانى .

يتمثل فى الثقافة العربية : «الطابع الإنسانى» الأصيل ومن حيث أن الثقافة العربية تستمد من الفكر الاسلامى ، فإن الاسلام يبنى العدالة الاجتماعية على ثلاث أسس :

١ — الحرية الكاملة فى العبادة . ٢ — المساواة التامة بين جميع الناس .
٣ — المسئولية الدائمة والمتبادلة المجتمع .

والاسلام يؤكد أهمية الانسان وقيمة الانسان بصرف النظر عن لونه وعنصره ودياناته ، وقد طبق الاسلام هذا المعنى بأن أتاح الملونين ورجال الطبقات المختلفة والأديان مختلفة أن يصلوا إلى المراكز العليا والخطيرة فى مجالات السياسة والعلم والثقافة .

ومن هنا بدا فى وضوح ، مفهوم الاســلام فى تأكيد كرامة الانسان فالانسان فى الثقافة العربية ليس حيوانا ولا هو سيد فوق الكون كله ، ولكنه سيد تحت حكم الله .

وإنسانية الثقافة العربية يعنى أنها تتسم بالكرامة والرحمة والاخاء .

والثقافة العربية فى هذا المعنى تختلف إختلافاً عميقاً عن الثقافات الغربية ، هذه الثقافات التى تطبق على الانسانية مفاهيم الحيوان والحشرات ، أما نحن فالانسان «ما هو بحيوان فى ثقافتنا» .

ويتمثل الطابع الانسانى فى الثقافة العربية إيمانا بكرامة الانسان وحريته ومقاومة الاسترقاق والعنصرية وإنكار استبعاد الجسم أو الفكر أو الروح .

١٣ — مفهوم التقدم :

تتمثل الثقافة العربية فى أعماقها مفهوم التقدم ، على أنه تقدم مادى ومعنوى معا فى وقت ما لا ينفصل فيه التقدم المادى عن التقدم المعنوى .

وهى فى هذا تختلف فى النظرة إلى مفهوم التقدم عن الثقافات الغربية التى يقوم على أساس النظرة المادية وحدها ، وترى الثقافة العربية أن التقدم المادى وحدة تقدم قاصر وأن حتمية نجاح التقدم هو أن يرتبط بالضمير الأخلاقى ، فالتقدم المادى لا ينفصل عن التقدم الروحى ، وبدونه لا يصل إلى الكمال .

و « النظرة المادية » إلى التقدم قد فشلت لأن فيها إفتيئات على الحق ويقوم مفهوم التقدم فى الثقافة العربية على أنه كل ما يوصل إلى الحق والعدل وليس ما يرضى الغايات الفردية لبعض النفوس .

وتقاس فكرة التقدم فى الثقافة العربية بمقاييس إنسانية أساساً ، فالتقدم إرتقاء نحو الكمال واقتراب من الحرية دون أن ينفصل عن الأخلاقية(١).

ومفهوم الثقافة العربية دوما فيه تطلع إلى مستقبل أكثر حيوية وقوة .

١٤ — الوسطية :

تتمثل الوسطية فى الثقافة العربية من حيث يبدو منطلق النظرة أى أن تكون بعيدة عن التطرف ناحية الجمود أو الانطلاق غير المنظم .

فالثقافة العربية تؤمن بالحركة وتؤمن فى الوقت نفسه بالقواعد الثابته والقيم المستقرة التى تتحرك فى داخلها .

فهى تطور وثبات فى نفس الوقت ، وهى فى هذا تختلف عن الثقافات الغربية التى تؤمن بالتطور والحركة والتغير إلى غير مدى ، فالتطور بمفهوم الانفصال عن القواعد والأصول الثابتة لا تقره الثقافة العربية التى تتحرك فى نطاق واسع ،

---

(١) بتصرف عن الدكتور عادل العوا .

(٢)

الفصل الرابع

معطيات الثقافة العربية

أن أصدق ما تمثله « الثقافة العربية » أنها كيان مستقل ، وأنها تشكل « أنموذجا » له طابعه ومعالمه ، وأن القيم التى تنطوى عليها تتسم بالوضوح والتكامل والوسطية والقدرة على الحركة والتجاوب مع مختلف البيئات والعصور وأنها لا تتوقف عن العطاء ، ولا تنغلق عن التلقى والاقتباس من مختلف الثقافات والمعارف شرقية وغربية ، قديمة وحديثة ، فهى تنتفع بمختلف المفاهيم الإيجابية البناءة ، وهى تسيغ هذه المفاهيم فى بوتقتها وتبلورها فى كيانها دون أن تتحول معها ، أو تفقد ذاتيتها أو تتحول عن أسسها ومناهجها الثابتة ، فهى ثقافة تؤمن بثبات الإطار وتطور العناصر ، وهى تقدميه فى نظرتها ، مرنة فى حركتها ، متقبلة معطية ، واضحة صريحة ، وهى فى مختلف أدوارها يقظة كل اليقظة ، قادرة على مواجهة الأخطار والغزو وحركات التغريب التى تحاول أن تخرجها عن ذاتيتها ومضامينها وقيمها ، وهى فى كل معركة من هذه المعارك تصل إلى نتيجة أكيدة ، هى أنها تأخذ كل ما يزيدها قوة وترفض ما يحول دون ثباتها وحركتها وما يخرجها عن وسطيتها وتكاملها ،

وفى هذه النماذج السريعة القليلة التى نقدمها عن معطيات الثقافة العربية التى تستمد كيانها أساسا من الاسلام واللغة العربية والقرآن ، نجد ذلك الطابع الواضح الصريح ، المختلف كل الاختلاف عن ثقافات الشرق وثقافات الغرب والذى تتسم بميسم التوحيد وتحرير الإنسان وتكريمه والقائم على المسئولية الفردية والجزاء والبعث ، والذى تنتظمه القيمة الأخلاقية وتحوطه مفاهيم التقوى والعدل والمساواة والإخاء فى مختلف ميادينه السياسية والاجتماعية والقانونية الاقتصادية (١).

---

(١) هناك تفصيلات واسعة لهذه المعطيات : راجع كتابنا القيم الأساسية للفكر الإسلامى .

(١)

فى مجال الاجتماع

تتمثل فى «المجتمع» البوتقة التى ينصهر فيها (الانسان والفكر) وتتشكل الأسرة والجماعة (من القبيلة إلى الأمه) حيث تنصهر فيها كل مقومات الثقافة المختلفة : السياسة والقانون والدين والاقتصاد .

* * *

ثم هى « البيئة » التى تتشكل فيها « الحضارة » منبثقة من الثقافة والعلم معا .

ومن هنا كان « الاجتماع » مقوما من المقومات الهامة فى العلاقة بين الانسان والثقافة من ناحية ، وبين المجتمع والحضارة من ناحية أخرى .

* * *

ومن هنا تبرز أهمية لا حد لها للترابط والتكامل والتوازن القائم بين مقومات الثقافة كلها وفق مفهوم الثقافة العربية المستمد من الفكر الاسلامى ، بحيث لا يمكن الفصل بين وحداتها ، أو الاستقلال بمقوم منها لينمو نمواً خالصا منفصلا عن الثقافة ككل . وبحيث يستحيل عرض قضية من القضايا والفصل فيها من وجهة نظر مقوم من هذه المقومات وحده دون إرتباطه بالمقومات الأخرى ككل . ومن شأن هذا الانحراف أن يفقد كل من المجتمع والانسان والثقافه طابعه فى التكامل والتوازن ومن خلال المجتمع (حيث يرتبط الفرد بالجماعه) تبرز أضخم قضايا المجتمع والاجتماع ، حيث تتلاقى نظريتان تتجاوران منذ أقدم العصور هما :

« الفردية والجماعية » .

وفى مفهوم الثقافة العربية : يتكون المجتمع من الأفراد ، فالأفراد لهم كيانهم الخاص ولهم كيانهم كمجموعة ، وهم مؤثرون فى المجتمع ، متأثرون به ، الفرد فى خدمه المجتمع ، والمجتمع فى خدمة الفرد ، ففى دائرة (الفرد) هناك روابط الأخوة

والزمالة والصداقة والعداوة ، وفى دائرة (الجمـــاعه) هناك النظم الاجتماعية والاستجابات العامة للتطورات والأحداث .

ليس هناك تنافس وتصارع بين الأفراد بعضهم مع بعض ولا بينهم وبين المجتمع ، ولـكن هناك تعاون ومواءمة وتـكيف بين الحقوق الخاصة والحقوق العامة ، وبين حدود حق الفرد بالنسبة للفرد وبين حقوقه بالنسبة للمجتمع .

فلا يفنى الفرد فى المجتمع ولا يفنى المجتمع فى الفرد . ولكنها أخوة بين الأفراد ، وتماسك لبناء المجتمع بأفراده .

ومن شأن الثقافة أن توحد تصور الأفراد أو تقربه وفق مفاهيم لها قيمها الأساسية . ومن هنا تكون الاستجابة بطريقة واحدة ، وتكون المصلحة المشتركة هى القاسم المشترك الأعظم للجماعة .

ومن مقومات الثقافة العربية فى علاقات الفرد : « الإيثار » وفى علاقة الأفراد بالجماعة : « التضحية بالحقوق الفردية من أجل استمرار ونماء المجتمع » .

والثقافة العربية تذهب إلى إعتبار أن المجتمع « كائن حى » ، الأفراد خلاياه ، والنظم والروابط والجماعات أعضاؤه . هذا الـكائن له عقل ، هذا العقل بقيمه ومقوماته يتمثل فى عقول الأفراد .

ولا شك أن الثقافة السائدة فى المجتمع هى العامل الأكبر والأول فى تشكيل النظم الاجتماعيه ، وهى فى مدى تأثيرها أبعد أثرا من عوامل السلالة والوراثة ، فهى القادرة على أن تصبغ أفراد المجتمع بوحدة فكرية تعلو على فوارق السلالات والوراثات .

ولا يمنع أثر الثقافة فى وحدة الفكر ، من عمليات التنافس والتمايز والخلاف فى الفرعيات والمسائل الجزئية حيث لا ترى الثقافة العربيه « صياغة قوالب صماء متشابهة » بل إن الاختلاف فى الفروع لا بأس به : لأنه توسعة وحيوية ، ما دامت المقومات الأساسية سالمة ثابتة .

* * *

وتؤكد الثقافة العربية إهتمامها بالفرد ، وإطلاق حرية إرادته إطلاقا لا يجعله خاضعا إلا لعقله وإرادته فى مختلف تصوراته وتصرفاته ، ومن هنا كانت قدرته دائماً على الإبداع والتجويد ، وإحداث التقدم للمجتمع . فليست روابطه الدينية والروحية بمقيدة إياه أو معطلة له ، بل هى عامل قوة وعامل ، حرية ذلك أن الاختيار والارادة — دون عامل القهر والجبرية — هو العامل الأساسى للثقافة العربيه ، فإذا فرض عامل القهر والجبرية نفسه فى مرحلة من مراحل التاريخ فإن ذلك لم يكن صادراً بالتأكيد عن جوهر الثقافة العربية وإنما كان دخيلا عليها من جملة مفاهيم تسربت إليها .

وليس فى الثقافه العربيه ما فى الثقافات الأخرى (شرقيه أو غربيه) ذلك الخضوع لمفاهيم جبريه أو لمؤسسات خاصة أو لطبقة معينه من ذوى النفوذ الفكرى المتسلط .

وحين كانت هذه المفاهيم واضحة استطاعت الثقافه العربية أن تبدع وأن تبتكر وأن تضيف إضافات إيجابية فى حقل الفكر الإنسانى .

* * *

ولا شك للثقافة أثرها فى استقلالية المجتمع وبروز طوابعه الخاصة المختلفة عن المجتمعات الأخرى ، نتيجة القيم والمقومات التى يتحرك بها فى عقول أفراده ، وفى كيانه العام .

وفى مفهوم الثقافة العربية أن المجتمعات فى حركة دائمة ، حركة تطور ، لكنها – وفق نواميس السكون التى لا تتبدل ولا تتغير – ليس دائما حركة إلى الأمام أو فى طريق التقدم وإنما هى بين تقدم وركود وتأخر ثم تقدم تجرى فى دورات متعاقبة وترتبط بعوامل مختلفه ، أهمها ارتباطها بالقيم الأساسية للثقافة أو إنفصالها عنها ، أو غلبه قيم أخرى ومفاهيم غريبة عليها .

ولقد كانت الثقافة العربية قادرة دائما أن تتمثل جوهرها ، وتنفض عنها غبار الدخائل والبدع والإضافات التى قد تصل إليها من الثقافات الأخرى وتكون فى

نفس الوقت متعارضة مع القيم الأساسية لها ، رغبة فى القضاء عليها أو تحويرها وكانت تعتمد فى مقاومة ذلك على النوابغ من المجددين والمصلحين ، الواسعى الأفق ،الذين يكشفون هذا الخطر ويزيلون هذا الغشاء ويردون الأمم والمجتمعات الجوهر الأصيل المقومات الأساسية .

ولاتؤمن الثقافة العربية بالعامل الواحد فى تفسير المجتمعات : سياسيا أو إقتصادياً أو مناخيا أو سلاليا ، ولكنها ترى أن هذه العوامل كلها مجتمعة فى صورة (الثقافه) هى التى تحدث الأثر قوة وضعفا . وبهـــا ككل (شمولا وتكاملا) تفسير الأحداث والوقائع .

* * *

وفى مفهوم الثقافة العربية أن المجتمعات تمر بدورة مضطردة تبدأ من اليقظة إلى القوة إلى الانحلال والضعف ، ثم تعود سيرتها الأولى . وتكون الثقافة هى العامل المؤثر فى هذه المراحل قربا أو بعدا من قيمها الأساسيه . وقد تنهار الحضارة ولكن الثقافة لاتموت بل تذبل ثم تتجدد مرة أخرى لتحدث أثرها مستأنفا فى سبيل إعادة بناء المجتمع والحضارة .

غير أنها فى مجموعها هى حركة إلى الأمام وإلى التقدم فلا يعود التاريخ القهقرى أو يرجع إلى الخلف ، ولاتؤمن الثقافة العربية بتقديس الماضى فى نظرة المجتمع إلى التطور ، بل ترى الارتباط الذى لاينفصم بين الماضى والحاضر والمستقبل كحلقات طبيعية للتاريخ الطويل المضطرد .

* * *

والدين ظاهرة إجتماعية ضرورية لحياة المجتمع ، لايستطيع المجتمع الحياة بدونها ، وهى تتصل بالأخلاق إتصالا وثيقا . كما تتصل بالتربية والتعليم والفن .

وفى الثقافه العربية يكون الدين مقوما أساسيا للجماعة والأخلاق جزء منه — والدين مقوم لايمكن إغفاله ، أو تخطيه فى تطور الجماعة وحركتها ومختلف قضاياها . وهو دعامة أكيدة من دعائم الاجتماع الإنسانى ، فالإنسان فى نظر

الثقافة العربية هو سيد الكون تحت حكم الله . لا ينفصل فيه العقل عن الروح ، ولا الفكر عن البصيرة .

فالايمان بالله والخلق (الضمير الديني) هي عامل أساسي في بقاء المجتمع وتماسكه وتعاونه . والايمان بالجزاء والآخرة عامل هام في إعطاء الخلفية الدينيه وظيفتها وعامل حيوى في إيمان الانسان وعمله ، والأخلاق من شأنها أن تدفع الانسان إلى حسن السلوك والاستقامة والتعاون والتآخى بين الأفراد ، .

والمجتمع القائم على مفهوم الثقافه العربية يجد دائما قوة ذاتية دافعة في أفراده قوامها الخلق ، تتمثل في سلطان الضمير ، هذه القوة من شأنها أن تعين على تنفيذ سلطان القانون، أو تكفى دونه ، ومن شأن هذا المجتمع أن لايخشى سلطان القانون المفروض من الخارج ، على أساس المحاسبة على ظواهر الأمور ، إذ أنه يرضى بما هو أكبر وأوسع وأعمق هو سلطان الضمير .

ومن ثم يتوازن عامل الخلق مع حركة المجتمع وتطوره وبنائه عن رغبة ذاتية وتقبل طبيعى .

وسلطان الضمير في الفرد يستمد قوته من الإيمان بالله ويتسامى إلى الغيرة والكرامة بينما يقوم سلطان القانون على الخوف من السلطة التي تملك العقاب .

(٢)

فى مجال الأخلاق

فى مفهوم الثقافة العربية يقوم بناء المجتمع وتكوين الانسان على الأخلاق ، فالأخلاق قسم مشترك لمقومات السياسة والتربية والاجتماع والأدب والفن .

والأخلاق غير منفصلة عن الدين ، وهى فى نفس الوقت متكامله مع قيم التوحيد والحرية والعدل ولا يتم مفهوم الأخلاق الا حين يقوم على أساس الايمان بالله . وخلود النفس والايمان بالجزاء .

والأخلاق فى مفهوم الثقافة العربية «عملية» وليست «مثالية» وهى من صميم واقع الانسان باعتباره أحد أفراد المجتمع .

وتقوم الأخلاق على حرية الانسان وإرادته فى الاختيار وتحمل المسئولية ، فالفرد مسئول عن عمله وإذا كان القانون للأعمال المادية فالأخلاق لكل ما غير ذلك ، ولابد للاخلاق من تربية وتطبيق ، وبدون ذلك تصبح مجرد كلمات ومثلا ، ويستهدف التطبيق تحقيق النفع العام للمجتمع بأسره .

والأخلاق فى مجال التطبيق ترتبط بالمجتمع والسياسة والقانون كمقومات للمجتمع وترتبط بالتوحيد والعدل والحرية، ومفهوم الأخلاق فى الثقافة العربية : يقتضى تعميم تطبيقها على الانسان والمجتمع ، فيكون الانسان فرديا فى الفكر ، اجتماعيا فى العمل .

وتفرق الثقافة العربية بين التقوى والرهبنة. فهى تدعو إلى العمل وتجعل العمل فى دائرة الخلق ولا تقبل الزهد والنسك المنفصلين عن المجتمع والعمل .

والتقوى هى اجتناب الحرام : وهى غير الرهبنة والتقشف .

وهدف الأخلاق فى مفهوم الثقافة العربية هو النمو بالغرائز وترويضها

وتصعيدها وتزكيتها وليس للقضاء عليها والأخلاق : « ضوابط » منظمة وليست قيوداً والثقافة العربية لا تدعو إلى مجتمع الغرائز والشهوات ولكنها تنظمها فى وسطية وتعادل تحتفظ للجسد والعقل والروح قواها وحيويتها وهى لا تحرم منع الحياة ولكن تدعو إلى تناولها فى اعتدال.

والنفس الانسانية : تحمل الخير والشر : والأخلاق المستمدة من الدين وسيلة لتزكيتها والسمو بها .

وصدق الله العظيم : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » .

والأخلاق العربيه المستمدة من الاسلام : أخلاق تقوى وليست تستهدف ما تطلق عليه الفلسفة اليونانية «السعادة أو اللذة». ولا تقر الثقافة العربية مفهوم الوسطية الأخلاقية فهذا ليس أصيلا فى مصادر الإسلام بل هى من الفكر اليونانى الوافد الذى جرى العرب شوطا فى الخضوع له ثم تحرروا منه بعد .

والتقوى هى تجنب الحرام والاقبال على الحلال .

والأخلاق فى مفهوم الثقافة العربية عملية تطبيقية وليست نظرية ، وتشمل التكوين الفردى (الذى يعنى بالفرد فى نفسه وعلاقته بربه) والتكوين الاجتماعى (الذى يعنى بمعاملات الأفراد مع بعضهم البعض) .

وتتصل الأخلاق بالعقيدة ولا تنفصل عنها .

وفى مفهوم الثقافة العربية أن الخير عام للجميع، ولذلك فإنه أقرب إلى منازعها من السعادة التى هى حال خاصة بالفرد فعلى الإنسان أن يفعل الخير للخير ، لا لينال به أجرا ، ولا يتم الخير للناس إلا بتعاونهم .

وتقر الثقافة العربية نوعان من الأخلاق :

أخلاق إيجاب ، وأخلاق سلب .

ومن أخلاق الإيجاب الوفاء بالعهود ، وأداء الأمانة ، والقوامة بالقسط ولو على النفس والوالدين أو الآخرين ، والإعراض عن اللغــو ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم .

ومن أخلاق السلب : تحريم القتل والزنا والربا وتحريم شهادة الزور ، والخمر والميسر وتحريم الرشوة والفساد واللغو وتحريم تزكية النفس والتفاخر ، وتحريم السخرية بالناس والمنابزة بالألقاب .

° ° °

والقرآن هو مصدر الأخلاق التى تصدر عنها الثقافة العربية .

ومجموع مفاهيم القرآن : تمثل أخلاقا إجماعية لا أخلاقا فردية ، فالقرآن « ينظر إلى الفرد فى ضوء مصلحة المجتمع ، فإذا تضاربت المصلحتان : يؤثر الفرد مصلحة المجتمع ويضحى بنفسه فى سبيله » .

وصورة التطبيق لهذا المنهج القرآنى إنما تتمثل فى سلوك الرسول وشمـــائله ، وترسم الثقافة العربية للحرية مفهوما عميقا ، فهى تحيطها بقدر كبير من الحماية قوامها التبعة والمسئولية الاجتماعية ، فحرية الإنسان تنتهى عندما تصبح اعتداءاً على حرية الآخرين ، فالانسان كفرد إنما هو جزء من المجتمع ، وإطارات الأخلاق فى مفهوم الثقافة العربية : رحبة متسعة وليست مغلقة أو ضيقة قوامها الحرية الشخصية وتحقيق الجهود الفردية .

وتقيم الأخلاق فى مفهوم الثقافة العربية : حواجز متينة ضد الفوضى والظلم والشرعامة ، وتبقى هذه الحوجز مرنة لكى تحقق للأجيال المتعاقبة اختيار الأساليب التى توفق فيها بين المثل القرآنية الثابتة ، وبين تطور عصورها واختلاف بيئاتها .

(٣)

فى مجال القانون

هدف القانون فى مفهوم الثقافة العربيه : تحقيق العدل والمساواة بين أفراد المجتمع وتنظيم الروابط الاجتماعية بما يحقق المساواة والعدالة .

ويعمل القانون (التشريع) كقطاع من قطاعات الثقافة العربية متكاملا معها فى سبيل بناء مجتمع سليم متقدم قادر على الحياة والتطور وفق مفهوم الأخلاق ويطبعه أساساً طابع إنسانى .

وترسم الثقافة العربية مهمة القاضى فى مجال القضاء على نحو واضح بين : فالقاضى (١) يفهم إذا أدلى إليه فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، (٢) يواسى بين الناس فى وجهه وعدله ومجلسه حتى لا يطمع شريف فى حيفه ولا ييأس ضعيف فى عدله (٣) البينة على من أدعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين الناس إلا صلحاً أحل حراما أو حرم حلالا . (٤) لا يمنعه قضاء قضاه ، ثم راجع فيه عقله أن يرجع إلى الحق ، فالحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل (٥) على القاضى أن يكون فاهما لما يتلجلج فى صدره مما لم يرد فيه نص . وعليه أن يقيس الأشباه والأمثال ، ويعمد إلى أقربها من الحق (٦) عليه أن يجعل لمن إدعى حقا غائبا أو بينة ، أمداً ينتهى إليه ، فاذا أحضر بينته أخذ له بحقه . وعليه ألا يقلق أو يضجر ، أو يتأذى بالخصوم أو يتنكر عند الخصومات فان الحق فى مواطن الحق يعظم الأجر .

فالمساواة أمام القانون هى القاعدة الأساسية ، والإباحة هى طابع القانون فى الثقافة العربية ، بحدود تحول دون الظلم والتعدى . والمبادىء القانونية على تعدد أشكالها تؤول على غاية واحدة هى الرفاهية العامه وهى ما يسمى « المصلحه » .

. . .

وقد طبعت الثقافه العربية مفهوم القانون بطابع السماحة الذى يقوم على إلغاء القيود الصارمة والمحرمات المختلفه التى عرفتها القوانين السابقة ومسايرة الطبيعة البشرية ، على قاعدة « التيسير » : (لا تكلف نفس إلا وسعها) . وحيث لا تحرم طيبات الرزق وزينة الحياة . وحيث لا تعذيب النفس وأماتة لها بالتقشف . وحيث لا كبت للغرائز البشرية الطبيعية ، شريطة الاعتدال والوقوف عند « الضوابط » الحامية للشخصية الإنسانية من الانحلال والتدهور .

* * *

وقد حقق القانون — فى مفهوم الثقافة العربية — رعاية مصلحة الجماعة ، حين حرم الربا وأباح العتق والوصايه والزواج وصلة الرحم .

والحريه هى أولى القواعد فى مفهوم القانون ، حيث تجد الحرية حدودها فى طبيعتها نفسها وفق قانون ثابت هو : أن الحرية المطلقة معناها فنـــاء البشرية . والحدود التى تقف عندها الحرية هو ما اصطلح على تسميته بالقواعد القانونية . وليس فى هذه الحدود شطط أو غلو ، لأن الغايه المتوخاة من إقرارها هى المنفعة والصلاح والخير بأعظم ما يستطيع الفرد أو المجموع أن يجنى منها .

ومن أهم حقوق الفرد حقه بوصفه فردا فى السلامة والحرية ، فالحرية هى الحق الطبيعى لـكل مخلوق بشرى ، أما الرق فهو استثناء لهذه القاعدة ، واللقيط المجهول الأصل ترجح حريته على عبوديته ، وترجح حالة الحرية عند وجود الشك . والحر المشكوك فى حريته لا يجبر على إثبات حريته .

« والحريه(١) فى مفهوم القانون فى الثقافة العربية معناها : قوة التصرف الذاتى ، والحر لا سيد له إلا الله ، فالحريه لا يمكن أن تباع أو تشرى ، والعبودية التى يختارها المرء بملء رغبته لا يعترف بها قانونا قط ، وعلى هـــذا يحرم الانتحـار .

---

(١) راجع سانتلانا (القانون والمجتمع).

والمرء أن يقتنى ما يشتهى ، ويصنع بماله ما يريد ، لأنه متاع الحياة الدنيا جميعه خلق لاستعمال البشر وانتفاعه ، ولكن الله مقرر حق الملكية والحيازة وضع لهذا الحق حدا ، وأتاح الفرصة لكل امرىء فى معرفة المقدار المخصص له من مصادر الثروة العامة صيانة للنظام الاجتماعى .

وفى كل صرف لا نفع فيه تبذير وهو آثم بالنتيجة . فالسفه فى القانون وفق مفهوم الثقافة العربية : نوع من الخلل العقلى يحجر على صاحبه ، والقاعدة هى الحرص على الاعتدال والقسط فى كل شىء ، واتباع الوسطية فى إنفاق الثروة . (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا) وقد وضعت « الضوابط » لحماية صغار السن والمعتوهين والزمنى والمفاليس وفى مفهوم القانون فى الثقافة العربية : أن لكل امرىء أن يستعمل حقوقه الخاصة بمطلق حريته بشرط ألا يرمى بهذه الممارسة الإضرار المطلق بالغير فى الوقت الذى ينال منفعة شخصيه من وراء ذلك ويمنع المرء من ممارسة حقوقه عند ما يسبب ذلك ضرراً فاحشاً بغيره على حساب منفعته الخاصة . وقد رسم « القانون » فى مفهوم الثقافة العربية « ضوابط » أساسية لكل ناحية من نواحى الحياة لصيانة وجود الفرد فى المجتمع ، كما حرم الربا بأى شكل كان ، ونفر من كل أنواع المضاربة واعلن بطلان أى عقد غير مؤكد النتيجة ..

وقد انبثقت كل هذه المميزات من أصل المبدأ العام « المساواة » وبهذا يتمثل القانون فى مفهوم الثقافة العربية : كفاح دائب متواصل لغرائز الإنسان المنحرفة . ووضع حد لتفرقات البشر التى ترمى إلى تحقيق سعادتهم مع عدم الإضرار بالمجتمع أو أفراده .

وهدف القانون أساساً هو الطمأنينة والأمن الاجتماعى وسعادة المجموع فى نطاق قواعد عامة .

(١) الناس جميعاً سواسية : لافضل لأبيض على أسود .

(٢) توزيع العدالة بالقسطاس على الجميع بلا تفضيل .

(٣) لاينتفع أحد بمال آخر ما لم يجزه .

(٤) على كل إنسان أن يفى بالعهود التى يقطعها على نفسه .

ويعلق القانون فى مفهوم الثقافة العربية أعظم الأهميـــة على القصد القانونى لا على النص الحرفى ، وفق قاعـدة : إن إرادة البشر كافية مهمـا كانت لخلق رابطة قانونية .

وتكون العدالة رائد المساواة فى كل مرحلة من مراحلها .

وقد ساير القانون فى مفهوم الثقافة العربية فى جميـع الأطوار سنن تطور المجتمعات . وعايش الحضارات فى كل زمان ومـكان .

فهو مبنى دوماً على المصلحة العامة والخير العام وقد استهدف بناء الأحـكام على المقاصد والمصالح وتغيرها بتغير الزمان والمـكان وأقام قاعدة أن (لا تعارض بين العقل والنقل) وأن صحيح المنقول موافق دائما لصريح المعقول .

(٤)

فى مجال السياسة

ترسم الثقافة العربية مفهوم « السياسة » على نحو كبير من الوضوح والأصالة ، وفق قيمها الأساسية ، فالأمة والجماعة سواسية كأسنان المشط ، لاتفرقة ولاتمييز . الضعيف قوى حتى يؤخذ الحق له ، والقوى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، ولاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق (أطيعونى ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم) .

وأبرز مفاهيم السياسة « الحرية » : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ، كما تقرر حقوق الإنسان : فى عقيدته وتفكيره وشخصيته ومعيشته ، وتوجه الاهتمام إلى جوهر الانسان من روح وعقل وخلق وفضيلة والتهوين من شأن الفوارق المادية التى لاتتصل بهذا الجوهر .

وقد أولت الثقافة العربية مفهوم المساواة طابعا جديداً ، هو طابع المساواة فى الانسانية ، حيث كانت المجتمعات تقوم على فوارق ، الشرف والضعة والغنى والفقر . ورد الاعتبار الانسانى إلى الطوائف المستضعفة : « المرأة والرقيق » والقضاء على الرق تدريجياً .

كما اعتدت بمبدأ الشورى « إدارة الناس أمورهم بأنفسهم » مع التجرد من الهوى والتزام جانب الحق والعدل « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى » وللمرأة الحق فى أن تشارك بالرأى فى الشئون العامة ، ولم تقتصر الشورى على الرجال ، بل للأرقاء حق المساهمة فى الرأى والشورى .

والسيادة حق الأمه وحدها ، وهى التى تمنحها للحاكم .

والعدل أساس من أسس الثقافة العربية فى السياسة : « كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على انفسكم أو الوالدين او الأقربين » .

والمساواة بين أفراد المجتمع فهم سواسية لافضل لأحد على آخر الامن جهة الكفاية الشخصية والسجايا الذاتية . ولكل فرد من أفراد المجتمع أن يترقى إلى ما شاء الله .

وحرية الفكر مفهوم واضح من مفاهيم الثقافة العربية للسياسة: وهى حرية تطلق الفكر من عقاله وتدعو إلى التدبر . ونبذ كل ما لا يقبله العقل ، لايؤمن الإنسان بشىء إلا بعد أن يقتنع به عقليا . وتنفض من شأن تعطيل الفكر أو إلغاء العقل بالتقليد أو التمسك بالعلاقات والتقاليد . دون تمحيص .

وكذلك الحرية فى مجال الدين فلا إكراه فى الاعتقاد . لكل إنسان أن يعتنق ما شاء وليس لأحد أن يحمله على ترك عقيدته .

وقد بلغ من تسامح الثقافة العربية فى هذا المجال أن أولت الملل والنحل دراسة متصفة .

وحين تربط الثقافة العربية بين مقوماتها فى عقد متـكامل فهى لا تفرق بين عناصر الاجتماع والسياسة والدين والاقتصاد . وتجعل الأخـلاق قاسما مشتركا عليها . فالأخلاق فى مجال السياسة عنصر فعال فى السلم والحرب وفى عـلاقات الأفراد بالجماعة وفى علاقة الحاكمين بالمحكومين ، وهى منطلق إلى الطابع الانسانى فى الثقافة العربية .

فالثقافة العربية تؤمن بترابط تـكاملى بين أعمال وسلوك الانسان وبين الخير والنفع مما يحقق إسعاد المجتمع ورقيه ودوامه ، ومن هنا تختلف اختلافا جذريا عن مفهوم السياسة الغربى الذى يقوم وفق نظرية ميكافيلى حين نادى بالانفصال بين السياسة والأخلاق وقال بأولوية السياسة على الأخلاق . وأن من حق الدولة أن تنفض يدها من مفهوم الأخلاق المتعارف عليه بين الناس .

السياسة مقوم من مقومات الثقافة العربية متميز ولـكنه غير منفصـل عـن وحدة الثقافة العربية فى مجال الدين والاقتصاد والقانون .

وقد قدمت الثقافة العربية فى مجال الفـكر السياسى مبادىء هادفة قوامها :

١ — العدالة الاجتماعية ٢ — المساواة أمام القانون .

٣ — تـكافؤ الفرص فى مجال السياسة والاقتصاد .

٤ — مبدأ الأغلبية .

ويقوم مفهوم السياسة فى الثقافة العربية على دعائم ثلاث : العدالة والترابط بين العدل والمسئولين والشورى ، فالعدالة شرط أساسى من شروط الحـكم وأن الهناءة لتظل ملازمة للأمة ما بقيت تحـكم بالحق والعدل .

والعدالة (فى مجال الثقافة العربية) لا تعنى جانبا واحدا من جوانب الحياة وإنما تشمل كل جوانبها : الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقانونية ولاشك

أن الدولة التى تقوم - وفق تعبير ابن خلدون - على العدل لها أن تأمل تحقيق الرقى والحضارة والدولة التى تقوم على الظلم لها أن تأمل الانحطاط السريع والموت .

٢ — الترابط بين العدل والمسئولية .

٣ — مبدأ الشورى ويعنى تبادل الرأى ويعنى جماعية علاج المشاكل . (الماوردى) .

ومبدأ الشورى من الوجهة السياسية هو : طلب نصح ومشورة أهـــل الحل والعقد .

• • •

كما قدمت الثقافة العربية فى مجال السياسة مفهوم « الكفاية » التى تقوم على تقدير الكفايات ذات الدراية فى المجالات السياسة والمسئوليات وإتاحة الفرص لها بالانابة عن الأمة .

• • •

يقوم المفهوم السياسى فى الثقافة العربية على أساس :

١ — تحقيق أكبر قدر من سعادة المجتمع .

٢ — توفير الأمن والاستقرار والسعادة للأمه .

٣ — إعطاء الحرية للأفراد للكشف عن آرائهم .

٤ — الترابط العضوى بين المفهوم السياسى والمفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والقانونية بحيث تشكل الثقافة العربية كيانا عضويا مترابط الأجزاء .

٥ — عدم وجود خط فاصل بين السياسة والأخلاق .

ويتلاقى مفهوم السياسة فى الثقافة العربية مع النظرية الديمقراطية فى كون كليهما يضع السيادة فى يد الأمة ويؤكد على المساواة أمام القـــانون وتكافؤ الفرص السياسية والاقتصادية للمجتمع بينما يتميز المفهوم العربى بالارتباط ما هو مادى وروحى ، والاستمداد من القواعد الخلقية ، فهناك مقياس خلقى لكل عمل سياسى

وحيث يرتبط مفهوم السياسة فى الثقافة العربية بالقيم الأساسية لها فهى بعيدة دوما عن التطرف والاكراه والتسلط .

كما يتسم مفهوم السياسة فى الثقافة العربية بالتكامل والوسطية، ووفق تكامل الثقافة العربية وشمولها ووسطيتها ترتبط فكرة الحرية بالمسئولية، فليس من سيد على الرجل الحر الا (الله)والحرية إذا أسىء استعمالها حطمت نفسها ، وحد الحرية هو الخير الأسمى للفرد والمجموع .

* * *

والمجتمع ضرورى لدوام حياة الأفراد ، والدولة ضرورية لدوام المجتمع لا تستقيم بدون وجود سلطة تلقى إليها مسئولية تحقيق التقدم والاستقرار ، وحاجة الفرد الى المجتمع طبيعية ، بل وضرورية ، والانسان فى حاجة دائمة الى تعاون الآخــــرين .

ولابد من قيام التعاون بين عدد كبير من المختصين بالحرف والصناعات وأن هذا التعاون بين الجماعات من شأنه أن يؤدى إلى التطور وإلى قيام الفنون والصناعات (الغزالى وابن تميه)

والدولة قوة منظمة لحياة الانسان فى المجتمع « ابن رشد » .

والقوانين المنظمة للمجتمع لا يمكن أن تكون فعالة إلا إذا اكتسبت صفة التطبيق وعلى الدولة تحقيق الاستقرار والحفاظ على وحدة الأمة بأجمعها مراقبة سلوك الأفراد وعليها مسئولية الحفاظ على التعاليم والأهداف السامية وأن الهناءة تظل ملازمة للأمة ما بقيت تحكم بالحق والعدل .

ولا تعترف الثقافة العربية بمفهوم « الثيوقراطية » فالثيوقراطية : نوع من النظام السياسى الذى عرفه الغرب ولم يعرفه العالم الاسلامى قط ، وهو يخضع لسيطرة طبقة رجال الدين وقد طبق مثل هذا النظام فى أوربا فى العصور الوسطى.

وليس فى الثقافة العربية وفق مفهوم الاسلام منظمة كهنوتية دينية تقوم بممارسة نفوذ سياسى وليس فى الاسلام رجال دين ، بل علماء دين يفسرون النصوص . ولكل إنسان مثقف بالغ الحق فى الحديث فى الدين . لم يقم فى تاريخ الاسلام حكم يمكن أن ينطبق عليه مفهوم الثيوقراطية .

فى مجال التربية

مفهوم التربية فى الثقافة العربية يتصل بالقيم الأساسية والمقومات المختلفة للدين والسياسة والاجتماع والأخلاق .

والتربية مقوم إيجابى فى الثقافة العربيةمن شأنه بناء شخصية الانسان وإعداده ليكون عضواً فعالا فى المجتمع .

وهى تعمل على « تكييف » العلاقة بين الفرد والبيئة ودعمها ، وإقامة التوازن المتكامل بين الفرد والمجتمع على نحو يعمل على تحقيق السعادة والسمو ، فهى تدعم الرباط الذى يربط الفرد بالمجتمع،فلا تنفصل غايات الفرد عن مجتمعه ، وإنما تتم تنمية فاعليةالفرد داخل المجتمع .

وليست التربية ثقافة عقـل أو تربية احساس ، بل هما معا ،فهى بناء العقـل والضمير والجسد جميعا وفق مفهوم (الثقافة العربية) فى تكامله وشموله وكما يتكامل العقل والروح والجسد فى الفرد الواحد، فان هــذه القوى تتكامل بين الأفراد وبين الأفراد والمجتمع . فالفرد له أهميته بالنسبة للمجتمع وللمجتمع أهميته بالنسبة للفرد وكلاهما يؤثر فى الآخر ويتأثر به حيث لا كيان للفرد بدون المجتمع ولا حياة للمجتمع بدون أفراده .

وتربية العقيدة وتعميقها فى نفس الفرد جزء هام فى مفهوم التربية وفى تكوين شخصية الانسان فهى العامل القادر على تعديل الغرائز المختلفة (غرائز حب البقاء ، الخوف ، المقاتلة ، السيطرة ...) والاتجاه بها إلى السمو والـكمال .

ولا شك أن هناك خطراً قائما فى ترك الغرائزدون تهذيب ،فلابد من إعدادها حتى تصبح قوة فىجانب الحق والخير.والتربية فى مفهوم الثقافة العربية : تعـد

الانسان ككل (فى مجال الروح والعقل والجسم) بالقدوة والموعظة والتثقيف. وهى عملية دائمة لتعديل الخبرة بشــــكل يزيد فى معناها وفى قدرتها .

وقد جمعت الثقافة العربية فى مفهوم التربية بين النظريتين اللتـــين عرفتهما الثقافات المختلفة : إصلاح النفس وإصلاح المجتمع.

وتعمل فى مجال يربط بين الواقعية والمثالية وفق مفهومها من التكامل والشمول فهى تستهدف السمو بروح الفرد وعقله وجسمه ، ومن هنـــا تبنى التربية على : (أولا) العقل : فتكون رياضة روحية وغذاءاً للنفس (ثانيا) الدين مصدر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (ثالثا) والأخلاق التى ترتفع بالطبيعة الانسانية نحو مواطن الحق .

وتربط الثقافة العربية بين التربية والتعليم وتجعل أهمية التربية فى بناء نفس الفرد أساساً للتعليم بوصفه بناء لعقل الفرد . وتجعل القدوة فى البيت أكبر أهمية ، وتجعل اختيار المعلم الذى هو المثل الأعلى للطفل أساساً هاما . وتشترط أن يكون المعلم عاقلا ذا دين ، بصيراً برياضة الأخلاق ، حاذقا بتخريج الصبيان ، وقوراً رزيناً بعيداً عن الخفة والسخف(١) .

« والتعليم الجماعى أبعد أثر ، فالصبى عن الصبى القن ، وانفراد الصبى الواحد بالمؤدب أجلب الأشياء لضجرهما ، ومن مميزات التعليم الجماعى ما تفيده المناقشة والمحادثة من انشراح العقل وفى ذلك تهذيب للأخلاق وتحريك الهمم » .

« وإرهاف الحد بالتعليم مضر بالتعليم ، فمن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أصاب نفسه الضيق ، فدعاه ذلك إلى الكسل وحمله على الكذب والخبث والتظاهر بغير ما فى ضميره(٢).

وتقوم التربية فى مفهوم الثقافة العربية على مراعاة ملكات النشء وميوله الفطرية حيث لا يجوز قهر الناشىء على علم لا رغبة له فيه .

---

(١) راجع مفاهيم ابن سينا فى التربية . (٢) ابن خلدون فى المقدمة .

وتقرر « الثقافة العربية » أن العلوم كلها شريفة ولكل منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال ، فإذا لم يكن إلى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الهمة إلى أهمها والعناية بأولاها وأفضلها ولا يمنع كبر السن من التعلم استحياء ، لأن العلم إذا كان فضيلة فرغبة ذوى الأسنان فيه أولى ، والابتداء بالفضيلة فضيلة ، وليس الكبير أقل شعلا وأكثر تواضعاً .

وعلى المتعلم أن يتجنب الحفظ دون فهم للمعنى حتى لا يروى بغير رويه ولا يخبر عن غير خبرة ،

وتقرر الثقافة العربيه قاعدة أصيلة :

« كونوا للعلم رعاة ولا تكونوا له رواة »

وعلى المعلم الا يكتفى بما تعلم بل عليه أن يزداد منه وليكن مستقلا للفضيلة منه ليزداد منها ومستكثرا للنقيصة فيه لينتهى عنها ، ولا يقنع من العلم بما أدرك لأن القناعه فيه زهد ، والزهد فيه ترك والترك فيه جهل ، وعلى المعلم أن يرفق بالمتعلين ولا يعنفهم ولا يحقرهم ويبذل النصح لهم(١).

• • •

وتقيم الثقافةالعربية قواعد التربيةعلىأسس سبعة : الإيمان بالله. بالمثل الأعلى ، بالانسان ، بالأمة ، بالعلم ، بالحرية ، بالعمل ـ والتربية العربية شمولية متكاملة الأسس : فردية وجماعيةوقومية وإنسانية وأخلاقية التربيةالعربيه: تجنب نقائض الكبروالعجب والحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الحياة.

وتقرر أصول التربية العربية حقائق أساسية :

« على المعلم الشفقة والرأفة بالمتعلين ، وأن لا يقصد بعمله جزاءاً ولا شكراً،

---

(١) الماوردى فى أدب الدنيا والدين .

وعليه أن يمنع المتعلم من التعدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى ، قبل الفراغ من الجلى ، مع التنبيه على الغرض من دروس العلوم ، وأن يزجر المتعلم من سوء الأخلاق بطريقة التعريض ما أمكن دون التصريح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الاصرار وعلى المتكفل ببعض العلوم أن لا يقتح فى نفس المتعلم العلوم الاخرى ، وأن يراعى التدريج فى ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة ، وأن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلق اليه مالا يبلغه عقله ، فيكلم الناس على قدر عقولهم ، فإن المحدث إذا حدث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم كان فتنة على بعضهم » .

« وعلى المعلم أن يكون عاملا بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل ، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد » .

« وعلى المتعلم أن يكون نقى النفس عن رذائل الاخلاق ، وعليه أن يمتنع عن أهم الصفات الرديئة : الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب ، وعليه ألا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم ، بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية فى كل تفصيل ويذعن لنصيحته ويتواضع لمصلحته ويطلب الثواب والشرف بخدمته ، حيث لا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع . مع الإصغاء والإدراك والاطلاع ، وعلى المتعلم ألا يدع فناً من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، طالباً التبحر لأن العلوم متفاوته وبعضها مرتبط ببعض وعلى المتعلم أن لا يخوض فى فن من فنون العلم دفعة واحدة ، بل يراعى الترتيب ويبتدىء بالأهم فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه وعلى المتعلم ألا يخوص فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيبا ضروريا وبعضها طريق إلى بعض(١) .

وفى مفهوم الثقافه العربية أن التربية ترمى أساساً إلى ترقية الخلق السامى وتقويته والعقل منبع العلم ومطلعه وأساسه ، والعلم يجرى منه مجرى الثمرة من الشجرة . والعلم وحده لا يغنى بدون الأخلاق .

---

(١) الإمام الغزالى : إحياء علوم الدين

« والتربية الخلقية هي في الواقع تربية إجتماعية ، والخلق ليس شيئاً شخصياً محضاً ، إذ أن قيمة تربية الأخلاق تبرز كلما كانت علاقتها بالمجتمع آثر وروابطها أقرب . فإذا كان غرض العلم كسب العيش وحده ضاق الأفق العقلي وحرم المرء الترقي الصحيح ، والمهارة في فن ما إذا كانت مقرونة بفساد في الخلق وضعف في النفس لا يكسب صاحبها راحة البال ولا تجعل الناس تثق في علمه أو مهارة فنه ، أما إذا سمت أخلاقه وعلت نفسه كان عمله أكثر أثراً وإيجابية » .

° ° °

وترتبط الثقافة العربية بين ثقافة الفكر وثقافة الخلق ، فالمعرفة تكون ثقافة الفكر ، والتربية تكون ثقافة الخلق .

« والعلم وحده لا يكفي ولابد معه من التربية ، ولابد أن تتم الرابطة بين البيت والمدرسة بالقدوة والثقافة معاً ، وتربية الفضائل تكتسب بالقدوة في البيت وتنمى في المدرسة . والمتعلم يحتاج إلى جهد الأب والمعلم وتدريب العقل ، واستيعاب الحقائق وحدها لا يكفي ولابد أن ترفدها وتشرك معها تهذيب النفس وتقويم الأخلاق » .

ولابد من تثقيف العقل وتأديب النفس وتزكية الروح وتقوية الجسم ، حيث تتمثل في التربية مفهوم الثقافة العربية متكاملة : دينياً وخلقياً واجتماعياً ، ممتزجة لا يبغى نوع منها على حساب الآخر .

والإيمان بالله هو حجر الزاوية ، والتمييز بين الحلال والحرام ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والبر الأهل ومساعدة الضعفاء وخلوص النية وطهارة النفس ، والاعتماد على النفس ، والكرامة ، وحسن الظن بالناس وحرية الإرادة والجرأة الأدبية والصراحة والصدق ، والاستقامة في الرأي والعمل .

وهذه المفاهيم في مجموعها تتمثل في قدرة المتعلم على السؤال والبحث عن الحقيقة والرفق بالمتعلمين وتعليمهم بالقدوة وتقديس حرية الرأي وتفهم الأحكام تفهما صحيحاً ، وفقا للقاعدة : « علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف ، لا يعنف متعلم ولا يحقر ناشيء ولا يستصغر مبتديء » .

والأخلاق ليست قيوداً ولكنها وسائل لتنظيم الحرية ، وهى لا تعيق النمو والحركة بقدر ما تحفظ الشخصية الإنسانية من الانهيار والضعف والرخاوة حيث تتاح الطيبات والزينة بالاعتدال المتوازن بين الاندفاع والجمود ، فلا يؤخذ شيء بغير حقه ولا يجرى السرف فى هـــذا الأخذ وليس هناك انفصال بين العقيدة والخلق بل بينهما امتزاج وتكامل ولا يمكن أن تبقى الأخلاق صالحة إذا وقع الانحراف عن العقيدة .

٥ ٥

وفى مفهوم الثقافة العربية أمران : العلم حق وفريضة على كل رجل وامرأة ، ثم هو رسالة من المهد إلى اللحد .

والتعليم حق كل صبي وصبية ، واجب على الدولة ، وهى مكلفة به إذا لم يكن أهله قادرين .

٥ ٥ ٥

وإن الصبي يجب البدء بتهذيبه عند فطامه لئلا تثبت فى نفسه الأخلاق الذميمة فيصعب بعد ذلك نزعها من نفسه .

والطفل أمانة عند والديه . وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ، والطفل المستحى لا ينبغى أن يهمل ، بل يستعان تأديبه بحيائه وتمييزه ولا يؤخذ الطفل باول هفوة ، بل يتغافل عنه ولا يهتك ستره ، ولاسيما إذا ستره الصبي واجتهد فى إخفائه .

وعلى المربى أن ينظر فى حال سنه ومزاجه ، وما تحتمله فى نفسه من الرياضة ويبنى على ذلك أسس تربيته .

ومن أسس التربية فى الثقافة العربية مراعاة ميول الأطفال واستعدادهم ومن القواعد الأساسية للتربية : أن بناء الشخصية للفتى والفتاة يتم أساسا فى البيت وبقدوة الآباء والأمهات . على أن يتم التأديب بالحزم الممزوج بالرفق ، وعلى الصبي أن يجتنب معايب الأخلاق بالترهيب والترغيب . والاعراض والاقبال ،

وعلى المربى أن يبيح للأطفال الفرصة بعد المكتب فى اللعب حتى يذهب عنهم آثار التعب والملل ، وعلى الأطفال أن يرجعوا إلى بيوتهم للغذاء ، حتى لا يتألم الطفل الفقير الذى لا يمكنه مجاراة الموسرين فى مظاهر يسرهم عندما يحملون غذاءهم معهم إلى المكتب . ومن كان مرباه بالعسف والقهر سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه . وعلى الآباء أن يعلموا أولادهم العوم والرماية وأن يثبوا على الخيل وثباً .

* * *

وليس هناك انفصال بين التربية والتعليم . والتعلم لا ينفصل من مهمة تقويم النفس ، ضمن حدود الحق والبر ، وينتهى بها إلى تكوين الانسان الممتاز ، الروح مرتبطة بالعقل ، مرتبطة بالجسم ولا شك أن التربية الكاملة هى (تربية الروح، تربية العقل، تربية الجسم) هى الوسيلة الصادقة المثلى لفهم العلاقة بين الله والانسان والمجتمع وهى أبرز مفاهيم الثقافه العربية .

ولا شك أن أعظم أهداف التربيه فى الثقافه العربية هى خلق فرد مؤمن بالله ، مدرك لحقوقه وواجباته ، عامل للصلحة العامة ، مستمسك بمبادىء الحق والخير ، يستهدف المثل العليا فى سلوكه الفردى والاجتماعى ويملك إرادة النضال المشترك وأسباب القوة والعمل الايجابى . (١)

---

(١) راجعنا فى هذا الفصل آراء ابن سيناء والغزالى والعبدرى وابن خلدون .

(٥)

فى مجال الاقتصاد

فى مفهوم الثقافة العربية يمثل « الاقتصاد » عنصراً هاماً يتكامل مع العناصر الأخرى ولا يمتاز عليها، له أهميته وضرورته الأساسيه فى حياة الإنسان والمجتمع، ولكنه يتكامل تكاملا أساسيا مع مقومات السياسة والقانون والدين وفق القيم الأساسية للفكر الإسلامى .

فالاقتصاد ليس مقوما مستقلا ، وليس له إرادة غالبة، ولا نفوذ مفروض على المقومات الدينية والاجتماعيه والخلقية . وهو مطبوع فى الثقافة العربية بطابع الحرية والخلق والإنسانيه .

ولما كان مفهوم الثقافه العربية هو التكامل والتوازن والوسطية بين الفردية والجماعية ، فإنه لا يقر إذابة الأفراد فى بوتقة الجماعة ولا إذابة الجماعة فى بوتقة الأفراد . بل يقر التعاون بينهما والالتقاء .

وهو حين لا يعارض الفطرة ، يجعل من النظام القانونى نظاماً أخلاقياً يقوم على تزكية النفوس ، ويعترف بالكفايات والمواهب .

وقد استهدف المفهوم الاقتصادى أساساً : تحقيق العدل الاجتماعى . وتكافؤ الفرص للمجتمع ومنع الاستغلال الاقتصادى للضعفاء من جانب الاقوياء ، ومنع إستغلال طبقة لطبقة من الناس ، أو استغلال فرد لفرد ، ويقوم المقوم الاقتصادى فى الثقافة العربية على مراعاة الوسطيه والأخلاق - والاقتصاد فى معناء اللغوى إنما يعنى التوسط بين الإسراف والتقييد حيث لا ينفصل الأساس الأخلاقى عن المفهوم الاقتصادى : فى حدود الأمانة والاخلاص والعدل .

وتقدم الثقافة العربية مفهوما واضحا للاقتصاد وفق طابعها المتكامل ، وقوام هذا المفهوم : الحض على التجارة وأداء الزكاة وتحريم الربا والاحتكار وإقرار

حق الملكية الفردية ، بمفهومها الأصيل وهى أنها وظيفة إجتماعية ، والعمل فى الاسلام فريضة ، وهو حق مكفول لكل مواطن ، ويلتمس مفهوم الاقتصاد قيمة أساسية أخرى : هى الحد من أرباح الوساطة وتحريم التطفيف ومعنى التطفيف : « الأخذ أكثر مما يستحق ، الاعطاء أقل مما يحق » .

ومن أهم معالم الاقتصاد فى مفهوم الثقافة العربيه : التفرقة بين الحلال والحرام وتحريم الربا والاحتكار والعقود الباطله .

وإقامة التداول الاقتصادى على أساس الخلق والايمان والوازع الدينى الشريف واعتبار مشاكل الفرد والجماعة مشاكل إنسانية بالدرجة الأولى ثم مادية بعد ذلك ، وأن لا يغفل هدف أساسى هو توثيق أواصر الأخوة الانسانيه بين البشر .

والاقتصاد فى مفهوم الثقافه العربيه : يقر الكسب الحلال ، ويوجب عمل المرء بيده ، ويقر البيع المبرور ، ويقر البيع إلى أجل بثمن المثل النقدى . ويقرر أنه فى كل ذو عسرة نظرة إلى ميسرة ، ويدعم حقوق من لا يستطيعون الانتاج ويكفلها ويقر الانفاق للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وإبن السبيل ويحرم الخمر والمسكرات والمخدرات كوسائل للكسب ، ويشجب كل المكاسب التى تضر الآخرين : كالرشوة والسرقة والميسر وصنوف المقامرة ، وجميع المعاملات التى يخالطها الغش والغبن ، ويحرم إحتكار الحبوب والاغذيه والأمتعة طمعاً فى إرتفاع الأسعار ، كما يحرم طرق الكسب التى تفضى إلى النزاع والخصام ولا يقر وسائل الكسب الغامضة المجهولة .

كما يحظر التعامل على أساس الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل وبخس أشياء الناس كما يحظر إستغلال حاجة الناس إلى المال .

٥ ٥ ٥

وتقر الثقافه العربية الملكية الفردية ، ولكنها لا تدع الفرد حراً طليقاً فى إستهلاك ماله والتصرف فى ثروته . بل تحد له حدوداً ، هى إحدى طرق ثلاث :

إما أن يستهلكه فى مرافقه ، أو يستعمله فى تجارة أو صناعة تعود عليه بالربح أو يدخره . وفى كل حالة من هذه الحالات تجب عليه زكاة أو صدقة .

٥ ٥ ٥

والزكاة ضريبة تجبى على الأرض المملوكة ملكا خاصا ، تكون نسبة ثابتة من ثروة المكلف ، وتشمل إنتاج الأرض والذهب والفضة والبضائع والحيوانات .

وللإنسان أن ينفق المال ويتصرف فى الثروة ، بشرط الاعتدال والتوسط فى المعيشة وكل نفقة ينفقها المرء فيما يفسد الأخلاق أو يضر المجتمع محرمة ، أو كل ما يؤدى إلى السرف . ويحرض كل من له فضل مال بعد إستيفاء حوائجه ، أن ينفقه فى سبيل الصالح العام .

٥ ٥ ٥

والثقافه العربية تؤمن بإعادة توزيع الثروة بوسيلتين : نظام الزكاة ، ونظام المواريث . فمن يدخر يأخذ المجتمع منه ٢½ فى المائة سنويا لتوزع لمن يعجزون عن كسب معاشهم ، ومعنى الزكاة فى اللغة التطهير ، وهى ليست صدقة ولكنها حق للامة فى مال الغنى ، وللدولة خزانة (بيت مال) يكفل العون للفقراء أو العاجزين عن كسب الرزق بل إن حق الفقراء فى مال الأغنياء ليس مقصوراً على الزكاة .

وبالنسبة للتوريث فإن الثروة يعاد توزيعها كل جيل ، بعد وفاة صاحبها الأصلى . فإن لم يكن للمورث أقارب من عصبه ، قسم ماله على الاباعد من ذوى رحمه ،فإن لم يكن آل إلى بيت المال وعلى الموسر أن يقرض من له حاجة ولا يستوفى منه أكثر من رأس ماله .

وكل المال فى مفهوم الثقافة العربية يؤول إلى التجزىء ولا يلبث أن ينقسم إلى أجزاء صغيرة .

٥ ٥ ٥

وتؤمن الثقافة العربيه بضرورة تدبير وسائل الحياة الكريمه للطبقة الفقيرة من غذاء وكساء ومسكن .

وتقر الثقافة العربية فى مجال الاقتصاد :

حق الملكية الفرديه ، (الملكية الخاصة) والملكية فى الثقافة العربية وظيفة اجتماعية ، والملكية الخاصة تلتزم بوظيفتها الاجتماعية بحسبان أنها أمانة وليست حقاً مقدساً .

ولايجوز أن تنفصل الملكية عن العمل . فالعمل فريضة فإذا قصرت الملكية الخاصة فى وظيفتها الاجتماعية وتحولت إلى أداة استغلالية وجب مصادرتها أو تحويلها إلى ملكية عامة .

والملكيه الخاصة خاضعةللقوانين الاخلاقية واعتبارات المصلحة العامة وتقدم المصلحة العامة إذا اصطدمت مع مصلحة الفرد والملكية الفردية على الجملة حق اجتماعى لاحق طبيعى .

المال :

والمال وظيفة اجتماعية غيرفردية،وهولايقصد لذاته وإنمايقصدلأداء خدمات اجتماعية عن طريقه . ويشترط لتحصيله وجوه الكسب السليمة : الفلاحة ، والصناعة والتجارة .

وعلى المال التزامات كالزكاة والصدقات ، وإنفاق المال فى سبيل المصلحة العامة والذود عن الوطن . وعلى مالك المال توجيه نشاطه وكفايته الى الاستثمار ما له فى نطاق الوجوه المشروعة للاستثمار وبغير عدوان على مصلحة الجماعة ومن أحيا أرضا ميتة فهى له . ومن عطل أرضا ثلاث سنين لم يعمرها جاء غيره فعمرها فهى له . ومن أخلاقية الاستثمار أنه يتعين على صاحب الارض أن يتركها دون استثمار ولا يستثمرها استثمار ضعيفا . وعلى كل إنسان أن يحسن استثمار ما له .

فإذا تضخمت الثروة بين يدى فئة قليلة من الناس . وكانت هذه الثروة من مصادر الإنتاج التى عليها قوام المجتمع ، ثم ثبت عجز هذه الفئة عن استثمارها وأدى هذا العجز إلى حرمان المجتمع من منافع الاستثمار ، كان لولى الأمر أن يتدخل بما يدرأ عن المجتمع هذا الضرر العام .

وتقرر الثقافة العربية توازن المجتمع فى كيانه الاقتصادى كما هو متوازن فى جميع جوانبه الأخرى ، فتوزع القوى الاستثماريه على مصادر الانتاج المختلفة ولا يركز استثمار الأموال فى تملك الأرض الزراعية وفلاحتها دون المصادر الأخرى لتوظيف المال كالصناعة والتجارة .

والمال أساساً : هو مال الله . والإنسان وكيل عليه ، ولذلك لابد من تقديم حق الفقراء والسائلين والمحرومين ولا يجوز أن تترك الأموال تتجمع فى أيدى قلة مميزة إلى الحد الذى يمكنها من ممارسة السيطرة على الآخرين واستغلالهم .

ومن شأن تجمع المال لدى قلة مميزة أن تؤدى إلى الترف والتبذير والضياع وعلى المجتمع أن يستخدم المال ، وأن يجعله وسيلة للانتاج ، فلا يكون إلهـــا ومعبوداً ، وإنما يكون فى خدمة الانسان بحيث لايصبح رأس المال وله قوة وسيطرة على المجتمع ، ويصبح صاحب المال صاحب استغلال واقطاع فى المجتمع .

ο ο ο

وتقر الثقافة العربية فى مجال الاقتصاد قاعدة هامة هى :

قاعدة الانفاق للحيلولة دون تكديس الثروة .

و « الانفاق » : من وسائل الرواج وانتعاش الأموال ، حيث يؤدى الامساك إلى الكساد وإلى ركود الاقتصاد وإلى البطالة . ويتم ذلك بفرض الزكاة والدعوة إلى الانفاق فى أوجه المصلحة العامة وعن طريـــق نظام الارث ، وتحريم الربا .

ويشكل الانفاق حركة يطلق عليها « دورة الانفاق » المربحة ، وهى تطبق فى أوقات الرخاء والكساد معاً ، فالانفاق يحقق الخير للمجتمع . ويحكم قاعدة الانفاق مقوم أخلاقى هو مصلحة المجتمع قبل مصلحة صاحب المال ومن شأن الانفاق تحقيق قاعدة إعادة توزيع الدخل القومى .

وتؤكد أحدث النظريات الاقتصادية أهمية الانفاق فى أوقات الأزمات : وهو ما يسمى « الانفاق فى الضراء » فالأزمة الاقتصادية ترجع إلى قلة دخول الانفاق مما يؤدى إلى نقص الطلب وعجز الاستهلاك بالتالى ، مما يتحتم معه زيادة فى أوقات الكساد بالتوسع فى المشروعات العامة لكى يزداد حجم الدخول ، وتزداد القوة الشرائية فينتعش الاستهلاك الأمر الذى يعجل بالعودة إلى الرخاء (١) .

ويحقق الانفاق الجماعى ثمرة سريعة ، فيولد دورة الانفاق المربحة .

• • •

وترفض الثقافة العربية « الربا » رفضاً باتاً وترى أن الواقع القائم ما هو الااضطرار لنظم فرضها الاستعمار والرأسمالية العالمية .

والربا هو كل فائدة تنتج عن قرض المال أو المنتوجات الغذائية فى التبادل التجارى . ومن أخطار الربا أنه يؤدى إلى تركيز الثروة فى أيدى فئة قليلة من الناس وحرمان المجموع منها بالتدريج ووقوع الملايين تبعا لذلك فى العبودية ، ويحرم الربا مهما كان مقداره ، إلا للمدين المضطر ،الاضطرار الذى يدفع الهلاك ويحل الله البيع ويحرم الربا ، ومن المقبول تعادل القيمتين المتبادلتين ويحرم ماعدا ذلك .

---

(١) انتفعنا فى هذا الجانب بكتابات مصطفى السباعى وعبد المغنى سعيد .

(٣)

الثقافة العربية

فى مواجهة الثقافة الغربية

الباب الخامس

(١)

الثقافة العربية فى مواجهة الثقافات الاجنبية

عاشت (الثقافة العربية) حياتها على قاعدتين :

الأولى : النمو والحركة من خلال مصادرها ومقوماتها .

الثانى : الانفتاح على الثقافات المختلفة شرقية وغربية .

وقد واجهت عديدا من التحديات فى تاريخها الطويل ، وهى تحديات المذاهب الفلسفية والأديان والمذاهب المختلفه التى كانت تذخر بها بلاد العالم الاسلامى من بوذيه ومجوسيه ووثنيه وفلسفات هيلينيه وهندية وفارسيه ، وقد تحولت هذه المذاهب والفلسفات إلى قوى غازيه تمثلت فى دعوات الباطنية والمانويه والقرامطة وغيرها من الدعوات التى واجهها كل من الفكر الاسلامى والثقافة العربية والتى كانت بمثابة غزو فكرى شديد المراس، له مدارسه ودعاته وقواه ، وأبرز مظاهره الشعوبية، التى كانت تريد تحطيم الفكر الاسلامى بإثارة الشبهات ومحاولة تحريف القيم الأساسية، ومن هذه النظريات : محاوله إعلاء العقل إعلاء آ يقضى على قيم أساسية للفكر الاسلامى هى : تكامل المعرفة القائمة على التوازن بين ثقافة القلب وثقافة العقل ، ومحاولة إدخال مفاهيم وحدة الوجود والحلول والاتحاد إلى نظرات المعرفة والتصوف ومحاولة فرض المنطق اليونانى ونظرية أرسطو على الفكر الاسلامى .

وقد استطاع المفكرون المسلمون العمل على تحرير الفكر الاسلامى والثقافة العربية من مثل هذه الشبهات .

واليوم تواجه الثقافة العربيه مثل هذا التحدى فى ظل ظروف أشد عنفا ، فقد كانت الثقافة العربيـــه فى فترة نقل الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية تملك

حريتها الكاملة فى هذا المجال ، وكانت قادرة على الاختيار والنقل لكل ما تراه من هـذا التراث صالحاً له ونافعا ومضيفا إلى فكره أسلوبا ومنهجا ومادة ، وقادرة أيضا على الرفض لما تراه معارضاً لقيمها الأساسية .

ومع ذلك فقد واجه الفكر الاسلامى والثقافة العربية من جراء هذه المحاولة أخطاراً لاحد لها وتحولات وشبهات غاية فى الخطورة ، وقام المجددون والمصلحون ومصححو المفاهيم من الأئمة الأعلام أمثال ابن حزم والغزالى وابن خلدون بجهد ضخم فى سبيل إزالة النتائج التى ترتبت على هذه الآثار والتى اتخذها خصوم الفكر الإسلامى والثقافه العربية وسيلة لمحاولة تدمير القيم الأساسية وإثارة الشبهات حولها وهى قضية ضخمة يجب أن تعرض لتكشف عن هذه الأخطار التى واجهتها الثقافة العربية ثم استطاعت التحرر منها بعد وقت ليس بالقصير .

أما اليوم فإن الثقافة العربيه تواجه هـذا التحدى الجديد فى جو هى فيـه أقل تماسكا وقوة وصموداً ـ لأنها ماتزال خارجة ثمة من مرحلة ضعف وتخلف استمرت قرنين من الزمان ـ ، ولأمر آخر أشد خطراً ، وذلك أن يد الثقافة العربية ليست منطلقة بالحرية فى أن تأخذ ماتشاء أو تدع ماتريد ، وأن هناك قوة قاهرة تفرض عليها هذا الفكر الغربى وتحميه وتدافع عنه وقد أقامت هـذه القوة القاهرة لذلك مؤسسات ثابتة لن تزول فى عهد قريب ، كما أقامت له وسائل حماية ضخمة من صحف ومجلات ذات شهرة ومن كتاب متغربين لهم مراكز ضخمة فى المجالات الثقافية والتربوية ، ولهم صوت مسموع فى كل ناد، هذا بالاضافة إلى ضعف جبهة المواجهة وقوى تصحيح المفاهيم والرد على الشبهات حيث لايجد صوتها الصدى ، ولايكاد يصل إلى الجموع العامة ، وليس له مثل ذلك النفوذ ، ومن هنا يبدو مدى الخطر الذى تواجهه الثقافة العربية فى عصرنا الحاضر وفى ظل قوى الاستعمار ونفوذه الاجتماعى والسياسى والثقافى المتمثل فى بعض قواعد الغزو الفكرى فى العالم الاسلامى والبلاد العربيه .

ولا شك أن هذه القوى الفكرية الغازية باسم الاستعمار الثقافى والغزو

الفكرى ، والتغريب والشعوبيه قد بدأت تحول دون قدرة الثقافة العربية على التكامل والمقاومة واستكمال نفوذها وقوتها وأثرها الذى يجب أن يكون بعيد المدى فى تحرير الفكر والثقافة والتماسها مقوماتها الأساسية القادرة على أن تمكنها الحرية والمواجهة فى جو أشد مايكون خطراً بعد نكسة حزيران ١٩٦٧ حيث يقوم النفوذ الأجنبي بحملات ضارية من حملات الحرب النفسية والغزو الثقافى وحيث تصدر اليوم صحف لامعة وكتب باهرة تحمل تلك السموم الخطيرة والبعيدة الأثر فى جيلنا وأمتنا ، ومن هنا كان لا بد من صيحة قوية تدعو إلى تحرير الثقافة العربية من مفاهيم التغريب والشعوبية وشبهات المبشرين والمستشرقين وأباطيل الصهيونية وتحريفات الماسونية ومفاسد الشعوبية بالإضافة إلى وثنيات اليونان والمجوسية ودعوات الإلحاد والإباحية .

° ° °

إن أخطر مايواجهنا به الغزو العلماني المؤيد بالنفوذ الأجنبي الاستعماري يتمثل فى عدة محاولات :

(أولا) انتزاعنا من جذورنا ، وفصلنا عن ماضينا وذلك بالدعوة الصاخبة إلى مخاصمة التراث الماضى والجـــذور وذلك على النحو الذى يفصلنا عن قيمنا الأساسية .

وفى هذه الحملة يتجلى محاولة التغريب فى إتهام الماضى واحتقاره وإثارة الشبهات حوله . والدعوة إلى التخلى عنه نهائياً ، وهو مالم تفعله الثقافة الغربية التى لم تجد سبيلا إلى بعث النهضة إلا بإحياء التراث القديم الهلينى وإعادة بعثه واعتماده أساساً عميقاً لكل ماوصلت إليه الثقافة من تطور وحركة .

ولكن النفوذ الاستعمارى لايؤمن بالمنهج العلمى المجرد من الهوى ، فيتعامل مع تراثه بإيمان وقداسة ويعتبره مصدراً رئيسيا لنهضته بينما يحاول معنا إتهام تراثنا وإثارة الشبهات حوله ودعوتنا إلى إهماله والتحرر منه .

(ثانيا) إثارة الدعوى القائمة بأن الثقافة إنسانية ولذلك فليس هناك ضرورة لقيام ثقافات قومية ، والقول بأن العالم كله يجرى نحو الوحدة الفسكرية العالمية ، وتلك من أخطر دعوات التغريب والغزو الثقافى .

والحق أن قيم الثقافة العربية تختلف إختلافا واضحا عن قيم الثقافات الأخرى مستمدة جذورها من القرآن واللغة العربية والإسلام والتاريخ العربى الإسلامى والتراث ومن الذاتية العربية الواضحة المزاج النفسى والعقلى .

وكذلك قيم الثقافات الغربية ذات الطابع الخاص المختلف بل المتباين أحيانا عن قيم الثقافة العربية ، هذه القيم التى قامت على أسس مستمدة من المجتمع الأدنى وقد شكلتها عوامل تاريخية مختلفة تتمثل فى ذلك اللقاء بين التراث اليونانى والقانون الرومانى والديانة المسيحية ثم تشكلت فى ذلك المزيج الذى وصف بأنه « إطار مسيحى ومضمون يونانى رومانى ، ثم كانت حركة لوثر وكالفن واستمدادها من الفكر الإسلامى ومحاولتها تحرير المسيحيين من نفوذ الكنيسة ، ثم ظهور الثورة الصناعية فى أوربا مستمدة من المنهج العلمى التجريبى الإسلامى ، ثم قيام الثورة الفرنسية ، كل هذا قد خلق نزعات أدبيه وفلسفية كونت عناصر الثقافة الغربيه ، فكانت الفلسفة المادية وليدة هذا التطور .

فى ضوء هذا كله تكونت للثقافات الغربية قيما ومفاهيم تختلف كل الاختلاف عن قيم ومفاهيم الثقافة العربية ، فإذا قيل إن الثقافة « إنسانية » كان معنى هذا أن الثقافة الغربية صاحبة النفوذ الأقوى سياسياً وعسكرياً والمسيطرة والمحتلة للعالم العربى ، هى القادرة على أن تفرض نفوذها وتصهر فى بوتقتها الثقافة العربية ، ولما كانت الثقافة العربية عميقة الجذور ، ذات تاريخ عريق وماض أصيل ولما كانت هذه الثقافة ممتدة لم تتوقف ولم تنفصل عن واقع الأمة العربية ، فإنه من العسير عليها أن تنصهر فى ثقافة أخرى أو تذوب فى بوتقتها .

(٢)

وجوه التباين والاختلاف بين الثقافتين

تتباين طوابع الثقافات الغربية وتختلف إختلافا واضحاً عميقاً عن طوابع الثقافة العربية فى عدد من القيم الأساسية أهمها :

(أولا) لا ترى الثقافات الغربيه إن « الدين » جزء أساسى من تكوين فكرها وثقافتها ، وترى أن المسيحية الشرقية كانت عارضاً من العوارض التى التقت بها وأصابتها بالانحراف لأنهـــا نقلت إليها روح النسك الآسيوية ولـكن الثقافة الغربيه استطاعت امتصاص هـذا الرافد وصهره فى روحها الأساسية التى تدين للوثنيه اليونانية وحضارة روما القديمة .

بينما الثقافة العربية تؤمن بالدين جزءاً أساسياً لا ينفصل عن المجتمع .

ثانياً : تؤمن الثقافه الغربية بأن محتواها العلمى والأدبى والفنى والصناعى إنما يهدف إلى خدمة الإنسان الأوربى قبل غيره وعلى حساب غيره ، وليس إلى خدمة الانسان بصفة عامة أو من حيث هو بشر .

بينما تؤمن الثقافه العربية بالطابع الانسانى وترى أن قيمتها لخدمة البشرية جميعـــاً .

ثالثاً : تؤمن الثقافات الغربيه بحلول للمشا كل على قاعدة القوة وأسلوب الميكافيلية الذى تنفصل فيه الأخلاق عن السياسة ، وعلى قاعدة الغاية التى تبرر الواسطة .

بينما تؤمن الثقافه العربية بالحلول الأخلاقية ولا تبرر الوسيلة عندها الغاية .

رابعاً : تقوم الثقافه الغربية على أساس إنفصال الضمير عن العلم وسيادة المادة على الضمير .

بينما تؤمن الثقافة العربية بأن الضمير أساس العلم والحضارة .

خامسا : الثقافات الغربية تتشكل فى صورتين : صورة الفردية الرأسمالية ، وصورة الجماعية الماركسية وهما مذهبان يتنازعان ويتصارعان ، بينما تقوم الثقافة العربية على أساس الجمع بين الفردية والجماعية فى تناسق وتكامل وتوازن وامتزاج .

وحيث يؤمن الغرب بقداسة الفرد والشخصية الانسانية ، يؤمن الفكر الماركسى بقداسة الجماعة ويرى الفرد ترسا فى آلة .

هذا بينما تؤمن الثقافة العربية بالانسان سيدا للكون تحت حكم الله ، وعضوا مؤثرا فى الجماعة ، فهى لا تنكر مكانته كإنسان ولا تنسى دوره فى الجماعة .

سادساً : تحاول بعض المذاهب فى الثقافات الأوربيه إثبات أن الانسان عبد نزواته وغرائزه الجنسية وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال فى توجيه الانسان وبهذه النظريات أدخل الانسان إلى حظيرة الحيوان .

وهذه المفاهيم تتعارض مع مفاهيم الثقافة العربية التى ترى للانسان كرامة تعلو على المخلوقات جملة وترى له سيادة تحت حكم الله ترفعه بالعقل وتكرمه بالايمان .

سابعاً : تفصل مختلف مذاهب الثقافات الغربيه بين الروح والمادة ، والعقل والقلب وبين الدين والحياة بينما تؤمن بالثقافة العربيه بالوحدة بين هذه العناصر والالتقاء والتوازن فيها .

كما تنكر الثقافات الغربية الغيبيات وتؤمن بمادية الحياة وبالمحسوس والملموس بينما تؤمن الثقافة العربية بأن هناك جانبا من الحياة لا يصل إليه الحس أو النظر ولكنه يفهم بالعقل والايمان .

ثامنا : تعلى الثقافات الغربية من شأن الجنس وتحاول أن تجعـــل للآريين والبيض والغربيين إستيلاءاً على الساميين والملونين والشرقيين ، وتحاول بهذا الإعلاء أن تجعل للاستعمار سيادة على الأمم التى وقعت تحت سيطرة الاحتلال الأجنبى . وفى هـذا تختلف الثقافات الغربية عن الثقافة العـربية التى ترى أن الناس سواسية كأسنان المشط وأنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا أبيض على أســـود إلا بالتقوى والعمل .

تاسعا : تنظر الثقافات الغربية إلى الاسلام على أنه « دين » : مثل الأديـــان الأخرى اللاهوتية التى تقف عندالعلاقة بين الله والانسان ، بينما تنظر الثقافه العربية إلى الانسان نظرة أكثر عمقا وواقعية حين تراه (ليس دينا فقط) ولـكنه دين ونظام حياة وحضارة .

عاشرا : تؤمن الثقافات الغربية بما يسمى سيادة أوربا وسيادة الغرب ، وأن باقى الأجناس والقارات فى الدرجة الثانية ، وأن هناك حقا مقدسا على البيض أصحاب الحضارة فى السيادة على الأجناس والامم وحق تمدينها ، وهذا هو التفسير الفلسفى للوجود الاستعمارى ، بينما تؤمن الثقافا العربية بأن الحضارات ليست استعماراً وسيطرة ، ولـكنها ~~إخاء ومساواة وحرية~~ لقاء بين الأمم

حادى عشر : تدعو الثقافات الغربية إلى إطلاق الحياة وتحريرها تحريرا كاملا من كل القيود وقد أصبحت هذه الإباحة طابع المجتمعات بالاضافة إلى الالحاد الذى هو طابع الفـكر ويستتبع ذلك تعرية كاملة للنفس الانسانية وإعلاء جانب الغرائز والملذات وإطلاقها إلى آخر مدى ، والعمل على كشف الجوانب الحيوانية والمادية والغريزية والجنسية وتبرير حريتها وتوجيه كافة المفاهيم والقيم لخدمة هذا الاتجاه .

وتختلف الثقافة العربية مع الثقافات الغربية فى هـذا المعنى ، وترى أن لـكل حرية ضوابط ، وأن المجتمعات لا تستطيع أن تخرج عن مقومات أساسية قائمة

على الأخلاق، وترى أن فى ذلك حماية للانسان من الانهيار والانحلال ، وترى أنه الانسان القوى الصادق هو إنسان الثقافة العربية ، إن نظرة الثقافة العربية هى نظرة متفتحة منطلقة ولكنها لا تطلق العنان للغرائز ولا تفتح الطريق الى الملذات والشهوات ، هذه النظرة التى تؤكد الباحثين والفلاسفة الغربيين المنصفين جميعا حاجة الإنسانية اليها اليوم فى مواجهه أزمة القيم ونمو مجال الماديات مع تجاهل حاجة النفس الإنسانية إلى الضمير والروح والإخلاقيات .

الفصل السادس

(٤)

أصول الثقافة الغربية ومصادرها

تستمد الثقافات الغربية مصادرها ومنابعها من قوى متعددة :

(١) الإغريقية الوثنية .

(٢) المسيحية الغربية .

(٣) الإسلام .

(٤) الماسونية الصهيونية .

(٥) الماركسية .

(١)

الإغريقية الوثنية

أما الاغريقية الوثنية فهى المصدر الأساسى لهذه الثقافات ، ومنه تنطلق أغلب التيارات الجديدة ، وتؤكد الثقافة الغربية عراقة صلتها بثقافة اليونان القديمة وحضارة روما ، ويؤكد رجال الثقافات الغربية أنهم يستمدون غذاءهم الفكرى من مآثر اليونان والرومان وأنهم يعملون على الوفاء بما وضعته من القيم وتؤكد الثقافة الغربية أصالتها اليونانية باعتبارها المصدر الأول والأعظم .

وتقف من المسيحية الشرقية موقفها من رافد أصابها بالانحراف ، إذ أعتبرت أنها كانت دخيلة على الروح الأوربى وأنها نقلت إلى أوربا (روح النسك الآسيوية) وكيف أن الثقافة الغربية إستطاعت أن تنتصر عليها بعد قليل وأن تتحرر من مفاهيمها ، وكيف تمكنت الثقافة الأوربية من إبتلاع المسيحية وإختصاصها وتمثلها وكان فى ذلك التحرر لمنطق الغرب من روح النسك الاسيوية ، والتخلص من روح اللاهوت الكنسى وكيف أن أوربا لم تكن متدينة فى وقت من الأوقات (١) . ولكن هل كان هذا حقا ، وأن المسيحية لم تؤثر فى الثافة الغربية تأثيرا جذريا بعيد المدى وأن المسيحية (الغربية) تلاقت مع الوثنية اليونانية فى كثير من القيم وخاصة فى نظرية التثليث التى كانت موجودة بالفعل فى الفكر الاغريقى والفكر الفرعونى والفكر الهندى القديم .

وقد كان يمكن أن تنتصر الثقافة بعاملى الاغريقية الوثنية والمسيحية الغربية . ولكن عاملا خطيرا بعيد المدى — ربما لم يكشف عنه بوضوح حتى الآن — كان له أثره البعيد فى تشكيل الثقافات الغربية ذلك هو روح (الفكر اليهودى الماسونى الصهيونى) الذى يمكن القول بلا مبالغة أنه كان مصدراً خطيراً وهاما فى تحول

---

(١) راجع ما أوردة (اسماعيل أحمد ادهم) فى من الشرق الغرب (الرسالة ١٩٣٦)

الثقافات الغربية عن مفاهيمها ثم كانت الماركسية فى العصر الحديث عاملا جديدا فى الثقافة الغربية بعيد المدى .

* * *

٢ — ويمكن القول بأن النهضة الاوربية فى فجرها إنما قامت على أساس إحياء الروح الاغريقى بكل مقوماته ، بعد أن كانت قد إنفصلت عنه أكثر من ألف عام ، إذ المعروف أن الدولة الرومانية قد سقطت حوالى ٤٠٠ م وأن المسيحية قد استطاعت أن تسيطر إذ ذاك بنفوذها الغلاب إلى أن بدأت النهضة فى القرن الخامس عشر عندما أرادت إستحياء التراث الاغريقى ، وإزاحة النفوذ المسيحى المتمثل فى الكنيسة ، حتى قال البعض وبحق : إن النهضة الاوربية إنما كانت فى الواقع ثورة على الكنيسة من أجل الإنسان فى التفكير والحياة وحرية الرأى(١) . ويقول (برتراندارسل) أنه فى الوقت الذى كان الناس يؤمنون فيه إيمانا حقيقيا بالدين المسيحى فى جميع تعاليمه وطقوسه أنشىء ديوان التفتيش ، بتعذيباته فأحرقت جثث ملايين من النساء التعسات كأمثلة للعيان واستخدام إسم الدين كل أنواع القسوة ضد جميع صفوف الناس ، ويمكن القول بأن تاريخ الفكر الاوربى مشحون بالمصادفات وبمظاهر الطغيان على رجال الدين وتنظيم الكنيسة .

* * *

٣ — ويقدم الباحثون التراث الاغريقى القديم فى بناء الثقافات الغربية ويضعونه فى الدرجة الأولى : والمعروف أن الاغريق شعوب شمالية جاءت إلى الجنوب ، فقوضت حضارة قديمة لتبنى على أطلالها مدينة جديدة ، ويعد من أهم مفاهيم الاغريق نظرتهم إلى الألوهية والخالق فإنهم تخيلوا آلهة تسرح (٢) وتمرح على أولمبوس وتتصرف تصرف البشر ، ولم يشعر اليونان أمام الآلهة بأى نوع من

---

(١) دكتور البهى — الفكر الاسلامى والمجتمع المعاصر .
(٢) دكتور أنيس فريحة (مجلة الأبحاث — المجلد الأول) .

الخضوع أو التطلع إلى الرحمة بل تعاملوا مع الآلهة وفق أسلوب الصراع والغلب في غطرسة واستعلاء وإيمان بالسيادة على الأرض وهم في هذا يختلفون إختلافا بعيداً عن المسلمين الذين يؤمنون بالعبودية لإله واحد كما أنهم يؤمنون بتأليه العقل، ويختلفون في ذلك عن المسلمين الذين يجمعون في منهج المعرفة بين العقل والإيمان، ويختلفون عن بعض الأديان التي عمدت إلى إماتة الجسد والإنصراف إلى الروح الخالص ، ومن هنا بدأ التناقض بين المسيحية وبين الإغريقية ، في ذلك الصراع حقيقتين يتناقضان ، الأولى : تدعو إلى الزهادة الكاملة والانعزال عن الحياة ونفض اليد عن متاع الحياة كله ، وبينما الإغريق يقدسون الجسد وجماله ، ويندفعون إلى الغناء والرقص والشعر والتمثيل والنحت والتصوير .

٤ — ولعل أبرز ما يتميز به ذلك التراث الإغريقي هو قداسة الإنسان وإبراز كيانه وإهدار جانب الروح، وقيام جو من العداء والصراع بين الآلهة والبشر ، وانتقام الآلهة للبشر ، وصراع الإنسان مع الآلهة ومحاولة الإنتصار عليها ، وهم يتطلعون على هذا الجانب : صراع الانسان لإثبات ذاته .

فالآلهة في مفهوم الاغريق : كالبشر تماما ، وهـــذه الآلهة تلهو وتعبث وتغضب وتحب وتكره وتقترف الموبقات ، ولا ترتفع عن مستوى البشر في دوافعها وأطماعها .

وقد إرتبط بالقيم الاغريقية إنكار وجود الإله الواحد ، وإنكار النبوات وإنكار الميعاد والميل إلى الحرية المنطلقة إلى درجة الاباحة والتعطيل ، والفلسفة اليونانية بهذه المفاهيم تتنافى مع عقائد الاسلام وتعارضها منذ النقطة الأولى .

فالآلهة المتعددة ، لا الاله الواحد ، لاتميز عن البشر وهي كعامة الناس تماماً ، حتى في هيئاتها الطبيعية ، والمثل الأعلى يمجد الجسم وإعلاء شأن صاحبه الانسان وبذلك يقوم الفن اليوناني على تمجيد وتأليه الجمال الجسمي ، وتشير إلى ذلك أسطورة بجماليون الذي جد في صنع تمثال ثم مازال يمنحه كل ما كان في نفسه من صور التمثال حتى نفخ فيه الحياة فهام به وتقطعت نفسه عليه حسرات .

كما درج الاغريق على تصـــوير الرجال عراة ، بإضافة إلى شغف الاغريق

بالمصارعة . حتى ليعدون الرقص من الهياتهم الكبرى ، فكانوا يرقصون رجالا ونساء فى مجتمعاتهم العامة .

٥ — وقد تمثلت القصة الاغريقية (١) هذه الملامح جميعاً ، ملامح المثل الأعلى الاغريقى الذى امتصته الثقافات الاوربية واعتبرته أساساً لها ، حيث تقوم المسرحية الاغريقيه على الشر المحض الذى لاتلطف حدته خلجة من خلجات الخير .

وأبرز هذه الملامح : حرب طروادة الضروس الذى شغل وصف أحداثها جانباً كبيراً من (الالياذة والأوديسة) والتى طالت عشر سنوات واشتعلت نارها دون مبرر معقول ، فقد اجتمعت كلمة زعماء الاغريق بعد تفرق على شن تلك الحرب الشعواء لأن هيلينة زوجة منيلاس ، وهو من سادة القوم ، عشقت باريس أمير طروادة وهربت معه الى بلده دون أن تحفظ لزوجها عهداً ، وهكذا دارت هذه الحرب المدمرة فى سبيل إمرأة غادرة لاتستحق غير الازدراء والاهمال واصطلت الشعوب بسعيرها دون أن يكون لها فيها مصلحة أو يخفرها اليها حافز، وفى مفهوم القيم الأغريقيه : أن مشكلات الانسان الرئيسية تتولد من وقوعه فريسة لمتناقضات حياته وتصادم تيارات مجتمعه وتضارب علاقاته الاجتماعية وتوزيع نفسه بين الواجب وعجزه عن إدائه وبين الثورة على الظلم وعجزه عن دفعه ، أو وقوعه فى منهب مختلف الميول والأهواء ، والمرأة الاغريقية تتصف فى القصة الاغريقيه بالغدر فى أغلب مآسى الاغريق وتستسلم للرزيلة دون أية مقاومة ، وترتكب أبشع الجرائم مدفوعة بأحط النزوات ، وها هى ذى (هلينة) تخون زوجها فى قصة طرواده وتهرب مع حبيبها ، دون أى تردد ، أو شعور بتأنيب الضمير ، فكانت سببا فى حرب أبادت شعوباً بأسرها ودمرت بعوداً عن آخرها .

وهناك قصة (الكترا) التى تعبث فيها (كلتمسرا) بقدسيه الروابط العائلية وتتخذ لها غشيقاً فى غيبة زوجها (اخمن) الذى رحل على رأس الجيوش الاغريقية ليغزو (طروادة) وينتقم من أميرها ، ولم تكتف (كلتمسرا) بارتكاب

(١) عن بحث للأستاذ مفيد الشوباشى : الأدب العربى فى رحلة إلى أوربا .

هذه المعصية ، ولكنها أقدمت على جريرة أشد نكراً مدفوعة بشهوتها البهيمية ، فقتلت زوجها البطل غدراً بالاشتراك مع عشيقها (ايجست) . ومن أمثلة هذه القصص الوحشية التي لاتزال تجد معجبين من بين أبناء حضارة هذه الأيام ، قصة (أوديب ملكا) التي ترجمها الدكتور طه حسين في كتابه الأدب التمثيلي اليوناني وأبدى إعجابه بها ، وقال إنها وغيرها منبع الآداب العالمية !

وقصة (أوديب ملكا) تتلخص في أن الملك هو عدو الشعب وهو قاتل الملك وقد تزوج أمه وأن أبناءه في نفس الوقت هم أخوته لأمه ، ثم اقتص من نفسه وفقأ عينه بيده ونفى نفسه من المدينة وقتلت أمه نفسها خنقا ، هذا هو طابع الأدب الإغريقي . والقصة الإغريقية تقوم في الأغلب على موضوعات شاذة غير إنسانية ولو صح أن القصة الإغريقية حسنة الشكل فهي ليست حسنة المضامين وليس حسن شكلها من المقطوع به ، فقد أحصى كثير من النقاد عليها تفكك بنائها الفني وكشف عن أن أفكارها بدائية ساذجة ، وأن حوارها مفتعلا مملا وأسلوبها طنانا أجوفا ، فهي تعكس حياة شعب طمست المعتقدات الوثنية عقله وحجبت عنه الحقائق الواقعية ، وأضعفت فيه العواطف الإنسانية النبيلة واستثارت فيه الغلظة والميل إلى الشر ، ولعل له العذر في ذلك ، فان آلهة الإغريق على الأغلب قاسية تميل إلى الانتقام ، فاذا عنلها أن تنصف مظلوما أو ترحم ملهوفا اشترطت في ذلك شروطاً تجرد رحمتها وانصافها من أى سمة إنسانية ، وتحول دون تحقيق الغاية منها وهي لا تنكل بعبادها فحسب ، ولكن بعضها ينكل ببعض ويفتك به ، وليست المقادير الرهيبة التي يقع الناس في حبائلها ، ولا يستطيعون منها فكاكا إلا من تدبير هذه الآلهة ، وقد قيل إن الوثنيين الإغريق فطروا على صورة آلهتهم أو على الأصح أنهم ابتدعوا آلهتهم على صورتهم .

والادب الإغريقي يمثل كل موضوع من الموضوعات الشاذة الواردة في ملاحمه صيغ في أكثر من مسرحية : (قصة الكترا) وهي أعنف مآسي الإلياذة والاوديسا ، وأشدها إتصافا بالوحشة ظفرت بالنصيب الأوفى من إعجاب كبار الكتاب الإغريق فراح كل منهم يصوغها على طريقة مسرحية جديدة مقتصراً على تحوير بعض حواشيها دون موضوعها الاصلي ، وهناك أسطورة شذت على هيئا

الاتجاه ، هى أسطورة بينلوب ،وهذه القصة لم تحظ من المسرح الإغريقى بالاهتمام الذى حظت به قصص الخيانة والغدر والشذوذ والقتل .

هذا هو جوهر التراث الإغريقى الذى التقى بالمزاج الاوربى فأصبح المصدر الاول للثقافات الغربية ، ويتعصب الغربيون للأدب اليونانى ولهذه القيم ويرونها المنابع الأصلية الأولى والأخيرة لآدابهم وفنونهم .

وقد ساقت ريح التغريب والغزو الثقافى هذه القيم إلى الثقافة العربية وجرت محاولات ضخمة ومتعددة من أتباع المبشرين وأدوات الغزو الثقافى فى ترجمة هذه الآثار ومحاولة تطعيم الثقافة العربيه بها على أنها تراث الأمم الناهضة التى تحمل مشعل الحضارة والتقدم . وعق كثير من أدبائنا فطرتهم العربية وانقادوا وراء هـــذه القيم والمفاهيم وحاولوا غزو الثقافة العربية بها وحاول هؤلاء أن يثيروا حول هذه المفاهيم البعيدة عن القيم الإنسانية العليا جواً من الإعجاب والقداسة والادعاء بأنها منبع الآداب العالمية .

(والثقافه العربية موقف من الفكر اليونانى والتراث الإغريقى تضمه دراسة خاصة فى الفصول القادمة) ولكننا الآن بصدد أثر هذا التراث اليونانى والإغريقى فى الثقافات الغربية الحديثة باعتبارها مصدراً أولا وأساسيا لها)

٦ ـــ والتراث الرومانى هو الآخر أعطى الثقافات الغربية قيما واضحة الدلالة فى المجتمع الأوربى والحضارة الغربية المعاصرة .

فقد اتجهت روما إلى عبادة القوة ووضعت شعارها المعروف « روما سادة وما حولها عبيد » وعرفت بذلك النظام العسكرى الوحشى ، القائم على إهدار الدماء وضروب التعذيب والأطماع الخسيسة والوثنية والظلم والتحكم والطغيان والاستبداد . وقد استخدموا الرقيق ليقوم لهم بالعمل واكتفوا هم بأعمال السيادة وكذلك فعل الفراعنة والاسرائيليون .

وعرفت المجتمعات اليونانية والرومانية التهتك والخلاعة والفسق والانغماس فى الترف والملاذ .

وقد ورث الرومان الإغريق وأغرقوا فى الإيمان بالمادة ، واللذائذ الجسدية وتضخيم عالم الحس وإراقة الدم والقتل والتمثيل والتعذيب أما كلمات العدل والحرية والمساواة فهى تنطبق عليهم وحدهم ، أما غيرهم فعبيد ليست لهم حقوق ولا حريات والوجود عندهم هو الوجود المادى .

ولم تكن المفاهيم الروحية عندهم إلا مجموعة الطقوس والتراتيل التى تطورت إلى فن تمثيلى وثنى .

٧ — وبالجملة فإن أساس المثل الأعلى الاغريقى والرومانى «وثنى خالص» ، وقد اعتبرت الثقافات الغربية هذه القيم أساساً أصيلا لها إلى درجة أن يقول أحد مؤرخى هذا الفكر : «إن الفكر الهلينى وحده هو الذى كون العقلية الأوروبية كافة ، وأن المؤلف أو الكاتب الغربى الذى لم يتأثر بالخيال الهلينى فى كتابته وتفكيره تعد منتجاته ضربا من ضروب العاميه الجافة المبتذلة ، لأن المستنيرين فى أوربا يؤمنون تمام الإيمان بأن ما يستمتعون به من أدب رائع وثقافة خصبة ليس له إلا منبع واحد هو (التراث الهلينى) .

وقد تمثلت الوثنية فى عبادة الصنم وعبادة الطبيعة ، وفى التثنية والتثليث وقد وجد التثليث فى الديانات القديمة : (الفرعونيه والهنديه واليونانية) .

والوثنية هى عبادة غير الله من حجارة أو أصنام أو قوى طبيعية ، أو اتخاذ البشر آلهة أو أنصاف آلهة (وقد كان اليونان والاغريق يحولون عظماءهم إلى طور الألوهية غافلين عن صفات الإله الواحد الحق التى لا يشاركه فيها أحد ، فكان عندهم من الآلهة : أفروديت لدى اليونان ، وفينوس لدى الرومان ، وعشروت لدى الفينيقيين وآستر لدى البابليين وإيزيس لدى الفراعنة .

ومن مفهوم الوثنية فى الثقافة الغربيه : إشراك أشياء مع الله كافتراض أن لبعض المخلوقات خواص من صفات الله وأن لهذه المخلوقات صفة الابدية أو القدرة والعلم ، أو أن ثمة خالقا للشر أو خالقا للخير ، أو أن للمادة والروح صفة الأبدية أو أنها واجبة الوجود ، أو اتخاذ بعض الناس بعضهم أربابا ، وقد حرر

الاسلام الفكر البشرى من العبودية لغير الله من جماد وحيوان ونبات وأجرام سماوية وقوى طبيعية وارتفع بالانسان من ذل العبودية لأخيه الانسان ولم يخص إنسانا بمرتبة الألوهية ولا بمنزلة الخلود .

وبذلك حل الاسلام العقود التى طالما رسف العقل البشرى فيها والتى أعادها الفكر الغربى مرة أخرى منذ عصر النهضة واعتبرها أساساً له ، ومضى بها ، ثم حاول من بعد ذلك عن طريق الاستعمار والنفوذ الأجنبى لعالم الاسلام أن يفرضها على الفكر الاسلامى والثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية مرة أخرى .

وقد كان مفهوم الاسلام والثقافة العربية أن أول عوامل التحرر فى طريق النهوض هو التحرر من الوثنية، وانطلاق العقل الإنسانى من قيوده التى كبلتها بها، بحسبان أن هذه الحرية هى أولى شروط النهوض بالمستوى البشرى : تحرير العقل من عبودية الوثنية ، وإقامة قيمة عليا أساسية هى «توحيد الله» الذى ينطوى على وحدة النوع البشرى ، ذلك أن الاعتقاد بوحدانية الله من شأنه أن يرفع عن العقل البشرى ظلم الجهل ، ويزيح عن كواهله نير العبودية ويمهد أمامه سبيل الترقى وينطوى على معنى سام هو وحدة النوع البشرى .

وقد كان كفاح الإسلام قويا فى مواجهة عبادة الأشخاص أو الذوات الشخصية(١) هادفا إلى إشعار الإنسان بكرامته وبقيمته الذاتية ، كما امتد هذا المعنى فى الاسلام إلى مكافحة إنقياد الفرد لفرد آخر لذاته دون رعاية لما يحمله من مبادىء أولذاته فكرمثالية وجعل حب المسلمين للرسول حبا لما يحمله من رسالة وليس لذاته كفرد من الأفراد(٢) « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » وهكذا وجه الاسلام الإنسان نحو المبدأ دون الشخص ، وقد جاء الإسلام حربا على هذه الوثنية ، وهى وثنية تختلف عن وثنية العرب التى كانت قائمة على عبادة

---

(١) بتصرف عن بحث الدكتور محمد البهى (الرسالة ١٩٤٥)

(٢) يراجع بحث البطولة فى كتابنا (الشبهات والأخطاء الشائعة)

الأصنام وبعض الكواكب وإنما عنى الاسلام وثنية الانسان على العموم، وهى تقديس المشخص دون رعاية المبدأ أو المثال .

وقد هاجم الاسلام الوثنية وهاجم تعدد الآلهة ودعا الإنسان إلى عبادة إله واحد لا يعرف شخصه ، ولا تحد حقيقيته لأنه فوق الطبيعة وفوق ما فيها من أشخاص وجزئيات محدودة ، وقد أراد أن يكون خضوع الإنسان وطاعته لغير من يجوز عليه التغير والفناء . »

والوثنية تعدد للمعبود وتشخيص له ، أما الاسلام فهو يرفع الفرد من عبادة الشخص المحدود إلى عبادة إله واحد .

فالصراع بين الإسلام والوثنية صراع عميق الغور ، ومن هنا فان مفـاهيم الثقافة العربية المستمدة من الاسلام تختلف اختلافا جـذريا مع مفاهيم الثقـافات الغربية التى تستمد جوهرها من الوثنية .

ولذلك فمن العسير فى مفهوم الثقافة العربية قيام ما يدعى بوحدة الثقافة أو وحدة الفـكر البشرى .

٨ — لعل من خير ما يصور مفاهيم الوثنية اليونانيـــة الرومانية وأورده العلامة درابر فى عبارته الجامعة يقول : لما بلغت الدولة الرومية فى القوة الحربية والنفوذ السياسى أوجها ، ووصلت فى الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت فى فساد الأخلاق وفى الانحطاط فى الدين والتهذيب إلى أسفل الدركات ، كان مبـدؤهم أن الحياة إنما هى فرصة للتمتع ينتقل فيها الانسان من نعيم إلى ترف ومن لهو إلى لذة ، ولم يكن زهدهم وصومهم فى بعض الأحيان إلا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو بأوانى الذهب والفضة مرصعة بالجواهر ، ويحتف بهم خدام فى ملابس جميلة خلابة وغادات رومية حسناء وغوان عاريات كاسيات ، غير متعففات تدل دلالا ، ويزيد فى نعيمهم حمامات باذخة وميادين للهو واسعة .

ومصارع يتصارع فيهــا الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ولا يزالون يتصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعا يتخبط فى دمه، وقد أدرك هؤلاء الفاتحون إنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو « القوة » ، لأنه بها يقدر الإنسان أن ينال الثروة التى يجمعها أصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، وإذا غلب الإنسان فى ساحة القتال بقوة ساعده فحينئذ يمكن له أن يصادر الأموال والأملاك ويعين إيرادات الإقطاع » .

هذا من ناحية (المجتمع) أما من ناحية (الدين) فيقول (ليكى) فى كتابه « تاريخ أخلاق أوربا » : « إن الدين الروحى كان أساسه على الأثرة ولم يكن يرمى إلا إلى رفاهية الأفراد وسلامهم من المصائب والمتاعب ، وقد ظهر فى روما مئات من الأبطال والعظماء ولكن لم ينهض فيها زاهد فى الدنيا عزوف عن ملذات الحياة ، ولا تسمع فى تاريخ الروم مثالا للتضحية والإيثار إلا وتجده لا تأثير فيه للدين ولكن مبنيا على الوطنية » .

ويجمع الباحثون والمؤرخون على أن الظاهرة البارزة فى حياة الروم والتى أصبحت لها دنيا وشعاراً هى روح الاستعمار والنظر المادى البحت إلى الحياة وذلك ما ورثته أوربا المعاصرة من سلفها الروميين وخلفتهم فيه » .

ويقول الراهب اوغسطين ، إن الروم الوثنين كانوا يعبدون آلهتهم فى المعابد ويهزأون بهم فى دور التمثيل ، ومن هنا تجرأ الناس على الآلهة وأهانوها .

وأبرز مظاهر التراث الاغريقى الرومانى هو الحرية الشخصية التى لا تعرف قيداً ولا تقف عند حد ، وهى التى أثرت تأثيراً سيئا فى أخلاق اليونان ومجتمعهما فانتشرت الفوضى فى الأخلاق ، والجرى وراء الشهوات العاجلة وانتهاب المسرات والتهام الحياة ، والمعروف أن نظام أرسطوطاليس الأخلاقى مبنى على التمييز بين اليونانى وغير اليونانى ، قال أرسطو : إن اليونانيين ينبغى لهم أن يعاملوا الأجانب بما يعاملون به البهائم .

والرومان كاليونان إيمانا لمحسوس وغلواً فى تقدير الحياة وشكا فى الدين

واضطرابا فى العقيدة واستخفافا بالنظام الدينى وطقوسه واعتداداً بالقوة واحتراما زائدا لها يبلغ درجة التقديس وإنكار الحق للآلهة فى التدخل فى أمور الدنيا ولعل مما حملهم على الاستخفاف بالنظام الدينى الوثنى الذىكان سائداً فى روما هو أنه قائم على الخرافة والأساطير (١) .

هذه هى مجموعة المفاهيم والقيم التى ورثتها الثقافات الغربية الحديثة عن التراث الاغريقى الرومانى الوثنى ، وقد حرص دعاة التغريب إلى نقل هذه القيم والفلسفات والأفكار فيما ترجموا من آثار ، وفى تلك الدعوة الملحة إلى الاهتمام بالتراث اليونانى والاغريقى وتعليم اللغة اللاتينية فى الجامعات ، والهدف هو نقل هذه القيم إلى محيط الثقافة العربية وإغراقها بها حتى تكون مؤهلة للتخلى عن مقوماتها الإنسانية وحتى تفتح ذلك الطريق إلى خلق مجتمع له نفس الطابع من التحلل الخلقى والدينى وإطراح القيم العربية الاسلامية فى مجال الثقافة والحياة .

---

(١) عن بحث للسيد ابى الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

المسيحية الغربية

والركن الثانى للثقافات الغربية الحديثة : هى المسيحية الغربية .

فالمعروف أن المسيحية ، وهى الديانة السماوية التى أنزلت إلى السيد المسيح عيسى بن مريم فى فلسطين ، قد انتقلت نحو الغرب على أيدى المبشرين والدعاة إلى روما وصارعت طويلا حتى استطاعت أن تجد مكانها الى جانب (الوثنية اليونانية الرومانية) التى كانت تمثل طابع المجتمع الرومانى .

لقد وصلت المسيحية إلى أوروبا « منهجا روحيا وإرشاداً خلقيا » حيث وجدت مجتمعا له نظامه وأسسه من تشريع وسياسة واقتصاد ومن ثم فقد أصبحت بمثابة إطار لهذا المضمون، وهى بطبيعتها التى تقوم على أنها « وصايا » . وفى ظل نظام قائم وعميق فى الغرب ، لم تجد سبيلا إلا أن تنصهر فى هذا النظام دون أن تغيره.

ولقد بدا عندئذ أن هنـــاك تقارباً واضحاً بين الوثنية الاغريقية والوثنية الفرعونية وبين المسيحية المتحولة لا المسيحيه المنزلة ، وقـــد أشار إلى ذلك (أرنولد توينبى) حين قال : إن شخصيتى ايزيس وسيبيل تظهران فى المسيحية مرة أخرى (والمعروف أن ايزيس فى الديانة الفرعونية وسيبيل فى الديانة الاغريقية) فى تجلى السيدة مريم فى شخص أم الإله الكبرى ، كما نشاهد تقاطيع إله الشمس فى الصورة ذات الطابع الحربى الذى يبدو فيها المسيح فى بعض الأحيان » .

ومعنى هذا أن المسيحية السماوية المنزلة الشرقية قد تحولت حين عبرت إلى روما من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار اليونانية والبوذية والفرعونية وذلك على يد داعيتها الكبير : بولس (١٠ — ٦٥ م) وقد أشار إلى ذلك أرنست دى بنسين فى كتابه : Islam or true christianity

قال : إن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء فى الإنجيل ليس هو الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله وأن مرد النزاع القائم بين المسيحية اليوم وبين اليهود والمسلمين ليس إلى المسيح بل إلى دهاء (بولس) ذاك اليهودى والمسيحى وشرحه الصحف المقدسة على طريقة التجسيم والتمثيل ، وملئه هذه الصحف بالنبوءات والأمثلة .

وقال « إن بولس فى تقليده لاسطفانوس داعى المذهب الإنسانى قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، إنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والأقاصيص المتعارضة التى يحتوى عليها الانجيل اليوم والتى تعرض المسيح فى صورة لا تتفق في التاريخ أصلا ، ليس المسيح بل بولس ، والذين جاءوا بعده من الأحبار والرهبان الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينى الذى تلقاه العالم المسيحى كأساس للعقيدة المسيحية الارثوذكسية خلال ثمانية عشر قرنا » إ هـ .

• • •

وقد كان لأولئك الرجال المتشبعين بالفكر الاغريقى أبعد الأثر فى صبغ الديانة المسيحية بلونه الوثنى الاسطورى ، ومع ذلك فقد هاجم الفكر الاوربى والثقافات الغربية(المسيحية) أشد هجوم وأعنفه .

ومع أن المسيحية الغربية فى تقدير الباحثين والمؤرخين هي الركن الثانى للفكر الغربى فقد ثار الفكر الاوربى على الكنيسة وسيطرتها وتعسف كهنتها ، وإن ظلت الروح المسيحية تشيع فى الحياة الاوربية .

وأما المثال الأعلى المسيحى كما يصوره واحد من الدارسين المتعمقين فهى (١) « إن الطبيعة البشرية فاسدة ، أفسدتها (الخطيئة) منذ نشأتها » وما زال الغربيون يؤمنون بالنسب الاغريقى الوثنى ويرون أن المسيحية كانت دخيلة عليهم وأنهم لم يخضعوا لها وإنما أخضعوها .

---

(١) من بحث الدكتور محمد مندور

يقول إسماعيل أدهم (١) « قامت المدنية الرومانية على تراث الإغريق غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما وذهبت إليها حاملة معها نزعات المنطق الآسيوى والروح الشرقية ، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها وتمثلتها ، وكان فى هذا الابتلاع والامتصاص والتمثيل بعض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للكثير من التفاسير مرنة بطبيعتها غير حاملة فى طياتها منطق حياة إجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائعه التى هبت بها على أوربا » .

ويقول « إن أوربا (٢) اعتنقت الديانة المسيحية التى وفدت إليها من الشرق بعد أن حولتها من عقيدة تحكم ضمير الإنسان وسلوكه إلى مجرد طقوس تعبدية يلجأ إليها الإنسان ليكفر عن خطاياه أو يستدر عطف الآلهة ، ولم يجعلوا للدين فقط تلك الفعالية اليقظة التى تسير أعمال الانسان كما هو الشأن فى الإسلام .

« وقد حاولت الكنيسة الكاثوليكيه فى العصور الوسطى بواسطة البابوات ، أن تمكن للدين فى قلوب الناس وتصرفاتهم فقيدت ذلك بقيود تعسفية لم يلبث العقل الاوربى حين تفتح فى عصر النهضة أن رفض الدين المسيحى كله وهكذا عادت أوربا من جديد إلى حالتها الأولى من الوثنية ، وخلقت آلهة جديدة تسميها تارة العقل وأخرى العلم وأخيراً الانسان ، وعادت عقلية أوربا وحضارتها إلى جذورها الأرضيه وقطعت علاقتها الروحية بالسماء » .

وهذه شهادة منصف لأوربا ، وموقفها الحق من المسيحية الإلهية .

ويقول روبرت بالمر فى كتابه (تاريخ العالم الحديث) :

« أخذت المسيحية تحت زعامة (بولس) الذى ينتمى إلى ميلاد يهودى وجنسية رومانية وثقافة إغريقيه تحصل على أتباع جدد ، وكان هؤلاء يدخلون فى هذا الدين الجديد غير مكترثين بدينهم القديم .

---

(١) و(٢) مجلة الرسالة م ١٩٣٥

وقد انتشرت المسيحية فى البداية بين الفقراء ، والمحرومين من بهـــاء الحياة الإغريقية وزهو الحياة الرومانية أو من المستعبدين الذين لم يكن لهم إلا رجاء المسرة على الأقل فى العالم الباقى ، ثم أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً بين أفراد الطبقات الأخرى ، وقد لقيت موجة عارمة من الاضطرابات والفتن حتى القرن الرابع (٣١٢ م) حينما دخل الامبراطور قسطنطين فى الديانة المسيحية ولم يكد يحل القرن الخامس حتى أصبح جميع العالم الرومانى يدين بالمسيحيه رسميا ، وقد دخل فى المسيحية المفكرون والرجال الذين أخذوا على عاتقهم توحيد المعتقدات المسيحيه مع الفكر الإغريقى الرومانى التقليدى وفلسفته التى مر عليها ألف عام ، « وكانت أهمية المسيحية فى المجتمع الرومانى أنها جلبت مفهوما جديداً للحياة البشرية فبينما قاد الإغريق الانسان إلى عقله فإن المسيحية دلته على روحه وعلمته أن الأرواح قيما متساوية فى نظر الله وأن كل نفس بشريه مقدسة وطاهرة ، وبينما عرف الاغريق جمال الجسد عرفت المسيحيه جمال الروح ، وآمن المسيحيون بأن الله هو الحب ، ودعا المسيحيون إلى التحسس بالألم على أساس أنه صفة إلهية ، لأن الله نفسه (أى المسيح) قاسى الآلام بهيئة الانسان على الصليب(١) .

« ولم يلبث المسيحيون أن استبدلوا القناعة الذاتية بثمرات الأعمال البشرية التى كان يؤمن بها الاغريق والوثنيون بأن أخذوا يعلمون الناس الخشوع والتواصل لله ، وقد اختفت بفضل المسيحية عقائد الوثنيين فى آلهتهم المحلية أو القبلية أو القومية وأصبح على جميع العـــالم أن يعتقد بإله واحد وطريق واحد للخلاص من الآثام .

« ولم يكن نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس فبعض الآلهة يتصرفون كالناس وبعض الناس أكثر شبها بالآلهة من غيرهم فالإمبراطور كان يعد فى الحقيقة إلها : « الإله قيصر » وقد أقيمت العبادة للقيصر على أنه ضرورة لإدامة الدولة التى كانت هى العالم نفسه » ، « وقـــد رفض المسيحيون ذلك بشدة وامتنعوا عن قبوله .

---

(١) فى مفهوم الاسلام : اعلاء السيد للمسيح النبى المرسل عن الصلب

« وقد عرض القديس أوغسطين العقيدة المسيحية بصورة منظمة وواضحة فى كتابه مدينة الله (٤٢٠ م) قال المسيح : أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وكان لهذه العقيدة أثرها فى تطور الحضارة الغربية ، كان العالم: عالم القيصر فى عهـــد القديس أو غسطين قد أشرف على الانهيار فقد نهب البرابرة الوثنيون روما نفسها عام ٤١٠ م وكتب أوغسطين كتابة فى ظل هذه الحادثة ليطلع الناس بأنه وإن كان العالم قد تلاشى فإن هناك عالما آخر أكثر خلودا وأهمية ، وقال : إنه يوجد فى الحقيقة مدينتان : المدينة الأرضية والمدينة السماوية ، فمدينة الإنسان زائلة ومدينة الله هى الخالدة والمدينة الأرضية هى ملك الدولة والامبراطورية ، وقال إن الامبراطور إنسان.والحكومة ليست أزليه ومطلقة التصرف،وأنها تقاضى وتصلح ، وهى خاضعة فى الواقع بطريقة ما إلى قوة روحية عليا، وأن هذه القوة تقع فى مدينة الله ، ونجا العالم الغربى بهذه الثنائية المسيحيه من البابوية والقيصرية (Caesarpopism) التى يجمع فيها شخص واحد سلطتى الحكم والبابا، أى السلطتين المدنيه والدنيوية ، ولم تلبث السلطة الروحيه والسلطة السياسية أن انفصلتا إحداهما عن الآخرى وأسقطتا وبدأ الخلاف بين البابوات والملوك .. » ا . هـ

لقد حاول (روبرت بالمر) أن يصور مدى تأثير المسيحية فى الوثنيه والوثنية فى المسيحيه وهو ما عرف من بعد (بإطار من المسيحية ومضمون من الوثنية اليونانيه الرومانيه) على النحو الذى أصبح يمثل ركيزة أساسية فى الثقافات الغربيه الحديثه وهذا هو ما حاول تصويره « توينبى » حين قال : لقد كانت المسيحيه لامتزاج الحضارتين : اليهودية واليونانية ، حيث لم تستطع المسيحيه أن تصبح دولة خلال عمر المسيح أو بولس لأنها نشأت داخل تخوم دولة عالمية موجودة آنذاك هى الإمبراطوريه الرومانيه ، وقد استغرق تمسيح هذه الامبراطورية من الكنيسة الكاثوليكيه مدة ثلاثمائه سنه .

ويكاد الباحثون جميعا والمتخصصون منهم يجمعون على أن المسيحيه الغربيه هى منظومة خاصة جامعه بين المسيحيه الشرقيه والوثنيه الفرعونيه والتراث

الإغريق : يقول سلامه موسى والديانة المسيحية مؤلفة من عنصرين : أحدهما خاص باللاهوت والآخر خاص بالأخلاق ، فالأول : وهو اللاهوت يرجع الفضل فيه إلى المصريين فإن النظريات الخاصة بالثالوث المقدس أو التجسد أو البعث هي نفسها النظريات التي كانت شائعة عند المصريين فإن الربة (السيس) هي العذراء التي تلد (هورس) من رب الأرباب (اوزوريس) ، ويمكن أن تتبـــع تطور الفن المسيحي من مصـــر إلى روما حتى تصير (ايسيس) وابنها (هورس) كلاهما مريم وابنها السيد المسيح ، هـذا من حيث اللاهوت ، أما من حيث الآداب المسيحية ، فالفضل فيها يرجع إلى الإغريق ، فإن من يقرأ مجادلات الرسل يشعر بالروح الإغريقية التي كانوا متشبعين بها في تبشيرهم الأمـــم الوثنية ، ويكشف البحث عن علاقة واضحة بين الفرعونية والوثنية اليونانية وبين المسيحية الغربية .

فقد حملت المسيحية كثيراً من الروح المصرية القديمة نتيجة لأن الكنيسة الأولى للعهد الأول للمسيح استمدت تعاليمها من مصدرين : انطاكية والاسكندرية ويبدو هذا التشابه في مواقف عديدة .

(أولا) في التثليث يقول جوستاف لوبون : إن أغلب آلهـــة المصريين تظهر في شكل الثالوث الأقدس ، هذا الثالوث يتألف من الأب والأم والابن وكل مدينة تعبد خاصة أحـد هؤلاء الآلهة الثلاثة ، ولـكن هناك ثالوثا واحداً بينها كانت ديانة عامة في وادي النيل هي (اوزوريس وايزيس وحورس) .

(١) الا كليروس : كان نظام الا كليروس أو توظيف رجال الدين قائما في الفرعونية كما هو في النصرانية ، وكان للمعابد الـكبيرة ولرؤساء الـكهنة حرس خاص وفق نظام الميليشيا لتنفيذ أوامره ، كما كان موجوداً عند بابوات القرون الوسطى كما لا تزال موجودا في الفاتيكان .

(٢) نظـام الطبقـات : يقـوم في الديانة الفرعـونيـة عـــلى أسـاس
١ — الـكهنة والأسرة المالـكة . ٢ — الـكتاب والمشائين .

٣ — الجنود ورجال الجيش .   ٤ — الفلاحين والعمال وصغار الموظفين .

وكان هذا مشابها للنظام المسيحى الاوروبى فقد كانت طبقات أوربا فى القرون الوسطى وعهد الاقطاعات تنقسم إلى طبقتين : الاشراف ورجال الدين ، ثم الأجراء والعبيد .

(٤) صكوك الغفران : كانت معروفة فى وثنيه الفراعية ثم عرفت فى النصرانيه .

(٥) المرأة والوظائف الدينية : الفرعونيه النصرانية اشتركتا فى إدخال المرأة فى حظيرة المهام الدينية فتولت الكثير من الأعمال فى معابد آلهة المصريين القديمة .

(٦) القربان والمعابد : اتفقت العقيدتان فى مسألة القربان وقداسته وهو فرع عن الوسيلة والوساطة .

(٧) الموسيقى والأناشيد .

(٨) الخمر والخنزير : كانت مباحة عند المصريين القدماء .

(٩) توابيت الموتى : كانت توابيت الموتى من أنظمه ديانات قدماء المصريين .

(١٠) العلامات والرموز : أشار الدكتور جرجى إلى أن الفنون تظهر العلاقات الشديدة بالفن المصرى القديم .

(١١) اللغة : ظهر ارتباط لاينفصم بين الديانةالقديمة وبين النصرانية فى مصر مو اللغة (الهيروغليفية العامة) .

ويصدق فى هذا قول العلامة توينبى : إن المسيحية التى لايمكننا أن ننازع فى حيويتها كانت تركيبا متألقا جسوراً بين اللاهوت اليهودى والفلسفة الإغريقية .

* * *

ولعل أبرز مفاهيم المسيحة الغربية هى (الخطيئة) ويتلخص هـذا المعنى فى العقيدة المسيحية أن الله تعالى لما خلق آدم من تراب وأسكنه وزوجه الجنة أغلهما الشيطان بالمعصية ، هذه المعصية كما يقول الإسلام تطلق عليها فى المسيحية كلمة « الخطيئة » وعندهم أن البشر واقعون جميعا منذ آدم إلى اليوم تحت سلطان هذه الخطيئة وأن فداء هذه الخطيئة هو المسيح الذى افتدى البشرية بالموت على الصليب مكفر عن هذه الخطيئة .

أما الإسلام فلا يرى هذا المفهوم ويصور عمل آدم بأنه معصية ،وأن الله قـد تاب على آدم وغفر له معصيته التى لا ذنب للبشرية فيها ولا عقوبة عليها نتيجة لها، فليس فى الإسلام خطيئة موروثة فى الإنسان قبل ولادته يحتاج فى التوبة عنها إلى كفارة من غيره .

ولاشك أن ألفاظ ومفاهيم : الخطيئة والصلب والفداء والخلاص لا تحمل فى مفهوم الثقافة العربية نفس المفهوم الذى تحمله فى عبارات المسيحية الغربية .

الـكنيسة الـكاثوليـكية

من أهم معالم المسيحية الغربية الـكنيسة ولها دورها التاريخى فى الثقافات الأوربية ويرى الأب لويس شيخو اليسوعى فى كتابه (خلاصة الدين المسيحى(١)) أن معنى كلمة المسيحية ehurch ليس مقتصراً على دور العبادة المسيحية فقط بل تفيد « المجتمع المسيحى » بأسره بعلاقاته المادية والمعنوية إذ يرتبط أعضاء ذلك المجتمع بالسيد المسيح رأس الـكنيسة الأوحد عن طريق الإيمان ، أما كلمـة كاثوليـكية (ea Tho Lie) فيقصد بها الرسالة العالمية ولم تـكن التسمية الأخيرة مقتصرة على كنيسة روما فى بداية الأمر إلا أنها أصبحت كذلك تميزا لرومان الـكنائس الشرقية خاصة كنيسة القسطنطينية الأرثوكسية منذ عام ١٠٥٤ م بشكل قاطع .

ويرتـكز الدين المسيحى بصورة عامة على ما جاء فى العهدين القديم والجديد وعلى ما تناقلته الألسن مما لا يكتب ، وتدور العقيدة المسيحية حول الخطيئة الأولى(Originalsia) خطيئة آدم حينما عصى ربه فعوقب بالسقوط إلى الأرض وتعرض لغضب الله فعوقب بالأمراض والموت ثم شمل الغضب ذرية الإنسان ، وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة فى نسله ، هذا ويعتقد أن كافة الأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل المسيح مهمتهم الإعداد لإنقاذ البشرية من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح .

وتعتمد الـكنيسة فى عملية الإنقاذ على رموز دينية يشاركها بالأسرار السبعة (Sacranents) وسميت بالأسرار لأنها صلات الوصل الخفية التى توطد الرابطة بين المسيح وأتباعه .

والأسرار السبعة قد تبلورت نهائيا فى العالم الغربى فى منتصف القرن الثانى عشر حين عالجها (بطرس لمبارد) أحد أساتذة اللاهوت فى باريس ١١٦٤ م فى كتابه الآراء وعن طريق ممارسة تلك الأسرار تختص الـكنيسة ، وجعلت هذه

---

(١) من كتاب العصور الوسطى الأوربية : د . عبد القادر أحمد يوسف .

الأسرار سبعا حددها المسيح نفسه ، ولأن حياة الإنسان الروحية كحياته الجسدية تتطلب هذا العدد وأهم هذه الأسرار التعميد (Reptism) وهو السر الذى قصد به إزالة الخطيئة الأولى ومنح الولادة الروحية الثانية ويتم ذلك عن طريق الماء عادة بالرش أو الغسل أو التغطيس .

ويصور المؤرخون الكنيسة الكاثوليكية فى العصر الوسيط بأنها أشبه بحكومة ملكية حيث يقف البابا على قمتها وهو السيد المطلق فى الشئون الروحانية والمشرع الأعلى ، وليس هناك من مجلس مهما سمت منزلته له حق أن يشرع قوانين ضد إرادته ، وأن كل تشريع يعتمد على موافقته ، ويمكن للبابا إلغاء أى قانون مهما كان قديما لم يشر إليه فى الإنجيل ويساعد البابا مجلس من الكرادلة : (جمع كردينال) .

والكنيسة مجموعة شرائع قانونية استندت على مقررات المجالس الدينية العالمية منذ مؤتمر نيقا عام ٣٢٥ م وما بعده وعلى قرارات البابوات ويمكن للبابا أن يصدر عقوبة التحريم (Excommunication) يقاطع بموجبها من صدرت بحقه دينيا ودنيويا وقد يفرض البابا عقوبات التحريم ضد مدن وأقطار بكاملها .

وقد بلغت الكنيسة الغربية درجة كبيرة من القوة فى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر حيث توضحت فى سياسة البابا (أنوسنت الثالث) وظهور فرقتى الفرنسيسكان والدومنيكان ونشاط الأديرة النسائية ومحاكم التفتيش ، وفى عهد أنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) بلغ نفوذ الكنيسة أعلى مراحله حيث تمكنت من فرض سطوتها على عدة ملوك فى أوربا وأصبحت ممالكهم تابعة بالمعنى الإقطاعى للبابوية وهم (إنجلترا — البرتغال — الاراكون) .

ولم يكن يعترف بأية سلطة دنيوية مساوية لسلطة الكنيسة إقراراً بالقاعدة التى تقول إن المسيح ترك لبطرس الكنيسة والسلطة على كافة العالم ، وأن البابا هو وريث إصلاحيات كل من القديس بطرس وقسطنطين الكبير .

ومن المعترف به إذ ذاك أن السلطة البابوية أسمى من السلطة السياسية ، وقد

اتخذت قرارت هامة تتعلق بوحدة العالم المسيحى ومحاربة البدع الدينية دون هوادة ، وكان من أبرز أعمال البابوية والكنيسة : الدعوة والاعداد والدعم للحملات الصليبية التى شنت على العالم الإسلامى خلال مائتى عام تقريباً تحت شعار « ما جئت لألقى على الأرض سلاماً بل سيفا » .

٧ — ويجمع المؤرخون أن المسيح لم يفكر فى إنشاء كنيسة وإقامة كهنة عليها وإنما جاءت هذه الفكرة من « بولس » حتى يصلوا إلى القول بأن المسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول المسيحى هى « مسيحية بولس » : على حد قول التعبير السائد « الدين للمسيح والكنيسة لبولس » وأصبح البابوات خلفاء المسيح وهناك شبه إجماع على أنه لما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية فى ذلك الوقت ، ومنها فكرة الثالوث (الآب — الابن — الروح القدس) التى كانت فاشية عن الوثنيين وعنهم أخذها المسيحيون .

وقد جرى خلاف واسع وعميق حول القول بطبيعة وحدة المسيح ، حتى اصطدم القائلون بمدرسة الاسكندرية فالتقى التفكير السامى القائل بالطبيعة الواحدة مع التفكير الرومانى الوثنى القائل بألوهية البشر فتلقحت بفكرة التثليث أخذاً من الوثنيين الفرعونية (ايزيس — ايزوريس — هورس) وكان الراهب اثناسيوس (٢٢٦ — ٢٧٣) هو الذى نشر فكرة التثليث وكان نصارى الساميين يكرهون التماثيل ، وقد ظل الأمر كذلك خلافا على طبيعة المسيح حتى تقرر بأن المسيح أكثر من طبيعة واحدة ثم تقررت ألوهيه المسيح ، فى هذه المجامع المتعددة التى فرضت مقرراتها دون مناقشة ، كما تقرر أن تعاليم الدين لايمكن أن يتلقاها الناس من كتب المسيحية رأسا بل لابد من تلقيها من أفواه رجال الكنيسة .

بل إن الامبراطور قسطنطين منع الكتب التى تخالف ذلك وأمر بحرقها .

ثم برز بصورة واضحة ان الفكر المسيحى الغربى يجرى فى ضوء ما ترسمه الكنيسة .

٨ — على ضوء هذه الآراء يرى الكثيرون : أن المسيحية (المسيحية الغربية بالطبع) جاءت متممة للحضارة الهلينية وامتداداً لها ، يقول انسى

الحاج (١) إن المسيحية كما طبقت كانت اغريقيه رغم ما فيهما من عبريات وإن المسيحية لم تكن ثورة وإنما كانت امتداداً وإنعاشاً لحضارة سابقة ، لذلك لم تر مانعا من أن تقتبس الكثير من الوثنيه » .

ويقول الدكتور على العنانى ، أنه نشأ مع العقيدة المسيحية فى أول ظهورها الخلاف الطبيعى فى الرأى ودخلت عليها التأويلات فى المسائل والتحليلات فى الآراء اليهودية واليونانية، وكان من نتيجة ذلك تلك الاضطهادات الدامية والحملات الفتاكة ، ويقول العلامة (درابر : فى كتابه النزاع بين الدين والعلم) : امتزجت الوثنية بالنصرانية ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانيه والوثنيه .

وهنا يختلف الاسلام عن النصرانية إذ قضى الإسلام على منافسة الوثنيه قضاء تاماً ، بينما عمل قسطنطين على مزج الوثنية بالمسيحيه لمصلحة الحزبين المتنافسين : النصرانى والوثنى فى التأليف بينهما ، حيث كانوا يعتقدون أن الديانة الجديده ستزدهر إذا طعمت بالعقائد الوثنيه القديمة .

ولقد كانت الشريعة فى المسيحية الاوروبيه يحكمها القانون الرومانى ، أما الكهنة فقد احتجزوا أنفسهم ملكوت السماء : وفرضت الكنيسة ضرائب مالية وعقلية وروحية فادحة ، ثم كان التعذيب والحرمان لكل دعاة العلم النظرى والتجريبى (جوردانو برونو - كوبرنيكوس - جاليلو) هذا بالإضافة إلى صكوك الغفران .

٩ - يبدو أن العقلية الأوروبية لم تتقبل المسيحية تقبلا كاملا أو تقبلا صحيحا ، بالرغم من أنها لم تظهر بصورة صحيحه وذلك أن الروح الاغريقية الرومانيه الوثنية لم تلبث أن قاومت المسيحيه والكنيسة جميعا ، يقول اسماعيل ابراهيم أحمد : كانت العقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسى الذى قام بروما رقيبا علــى النفوس والعقول محملا بكل سيئات روح النسك الآسيوية، غير أن العقلية الجرمانية لم تر فى رقابة روما وتسلط البابا إلا روحا اسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربى فعملت الجهد على تقطيع أوصالها وبدأ الصراع بين الذهنية الجرمانية الخالصة ممثلة

---

(١) مجلة أدب (ج ٧) ١٩٦٣

العقلية الأوربية وبين العقليـــة البابوية التي تحمل في طياتها شيئا من روح النسك الاسيوية .

يقول درابر : دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية لتظاهرهم بالنصرانية لم يكونوا يحتفلون بأمر الدين ، لم يخلصوا له يوما من الأيام ، وكذلك كان قسطنطين قد قضى عمره في الظلم والفجور ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا في آخر عمره ٣٣٧ م .

إن الجماعة النصرانية وإن كانت قد بلغت من القوة بحيث ولت قسطنطين الملك فانها لم تتمكن أن تقطع دابر الوثنية وتقتلع جرثومتها ، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت مبادئها ونشأ من ذلك دين جديد تتجلى فيه النصرانية والوثنية سواء بسواء ، هناك يختلف الاسلام عن النصرانية .

وأن هذا الامبراطور الذى كان عبداً للدنيا والذى لم يكن عقائده الدينية تساوى شيئاً رأى لمصلحته الشخصية ولمصلحة الحزبين المتنافسين النصرانى والوثنى أن يوحدهما ويؤلف بينهما حتى أن النصارى الراسخين أيضا لم ينكروا عليه هذه الخطة ولعلهم كانوا يعتقدون أن الديانة الجديدة ستزدهر إذا طعمت ولقحت بالعقائد الوثنية القديمة وأن الدين النصرانى سيتخلص آخر الأمر من أوزار الوثنية وأرجاسها .

ويصور سلامه موسى دور الكنيسة بأنه كان دور تسلط وحجر :

يقول : كلما ذكر الانسان القرون الوسطى خطر للذهن تسلط الكنيسة على التفكير ، وحجرها على الحرية الذهنية ، وليس شك من هذا التسلط وهذا الحجر ، فمنذ القرون الأولى المسيحية أخذ الناس يدرسون لغاية واحدة هى خدمة الدين ، وعندئذ أصبح الرجل المثقف راهب وهو يفعل هذا لأن الكنيسة تمنعه من درس الطبيعة والعلم .

١٠ — مهدت المسيحية لفصل الأخلاق عن السياسة لأنها جعلت حياة الإنسان

الحقيقية ليست فى هذه الدنيا وإنما فى العالم الآخر فالحياة الدنيا زائلة فانية والحياة الأخرى هى الخالدة الباقية ، وحياة الانسان الدنيوية هى بمثابة إعداد وتجربة وقيمها رهن بالعناية التى يتم بها هذا الاعداد .

ومنذ عصر إحياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسى والتفكير الأخلاقى وصار ما كان يراه اليونان وحدة لاتنفصم عروتها ، فرعين مختلفين من فروع التفكير وقد حرص الفكر اليونانى على استدامة العلاقة بين الأخلاق والسياسة والإبقاء عليها ، ولكن مجىء المسيحية وجعلها أساس الحياة فى الحياة الآخرى وذهابها إلى أن مدينة الله هى منزل القدس ، ولتهوين الروح أمر المدنية السياسية كل ذلك مهد السبيل لهذا الاتصال ، ثم ظهرت البروتستانتية فاتمته وتوفرت الفلسفة الأخلاقية على بحث معنى الخير والشر ومقياس السلوك الحسن والخلق الفاضل .

(٤) النهضة

بدأت النهضة الاوربية بالثورة على المسيحية والعودة إلى الديمقراطية وإعلان أن المسيحية الغربية كانت عائقا يجب التخلص منـــه وإزاحته من طريق الثورة العلميـــة .

وقد صور ليسكى فى كتابه (تاريخ إخلاق أوربا) هذا التحول فأشار إلى أن المسيحية الغربية حين دخلت على الحياة الاوربية أثارت ثائرات جديدة قوامها الزهادة الروحية التى جعلت قوامها الرهبانية وأقامت مفاهيمها على أساس تعذيب الجسم كوسيلة لمقاومة شره المـادية الرديئة أو كبح جماعها وغلوائها وقد جاءت المسيحية الروميه بنظام مخالف للفطرة مما حمل النفوس مالاطاقة لها به ، وقد دفعت مفاهيم الرهبانية الناس إلى كراهية الحياة والانصراف عنها وزلزلت القيم الطبيعية للمجتمعات الإنسانية ، فقد كانوا يعدون حرية الجسم وحقوقه منافيه لنقاء الروح ، وأصبح فى نظرهم أن أزهـد الناس هم أبعدهم عن الطهارة والنظافة ، ومضى الرهبان ينشرون شعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام ، وزاد عدد الرهبان زيادة عظيمة وعظم شأنهم واستفحل أمرهم فاسترعوا الأنظار وشغلوا الناس وكان يجتمع فى أيام الفصح منهم أكثر من خمسين ألفا .

وكان هذا هو أحد مصادر رد الفعل العنيفة ، التى دفعت الأوربيين إلى التخلص من المسيحية وتغليب المادية الطاغية .

هذا فضلا عن أن حركة الزهد هذه لم تحقق نتيجة ما للمجتمع، إذ كانت تعتزل فى الصحارى والخلوات بينما كانت المدن تعج بالفجور والاباحة، هذا ومن ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد أدخل رجال الدين فى كتبهم المقدسة معلومات (١) بشرية ومسلمات عصرية عن التاريخ والجغرافيا والعلوم العصرية ، وبما كانت أقصى

---

(١) الندوى — ماذا خسر العالم

الكنيسة الكاثوليكية ولا تعترف بها الكنيسة البروتستانية وهى الأسفار الابوكريفية . وقد كتبت التوراه أول ما كتبت باللغة العبرية القديمة واللغة الكوثيفية أى الإغريقية إلا أنه عاش أكثر ما عاش فى الترجمة . وقد وصفت الترجمات كلها بأنها ناقصة قاصرة ، وكانت طريق المترجمين محفوفة بالمخاطر والصعوبات. ويجمع الباحثون على أن تأليف التوراه يرجع إلى ماقبل المسيح، وأن أسفارالتوراه من شعر وقصص وأمثال وتاريخ وتعليم دينى كانت فى بادىء أمرها روايات شفهية متداولة جيلا بعد جيل ، إلى أن قيض لها أن تدون فى حدود عام ٤٤٠ م قبل الميلاد ولكن الذين دونوها لم يرتبوا المواد ترتيباً زمنياً .

ويصور الكتاب(التوراه) بأنها أشبه بملحمة كتبها العبرانيون(١) من وجهة نظرهم الخاص .

ويقول الدكتور صروف(٢) أنه لا يعلم من كتب التوراه أول مرة ولا الزمن الذى كتبت فيه أولا، ويقول : والظاهر أن موسى كتب بعض فصولها،وقد كانت الكتابة معروفة فى عهده ، فإنه وجد فى الآثار المصرية درج من البردى فى عهد الدولةالحادية عشرة التى كانت قبلعهد موسى بمئات السنين. أما الإنجيلفالظاهر مما قاله الأسقف (يا بيناس) الذى كان فى النصف الاول من القرن الثانى المسيحى أن مرقص كان يكتب ما رواه بطرس فيكتب بالتدقيق كل ما تذكره مما قاله المسيح أو فعله من غير أن يراعى فى ذلك الترتيب التاريخى وكان ذلك باللغة الارامية ثم ترجم ما كتبه إلى اللغة اليونانية ، ونشأت من ذلك الاناجيل الاربعة ، والظاهر أنها كتبت فى عهد الرسل وكان استعمال ورق البردى قد شاع حينئذ وكتب عليه اليونان بلغتهم فلا يبعد أن يكون الإنجيل كتب على ورق البردى أولا ولكن

---

(١) أنيس فريحه . مجلة الأبحاث ١٩٥٩

(٢) المقتطف اغسطس ١٩٢٤

وقوق الجلد استعملت قبل ذلك للكتابة ، وأقدم ما يوجد من نسخ الأناجيل إنما كتب فى القرن الرابع المسيحى .

وقد تبين من جميع النصوص والدراسات التى رجعنا إليها أن التوراه كتاب بشرى ، كتبته أقلام القديسين ولا تشير هذه النصوص ولو على سبيل الشك إلى أن الكتاب المقدس الموجود فى أيدينا اليوم منزل من السماء ، وقد أدت الدراسات التى أجراها المفكرون الغربيون وعلماء اللاهوت، إلى اكتشاف كثير من الأغلاط والتغيير والتحريف ، وإضافة هوامش المعلقين وحشرها فى المتن . » ا . هـ

ويقول الدكتور أنيس فريحة : إن التوراه لم تعد فى نظرهم كتاب علم وتشريع بل ترك العلم والتشريع للإنسان وتخلص الاوربيون من تقديس الحرف ، وأشار إلى التناقض الواضح بين ما أثبته العلم وما جاء فى التوراه ، مما أثار شكا وقلقا روحيا عند المؤمنين، وكان تطبيق قواعد النقد الاولى على التوراه ذات أثر مباشر للثورة الإنجيلية ضد الكنيسة البابوية ، التى كانت تهدف إلى التخلص من شريعة التقليد الكنيسى .

وأشار الدكتور أنيس إلى أن أحد أسفار التوراه وهو سفر (نشيد الإنشاد) هو قصة غرامية عنيفة بطلها راع يخطف فتاته لترسل إلى قصر الملك وهو رمز لزواج يهودى من شعب إسرائيل ، وعند ظهور المسيحية عزى الرمز إلى زواج المسيح من كنيسته .

أما المزامير فهى مجموعة من الشعر الدينى العميق العاطفة ينسبونها إلى داود وهناك شك فى صلتها بروحه أو كلامه .

ويقول الدكتور أنيس : إن التوراة اعتبرت ، أدبا ، فى نظر الباحثين أو قسما كبيراً منها ، ويرى بعض النقاد أنها دراما بطلها يهوه ، ويبدأ الفصل الأول بقضية الخليقه ، وظهور الإنسان الأول فيقع فى الخطيئة ويطرد من الفردوس ، ويرى قسم منها أنها أقرب إلى الملحمة ، ملحمة الخلاص وقال إنه من نتائج الدراسات النقدية للتوراه أن أخذ الإنسان فى إعادة النظر فى نشأة الدين .

وأشار إلى أن دراسات التوراه والكتاب المقدس قد وقعت تحت تأثير علماء التلمود ، وأنه قد ظهر رد فعل على تهويد هذه الدراسات .

وأرجع الكاتب الاضطراب فى النص التوراتى إلى صعوبة الحرف العبرى وتشابكه وأشكاله ، فإن حروفا كثيرة تختلط أشكالها على الناسخ إذا كان الكاتب الذى ينسخ عنه لم يحسن رسم الحرف، هذا بالإضافة إلى هوامش المعلقين والشراح التى كانت تحشر أحيانا فى المتن ولم ينج نص التوراه من كل هذه الآفات ، فجاء نصا مشوها قلقا غامضا فى كثير من الأسفار » .

وقال : إن التناقض الواضح بين ما أثبته العلم وما جاء فى التوراة قد أوجد شكا وقلقا وروحيا فقد قالت التوراه إن الارض ثابتة .

وأشار أنيس فريحه إلى ما أصاب التوراه من تغيير وتحريف ، وقال إن هناك أغلاطا مصدرها السهو والكسل والملل أو ضعف النظر ، وإذا كان الناسخ غير أمين فى عمله عندما تعرض كلمة لا يستطيع قراءتها فإنه يعمد إلى تغيير الكلمة أو تحوير النص بكامله ليستقيم المعنى(١) .

* * *

أما بالنسبة للاناجيل بعد (أنجيل متى) أقدم الاناجيل فقد كتب سنة ٦٠ بعد الميلاد باللهجة الآرامية الفلسطينية ، والاناجيل كلها تختلف عن ما أشار إليه القرآن مما يوصف بأنه إنجيل عيسى ، فالقرآن يقرر أن إنجيل عيسى كتاب سماوى منزل عليه ، ولكن هذه الاناجيل أسفار ومذكرات كتبها أناس من البشر أقدمها كتب بعد المسيح(٢) .

وقد أشار الدكتور أنيس فريحه فى بحث له عن (يهوه — إيل) إلى الخلاف القائم بين الباحثين عن دين السيد المسيح وإلهه وهل هو يهوه إله اليهود أم (ايل) إله الآراميين .

---

(١) راجع بحث التوراه ص ٢٨٠ م ٤ مجلة الأبحاث

(٢) راجع مجلة المعرفة (٤٥) تشرين الثانى ١٩٦٥ (جورج طعمه)

وقد أشار إلى أن بعض الباحثين يرون أن المسيح مجرد إنسان عظيم قدير وأن إلهه هو يهوه : ويقول :

« كان يسوع الإنسان يهوديا فى بيئته وتعليمه ونظرته إلى الكون والإنسان ، ولم يأت يسوع لينقض الناموس والأنبياء بل ليكمل ، ويسوع جاء إلى خراف إسرائيل الضالة » ثم أشار إلى الخلاف الذى وقع حول طبيعة المسيح وقال إن نظرة بولس اليهودى الهلينى هى التى انتصرت .

واشار إلى ان المسيحية بعد بولس حاولت طمس معالم اليهودية واقتبست عناصر هيلينية ، ولكن بالرغم من ذلك فإن المسيحية قامت على أنقاض اليهودية المتحجرة ، حتى ان المصادر اليهودية تعتبر يسوع يهوديا .

(٥) التوراة

تعد « التوراة » المصدر الأساسي للفكر الديني المسيحي وبالتالي فهي بعيدة الأثر في بناء الفكر الغربي المعاصر والثقافات الغربية الحديثة .

وقد أجمعت المصادر على أن التوراة هي أوسع الكتب انتشاراً، وأنها كتاب كتبه (١) الإنسان وأن مؤلفين يحملون أسمـــاء ذائعة الصيت : مثل (يساياه ، إيزيكييل ، جريمياه ، القديس بول) ولكن أغلب كلماته كتبها أشخاص آخرون لا يعرف أحد من هم ولا يمكن معرفتهم في يوم من الأيام ، لقـــد ظل الوحي الإلهي إلى الإنسان ينتقل من الأب والابن ألف سنة تقريباً بعد إبراهيم من غير أن يكتب ، وبعد ذلك فقط بدأ اليهود في تدوينه ، وكان ذلك قبل ألف سنة تقريباً من ميلاد المسيح فأخذوا يسجلون القصص والقصائد القديمة وأضافوا إليها قصصاً وقصائد أخرى جديدة ، ثم استلزم الأمر أن تعاد كتابة لفائفهم عدة مرات وأن تنقل وتنسخ ، مما أوجد فرصاً عديدة لا تحصى لتغييرات كثيرة لا حد لها بعضها مقصود وبعضها الآخر غير مقصود . ولما بدأت المسيحية تنتشر بسرعة ازدادت الحاجة إلى عمل نسخ جديدة لاسيما العهد الجديد وأخذ كثير من المؤمنين يضعون نسخاً لأنفسهم بأنفسهم .

ولذلك فإنه لا يوجد اليوم أي نص (أصلي) لأي جزء من (الكتاب) وربما حوى العهد الجديد تغييرات أكثر وأبلغ من العهد القديم .

* * *

والكتاب المقدس يتكون من جزءين أو عهدين (الأول) هو العهد القديم وهـــو مشترك بين اليهود والنصارى إلا أن ترتيب الأسفار يختلف عن كل من الطائفتين ، والثاني وهو العهد الجديد، وهو مشترك بين الكاثوليك والبروتستانت إلا أن (الكتاب المقدس) البروتستانتي يستبعد أحد عشر سفراً تعترف بها

---

(١) بحث في مجلة لايف م ٨٣ عدد ٧ (ابريل ١٩٦٥) ترجمة الدكتور أمير رضا عن مجلة الوعي الاسلامي (مايو ١٩٦٦) .

ما وصلوا إليه من العلم فى ذاك العصر، وأقصى ماوصل إليه العلم الإنسانى ولكنها كانت لاتؤمن على التحول والتعارض مع ترقى العلم، وكان هذا تحديا جعل الدين فى مواجهة العلم الحديث بحقائقه الجديدة، التى عارضت ما دونوه، وخلقت أزمة تاريخية هى أزمة الخلاف بين الدين والعلم، وحقت للدين الهزيمة بفعل ما أضيف إليه من معلومات كذبتها حقائق العلم، وبذلك سقط رجال الدين سقوطا دفعهم إلى الانتقام فلم تلبث الكنيسة أن اضطهدت العلم، ووقفت فى وجه الكشوف العلمية، وقام رجالها بصيحات خطيرة فى أنحاء أوربا استحلوا بها دماء العلماء وأموالهم، وأنشأوا محاكم التفتيش التى دعت إلى معاقبة هؤلاء الملحدين والزنادقة الذين انتشروا فى المدن والبيوت، وأحصيت على الناس الأنفاس، وقد عاقبت هذه المحاكم (٣٠٠ ألف) أحرق منهم اثنان وثلاثون ألف أحياء، منهم العالم الطبيعى (برونو) وعوقب العالم الطبيعى (جاليلو) بالقتل لأنه كان يعتقدن بدوران الأرض حول الشمس، ولقد كان من أثر ذلك أن انصبغ الفكر الغربى والثقافة الغربية لآماد طويلة بتلك الكراهية وذلك الحقد وتلك الخصومة التى عرفتها الفلسفات والمذاهب والدعوات، ومن ثم أعلن الفكر الغربى شجب كل ما يتصل بالكنيسة.

وتقرر أن العلم والدين ضرتان لا يتصالحان، واتجه الغرب إلى المادية بكل معانيها، ومن هنا علينا أن نلاحظ أن مثل هذه المعركة التاريخية لم تقع مطلقاً فى تاريخ الإسلام أو الثقافة العربية وإن كانت كلمات الصراع بين العلم والدين ما تزال تتردد والمقصود بها ليس الإسلام بأى وجه من الوجوه. فإذا نظرنا إلى الإسلام وجدناه على طرف نقيض من ذلك فهو الذى أعان على النهج العلمى ودعا إليه وكان من ثمرة دعوته إبداع المسلمين والعرب للمذهب العلمى التجريبى الذى قام عليه العلم الحديث».

أما النهضة الغربية الحديثة فقد استمدت قيمها من الإسلام والفكر الإسلامى وكان سلطان الكنيسة قد طغى وفرض نفسه على الحياة حتى لم تتمكن أوربا من أن تتقدم فكراً أو ثقافة أو علماً أو اقتصادا إلا بعد أن ثارت على سلطان الكنيسة وتحررت تحرراً تاما من نفوذها.

وكان أبعد الآثار الإسلامية فى الفكر الأوربى أهمية ماتجلى فى دعوة مارتن لوثر وكالفن، فقدحمل (لوثر) على بيع صكوك الغفران والوساطة بين الله والإنسان عن طريق الرهبان ونادى (كلفن) بأن العلاقة بين الله والانسان هى السبيل الوحيد للغفران وأنه لاقوة إلا الله . وأنكر أن البابوية معصومة لاتخطىء .

وكانت هذه التعاليم التى حملها لوثر وكلفن غريبة عن طبيعة الفكر الاوربى فى ذلك العصر ، وكانت مستمدة من ذلك التراث الاسلامى الذى تسرب إلى أوربا عن طريق الأندلس وإيطاليا .

وقد هاجمت حركة الاصلاح الأوضاع الاقطاعية أيضا ودعت إلى تحرير المعذبين من الفلاحين والكادحين ، كما حاربت حركة كالفن فى غيرهوادة الانحلال الذى كان قد تفشى فى أوربا والذى كان من مظاهره الإباحة فى الحمامات العامة المختلطة التى كان يتردد عليها شباب الجنسين والأغانى التى تدور ألفاظها ومعانيها حول المسائل الجنسية والملابس الخليعة التى ترتديها السيدات ، وقد أمعن كلفن فى خطته فأصدر الأوامر بتعقب كل فرد فى حياته الخاصة ومساءلته عما يبدو له من تصرفات أمام محكمة أقيمت لهذا الغرض اسمها محكمة الأخلاق .

والمعروف أن هذه الحركة قد أراقت الدماء فى أوربا وأوقعت الصدام المسلح العنيف بين البروتستانت أعوانها وبين الكاثوليك الذين هم أساس الكنيسة المسيحية . فعاشت أوربا منذ السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر إلى منتصف القرن السابع عشر أو على وجه التحديد حتى عام ١٦٨٤ فى هذا الجو الدينى المحموم والمتزمت والذى قام على أساس الحروب الدينية التى خضبت أوربا بالدماء ، حيث كان يحرق المتهمون بمخالفة المذهب الدينى الرسمى للدولة أحياء تنفيذا لأحكام محاكم التفتيش الصارمة ، فضلا عن القوائم التى كانت تنشر على الملأ متضمنة أسماء الكتب وسائر المطبوعات المحظورة .

وكانت أخطر هذه المصادمات موقعة سانت بارتلمى (٢٤ أغسطس -١٥٧٢)

وقد أحصى عدد القتلى فيها فوجد أنه ٢٥ الفا وكانت الكنيسة الكاثوليكية هى التى قادت المعركة ضد خصومها ففتكت بالبروتستانت ، كانت وقائع هذه المعركة التى استمرت ثلاثة أيام غايه فى العنف والمرارة والوحشية مما لم يشهده تاريخ البشر على حد تعبير المنصفين من المؤرخين ، وكان الفكر الاسلامى بعيد الأثر فى هذه المرحلة حيث ترجمت آثاره وبدأ نفوذه العملى والعلمى معا فى جانبين كبيرين :

الأول : جانب البحث العلمى :

الثانى : جانب الدراسات الانسانية والاجتماعية :

وكان من آثار هذا الفكر أشياء كثيرة : أهمها : ذلك التحرر فى مفاهيم الكنيسة والمسيحية الرومانية ، عن طريق دعوات لوثر وكالفن وغيرهما ، كما سبقتهما الدعوة إلى تحطيم التماثيل وإزالة الصور من الكنائس ، هذه الدعوة التى حققت إصدار بيان امبراطورى عام ٧٢٦ م بتحريم تقديس الصور والتماثيل وأن القيام به يعد من أعمال الوثنية ، وكان (كليوديوس) أسقف تورين يحرق الصور والصلبان وينهى عن عبادتها ، كذلك وجدت طائفة من النصارى شرحت عقيدة التثليث بما يقرب من الوحدانية وأنكرت ألوهية المسيح عليه السلام .

كما كان للاسلام أثره فى تاريخ أوربا الدينى وتاريخ الكنيسة فى نزعات المصلحين والثائرين على النظام الأسقفى السائد ، وكانت هذه كلها مقدمات لحركة لوثر وكلفن التى انبثق عنها المذهب البروتستانتى ، والتى أدت أيضا إلى إصلاحات كثيرة قام بها المذهب الكاثوليكى .

وقد كان لوثر قد ألصق نشرة من خمس وتسعين مادة على باب كنيسة القلعة فى جيتنبرج استعرض فيها سر الاعتراف المقدس الكاثوليكى .

وأعلن أن الآثم يتحرر بعد الاعتراف من ثقل الإثم بالرحمة الإلهية التى تنبعث من قرارة نفسه وبالإيمان وحده وليس بغفران القسيس .

كما أعلن أن رجال الاكليروس لايؤدون وظيفة مهمة ذات علاقة بين الله والانسان ، وقال لوثر : إن كل شخص باستطاعته أن يقرأ الانجيل وهو حر يفسره حسب فهمه له وإدراكه إياه ، وكان هذا الرأى بالنسبة إلى الكنيسة كما لو تجرد اليوم المحكمة العليا من حق تفسير دستور الدولة ، كما أعلن أن الادعاء باختلاف طبقة الاكليروس عن العامة مجرد كذب وبهتان ، ورجا الناس أن يبحثوا عن الحقيقة المسيحية فى الانجيل ، والانجيل وحده (وهذه الآراء مستمدة استمدادا مباشراً من مفاهيم الاسلام) كما أنقص عدد الأسرار المقدسة من سبعة إلى اثنين : وهما التعميد والقربان المقدس ، ورفض القول باستحالة المادة إلى لحم المسيح ودمه ، وأعلن أن على رجال الدين ان يتزوجوا ، وأنب الكرادلة على حياة البذخ والرفاهية التى يحبونها كما طالب بإزالة الرهبنة .

فلما أعلن البابا فى نشرة مكتوبة حرمان لوثر . أحرق لوثر هذه النشرة علانية وبصورة رسمية أمام الناس بكل ثقة وثبات .

ولم تلبث « اللوثرية » ان انتشرت فى جميع المانيا واعتبرت حركة معادية للكنيسة الرومانيه وأسهمت إلى حد ما فى الحركات الثورية والقومية وشاركت فى جميع الثورات السياسية والاجتماعية .

أما (كلفن) فقد أيد انتقادات مارتن لوثر للكنيسة الرومانية ومعظم آرائه الدينية واضاف إضافات جديدة إلى دعوة الإصلاح ، أضاف الإيمان بفكرة القضاء والقدر كما رفض الاعتراف بخضوع الكنيسة للدولة او بحق اى حكومة او بحق الملك او المجلس النيابى بسن القوانين الخاصة بالدين ، ورفض الاعتراف بنظام الاساقفة ، فأزيلت الصور التى تمثل القديسين مريم والمسيح ثم حطمت ، واستهجن استعمال الآلات الموسيقية فى الكنائس ، وكذلك الشموع والبخور والغناء والترتيل ، وحاول ان يوجد كنيسة وفق تعاليم السيد المسيح .

واستطاعت (البروتستانتية) ان تمنح القسيس حق الزواج ولم يعد هناك رهبان كما استبدلت جميع الكنائس البروتستانتية اللغة اللاتينية باللغة المحلية كالانجليزية والفرنسية والالمانية ، وتخلى الجميع عن الاعتراف الاجبارى ومايتبعه من غفران، يتحقق على يد الاكليروس لذنوب المعترف وخطاياه والتخلى عن فكرة المطهر أو الاعتراف ، كما تخلوا عن عبادة القديس وعبادة مريم العذراء ، ولم يعد البروتستانت يطلبون وساطتها من السماء وأعلنوا ان المصدر الوحيد الحقيق للعقيدة المسيحية هو الكتاب المقدس .

(٣) الإسلام

وصف عصر النهضة بأنه مرحلة الانتقال من الفترة التاريخية المسماة بالعصور الوسطى إلى مايسمى بالعصر الجديد وتعنى كلمة (Renaisnncs) : الولادة ثانية (Re - Lirth) ويرجع المؤرخون والباحثون عوامل النهضة إلى انحطاط الكنيسة والامبراطورية وكانتا تتحكمان فى العصور الوسطى انحطاطا شاملا ويرون أن هدف النهضة كان الإعداد لتحرير النفس البشرية من إغلال الكنيسة التى كانت تشل حركتها ، وكان لحركة إحياء الدراسات العربية والترجمة من الفكر الإسلامى أبعد الأثر فى هذه النهضة ، حيث بدأ مايسمى (الدراسات الإنسانية) على قلم (بترارك) الذى حاول الاكتشاف المضاعف للإنسان والكون ، وقد قامت هذه الحركة على أساس الفهم لكرامة الإنسان مخلوقا ومفكرا ذا إرادة تريد وتختار وقوة تحس وتتذوق وتجرب (وهى المعانى الأساسية التى حملها القرآن إلى الفكر الإنسانى عامة وحملها المسلمون إلى الأندلس الذى ترقى فى جامعاته جميع قادة النهضة) غير أن هذه الحركة قد صاحبتها حركة أخرى هى إحياء التراث الاغريقى ومن هنا فإن هذه الحرية الإنسانية بدت وثنية فى مظهرها غير مصطبغة بالدين ، بل لقد قام كثيرون وفى مقدمتهم توماس الاكوينى بالعمل على تفريغ الفكر الإسلامى من إطاراته ونقله إلى الفكر الغربى على فكر غربى أنه منفصل عنه تماماً ، وقد ظلت صيحة الإنكار والتجاهل لأثر الإسلام (هذا الأثر العميق) فى الفكر الغربى قائمة ومستمرة منذ ذلك الوقت إلى سنوات قريبة حتى قام أمثال توماس كارليل وجوستاف لوبون وغيرهما بالكشف عن هذه الحقيقة وإعلانها .

غير أن الذى لاشك فيه أن الإسلام قدم للثقافات الغربية أعظم ما قامت عليه النهضة الحديثة والحضارة المعاصرة فى مجالين هامين : مجال العلوم الإنسانية الاجتماعية ومجال العلم التجريبى .

ولقد ظل الغرب وكتابه وأتباعه فى العالم الإسلامى ينكرون أثر الإسلام ويتجاهلونه ويتخطون هذه المرحلة المضيئة (مابين ٦٠٠ ميلادية إلى ١٥٠٠ م) وهى فترة ظهور الاسلام فى مجال العلوم، ووقفوا عند هذا الحد، وإذا كان لنا أن نضيف شيئا هاما فى هـــذا المجال فإن مختلف النظريات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية ودراسات علم النفس والأخلاق والفنون وغيرها كانت لها أصول إسلامية أساسية، غير أن نمو هذه النظريات لم يلبث أن انحرف عن مفاهيم الاسلام تحت تأثير عدة عوامل أهمها: التمويه الخطير الذى حمل لواءه الآب توماس الاكوينى وغيره فى محاولة نقل نصوص بأكلها عن ابن رشد والغزالى ثم تحريفها ورفع الاطار الاسلامى عنهـــا حتى تبدو وكأنها غريبة الصنع(١)، والأمر الثانى الخطير هو ذلك الانحراف الذى أصاب الفكر الغربى نفسه فى مرحلة (المنحنى الخطير) عندما سيطرت أفكار التلمود والماسون والصهيونية العالمية على الفكر الغربى، وهى مرحلة متقدمة جدا بدأت فى الأغلب فى أوائل عصر المسيحية ولكنها بدأت تأخذ خطوات خطيرة قبل الثورة الفرنسية التى كانت من أعظم ثمارها.

فمن اليقين أن النظريات الفكرية فى الثقافات الغربية لهـــا أصول إسلامية وجذور واضحة لاسبيل إلى تجاهلها، نعم، لم يقف أثر الفكر الاسلامى عند الجانب العلمى وحده، الذى كان من أعظم ثماره المنهج العلمى التجريبى، بل امتد إلى مختلف نظريات للفكر السياسى والاجتماعى الحديث.

---

(١) هناك ظاهرة أساسية فى الفكر الغربى بدأت فى الفكر الإغريقى، هى إنكار الروابط التى تربط الفكر الإنسانى فى مراحله المختلفة فالفكر الإغريقى يحاول فى تعنت شديد وتضليل كبير أن يفصل نفسه عن الفكر الدينى والفلسفى السابق له والذى كان هو أثر من آثاره وكذلك فعل الفكر الغربى الحديث.

(٢)

(١) المنهج العلمى التجريبى أهم ماقدمه الفكر الاسلامى للثقافة الغربية .
(٢) إضافات العلماء المسلمين فى الرياضيات والفلك .
(٣) إضافات العلماء المسلمين فى العلوم الاجتماعية والسياسية .

* * *

بدأ المفهوم العلمى عند المسلمين مستمداً من القرآن الكريم أساساً ، ومن دعوته الصريحة إلى النظر فى الكون والاهتمام بالعلم ، وآية ذلك أن كلمة «علم» وردت فى القرآن (٨٥٠ مرة) وأن أول أمر استخدم فى القرآن هو كلمة « إقرأ » ، وأن أول أداة ذكرت فى كتاب الله هى (القلم) والاسلام هو الذى أمر معتنقيه باتباع المنهج العلمى ، والقرآن هو الذى أطلعهم على أن للكون سنناً وقوانين ليس فقط فى مجال الطبيعة بل وفى مجال المجتمع أيضا ، ومن هنا فقد انفتح المسلمون على الثقافات القديمة (إغريقية وفارسية وهندية) ونقلوها ودرسوها ووقفوا منها موقفا واضحاصريحا : هو موقف الاستقلال والإنصاف ، فلم يرفضوها جملة ولم تلتهمهم، ولكنهم أخذوا منها وتركوا على ضوء من قاعدة قيمهم الأساسية .

لقد كانت الفلسفة اليونانية أشبه بالغول الخطير . فقد اقتحمت المسيحية ومن قبلها اليهودية ولم تلبث أن سيطرت عليهما واحتوتهما ولكنها حين ترجمها المسلمون ونقلوها إلى لغتهم وتعاملوا معها ، عجزت عن أن تصهرهم أو تبتلعهم ، وان أصابتهم بخطر كبير وأزمة بعيدة المدى ، ولكن الاسلام وقادة فكره ، بقدرتهم على التماس مفاهيمه وقيمه الأساسية قد استطاعوا أن يردوها على أعقابها ، وأن يتخطوها محتفظين بمقوماتهم إذ امتصوا منها ماشاءوا ثم بنوا منهجهم الفكرى والعلمى على أسس رصينة من قيم الاسلام نفسه .

وقد تبين للباحثين المنصفين بآخرة خطأ الرأى الذى حمل لواءه «ارنست رينان» وتابعه كثير من المتعصبين وأعداء الاسلام والثقافة العربيـــة ودعاة التغريب والنفوذ الأجنبى ، وهو الرأى القائل بأن الفلسفة الاسلامية هى (فلسفة يونانية

مكتوبة بحروف عربية) وقد تأكد أنه (لا منطق أرسطو ولا الفلسفة الهلينية أو الفارسية أو الهندية قد خلقت أو حولت الفكر الإسلامى العربى عن مساره القرآنى وإنما بقى كما هو ثمرة أصيلة للتوحيد الإسلامى الصريح) فقد بدأ من القرآن ، والتقى فى طريقه بتراث اليونان فامتص عصارته الصالحة فى سبيل إبداع منهج أصيل مستمد من قيم الإسلام توصلا إلى ماحققه الفكر الإسلامى فعلا من إنشاء « المذهب التجريبى » .

لقـــد تمثل الفكر الإسلامى من الثقافات الروافد والحضارات المختلفة مايتفق مع طبيعته وما يتفق مع احتياجاته ، ثم طبع ما أخذ بطابعه الخاص ، ولم يكن الفكر الإسلامى هو مجرد تأثر بهـــذه الثقافات المختلفة أو مجرد توفيق بينها وبين العقيدة الإسلامية ، بل هو فكر أكثر إبداعا وإصالة من هذا ، فقد تجاوز منطق أرسطو ، الذى لم يكن هو العامل الأكبر فى بناء الثقافة الاسلامية العربية ، وتجاوز غيره من قوائم الفلسفات القديمة ، ولذلك كله لم يكن الفكر الاسلامى فى الحق امتداداً للفكر اليونانى بل كان إضافة جديدة للفكر الانسانى ، ونواة للمنهج العلمى التجريبى وانطلاقا امتد بعـــد ذلك إلى نشأة العلم التجريبى الحديث ، فالفكر الاسلامى إبداع حقيقى فى التفكير العلمى وفلسفة شاملة يطل منها على الكون العريض ونظام اجتماعى مستقل قوامه التوحيد .

لقد كانت فلسفة أفلاطون وأرسطو تعبر بدقة وعمق عن طبيعة المجتمع اليونانى فى مرحلة انهيار ، وكان مجتمعا قوامه طبقة السادة وطبقة العبيد ، فالفكر والتأمل والمتعة هى من نصيب (السادة) والعمل والفاقة من نصيب العبيد وكانت فلسفة أفلاطون وأرسطو تعبر عن هذا الوضع تعبيرا دقيقا .

وهى فلسفة تقوم على التأمل الخالص غير العملى ، وتفرق بين الصورة والمادة تفرقة جادة ، السادة هم الصورة والعبيد هم المادة(١) .

---

(١) راجع أمين العالم فى بحثه عن العلم عند العرب ، والدكتور النشار فى كتابه مناهج البحث عن مفكرى الإسلام .

ولكن الفكر الاسلامى كان يختلف عن الفكر اليونانى فى قيمه ومقوماته وأبرز هذه المقومات التوحيد وكذلك المجتمع الإسلامى الذى يختلف اختلافاً بيناً عن المجتمع اليونانى فلم يكن أساسا يقوم على طبقتين : « سادة وعبيد » ولكنه كان يقوم على ترابط عميق بين الفرد والمجتمع ، وكانت حضارته حضارة علمية وعملية داخل إطار الاسلام من حيث أن الاسلام دين وعبادة ونظام مجتمع معا .

لقد درس الفكر الاسلامى الفلسفة اليونانية وحاول أن يوفق بينها وبين إطار التوحيد الاسلامى ، وهى فلسفة وثنية عبودية أساساً . غير أن المحاولة التى أجراها الكندى والفارابى وابن سينا لم يحقق شيئا ، فقد تبين أن جوهر الفلسفتين مختلف تمام الاختلاف ، فالفكر الاسلامى له طابعه الجامع المتكامل القائم على النظرة العقلية والممارسة العملية التى تختلف كل الاختلاف عن الفكر اليونانى القائم على التأمل النظرى ويقف عنده .

لقد كان الفكر الاسلامى فى جوهره فكراً تجريبيا ، تجاوز حدود التأمل الاغريقى وخطا خطوة أبعد إلى مجال العلم التجريبى والممارسة العملية ودخل آفاقا أوسع وبذلك بدا متميزا كفكر له خصائص ذاتية مستمدة من جوهرة يختلف عن الفكر اليونانى .

لقد كان أبرز مظاهر الفكر الاسلامى أنه بلغ خطوة أكبر وأضاف إضافة واسعة حين راجع النصوص اليونانية ونقدها وكشف عن خطأ مابها من نظريات ، ثم تجاوز ذلك كله إلى التجربة العملية واتخذها مصدرا لعلمه وفلسفته ، وكان هذا هو منطلق الحضارة العربية الاسلامية فى توسعها وتطورها ، فالفكر العربى العلمى بهذا المفهوم ليس امتداداً للفكر اليونانى بل هو إبداع جديد له طابعه التجريبى الذى كان نقطة انطلاق إلى نشأة العلم التجريبى الحديث .

« بهذا المنهج التجريبى وبهذه القيم العلمية والكمية وبهذا التوحيد بين النظر والعمل وبهذه النظرة المتطورة للكون والانسان ، بهذا كله اختلف الفكر الاسلامى

العربى اختلافاً كبيراً عن الفكر اليونانى المترجم وتناقض معه فى مختلف فروع الثقافة من علم أصول وفقه وفلسفة عقلية ونظرة إلى الإنسان ، ولم يكن هـــذا الاختلاف عارا أو طارئا أو مصادفة أو عفويا » .

وعندنا أن ذلك إنما جاء نتيجة الخلاف الجذرى بين الإسلام القائم على التوحيد والرسالة المنزلة والنظرة القرآنية العلمية وبين التراث اليونانى الوثنى القائم على العبودية للغالبية العظمى والسيادة للقلة القليلة ، ويكشف منهج البيروتى وجابر بن حيان عن هذا الخروج المباشر عن منطق ارسطو ، كما يكشفه خروج رجال الأصول والفقه على المفهوم الارسطى للحد والتعريف وإنشاء نظرية جديدة للتعريف مستمدة من الواقع الإسلامى ، فقد أصبحت عملية التجريب العملى لا عملية استخلاص المنطق هى سبيل المعرفة الإسلامى .

وقد نقد ابن خلدون قياس ارسطو حين قال : إن الاقيسة المنطقية أحكام ذهنية والموجودات الخارجية متشخصة ، فالتطابق بينهما غير يقينى ، لأن المادة قد تحول دونه ، اللهم إلا مايشهد له الحس من ذلك فدليـــله شهوده لا تلك البراهين المنطقية » .

وميزة الفكر الإسلامى هى « إدراك عميق بأهمية(١) الرابطة العلية بين الاشياء كأساس المعرفة العقلية ، وعلى هذه الرابطة العلية تقام التجارب وتتحقق النظرة الموضوعية إلى الظواهر الطبيعية والاجتماعية على السواء .

وقد بدأت المعارضة لفلسفة ارسطو واضحة بعد فترة قليـلة من ترجمة آثار الاغريق ، وهى معارضة نابعة من منابع الفـكر الإسلامى نفسه المستمدة من القرآن ، أساسها خلاف واضح بين الوثنية والتوحيد ، وبين مجتمع العدل الاجتماعى فى الإسلام ومجتمع العبودية فى اليونان .

---

(١) أمين العالم : ك : معارك فكرية

وقد وصل علماء المسلمين : (فيما عدا الشراح الذين اعتبروا إمتداداً للفكر اليونانى نفسه) من المتعلمين وعلماء الأصول إلى رفض المنطق الأرسطى رفضاً قاطعاً ، منذ وقت مبكر ، وأخذوا فى إقامة منطق جديد مستمد من القرآن .

وكان علماء الطب والرياضة والبصريات أقرب هؤلاء إلى الخروج من حدود التأمل إلى التجربة .

وكان الرأى قد تبين أن منطق الاستدلال(١) الأرسطالى اليونانى قاصر عن استيعاب أسرار الذات الآلهية وتفسير قدراتها .

وكان ابن تيميه هو قمة الائمة الذين وصلوا إلى كشف « منطق إسلامى مستمد من القرآن » دحضا لمنطق ارسطو ورفضاً للقول بالكليات المجردة ، وتوصلا إلى جعل المحسوسات والجزئيات أساساً للمعرفة .

وبالجملة : فالفكر الإسلامى قد رفض المنطق الأرسطى الذى يقوم على القياس والاستدلال النظرى وأقام منطقا جديداً أكثر تعبيراً عن خصائصه هو :

« المنهج الحسى التجريبى »

فمفهوم الإسلام يتفق مع منهج منبثق من جوهره : هو المنهج الاستقرائى التجريبى وينكر أشد الإنكار المنهج البرهانى القياسى ، ومن هنا عد أمثال : الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد مجرد امتداد للروح الهلينية فى العالم الإسلامى وقد تبين فشل منطق ارسطو من اللحظة الأولى ، ولكنه تأكد من بعد على ضوء الملابسات الموضوعية لنمو الحضارة الإسلامية .

ومن هنا تكشفت حقيقتان أساسيتان لا ريب فيهما :

١ — أن الفكر الإسلامى فى جوهره « فكر تجريبى » .

---

(١) الدكتور على سامى النشار : مناهج البحث فى مفكرى الإسلام .

٢ — أن منطق ارسطو منطق قاصر من وجهة النظرة الإسلامية .

ذلك أن منطق ارسطو ، بنية يونانية ، وخاصية من خواص الفكر اليونانى وحده ، وهو تعبير عن وجود يونانى قائم على العبودية والوثنية معا ، وبذلك فهو غريب على الفكر الإسلامى غربة كاملة .

وبذلك يكون الفكر الإسلامى بحق هو مبدع « المنطق التجريبى » وكان وضوح موقفه من الفكر الإغريقى تمزيقا وهدما للمنطق الارسطى الذى هدمه الغرب بعد ذلك ، بأكثر من أربعمائة عام ، والقول بالاستقراء والتجربة هو فى مفهوم الباحثين المنصفين جميعاً خاصية الفكر الإسلامى بينما القول بالقياس والاستدلال هو خاصية الفكر اليونانى ، ومن هنا بدأت النهضة الاوروبية بالتماس منطق المسلمين ، وبدأ تأخر المسلمين بالتماس منطق اليونان ، ولقد كان التجريب والاستقراء مرحلة على طريق الوصول إلى « المنهج العلمى التجريبى » الذى هو قوام الحضارة الحديثة المعاصرة . ومن هنا فإن أثر الإسلام والثقافة العربية فى بناء أساس الحضارة الغربية جوهرها ومضمونها . واضح وأكيد وبعيد المدى .

(٣)

(١) المنهج العلمى الإسلامى :

كان إيمان المنهج العلمى فى سبيل بناء « حضارة إنسانية » هو سيادة الخلق والمبادىء الشريفة وتغليب معانى العدل والإخاء والتكامل الاجتماعى . وكان الرقى فى نظر الفكر الإسلامى هو تغلب الإنسان على المـــادة وعلى أهوائه فى نفس الوقت .

وأن الإسلام فى أسسه الأولى التى أوردها القرآن قد دعا إلى « البرهان » فى كل قضية « قل هاتوا برهانكم » ومن هنا نشأ فى مجال الفكر العربى الإسلامى ما يسمى بالبحث عن الدليل والنهى عن التقليد وعدم الثقة بالنص إلا بعد مطابقته للعقل وإقرار مصدره .

وقد وصل الفكر الإسلامى فى ذلك إلى غاية النضج والقوة ، وعندما ترجمت آثار اليونان والاغريق لم يأخذها المفكرون المسلمون قضايا مسلما بها ولكنهم ناقشوها وراجعوها وقبلوا منها ورفضوا .

فابن سينا يخالف ارسطو وأفلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان فى كثير من النظريات والآراء فلا يتقيد بها ، يأخذ منها مايقتنع به ويوافق مزاجه الإسلامى ويزيد عليه ، وعنده أن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس ، ولذلك فهو لا يتقيد بآراء من سبقه بل يبحث فيها ويدرسها ، ويعرضها على المنطق والعقل ومختلف خبراته وقد جعل للتجربة مكانا واضحا فيما قبله واعتقد به ، ومن قوله « حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء . وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا » .

وابن رشد يمضى فى طريق البحث العلمى خطوات أكثر عمقا واتساعا حيث يقول:

« يجب علينا إذا ألفينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظراً فى الموجودات واعتباراً لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان ، أن ننظر فى الذى قالوه عن ذلك، وما أثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم ، وعلينا أن أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك ، وسواء كان هذا الغير مشاركا لنا فى الملة أو غير مشارك إذا كانت فيها شروط الصحة .

« وابن الهيثم » له فى مجال تقنين أصول البحث العلمى رأى واضح ونظرية كاملة يقول: يبدأ فى البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتميز خواص الجزئيات ، ويلتقط باستقراء ما يخص البصر فى حال الإبصار ، وما هو مطرد لايتغير وظاهر لا يشتبه فى كيفية الإحساس ، ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ فى الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، ونتحرى فى سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق الذى به ثلج الصدور ونصل بالتدرج

والطف إلى الغاية التى عندها يقع اليقين ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات .

« والبيرونى » يصور مذهبه العلمى فى مقدمة كتابه (الآثار الباقية عن القرون الخالية) وعنده إن أقرب الأسباب (لمعرفة التواريخ التى تستعملها الأمم) : هو معرفة أخبار الأمم السابقة وأنباء القرون الماضية لأن أكثرها أحوال ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل إلى التوسل إلى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات ، والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل ، وأصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك ، ونعتبر ما هم فيه أساسا يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم فى إثبات ذلك بعضها لبعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المروئة لأكثر الخلق والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة وأشباه ذلك .

وفى رسالة القاضى عياض عن « علم المصطلح » من الدقة والتفكير والاستنتاج تحت عنوان « تحرى الرواية والمجىء باللفظ » ما وصفه الدكتور أسد رستم : بأن ما جاء فيها يضاهى أدق ما ورد فى الموضوع نفسه فى أهم كتب الافرنج المانيا وفرنسا وأمريكا وانجلترا ، هـــذه الآراء التى سبقت كتابات الغربيين بخمسة قرون ، والفكر الإسلامى هو السابق لاقرار هذه النظريات ، ويقول الدكتور رستم « انه على الرغم من مرور سبعة قرون عليها فإنه ليس بإمكان رجال التاريخ فى أوربا وأمريكا أن يكتبوا الآن أحسن منها » .

وقد أشار (قدرى حافظ طوقان) فى كتابه (العلوم عند العرب) أن العلامة النظام سار فى كتاباته على الشك والتجربة وهما الركنان القائمان فى النهضة الحديثة فاعتبر الشك أساسا للمنجح ، وقال :

« الشاك أقرب إليه من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

ويقول أبو هاشم البصرى : الشك ضرورى لكل معرفة » .

ويقول الجاحظ « تعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما فلو لم يكن إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه » .

ودعا جابر بن حيان إلى إجراء التجربة حين قال « إن واجب المشتغل فى الكيمياء وهو العمل وإجراء التجربة وأن المعرفة لا تحصل إلا بها » .

وقد شك (الجاحظ) فيما أورده (ارسطو) من أن هناك طائراً قديرا على الاهتداء والطيران البعيد ، يبنى عشه فى منطقة الجبال التى هى شرقى العراق بأوراق شجر (الدارصينى) التى نبتت على حدود الصين وقال : ولست أدفع خبر صاحب المنطق (يعنى ارسطو) عن صاحب الدارصينى وأن كنت لا أعرف الوجه فى أن طائراً ينهض من وكره فى الجبال بفارس أو اليمن ويعمد نحو بلاد الدارصينى وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه ، فكيف يقطع بطون الأودية واهضام الجبال بالتدويم بالأجواء ، وبالمضى على السمت يطلب ما لم يره ، ولم يسمعه ولم يذقه وبعد ، فإن شجر الدارصينى ليس بالوطىء ولا بالوثير ولا هو لهـــذا الطائر بطعام .

ويواجه ابن حزم نظريات أخرى يونانية من نظريات الفلك والجغرافيا ويدحضها على أساس البرهان وتقدير العقل يقول : زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع ، وهذه دعوى بلا برهان واضح الحكم بأن النجوم لا تعقل أصلا ، وأن حركاتها أبداً على رتبة واحدة وهذه صفة الجماد ويقول، زعم بعض اليهود والعامة أن أنهار النيل وجيحان ودجلة والفرات تخرج من الجنة وتسقى جميع المعمور والواقع أن لهذه الأنهار منابع معروفة فى أرضنا .

* * *

وقد رسم ابن حزم نظرية المعرفة الإسلامية على أسس ثلاث :

(١) شهادة الحواس (أى الاختبار) .

(٢) بأول العقل (أى بالضرورة وبالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس) .

(٣) ببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس وأول العقل .

* * *

واعتقد أن هذه الأسانيد تعطينا الدليل القطعى على سبق الفكر الإسلامى العربى للغرب فى وضع أسس المنهج العلمى على نحو تطبيقى لا نظرى قوامه الاستقراء والقياس والتمثيل ثم انتقاله انتقالا سريعاً مدعما إلى التجربة والممارسة العملية على نحو واضح :

(أولا) قصر البحث العلمى على المشاهدة والتجربة وجمع المشاهدات ونتائج التجربة وربطها وتبويبها .

(ثانيا) تمحيصها وربط تلك الحقائق على النحو الذى يجعلها تصبح قانونا طبيعيا أو نظرية علمية .

(ثالثا) استنباط النتائج التى تفضى إليها وبحث صحة تلك النتائج ومطابقتها للواقع .

وقد يتضح هذا المنهج على يد ابن الهيثم (٩٣٥ — ١٠٣٩م) سابقا به فرنسيس بيكون (١٥٦١ — ١٦٢٦م) فقد جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس وقدم الاستقراء على القياس وحدد الشروط الأساسية فى البحث العلمى وهو طلب الحقيقة دون أن يكون لرأى سابق أو نزعة أو عاطفة مهما كانت دخل فى الأمر .

وعنده أن كل مذهبين مخالفين ، أما أن يكون أحدهما صادقا والآخر كاذبا وإما أن يكونا جميعا كاذبين ، والحق غيرهما جميعا ، وإما أن يكونا جميعا يؤديان إلى معنى واحد هو الحقيقة .

ويرى قدرى طوقان ومصطفى نظيف وغيرهم أن ابن الهيثم لم يسبق (بيكون) فحسب ولكنه سما عليه ، فقد كان أوسع منه أفقا وأعمق تفكيرا .

وابن رشد الذى أخذ عنه الغربيون يؤمن بمبدأ العقل عند البحث وعدم الاعتماد على الروايات التقليدية تبدو فى فكره وبحثه النزعة الاستقلالية واضحة فبالرغم من أنه شارح ارسطو فلقد كان واضحا أن شروحه فى الأغلب كانت تكشف عن شخصيته وآرائه الاستقلالية. وقد أشار الدكتور محمود قاسم فى أبحاثه الكثيرة عنه عن أصالته الإسلامية وعن إقترابه من الغزالى فى كثير من مفاهيمه وأن الخلاف بينهما الذى يردده خصوم الإسلام فيما يتعلق بتهافت الفلاسفة وتهافت التهافت وبينهما مائة عام تقريبا ، ليس خلافا جذريا وأنهما يلتقيان معا فى بوتقة الإسلام باختلاف الظروف والأزمنة ولكنهما على التقاء فى عشرات القضايا الأساسية فى الفكر الاسلامى .

والحق أن هذه الوقائع الأساسية عن مكانة الفكر الإسلامى قد أشار إليها بعض الباحثين المنصفين فان الاستاذ بريفولت يقول: إن مايدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه مدين لها بوجوده نفسه ، فالعلم القديم لم يكن للعلم فيه وجود وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم وأخذوها عن سواهم ولم تتأقلم فى يوم من الايام ، فتمتزج امتزاجا كلياً بالثقافة اليونانية .

« وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الاحكام ووضعوا النظريات ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الإيجابية والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبى كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدها الهلينى أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلتها العرب إلى العلم الاوربى » .

ولم يقف الأستاذ بريفولت عند إقرار دور الفكر الإسلامي وأصالته وإضافته الموضحة المبتكرة ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين قرر : « أن روجر بيكون نقل مذهب العرب في البحث العلمي يقول : أن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربي والعلوم العربية في مدرسة اكسفورد على خلفاء معلميه في الأندلس، وليس لروجر بيكون) ولا لسميه (فرنسيس بيكون) الذي جاء بعده الحق في أن ينسب إليها الفضل في ابتكار المنهج التجريبي ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق » .

وعند بريفولت أن المناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرق من التجريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية ، وقد كان منهج العرب التجريبي في عصر بيكون قد انتشر انتشاراً واسعاً وأكب الناس في نهب على تحصيله في ربوع أوربا »(١) .

(٤)

(١) اضافات الفكر الاسلامي في مجال العلم :

أضاف الفكر الإسلامي إضافات بعيدة المدى في مجالات العلوم المختلفة :

في الطب ، في الفلك ، في الكيمياء ، في الصيدلة ، في الملاحة ، في الجغرافيا ، في علوم البحار ، في الصوت والضوء ، في نظريات النشوء والترقي ، في الأرقام والحساب ، في الجبر ، في المراصد ، وآلات الأسطرلاب ، في صناعة الورق .

ففي الطب عرفوا طبيعة كثير من الأمراض كالجدري والحصبة واستعملوا الأمصال في معالجة بعض الأمراض ووصفوا تشريح الجسم الإنساني وصفا دقيقاً .

وعرفوا العقاقير فسجل ابن البيطار ١٤٠٠ عقاراً لم تعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقار والآلاف اكتشفها العرب وحددوا منافعها ومضارها .

---

(١) راجع شهادات أخرى للفكر الاسلامي في كتابنا (أضواء على الفكر العربي الاسلامي)

وألف أبو القاسم الزهراوى كتابه فى الطب والجراحة فى عشرين مجلدا ، وأطباء الإسلام هم أول من فتت الحصى فى المثانة وسدوا الشرايين النازفة وكتبوا فى الجزام والحصبة والجدرى وعدوى الطاعون واستعملوا المرقد (المخدر) فى العمليات الجراحية ، والأطباء المسلمون هم أول من كشف النقاب عن الدورة الدموية ودورة الانكلستوما ، كما صحح الأطباء العرب آراء بقراط وجالينوس فى التشريح ووظائف الأعضاء(١) .

وقد ترجم كتاب ابن سينا (القانون فى الطب) فى خمسة عشر طبعة إلى اللاتينية والعبرية والإنجليزية وقد بحث عن العقاقير والأدوية فى سبعمائة وستين نوعا ، قال الدكتور ردينستون : إنه يحتوى على ما يزيد على مليون كلمة وقد عالج القرحة الدرنية والقولنج الكبدى والكلوى والتهاب الرئة والجنب والتهاب الدماغ . وقد ظلت مؤلفاته أساساً للمباحث الطبية فى جامعات فرنسا وإيطاليا ستة قرون ولم تعرف جامعة لوفان حتى القرن السابع عشر مرجعا للطب والعقاقير أوفى من كتب الرازى وابن سينا وابن الهيثم .

وعرف الفكر الإسلامى التطعيم ضد الجدرى ، واستخدموا عفن البنسلين وعيش الغراب كمراهم ، « أما طب العيون فهو من صناعة العرب وظلت تذكرة طب العيون تستخدم حتى القرن ١٩ »(٢) بل لقد احتل المسلمون المركز الأول فى مجال الطب فترة تزيد على خمسمائة عام .

* * *

وفى المجالات الأخرى نجد إضافات باهرة ، فقد اخترع المسلمون الساعات الدقاقة والزوالية واكتشفوا قوانين ثقل الأجسام ، وعرفوا تركيب النــار اليونانية واستخرجوا قوة البارود الدافعة واستعملوا الآلات القاصفة ، وأتقنوا فن تسقية

(١) راجع كتابنا (مقدمات العلوم والمناهج)
(٢) رينه جارودى ، بحثه فى القاهرة نوفمبر ١٩٦٩ .

الفولاذ ، وهم أول من استخدم البوصلة فى الملاحة وا كتشفوا الإبرة المغنطيسية التى انتقلت إلى أوربا فى القرن الثانى عشر ، ونقلوا القمح الأحمر وشتائل النخيل من أسبانيا وافريقيا إلى فرنسا ، واستخرجوا مادة القطران التى يطلى بها قاع السفن ، وعرف فضلهم فى تحسين نسل الخيل ، وكانوا أول من حاول قياس خط نصف النهار ، ووصفوا أصول علم الجبر وحساب المثلثات وبسطوا علم الحساب الإغريقى ونقلوا القطن إلى الأندلس وأخذوا من الصينيين زراعة القصب واستخراج السكر منه وأدخلوهما إلى مصر وصقلية والأندلس ، وكانت علوم المسلمين فى الجغرافيا والفلك هى صاحبة الفضل الأكبر فى الكشف عن الأمريكتين وعلل المسلمون ملوحة البحر وعذوبة المطر واستحالة الحطب فى الاحتراق ، واستحالة الزيت فى المصباح وصعود الهواء وانحدار الماء لا بالجاذبية والثقل النوعى بل بانجذاب بعضها إلى بعض .

وعرف موسى بن شاكر مائة تركيب ميكانيكى ، كما علل علماء المسلمين صعود الماء فى العيون والفوارات وتجمع الماء فى العيون والقنوات واستعملوا السيفون وسموه (السيارة) وعرفوا كثافة الذهب والرصاص ، وبحثوا فى الصوت وحصوله وعللوا حدوث الصدى ، وكتبوا فى الأوتار واهتزازها وعرفوا ما بين طول الوتر وغلظه وتأثره من علاقة ، كما عرفوا خاصة الجذب فى المغناطيس وخاصة اتجاهه وهم أول من استعمل بيت الإبرة (البوصلة) فى البحار ، ودرسوا نظرية النشوء والترقى فى مدارسهم وطبقوها على المواد غير العضوية والمعادن ، والحسن بن الهيثم هو أول علماء البصريات ، كما اقتبسوا الأرقام الهندية وشذبوها وأوجدوا طريقة مبتكرة وهى الإحصاء العشرى باستعمال الصفر ، واستعملوا الرموز فى الرياضة فسبقوا الأوربيين إلى ذلك ومهدوا للكشف عن اللوغاريتمات وعن التكامل والتفاضل ، وأنشأوا المراصد العديدة ووضعوا الازياج الدقيقة الكبيرة الفائدة ، وهم أول من عرف الأصول التى تفضى إلى الرسم على سطح الكرة وأول من أوجد عمليا طول الدرجة من خط نصف النهار وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها ، واخترعوا آلة الاسطرلاب الدقيقة وحققوا مواقع كثير من النجوم

وحسبوا طول السنة الشمسية وبحثوا فى كلف الشمس قبل الاوربيين ووضعوا جـــداول دقيقة عن النجوم الثوابت وصورها فى الخرائط ، وصححوا أخطاء بطليموس وخطأ الرومان القـائلين بتسطح الأرض ورسموا خرائط بلادهم ، وأكد أبو الفداء أن الأرض كروية وأنها فى الوسط ، وهم أول من وضع أساس الـكيمياء ، وقد مارسوا أعمال التقطير والترشيح والتصعيد والتبلير (البلورة) والتذويب والالغام والتـكليس وهم الذين استحضروا الـكحول والقلى والبورق والزرنيخ والبوتاس ، والاثمد . وزيت الزاج (الحامض الـكبريتيك) والزاج الأخضر ، وماء الفضة (الحامض النتريك) وحجر جهنم (نترات الفضة) وملح البارود (نترات البوتاس) والسليمانى والراسب الأحمر (اكسيد الزئبق) وروح النشادر وملح الطرطير ، وماء الذهب والبـارود ، والقلويات كلها فى الـكيمياء معروفة باسمها العربى ، وماء الفضة لم يوصف فى كتاب غربى قبل كتاب جابر بن حيان ، وملح البارود من تحضير تلميذ المسلمين روجر باكون ، وأول من اخترع رقاص الساعة هو أبو الحسن العبـــاسى المشهور بابن يونس ، والساعة الدقاقة اخترعها علماء المسلمين وأهداها هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرانسا فـكانت وغيرها من الهدايا موضع دهشة عظيمة ، وأول مصنع للورق بدأ فى سمرقند عام ٧٥١ ثم فى بغداد فى زمن الرشيد ثم فى دمشق الرشيد ثم فى دمشق ودمياط ومراكش وصقلية ـــ وأسبانيا والمرايا والبلور بدأت فى سوريا ومنها انتقلت إلى البندقية . وقد عرف المسلمون (الصفر) ولم يعرفه الغربيون إلا فى القرن الثانى عشر عن طريق المسلمين ، وقال العلامه إبر : إن فـكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التى قدمها المسلمون ، وكان المسلمون قد استعملوا الصفر فى الحساب ورسموه على هيئة حلقة ثم شرح الخوارزمى طريق استعماله فى بحث ترجم إلى الـكتب الأوربية فى الربع الأول من القرن الثانى عشر .

وأبرزت هذه النهضة العلمية عدداً كبيراً من العلماء فى مقدمتهم : جابر بن حيان والخوارزمى والرازى والبتانى والبيرونى وابن الهيثم وابن خلدون وابو الثناء الأصفهانى والفرغانى والقزوينى والزهراوى وابن يونس وابن ماجد وحسن

المراكشى وعمر الخيام والفارابى ، والادريسى ، وغيرهم(١) .

وبما يذكر فى هذا المجال أن الطبيب ابن النفيس (على بن حزم القرشى ، كبير أطباء مصر ١٢١٠ — ١٢٨٨ م عارض رأى جالينوس الذى ظل مهيمنا على عقول الأطباء أكثر من عشرة قرون ونقد نظرية جالينوس وعارض قوله فى الدم وقال كيف يمكن أن ينتقل الدم من البطين الأيمن إلى الأيسر خلال حاجز ليس له منافذ ، ودحض نظرية جالينوس واخرج للعالم لأول مرة نظرية الدورة الدموية الصغرى إذ قال : إن الدم لا يمكن أن ينتقل من البطين الأيمن إلى الأيسر مباشرة خلال الحاجز وأنما يسير من البطين الأيمن إلى الرئة ومن الرئة إلى البطين الأيسر وهذه هى الدورة الدموية الصغرى » .

وقد ظلت آراء ابن النفيس قائمة ، حتى ترجمت كتبه إلى اللاتينية فى عصر النهضة .

وجاء سرفيتو وكولمبو ، فأيدا ما ذهب إليه ابن النفيس وذلك فى القرن السادس عشر فهو قد سبقهما بأكثر من مائتين وخمسين سنة — أما وليم هارفى فقد جاء بعده بأكثر من أربعمائة سنة وقام بتجاربه فى ضوء أبحاث ابن النفيس ومن تلاه وانتهى إلى كشف الدورة الدموية الكبرى .

---

(١) راجع تفاصيل أكثر فى هذا المجال فى كتابينا : أضواء على الفكر الاسلامى وصفحات من أمجادنا

٥ — اضافات الفكر الاسلامى فى مجال العلوم الانسانية
(الاجتماعية والسياسية والاقتصادية)

١ — ابن حزم — نظرية المعرفة

نستطيع أن نقول إن أبرز دعائم للفكر الإنسانى الحديث فى مجالات الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية والقانون وخاصة فى مجال الخطوط العامة لها جميعا إنما بدأها الفكر الإسلامى وأرساها ثم نماها الفكر الغربى واتجه بها وجهة أخرى .

وتكاد تكون « نظرية المعرفة » التى صاغها ابن حزم، من أهم هذه الدعائم وقد سبق بها « كانت » بسبعة قرون وقد بلغ ابن حزم الغاية فى ذلك فهو يعد بحق مؤسس المنهج العلمى فى المعرفة فى الفكر العربى الإسلامى .

يقول : لا يجوز لمن لا يملكون أدوات الاجتهاد والعقل أن يقلدون إماما فى كل ما يقول ، أو كل ما قال وقرر من غير ترجيح دليل على دليل .

«وطالب الحق لا يصح أن يعميه التعصب لقوله عن التماسه حيث يكون ، وهو فى اخلاصه للحق لا يبغى له الغلب ولكن يبغى بعد نصر الحق المجرد ، وهو مستعد لترك قوله هو إلى قول غيره أن رأى عند غيره الحق السائغ ، الذى لا يشوبه باطل وكذلك يقول فيما لم يصح عندنا حق الآن ، فيقول بجد بن مقرين، إن وجدنا هدى منه اتبعناه وتركنا ما نحن عليه . فلا نأخذ رأيا إلا بعد أن نمحصه ونسلط عليه العقل والبرهان .

والمعرفة تكون (١) بشهادة الحواس (٢) بأول العقل (أى بالضرورة) وبالعقل من غير استعمال الحواس (٣) ببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس .

وهكذا حل ابن حزم أعظم مشكلة فى تاريخ نظرية المعرفة . هذه المشكلة التى زعم مؤرخو الفلسفة الحديثة أن حلها كان من نتاج عبقرية الفيلسوف الالمانى (كانت) المتوفى ١٨٠٤ .

٢ — الغزالى — علم النفس الاسلامى

أولا : أوجد الإمام الغزالى علم النفس الإسلامى، حين قرر أن السلوك الإنسانى يقوم على شهوة للطعام ويمتد من شهوة الطعام إلى سائر الشهوات، وهو نفس المصدر الذى استمد من علماء النفس فى العصر الحديث أول مفاهيمهم ويعد الإمام الغزالى بحق، مؤسس علم النفس الإسلامى وقد فسر مظاهر سلوك الإنسان بأربع دوافع أساسية هى شهوة الطعام ، والجنس ، والمال ، والجاه ، وعنده أن أساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام وأن الاعتدال هو الميزان الصحيح لجميع أنواع السلوك والخروج عن حد الاعتدال إلى التفريط ، والإفراط هو سبب الأمراض النفسية والعلاج هو الارتداد إلى حد الاعتدال الواجب .

ثانياً : البراهين التى جاء بها الغزالى للدفاع عن الإيمان تبناها القديس توما الاكوينى من بعد وحولها للدفاع عن المفاهيم المسيحية دون أن يذكر أولية الغزالى.

٣ — ابن خلدون : منهج التاريخ

أما ابن خلدون فقد قدم لعلماء الغرب سبقا حاسما فى وضع أسس ثلاثة علوم: التاريخ والاجتماع والاقتصاد السياسى، وبه سبق آدم سميث وأوجست كونت بأربعة قرون كاملة فقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس علمى وقرر أن الظواهر العمرانية فى تزاحمها وتواليها تحكمها قوانين ، وكانت وسيلته فى الدراسة الاستقراء والقياس وقد أكد المنصفون أن آراءه جاءت كعمل مرتب منظم ينطبق عليه العلم فى معناه الدقيق .

(٢) اكتشف ميدان التاريخ الحقيقى وطبيعة ولم يقل أحدا قبل ابن خلدون إن التاريخ علم خاص موضوعه ، بحث جميع الظواهر الاجتماعية فى حياة الإنسان وبذلك يعتبر بحق مؤسس علم الاجتماع .

(٣) سبق فى آرائه أقطاب علم الاجتماع المحدثين .

(١) اكتشف نظريه الأجيال الخاصة بظهور الأسر ونهوضها من قبل أن يعرفها (أوتوكار لورنس) فى أواخر القرن التاسع عشر .

(٢) عرف قانون التشبيه بالوسط أن يعرفه العالم الطبيعى (داروين) بخمسة قرون

(٣) اكتشف مبدأ وجوده المادة قبل أن يكتشفه العالم الفيلسوف الألمانى ارنست هيكل بأكثر من خمسة قرون .

(٤) اكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية قبل نوتسبدران وماركس وباكونين

(٥) عرف مبدأ الحتمية قبل رجال الفلسفة الاثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة .

٤ ـ ابن مسكويه : نظرية التطور

سبق ابن مسكويه واخوان الصفا ، دارون فى اعلان نظريتى أصل الأنواع والتطور فقد ذكر ابن مسكويه فى كتبه أن النباتات أسبق فى الوجود من الحيوان وقال ابن مسكويه : بنشوء الحيوان من النباتات وأن الإنسان ناشيء من آخر سلسلة البهائم وأنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقه وغيرها يرتقى حتى أعلى رتبة من مراتب البشر .

وقد ورد لفظ (التطور) فى الطبقات الكبرى للسبكى وفى مقدمة ابن خلدون وفى كتاب البدر الطالع للشوكانى . قال السبكى : ومن كرامات هذه الأمة التطور ، بأطوار مختلفة ، وهذا الذى تسمية الصوفة بعالم المثال ، ويثبتون عالميا متوسطا بين عالم الاجسام وعالم الأرواح .

وقال ابن خلدون فى المقدمة : إن أهل الدول أبدا يقلدون فى طور الحضارة الدولة السابقة قبلهم ، فأحوالهم يشاهدون ، ومنهم فى الغالب يأخذون ، ومثل هذا وقع للعرب ، لما كان الفتح وملكوا فارس والروم فما استعبدوا أهل الدول فعلهم واستعملوهم فى مهنهم وحاجات منازلهم .. إلى أن قال : فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف فى الأحوال :

وقال الشوكانى فى سيرة أبى الفضل المشرالى : أنه ولد عام كذا ورحل إلى تلمسان وفتحت على ابن مرزوق وعلى سائر علمائها فى عدة علوم ثم رحل نحو المملكة المصرية و (تطور) على أنحاء مختلفة ،

(٥) أبحاث الاقتصاد الاسلامى

وضع المفكرون المسلمون أسس النظرية الاقتصادية العصرية قبل أن يعرفها الفكر الأوربى بألف عام على الأقل ، وظهر التخصص العلمى المصحح فى المؤلفات الاقتصادية الاسلامية واضحا القرن الثامن الميلادى فهناك كتاب (الخراج) ليحيى بن آدم القرشى ظهر عام ٢٠٣ هجرية أى حوالى ٧٨٥ م .

وكتاب الاكتساب فى الرزق المستطاب للإمام محمد بن حسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة عام ٢٣٤ هـ (٨١٢ م) .

وكتاب (الخراج) للإمام أحمد بن حنبل .

ثم تلى ذلك مقدمة ابن خلدون فى القرن ١٣ م .

وذلك قبـــل كتاب ثروة الأمم : إنجيل الاقتصاد الحديث الذى كتبه أبو الاقتصاد الغربى آدم سميث قبل عام ١٧٧٦ بخمسة قرون من الزمان .

وقد بحث ابن خلدون الحضارة ونشوءها وإنتاج الثروة وصور النشاط الاقتصادى ونظريات القيمة والتوزيع والسكان .

ثم كتب المقريزى كتابا فى النقود وكتابا فى دورات الأعمال الاقتصادية سماه (إغاثة الأمة بكشف الغمة) بحث فيـــه أسباب الأزمات الاقتصادية واقترح أوجه علاجها .

ومثل هذه الدراسات لم تظهر فى الاقتصاد الحديث إلا فى القرن التاسع عشر ، كما ظهر كتاب (الفلاكة والمفلوكون) أى الفقر والفقراء لأحمد بن على الدلجى وهو نوع جديد من الدراسة الاقتصادية لم تظهر دراسته وأبحاثه إلا فى أوائل القرن العشرين (١) .

---

(١) عن دكتور زكى شبانه فى كتابه عن الاقتصاد الإسلامى .

١ — أن من أول من قرروا نظريات التحرر من الجمود ، وعنده أن النظر البرهانى لايؤدى إلى مخالفة الشرع فإن الحق لايضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له .

٢ — قال إن الزمان معنى ذهنى لاوجود له فى الحقيقة ، والزمان شىء يفعله الذهن فى الحركة ، لأن الزمان ليس شيئاً غير مايدركه الذهن من هذا الامتداد المقدر للحركة فالزمان ليس بذى وضع .

وهذا المعنى هو ماردده (كانت) الألمانى المتوفى ١٨٠٤ حين قال: إن المكان والزمان ليسا شيئاً فى ذاتهما بل هما وعاءان كبيران يحتويان على جميع الحقائق المحسوسة والعقلية ، وأنهما وعاءان بلا قعر ولا جوانب ثم قال: إنهما فى الحقيقة فكرة خالصة تمكننا من تخيل الأشياء مرتبا بعضها قرب بعض ، وهذا الذى قال به كانت فى أواخر القرن ١٨ كان قد قرره ابن رشد قبل ذلك بثلاثة قرن .

٣ — أعلن وحدة العقل البشرى ومؤدى ذلك أن أشخاص الناس لاتخلد بعد الموت وإنما الخلود للعقل المطلق فقط . وكان لهذه النظرية أثر بعيد المدى على الكنيسة والدين ، على أن الأمر فى المسيحية غير ذلك فالكنيسة تقول إن القديسين يأتون بالعجائب وهم موتى كما كانوا يأتون بها وهم أحياء ، إنهم يشفون المرضى ويمنحون البركات ويطهرون الناس ، من أجل ذلك قاومت الكنيسة رأى ابن رشد فى وحدة العقل وضياع الشخصية الفردية بالموت .

٤ — أعلن ابن رشد نظرية العقل الفعال ، وهى النظرية التى استحوذ عليها توماس الأكوينى فى القرن الثالث عشر ، وارتضاروس الإنجليزى فى العصر الحديث (١) .

وكل مافعله توماس الأكوينى أنه أخذ آراء ابن رشد فى هذه المسألة وزعمها لنفسه ، كما أخذ مختلف آراء ابن رشد بحذافيرها فنسبها لنفسه ثم فصلها فى كتابه الضخم المسمى (الخلاصة اللاهوتية) فبدا فى نظر قومه أنه هو المجدد الأكبر فى المسيحية .

---

(١) راجع الدكتور محمود قاسم : فى كتابه النفس والعقل .

٧ ـ الاضافات الاجتماعية

(١) الشافعى : قدم نظرية التعايش السلمى هى الأصل الذى لايختلف فى الشكل أو فى المضمون عن النظرية الحديثة (١) .

(٢) توصل الشاطبى إلى نظرية تسمى فى القوانين المصرية نظرية التعسف فى استعمال الحقوق فأثبت بعد تحليل وتفصيل أنه يجب منع الفعل المأذون به شرعا إذا لم يقصد فيه فاعله إلا الإضرار بالغير .

(٣) سبق أبو العلاء المعرى الفيلسوف العربى (دانتى) إلى كتابه الكوميديا الإلهية بكتابه رسالة الغفران وقد أخذ دانتى مادة الكوميديا الإلهية من الكلمة المسلمة .

قال أسين(٢) بلاسيوس عام ١٩١٩ إن دانتى استقى ملحمته الكوميديا الإلهية من مصادر عربية وأنه فى تصويره للجحيم والجنة استمد مادته من كتب الإسلام عن معراج النبى ورسالة الغفران للمعرى .

(٤) سبق أبو بكر محمد الطرطوشى : الفيلسوف ميكافيلى فى وضع أسس السياسة فى كتابه الأمير وذلك بكتابه سراج الملوك ، الذى كتبه قبل خمسة قرون من صدور كتاب الأمير .

(٥) أثر البخارى وعلماء الحديث فى بناء منهج التاريخ الأوربى الحديث وبعد وفاة البخارى بحوالى عشرة قرون بدأت فكرة تحديد منهج للتاريخ تظهر فى أوربا ، ونقله الشرقيون على أنه أمر جديد والحق أنه مأخوذ من منهج المحدثين المسلمين وشيخهم البخارى (٣) .

---

(١) قدم هذا البحث الدكتور عز الدين فودة إلى مؤتمر لاهاى للعلاقات الدولية عام ١٩٦٦ .

(٢) راجع كتابنا أضواء على الفكر العربى الاسلامى .

(٣) الحسنى محمد هاشم : كتاب البخارى ص ٢٥٥ .

ويقول الدكتور محمود قاسم فى كتابه المنطق الحديث ومناهج البحث العلمى : تحت عنوان مراحل البحث التاريخى الاوربى : لم يتبع القدماء من الاوروبيين منهجا سليما فى دراسة التاريخ ، فكانوا يخلطون بينه وبين فن القصص وكانوا يجمعون الوثائق والروايات كيفما اتفق ويصهرونها ويصبونها فى قالب أدبى جذاب .

(٦) سبق الفكر الاسلامى علماء الغرب فى مجال كتابة المكفوفين التى عرفت بالحروف البارزة فقد عرف العلماء المسلمون هذه الطريقة وسجلها على بن أحمد بن يوسف المشهور بزين الدين الآمدى .

(٧) سجل الباحثون أن الفارابى سبق اينشتاين إلى بعض النظريات نطاق نظرية فى النسبية ، وأن الغزالى سبق هربرت سبنسر فى تخطيط الدولة والمدينة ، وقارن بين كل منهما وبين جسم الإنسان فالغزالى يشبه الملك بالقلب وأصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم ، والشرطة بعصب الإنسان والوزراء بحسن الإدراك والقضاء بالشعور .

(٤)

(المنحنى الخطر فى الثقافة الغربية)

استطاع الفكر الإسلامى أن يقدم للثقافات الغربية فى مختلف مجالات البحث العلمى والعلوم الكونية والإنسانية معطيات ضخمة بعيدة المدى قام عليها الانطلاق العلمى والتطور الإجتماعى والفكرى (سياسياً واجتماعياً واقتصادياً) على نحو كاد أن يحقق للإنسانية (مدينته الفاضلة) التى كانت حلم الفلاسفة والمصلحين .

غير أن الفكر الغربى الذى كان بطبيعته اغريقى الجذور وثنى الملامح والذى استطاع أن يسيطر على المسيحية الوافدة فيصبغها بصبغته ويصوغها فى قوالبه لم يستطع الفكر الإسلامى أن يخرجه من طبيعته العنيدة ، فقد امتص كل القيم الإسلامية البناءة فى مجال العلم ومجال الفكر والمجتمع والحياة ثم تخلى عن الجوهر الأساسى القائم على التوحيد وأعاد صياغتها فى اطاره وطوابعه ، ثم لم يلبث أن أعان مجافاته للفكر الإسلامى وحمـــل عليه حملة عنيفة ، وأنكر فضله وأثره فى نهضته ، بل وأنكر إن هذه المضامين جميعا ذات جذور إسلامية نماها الفكر الغربى الحديث وأضاف إليها .

والواقع أن الفكر الغربى قد وقع تحت تأثير خطرين كبيرين :

الخطر الأول : خطر الجذور الوثنية الأغريقية الرومانية البعيدة المدى فى تشكيل مزاجه وطوابعه وهو مزاج ليس الدين جزء منه ولا أرتباط له أساسا بالمفاهيم الغيبية أو الروحية أو مفاهيم التوحيد والنبوة وما إليها حيث تقوم أساساً على فكرة الصراع بين البشر والآلهة .

الخطر الثانى : خطر اليهودية وقيمها التى يسجلها التلمود والمشنا وهو ما كشف

عنه فى أواخر القرن التاسع عشر بما سمى (بروتوكولات حكماء صهيون) والدعوات الصهيونية والماسونية والبهائية والمذهب النفسى الفرويدى والروحية الحديثةوالثيوصوفيةوالمعروف أن اليهودية حاربت المسيحية منذفجرها الأول وحورت مفاهيمهاثم كان لها دورها الخطير بالنسبة للحضارة الأوربية فى مجال السيطرة عليها.

ومن هنا برز تيار خطير فى الهجوم على الدين والمسيحية والحضارة الغربية بصفة عامة . لقد كانت النهضة الأوربية « وثنية فى ثورتها غير مصطبغة بالدين ، أهدرت أكثر ما فى العصور الوسطى من الحسنات ، وضحت بكثير من الفضائل . فقدكانت تترصد تحت مظهر الثقافة اللامعة شهوة عارمة ورغبات وحشية لم تكبح جماحها فى هذا العصر ، نزعة دينية ولا هذبتها تجربة كتجربة العصر الحديث فوجدت فى إيطاليا الشهوة والخيانة والسم والاغتيال بجانب التهذيب الفنى والأدبى ، وبدت الكنيسة ناشزة عن مبادىء المسيحية بأعمالها الدنيئة المفضوحة وفقدت سيطرتها على الأخلاق والأمانة السياسية » .

وعندنا أن « اليهودية » كانت من وراء هذا التحول الخطير ، التحول نحو الإنحراف فى مختلف قيم الحياة ، ظهر ذلك بوضوح تلقفها أراء فى (نتيشه)و(دارون) وفى الدعوة الماسونية التى كانت تخفى هدفها الأساسى فى هدم المسيحيه وبناء هيكل سليمان .

فقد كشف بروتوكولات حكماء صهيون كيف دبرت اليهودية العالمية القضاء على الحضارة المسيحية الأوربية والعمل على تحطيم الديانة المسيحية تحطيما كاملا .

يقول المستشرق الاسبانى فيلا سبازا « لقد حجب العرب أنوار المسيحية الأولى وبدل ما فى المسيحية السامية من مواساة وحول فلسفتها إلى أحاج ومعميات ويقول فيلكس فارى : بالرغم من أن الغرب قد بدل فلسفته المسيحية فإنه لم يتمكن

من إيصال الإسلام إلى ضميره ، كما أنه امتنع عليه أن يبلغ بالمسيحية إلى فطرته وبقى النزاع مستحكما فيه بين الفطرة والضمير لأن ثقافته المسيحية لم تزل متأثرة بالأحاجى والمعميات .

ويردد هذا الكلام كاتب شرقى وكاتب غربى كلاهما مسيحى ، ولعل هذا الاتجاه قد استمد وجوده من تراث ضخم واجه المسيحية الغربية بالنقد وكان من ورائها خصومها التقليديون اليهود ، المتأهبون لتدمير الحضارة ووراثة السيادة العالمية ، وقد تركزت هذه الحملة على الإشارة إلى مواقف الكنيسة ضد التقدم وإثارة قضايا إعدام المفكرين وإحراق العلماء . والايماء إلى مسئولية المسيحية والكنيسة عن فظائع سان بارتلمى وهى مذبحة البروتستانت التى أمر بها شارل التاسع ليلة ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ والتى استمرت ثلاثة أيام قتل فيها مائة ألف إنسان .

ومذبحة (الا ليجواه) وهى طائفة دينية أنتشرت فى القرن الحادى عشر بجنوب فرنسا وقرر البابا اينوسانت الثـالث ابادتها عن آخرها فأبيدت (١٢٠٨ م)

وحرب الكاثوليك البروتستانت (الانابا بتسيت) وقل فيها ١٦٠ ألفا ، أو محرقة توركادا الدومنيكى الأسبانى (١٤٢٠ — ١٤٩٨) والتى قضت على ستة آلاف إنسان بالنار .

وتبدو صورة هذا المنحنى الخطير من خلال « وقف أقطاب الفكر الغربى من المسيحية المنحولة : فإن (هكسلى) قد رفض المسيحية رفضا قاسيا ورأى أنها لا تصلح مطلقا لأن تكون عاملا مدنيا ، ورد جميع النظريات المسيحية كما حارب (رينان) ما أسماه المسيحية التاريخية وقال : إن الكتاب المقدس عنده ليس إلا أثرا من تكامل الخرافات والأساطير وقد هاجم المسيحية ووصفها بالسلبية وكذلك (شفيترز) فى كتابه عن المسيح . كما وصف « كارل ماركس » المسيحية بأنها « ديانة الكلاب الضالة الضائعة .

وقال (برتراندرسل) أنه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد واحد ، وهذا الفرد مات على الصليب وكتب (أوجست كونت) فصولا عن الفلسفة الوافدة هاجم فيها الكنيسة الكاثوليكية ، وأعلن كثير من الفلاسفة أن الأوربى لم يتمكن من الخلق والابتكار إلا بعد أن تحرر من قيود تعاليم المسيحية الصارمة فى الروحية وانطلق فى جو الثقافة اليونانية .

ويعد ميكافيلى(١) أخطر من قاوم الفكر الغربى المسيحى، فقد دعا إلى التخلص من سلطان الكنيسة، وقال إنه لا يرى فى الفضائل الخلقية أساسا للفضائل السياسية وجعل أسس الفضائل عند الرجل السياسى هى قدرته على إقامة حكومة قوية مهيبة الجانب نافذة السلطان ، وأباح ميكافيلى الأمير الاتصاف بالخديعة والنفاق حتى يحتفظ بسلطانه السياسى .

وقال : يجب على الأمير أن يظهر مثال الاستقامة والإخلاص ومثال العطف على الانسانية ومثال التقوى أمام الناس ، ولكن عليه أن يعود نفسه ويمرنها على أن تهمل الوسيلة إذا كانت هذه الغايه هى الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ .

وهكذا جعل ميكافيلى الاخلاق وأسسها خاضعة للعوامل السياسية ودعا إلى نظرية الغاية تبرر الوسيلة ، إذا كانت هذه الغاية هى الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ ، وقال إن كل وسيلة توصل إلى الغرض المنشود محمودة وشريفة .

وهاجم الخلف المسيحى وقال إنه خلق ضعيف .

أما نيتشه فقد كان من أخطر من حملوا على الدين بصفة عامة وعلى المسيحية الغربية بصفة خاصة فقال إنها تلجأ إلى عدم الصدق للتأثير على الناس ولإثارة انفعالاتهم حتى أصبحت الوسائل المتبعة وسائل غواية أكثر منها وسائل لنشر الدعوة إذ أنها ترفض كل ما يمكن أن يثير المقاومة مثل العقل والفلسفة والحكمة والشك وتصر إصراراً عنيداً على أن العقيدة من عند الله ، وأنه لا مجال فيها للنقد والفحص ، بل للتسليم والاعتقاد ، وإنها تبث روح التعصب والغرور لدى الفقراء

---

(١) ١٤٦٩ – ١٥٢٧

وتصفهم بأنهم (ملح الارض) على ما يقول الانجيـل وانها تتعامل مع المتناقضات وكل ما يثير الغربة والدهشة وبمجد الإضطهاد وخدمة الآخرين .

ويرى أن التناقضات الموجودة فى المسيحية هدامة لا بناءة ، وأنها قضت على الامبراطورية وحدت من انتشار الإسلام حتى جاء لوثر فأضاع مكاسب عصر النهضة .

ويرى أن النظرية المسيحية المشهورة عن الخطيئة والفداء ، هو تصور موجود قبل المسيحية ثم تسرب إلى المسيحية فى تصورها للـكون، وهو التطور الافلوطينى للـكون بحركتى الهبوط الذى تمثله الخطيئة والصعود الذى يمثله الفداء ! وهـــو التصور الذى خلده أوغسطين فى (مدينة الله)، هذا التصور ليس مسيحيا بالضرورة بل هو التصور القديم للتاريخ قبل المسيحية .

وقال أن التصور التراجيدى للحياة (الصعود والهبوط) ليس تصورا مسيحيا صرفا ولـكن عرفه الشعراء اليـونان من قبل ، كما عرفتـه الأساطير اليونانية ، وبعض الفلسفات مثل فلسفة أفلاطون وعرفه الرومانيون فى عواطفهم وانفعالاتهم .

ويرى نيتشه أن المسيحية عدو العلم إذ أنها لا ترتكز على الواقع الذى يصدر العلم عنه كما يرى أن الإيمان المسيحى معارض للعلم خاصة لعلمى التفسير والطب » .

(٢)

وهكذا نشأ تيار عنيف فى الفكر العربى يعارض المسيحية ، فإذا كانت تدعوا إلى الزهد والرهبنة فقد أتجه الغربيون إلى الإباحة فى اقتحام الحياة وإذا كانت المسيحية تحرم العنف والقوة فقد وصلوا إلى أقصى درجة فى الانتقام والدمار وقد جاء ذلك فى نطاق ما عرف من الدعوة الى تهويد المسيحية أو تدميرها من الداخل ، لقد كان من الحق أن يقال أن الـكنيسة فى القرون الوسطى قد جمدت الفكر ووقفت فى وجه التقدم ولقد ثار الفكر الأوربى على الـكنيسة والمسيحية الغربية ، ولـكن كان فى استطاعة هذا الفكر أن يهضم الفكر الإسلامى ويجرى فى طريقه لولا أن هناك قوة استطاعت أن تدفعه حتى يربط نفسه بالوثنية الاغريقية ، ولو كان هذا الاتجاه فى ذاته سليما ، فلقد امتص العرب فى منهجهم العلمى خير ما فى الفـكر الهلينى والفارسى والهندى بعد أن صححوه ثم نموه أو صهروه .

لقد استطاعت هذه القوة الغامضة أن تجعل حركة الاصلاح المسيحى التى كانت تستمد مفاهيمها من الإسلام أن تتحول إلى صراع دموى وانقسام وخلاف عنيد ، فقد نقلت الفكر الغربى نقلة ماكرة من جذوره المسيحية التى هى شرقية أصلا قبل انحرافها ومن معطيات الفكر الإسلامى إلى الهلينية الإغريقية ، ونمت فيه ذلك العداء القوى لكل شىء ماهو دينى أو روحى أو خلقى ، ودفعته إلى عبادة الإنسان ، أو عبادة المادة ، وصبغته بالصبغة اللادينية المنكرة للغيب والميتافيزيقا .

و من هنا نشأ ذلك الاتجاه الذى نما من بعد نموا كبيراً والذى وصل الآن إلى أخطر نتائجه فى التحول إلى فهم الإنسان على أنه حيوان ، واتجاهه إلى التحليل النفسى على أساس الجنس كما صوره (فرويد) أو انكار كل العوامل غير العامل الاقتصادى فى تطور التاريخ كما رسمه (ماركس) وانكار وجود الأسرة كخلية طبيعية فى بناء المجتمع كما نظره (دوركايم) ومن ثم حل التعبد للرقى المادى وللذة وللحرية المطلقة وسرت عقيدة تقول بأنه ليس فى الحياة هدف سوى الاستمتاع بهذه الحياة نفسها .

« إن هياكل هذه الديانة إنما هى المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية التى أباحت الرقص وكهنة هذه الديانة هم الصيارفه والمهندسون وكواكب السينما » .

ومن ثم جرى تحوير مفاهيم الدين والأخلاق ومختلف القيم الاجتماعية فى أضواء هذا الاتجاه الذى أوجده خصوم المسيحية والحضارة الغربية فقد رددوا القول بأن الفضائل ليست قيما ثابتة ولكنها متطورة ومتصلة برفاهية المجتمع المـــادية ، وأعلنوا إنكار وجود الحب الأبوى وانكار العفاف والاحصان والسخرية بهما وأخذت الفضائل القديمة التى يؤيدها الدين تتخلى عن مكانها بالتدرج للفضائل الغربية الجديدة التى تدعو إلى حرية فردية للجسد البشرى غير مقيدة .

وبدا تغير كامل فى قيم السياسة والاجتماع والاقتصاد والتربية .

اليهودية العالمية والفكر الغربى

ومن ثم تبلورت مفاهيم الفكر الغربى فى صورة تغلب عليها طوابع التحرر من القيم الروحية والأخلاقية فى مجال المجتمع مع غلبة طابع الحس والمادة ، وأصبح الدعاة الجدد يرددون القول بأن الحقائق إنما هى وسائل لفهم الدنيا (وليم جيمس) والأخلاق ترجع إلى أسباب حيوانية بيولوجية (فرويد) والكتب المقدسة موضع الشك .

والتوراة كتاب بشرى وليس كتابا سماويا (نيتشه) .

والدين نظام اجتماعى قابل التطوير مثل الجماعة نفسها (أوجست كنت) .

والجنس الأبيض سيد الأجناس (جوبنيو) .

وقد أسقطت هذه المفاهيم : قيم التوحيد والألوهية والنبوة ثم لم تلبث أن أسقطت قيمة الإنسان نفسه فى محاولة خطيرة ترمى إلى إثبات أن الإنسان هو عبد نذواته وغرائزه الجنسية ، وأن العقل الباطن هو المسيطر الفعال فى توجيه الإنسان ، وبهذه النظرية أدخل الانسان فى حظيرة الحيوان ، استمدادا من أن الإنسان سليل الحيوان وأنه ينتمى إلى فصيلة القرود .

ثم استمدت من هذه القواعد الخطيرة أصول الفلسفات والنظريات المختلفة فى مجال الاجتماع والتربية والاقتصاد .

ثم اتسع نطاق هذه الاتجاهات فكان القول بأنه ليست هناك قوانين مطلقة ، وليست هناك قيم ثابتة واعلنت الدعوة إلى تحرير الإنسان من كل القيود حتى يتمتع بوجوده ويطلق لحريته العنان ، ووجهت إلى المثل الأخلاقية والقيم الروحية أسوأ الاتهامات ، وأنكر مفهوم الحق والخير . كان هذا الاتجاه فى مجمله ثمرة عمل تلك القوة العاتية التى فرضت نفسها على الفكر الغربى المسيحى

وحولته عن طريقه الطبيعى ، الطريق الإنسانى الجامع بين الروح والمادة إلى الإباحية والإلحاد .

يظهر هذا واضحا فى نصوص بروتوكولات حكماء صهيون أو الإنجيل البلشفى ، كما أطلق عليه (سرجى نيلوس) أول من نشره فى العالم قبل خمسين عاما باللغة الروسية .

ونستطيع بعض هذه النصوص أن تلقى الأضواء الكاشفة لهـذا المنحنى الخطير ، فقد تبين أن (بروتوكلات حكماء صهيون) إنما هـو مخطط سيطرة (الصهيونية) على العالم باستخدام كل الوسائل وأهمها الدعوة إلى الإباحة وإشاعة الأدب الزائف المنحرف .

يقول البرتوكول الثالث عشر :

« سننشر بين الشعوب أدبا مريضاً قذراً تغثى له النفوس ويساعد على هدم الأسرة وتدمير جميع المقومات الأخلاقية للمجتمعات المعادية لنا وسنستمر فى الترويج لهذا الأدب وتشجيعه حتى بعد فترة قصيرة من الاعتراف بحكمنا » .

فالدعوة إلى الإباحة المطلقة بهـدم الأسرة وتدمير أخلاق المجتمع وإشاعة الإنحلال فى الفرد والأمة والدولة هو هدف هذا المخطط ، وتقصد (بروتوكولات صهيون) بالمجتمعات المعادية لها : المجتمعات المسيحية فى الغرب والإسلامية فى الشرق ، فهى تقوم أساساً على العداء للمسيحية والعداء للإسلام وهى لا تتصدى للعقيدة مباشرة وإنما تهدم العقيدة بهدم الأخلاق والأسرة ، ولاشك أن هدم الأسرة وتدمير أخلاق المجتمع إنما هو تحطيم لمناعة الأمة ضد المقاومة ودون القدرة على رد التحدى ، إذ يجدون فى هذا التهديم الاجتماعى قوة فاعلة أكثر من التهديم الايدلوجى الذى يروجون له فى الحركات الفلسفية والاقتصادية والعلمية وهناك شبه إقرار بين الباحثين المستوعبين للتيارات والمخططات بأن أصبعا من الأصابع الصهيونية كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمى إلى هدم القواعد التى يقـوم

المجتمع الإنسانى عليها ، ومن هذه البرتوكلات نماذج خطيرة تكشف جوانب هامة مما يقع تحت أبصارنا دون أن يفهم تفسيره أو مصدره .

(بروتوكول ١٧)

« وقد عنينا عناية كبيرة بالحط من كرامة رجال الدين عند الأمميين فى أعين الناس ، وبذلك نجحنا فى الاضرار برسالتهم التى يمكن أن تكون عقبة كئودا فى طريقنا وأن نفوذ رجال الدين ليتضاءل يوماً بعد يوم » .

• • •

ومنها العمل على تحطيم «الدين» بعامة والنيل منه : تقول البرتوكولات :

« لقد خدعنا الجيل الناشىء وجعلناه فاسداً متعفنا بما علمناه من مبـــادىء ونظريات يجب أن تحطم بكل عنان الإيمان ، وتكون النتيجة الموقتة لهذا هى إثمار ملحدين يجب أن تكتسح كل الأديان والعقائد الأخرى ، وإن كان هذا يؤدى إلى وجود ملحدين ينكرون وجود الخـــالق ، واليوم تسود حرية العقيدة فى كل مكان ولن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بدءاً وانهياراً تاماً » .

وهناك إشارة صريحة إلى مدى التدبير وراء النظريات الفلسفية ذات الدوى ومدى تأثيرها .

يقول البرتوكول الثانى : « ليعتقدوا أن هذه القوانين النظرية التى أوحينا إليهم ذات أهمية قصوى ، يجب أن لا يكون هناك إعتقاد فى أن مناهجنا كلمات جوفاء ، لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه قد دبرناه من قبل ، سيكون واضحاً على تأكيد الأثر الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى ولم يفتنا تقـــدير الآثار السيئة التى تركتها هذه النظريات فى أذهان غير اليهود » وبالإشارة إلى « الحرية » يقول أحد البرتوكولات : إن الأثر الهدام الأخلاقى الذى تنشئه علومهم فى الفكر

غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد ، إن لفظ الحرية يجعل المجتمع فى صراع مع جميع القوى بل مع قوة الطبيعة وقوة الله نفسها ،

فإذا أردنا أن نعرف مدى أثر هؤلاء الفلاسفة لقلنا :

إن دارون هو أول من استغلت نظريته لتخريج فلسفة تحتقر الإنسان وتنكر أنه سيد الخليقة ، تقول البروتوكولات ، أن دارون ليس يهوديا ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين .

أما ماركس فهو صاحب الدعوة إلى التفسير المادى للتاريخ .

أما فرويد فقد أنكر الحب والقلب ، وحاول أن يصور النفس البشرية على أنها مجموعة من الرذائل تتحكم فى قواها وتسيطر على مشاعرها وأن الإنسان عبيد نزواته وغرائزه .

أما نيتشه فصاحب الحملة العنيفة على المسيحية والقائل بفكرة الإنسان الأعلى وموت الآله وإعفاء الإنسانية من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها أخلاق الأذلاء .

ويرى دور كايم أن الدين والزواج والأسرة ليست نزعات فطرية فى الإنسان وأن القواعد الخلقية لاوجود لها فى ذاتها . ويمكن القول بأن هذا «المنحنى الخطير» الذى حاولت قوى الصهيونية العالمية توجيه الفكر الغربى إليه ، إنما كان يرمى إلى إغراق الإنسانية كلها فى حمأة الرذيلة .

وبالرغم من أن الفكر الغربى قد سادته نظريات أخرى معارضة لنظريات فرويد وماركس ونيتشه وتفسيرات خلفاء دارون من اليهود ، فإن قوة النفوذ المسيطرة على دور النشر والصحف والاذاعات وغيرها قد مكنت لهذه النظريات بأن تنمو وتتسع وتخترق جدران الجامعات والمعاهد ودوائر المعارف حتى

أصبحت فى نظر الأجيال التالية لها ، وكأنما هى حقائق علمية ، ثم كانت الخطورة البعيدة المدى فى أن هذه القوى قذفت الثقافة العربية بذلك السم كله وفرضته عليها عن طريق التغريب والغزو الثقافى وسلطان الاستعمار والنفوذ الأجنبى .

ولقد كانت دائما للثقافة العربية قيمها ومفاهيمها تجاه كل هـــذه القضايا والنظريات والفلسفات التى أثارها الفـكر الغربى فلم تتقبلها كقضايا مسلما بها ، ولـكنها نقدتها وأخذت منها ورفضت وكشفت عن أخطائها ومخالفتها لجوهر الذات العربية والمزاج العربى الإسلامى والقيم الإنسانية أساساً وليست الإسلامية وحدها ، ويمكن القول بأن الفـكر الغربى خرج من الـكهنوتية والنسك والزهادة والغيبيات التى كانت قد بلغت أقصى حدودها إلى تحول جذرى فى الوجه المقابل قوامه التحرر المطلق من مختلف القيم الدينية والخلقية والإنسانية .

وهو تحول مفتعل ، وموجه ، وليس تطوراً طبيعياً للفـكر الغربى الذى بدأ بإقامة مناهجه أساساً على مفاهيم الفـكر الإسلامى وهى ذات طابع إنسانى وأخلاقى .

غير أن القوى القاهرة استطاعت أن تعود به إلى مفاهيم الوثنية الإغريقية ، وأن تجرده تماما من مقومات المسيحية والإسلام على السواء رغبة فى تدميره وتدمير الجوانب القوية فى الحضارة حتى تسقط البشرية محطمة فى قبضة المطامع الاستعمارية الصهيونية وكان أبرز مفاهيمها هى نفى القداسة عن الدين والأخلاق والقيم والتشكيك فى بقائها .

ولعل هذا هو مصدر الإحساس الذى يسود فـكر المصلحين من أن الفـكر الغربى تسوده سحابة من المادية والتحلل ، على نحو يفهم منه نمو الجانب المادى دون الجانب الروحى ، فقد نما جسم الحضارة وتباطأ نمو عقلها حتى إختل التوازن بين قواه الفاعلة ، وقواه المنفعلة ، وهو ما يعبر عنه باختلال التوازن بين الحضارة والثقافة . وقد ضاعت صيحات هؤلاء المخلصين الداعين إلى تحرير الفكر

الغربى من قيوده فى ضجيج هذه الدعوات ودويها المفتعل المتعالى وقد تكشف أن ماركس ، ونوردو ، وفرويد وبرجسون ، واسبينوزا ودور كايم كانوا جميعا من اليهود وأن لبعضهم صلة وثيقة بالحركة الصهيونية التى أقامها (هرتزل) فى أواخر القرن الماضى وأن هذه المخططات الفكرية والفلسفية إنما تمثل جوانب من العمل الضخم الذى قامت به الصهيونية فى غير الميادين السياسية والاقتصادية لفرض نفوذها على العالم .

• — تطور الفكر الغربي بين الفردية والجماعية

يمكن القول بأن تطور الفكر الغربي قد مر بخمس مراحل :

أولا : هدم سلطان الكنيسة ونفوذها وفكرها .

ثانيا : بناء النهضة على أساس المنهج العلمي التجريبي الإسلامي .

ثالثا : المغالاة في عبادة الفرد وتقديس الإنسان والانحراف به إلى مفهوم الوثنية من إطلاق الحريات العقلية والاجتماعية وإنكار العقائد الدينية والقيم الأخلاقية ، وإعلاء شأن العنصر الأبيض وعبودية سائر الأجناس .

رابعا : انبثاق الدعوة الماركسية الغربية والثورة على الفردية ونفوذ الرأسمالية وقيام الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية .

خامسا : انبثاق الدعوة الصهيونية وارتباطها بالرأسمالية ونموها في ظل الاستعمار وإقامة حاجز بشرى فى قلب العالم الاسلامى والأمة العربية ومحاولة صبغ كل مقدرات الفكر الغربي بمفاهيمها وقيمها الرامية إلى السيطرة العالمية .

وقد عاش الفكر الغربي ومازال بين صراعات المذاهب جميعها ، دون أن يصل إلى وحدة فكر أساسية إلا أن تكون هذه القاعدة هي « المادية » التي تحكم الفكر الغربي الرأسمالي والماركسي جميعا والتي تعد مصدراً أساسيا للمذاهب الفكرية والاجتماعية والسياسية التي انبثقت منها البراجماتية والماركسية على السواء مع خلاف بين الفردية والجماعية وبين الرأسمالية والاشتراكية .

وما زال النظامين الرأسمالي والاشتراكي يتصاعدان .

أما الصهيونية فهي قد ظلت حركة فكرية حتى حققت وجودها بقيام « إسرائيل » في قلب فلسطين ، عندئذ بدأت تكشف مخططاتها التي تضمنتها إيدلوجية تعمل على وراثة الاستعمار الغربي كله ، وإقامة إمبراطورية في قلب العالم العربي ، وإعادة بناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى .

ويربط الفكر الغربي بين الثورة الفرنسية (١٧٨٩) وبين الثورة البلشفية

(١٩١٧) ويرى أن الثورة الأولى هى رد فعل لاستبداد الأمراء ونفوذ الكنيسة وأن النظام الديمقراطى كان وليد الثورة الفرنسية ، وأن الثورة الثانيه هى رد فعل استعلاء رأس المال وجشع الرأسماليه وتحكمها فى جوانب الحياة الانسانيه وقضائها على الحريه الفرديه وأن النظام الاجتماعى هو وليد الثورة البلشفيه .

فالفردية الغربية تعلى من شأن الفرد وتجعل له السيادة الكاملة والحرية المطلقة بينما الجماعية الاشتراكية تعلى من شأن المجتمع وتجعل له السيادة الحقيقية ، ويحاول بعض المؤرخين أن يعزى إلى الصهيونية العالمية دوراً فى إقامة الثورتين ، فالثورة الفرنسية هى التى أخرجت اليهود من الجيتو إلى حق المواطن والمشاركة فى مختلف مجالات السياسة والمناصب والتمثيل النيابى ، ومن هنا انطلق اليهود للسيطرة على مقاليد الصحافة والمال والعلوم الكيمائية على نحو حقق لهم تقدما بعيد المدى فى هذ المجال .

ثم كانت لهم مشاركتهم وتأثيرهم البعيد المدى فى الفلسفات الاجتماعية والسياسية التى هدمت ضوابط الدين والأخلاق وإعلاء شأن الغرائز والإباحة والدعوة إلى التحرر من العقائد والقيم والمقدرات الروحية والنفسية المتصلة بالرسالات السماوية وإعلاء شأن المفاهيم المادية الخالصة وتفسير التاريخ تفسيراً مادياً .

غير أننا إذا نظرنا إلى الفكر الغربى نظرة منصفة مجردة تصورناه ، فكراً قد حرر نفسه من قيود كادت تحول بينه وبين التقدم والنمو ولكنه فى اندفاعه إلى هذا التحرر ، لم يستطع الاحتفاظ بالتوازن بين المادة والروح ، أو بين العقل والبصيرة ، فتنكر للروح والبصيرة تنكراً كاملا ، وربما كان ذلك بفعل «عوامل» وافدة قسرته على هذا الانحراف ، وأن هذه العوامل كانت حريصة إلى أن تخرجه من الأثر العربى الإسلامى القائم على « العلم مع الضمير » فى اندفاع لبناء حضارة إنسانية وقف بها المسلمون ، عن حد محدود ، وكان على الغرب أن يواصل تنميتها وبناءها .

هذا الانحراف ، دفع الفكر الغربى إلى التماس قيم الوثنية الاغريقية ، والتنكر للدين جملة ، ومن بينها الإسلام الذى كان دنيا ومنهج حياة ، ثم كان هذا

الإغراق العاصف فى الرأسمالية وتقديس الفردية . على النحو الذى وصل إلى العلمانية الإلحادية أى جهرت برفض أى صورة للإيمان بالله ، والتى أخرجت الدين من التربية وفصلت الأخلاق عن السياسة .

ثم ارتبط هذا الاتجاه بالإعلاء للجنس والعنصر ، وسيادة الجنس الأبيض صانع الحضارة ، واستباحة الحق فى الاستعمار والاستعباد للأجناس الملونة المتخلفة واعتبارها مصادر لخاماته أسواقا لتجارته واعتبار قيم الحرية والعدل والمساواة حقوقا لجنسه وحده ، لا للانسانية كلها ، ثم مجد الإنسان ذاته وأباح لنفسه كل حرية دون قيم أو ضوابط وتنكر لله واستغلت الرأسمالية العاملين ، وشرعت الربا والرشوة والمقامرة والاحتكار ، وكان لابد للمستضعفين من ثورة على الطغاة ، ولابد من دعوة عالية إلى الجماعية فى مواجهة الفردية العاصفة ، فكانت الاشتراكية داعية إلى إعادة تشكيل المجتمعات وفق عمل البشر وإنتاجهم .

فانبثاق الاشتراكية الغربية هو تطور طبيعى للمجتمع الغربى وضرورة لاشك فى تحركها فى مجتمع غلت فيه الرأسمالية والفردية فكان لابد لها من رد فعل ، فلما قامت الثورة البلشفية انقسم المجتمع الغربى إلى صراع طويل مرير بين الجماعية والفردية مازال مستمرا وقائما وسيظل إلى وقت بعيد ومازال بعيد المدى فى الفكر والثقافة والاقتصاد والسياسة للمجتمع البشرى كله .

وقد ارتبطت الرأسمالية الغربية الفردية بالاستعمار ، كما ارتبطت الاشتراكية بالدعوة إلى التحرر من الاستعمار .

وقد هاجمت الماركسية الأديان ، وهى فى نظرها الدين الغربى الذى أدار عليه ماركس قضية أوربا وأزمتها الرأسمالية فى ضوء دور المسيحية الغربية والكنيسة فى الصراع بين الطبقات ، بل لقد كانت هذه النظرة هى نقطة التحدى أمام كل الذين هاجموا الدين ، ولم يكن الإسلام قد دخل بعد فى صراع مع المجتمع الأوربى ولم يكن له موقف مامن الحضارة أو الرأسمالية أو العلم .

ويقول هكسلى فى كتابه (دين بغير وحى) Religion without Revelation إن الشيوعية الماركسية أكثر تنسيقاً وملاءمة لكن أساسها المادى المحض حد

من فاعليتها ، فقد حاولت أن تنكر حقيقة القيم الروحية وهذه القيم موجودة قائمة ، لذا كان على الشيوعية أن تقبل نتائج هذا الخطأ الايدلوجى فأقبلت على فتح أبواب الكنائس للجموع المتعطشة إلى القيم الروحية » .

ويرى توينبى أن الماركسية طريقة لتفسير السياسة والاقتصاد والحياة والنزعات وهى نظرية ودعوة لعمل ما ، وفلسفة تتناول جميع نواحى النشاط الانسانى ومحاولة لجعل التاريخ بماضيه وحاضره ومستقبله نظاماً منطقياً يحمل فى طياته مصائر محتومة كالقدر .

ويقول سارتر : إن الماركسية فلسفة المرحلة المعاصرة وستظل فلسفة المرحلة المعاصرة طالما أن الظروف الموضوعية التى أوجدتها قائمة » .

ومن الحق أن يقال إن الماركسية كانت ضرورة طبيعية ورد فعل لا مفر منه نتيجة لتطور المجتمعات الأوربية واستعلاء الرأسمالية والفردية، ولما كانت الرأسمالية قد ارتبطت بالكنيسة واستمدت مفهومها من اللاهوت المسيحى الذى يعلى شأن الفردية (راجع توينبى) فقد أخذت الماركسية الجانب المعاكس تماما وأعلنت خصومتها للمسيحية الغربية والكنيسة والدين بصفة عامة .

وقد تمثلت دعوتها فى إعلاء شأن الطبقات الكادحة ، للقضاء على الرأسمالية الغربية ، ممثلة فى الشركات والاحتكارات والبنوك الكبرى .

فكلتا الايدلوجيتين من نتاج المجتمع الغربى الصناعى المسيحى فالايدلوجية الغربية والأيدلوجية الماركسية تمثلان الصراع بين نظريتى الفردية والجماعية ، وعندما بلغت الرأسمالية أعلى صور الاستغلال كانت الماركسية بمثابة رد فعل طبيعى للثورة الصناعية الأوربية وللمجتمع الرأسمالى الصناعى ، ودعوة لتحرير الطبقات العاملة من ربقة أصحاب رؤوس الأموال .

هذا هو ضمير الاشتراكيه الحقيق بعيدا عن الفلسفات والمذاهب المتصارعة وهو تطور طبيعى للمجتمع الاوربى الذى أخذ يصنع أيدلوجياته واحدة بعد واحدة من أجل تحقيق قيام المدينة الفاضلة أو « أيتوبيا العدل والحريه » .

وإذا كانت الثقافه العربيه تؤمن بالعدل الاجتماعى فإنها تختلف مع النظرية المادية ، ومع النظرة اللادينيه ، ومع المادية التاريخية ومع الرأسمالية نفسها ، وتجد فى جذور فكرها الاسلامى نظرات سمحة اهتدى بها العالم فى مجال الحرية والديمقراطية والاشتراكية ولذلك فإن فى الثقافة العربية أسس عميقة قوامها الايمان بالحرية والشورى والعدل الاجتماعى التماساً من قيمها وظروف مجتمعاتها وحاجاتها. وفى ظل مفاهيمها الجامعة بين الروح والمــادة والعقل والضمير ، والدين ، والدنيا والآخرة .

وهى قيم أساسية مفتوحة أمام التطور التاريخى وأمام حاجة المجتمعات ، تمثل إطاراً مرناً يسمح بقيام أنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية فى ضوئها وعلى هداها تتفق مع تطورات العصور واختلاف البيئات .

وفى هذا يبدو عمق القيم الأساسية للثقافة العربية التى لا تتعرض للاهتزازات والتحولات التى تتعرض لها الأيدلوجات الوضعية التى فرضها على الغرب المفهوم القائل بأن عقائدها أساسا لا تقيم نظاما اجتماعيا ، وإنما تقف عند حدود القيم اللاهوتية الخالصة .

وفى ظل ذلك ما تزال النظريات الغربية من ليبرالية وديمقراطيه وماركسيه تتطور وتتغير وتضيف وتحذف ، مجاراة لتطور الزمن واختلاف البيئات ، بينما تقدم الثقافة العربية أصولا ثابتة لنظام مجتمع فى مضمون واسع قادر على التكيف فى كل عصر وبيئة .

وأبرز ما تتميز به الثقافة العربية أنها تستطيع أن تقدم للإنسانية خير ما فى النظريتين الفردية والجماعية فهى تجعل الفرد للمجتمع والمجتمع للفرد ، وتحقق لكل طبقة حقها تجاه الطبقة الأخرى ، وتحرر الطبقة العاملة والفقيرة من سيطرة طبقة أخرى وتزيل الفوارق بين الطبقات وتوزيع الثروة على أفراد المجتمع بالعدل ، وذلك دون صراع أو حقد وفى تكافل اجتماعى وأخوى .

كان لمخططات الصهيونية العالمية ممثلة فى الماسونية خلال الفترة السابقة لإعلان الدعوة الصهيونية العلنية ١٨٩٧ وفيما بعدها ، أثرها بعيدالمدى فى الفكر الغربى وتحول من طريق إلى طريق ، وكان أبرز المفكرين اليهود تأثيرا فى الفكر الغربى :

فرويد = علم النفس ونظرية الجنس (خلق الاباحة الحديثة على نمط الوثنية اليونانية وبجد الغريزة ودعاوى اطلاق بمثابة الشهوات البشرية

ماركس = نظرية التفسير المادى للتاريخ

دور كايم = نظرية التفسير المادى للمجتمع

أميل لودفيج = تعرية البطولة وردها الى الماديات

برجسون = نظرية النسبية

اسبونزا = إنكار الألوهية

ماكس نوردو = حلل المبادىء والنظم التى تدعم المدنية وأظهر فسادها وتعفنها

أندريه دوروا : السيطرة على الأفكار وتحويلها إلى الاثم عن طريق الادب.

اشبنجلر : أنذر بقرب زوال الحضارة المسيحية .

هذا بالإضافة إلى هوتمان وتوماس مان ودامنسكى وزدرائيلى .

والواقع إن الفكر اليهودى الصهيونى قد حدد مفاهيمه وأهدافه منذ وقت بعيد وعمد إلى السيطرة على الفكر الغربى واحتوائه وتوجيهه إلى أهداف الفكر الصهيونى وتصفيته من مفاهيم المسيحية والقيم الإنسانية واستغلال كل وسائل الثقافة والحضارة (الجامعة والكتاب والصحيفة) فى تحقيق هذه الأهداف .

وأول أهداف الصهيونية السيطرة على النظم الدينية والأخلاقية من أجل

السيادة على العالم والسيطره عليه وتسخيره ، فلابد من تخريب العالم أولا قبل السيطرة عليه ، وذلك عن طريق الجمعيات السرية المسماة بالماسونية وذلك بمحاربة الأديان جميعا والـكثلكة بنوع خاص والعمل المنظم على بث روح الإلحاد فى العالم .

ويرى كثير من الباحثين أن « الصهيونيه » مهدت لاستيعاب الرأى العام العام والمسيحى والغربى ابتداء من ظهور الكثلكة (منذ ٤٥٠ سنة) وقد استخدمت الصهيونية أسلحتها الدعائية فى أعقاب حركة الإصلاح الدينى .

وعمدت إلى السيطرة على مجالات العلوم والفكر ، ووقفت وراء الزعامات العلمية وحولت مفاهيم (دارون) ونقلت مذهبه إلى مجال تشكيك المجتمع الإنسانى فى طبيعـة الخلق ، وكانت من وراء (فرويد) فى نظرية الجنس و (دور كايم) فى قوله بأن نظام الأسرة نظام مصطنع ، ووراء (نيتشه) وهو ينادى بسياسة القوة وسحق الضعفاء بدون رحمة .

وهكذا شق الفكر الصهيونى طريقه للسيطرة على الفكر العالمى عن طريق التعليم والاعلام ، والقضاء على القيم ، وزرع الشك والريبة ، للوصول بالفكر البشرى إلى مرحلة الحيرة ومن ذلك قول البروتوكلات :

« لاحظوا أن نجاح دارون وماركس ونيتشه نحن الذين رتبناه من قبل » .

ومن يراجع تاريخ الفلسفة يجد دور اليهود فيها واضحا ، فهم وراء الفلسفات التى تعمل على تحطيم وتدمير القيم الإنسانية .

وقد وصلت الصهيونية إلى قدر كبير من تحقيق غايتها بتدمير القيم الأخلاقية فى دول الغرب وفى إحتواء الفكر الغربى بمختلف نزعاته والسيطرة عليه .

وبذلك سيطر الفكر اليهودى على قلب الفكر الغربى مؤثراً فيه ومتفاعلا معه ، ومحركا إياه فى مختلف جوانب علوم النفس والاجتماع والاقتصاد .

واستطاعت أن تكسب كثيرا من الكتاب الغربيين أمثال سارتر وبرتراندرسل ، كما سيطرت على دوائر المعارف وكتب التاريخ لتصوير فكرة

خطرة تسرى الآن فى مختلف مجالات الدراسات الثقافية والتاريخية والاجتماعية فى مختلف جامعـــات الغرب إلى تـكوين الأغلبية الساحقة من هيئات التدريس فيها .

هذه الفـكرة ، تقول بأن الفـكر اليهودى سيد العالم وأنه سيسيطر على العالم ويحكم ، وقوام هذا الفـكر اليهودى أنه ليس ثمة شيئا ثابتا فى هذا الوجود حتى العقيدة ، مع احتقار الدين ، وتحطيم الأخلاق ، والقول بأن الإنسان حيوان ، وأن الدين ناشىء عن الـكبت والزواج ليس من الفطرة والأسرة من صنع العقل الجمعى الذى لا يثبت على حال ، والأخلاق مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى .

وهدف هذه الدعوة تحطيم المعتقدات وإثارة الشبهات حول الأديان الإسلامية والمسيحية وسحق القيم المعنوية وخلق فلسفات التشكيك ، وإقامة النهضة على أساس لاديني ، وعزل الدين عن كل عناصر الفـكر والحياة .

وتحقيقا لهذه الأهداف عمدت الصهيونية إلى نشر صحف المجون والفسق ، وأشد وأقبح الـكتب المحظورة على أذهان الشبيبة ونشر الصحف الـكاشفة القناع عن أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائى ، وتحريض خفى لاقترانها بطريقة الإيحاء التى يجيدها اليهود توجيهها نحو الجماعات . بالإضافة إلى استحياء السحر القديم والمخدرات ودعوات الهيبز والأزياء ومازالت الصهيونيـــة وراء كل مذهب وفلسفة ونظرية ، وما ظهر مذهب فـكان مؤديا إلى مسهم بالأذى إلا قتلوه ، وعمدوا إلى ترويج كل فـكر يعمل على إفساد الناس ورفع شأن اليهود ، وهم الذين روجوا مذهب التطور وأولوه تأويلات ماخطرت لدارون واستخدموه فى القضاء على الأديان والقوميات والقوانين والفنون ، باعتبار أن كل شىء بدأ ناقصا شائنا يثير السخرية والاحتقار ، ثم تطور فلا قداسة لدين ولا لوطنيـــة ولا لقانون ولا لفن ولا لمقـــدس من المقدسات وسخروا علم مقارنة الأديان لمصلحتهم وإفساد الآداب والنظم والثقافات والعقول بدراسات نظريات براقة لا يفطن إلى زيفها إلا القليل ، وهم وراء كل زى من أزياء الفـكر والعقيدة والجنس والسلوك .

وهم وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمى إلى هدم القوانين الاجتماعية وأبرز مايهدف إليه الفكر الصهيونى هو دعم الاتجاه الاباحى والإلحادى فى الفكر الغربى وإخراج الفكر البشرى كله من مفهوم الدين والأخلاق(١) .

وقد دعا فرويد إلى تحطيم احترام الإنسان لنفسه تحطيما كاملا ، وجماع فكرة يصم الجنس البشرى كله بأنه جنس متحلل ينطوى على أسوأ النوايا وأخس الرغبات ، حتى أنه أتهم الجنس بأن الطفل يعشق أمه ويريد أن يقتل أباه وبنى فلسفته ومذهبه على هذه الحقيقة الرئيسية حتى جعل الناس جميعا يشكون فى كل فضيلة وفى أمر كل عاطفة رقيقة ، وقد حقق فرويد الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية وبجــد الغريزة بحيث أطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ماشاءا ، فالهتك الجنسى لاحد له . ، أما توماس مان فقد برر عشق الذكور فى قصته (الموت فى البندقية) ووصف مرضى الصدر بأنهم حيوانات متعاشقة تتخذ من يأس الشفاء عذراً للتسافد وقال أن مصحات الجبال مواخير للمرضى تحت مراقبة الأطباء الذين لايملكون منعهم (قصة الجبل المسحور) .

ولم يقف أثر الفكر الصهيونى عند هذا الحد بل إنه عمد إلى تنظيم جماعات الناس فى سلك التحرر بحيث لايخجلون من أعضائهم التناسلية حيث يجتمعون فى نوادى العراة .

من أجل هذا تتخذ الماسونية من المدنية المسيحية موقفاً عدائياً وترى أن المسيحية تقف فى وجهها عائقاً أخلاقيا يحول دون نجاح دعوتها ، فعندما أرادت الماسونية أن تلقن الشباب فى طفولتهم أسس دعوات الجنس والانحلال وتلقنهم مبادىء تقديس أعضائهم التناسليـــة وقفت آداب المسيحية فى وجههم ، صنعوا برجال الدين المسيحيين الأعاجيب من قتل وتخويف .

وقد جعلت اليهودية العالمية من عقيدة الماسونية خلقا وأسلوب عمل ، يهدد مجتمعات الدنيا بالدمار الأخلاقى وتحولها إلى مرحلة سحيقة من التخلف وقد

---

(١) راجع مقدمة بروتوكولات صهيون لخليفة التونسى

انكشف للعالم كله فى الفترة الاخيرة بأن جذور هذه الافكار منبعثة أساسا من التراث اليهودى الصهيونى (التوراة والتلمود وبروتوكولات صهيون) والمتجهة أساساً إلى تقويض الاسس الذى تقوم عليها حضارة الغرب ، بسيطرتها على الأدب والفن على نحو يغرى الناس بالتحلل وييسر لهم سبيله(١) .

* * *

وكانت المرحلة الاخيرة من تطور الفكر الغربى هو مابلغتـــه نظريات البراجماتزم فى الفكر الامريكى ومذهب ديوى فى التربية وهى مناهج تعزل الدين والمثل الاعلى والأخلاق والقيم الروحية عن الحياة عزلا تاماً وتحاول أن تهتدى بالمصلحة والمنفعة ، وقد قامت هذه المذاهب من خلال أثر الصهيونية فى الفكر الغربى بعامة ولم تجد تقبلا كثيراً فى بيئاتها نفسها .

---

(١) راجع كتاب التراث الصهيونى اليهودى لعلم النفس : للدكتور صبرى جرجس.

(٧)

التحديات في وجه الثقافة العربية

تحديات الفكر الغربى الثقافة العربية

(١)

فرض المستعمر فيما فرض على الأمة العربية بالدرجة الأولى ثقافته بأسلوب مسيطر عنيف لم يتح للثقافة العربية أن يحقق معه حريتها وإنطلاقها فى بناء مجتمعنا من ناحية وفى قدرتها على الاختيار والاقتباس من الثقافات الغربية .

ذلك أن النفوذ الاستعمارى قد جعل من فرض النفوذ الثقافى أساساً لبقائه وعول عليه أهمية أكبر من أهمية الإحتلال العسكرى والسياسى ، إذ اعتبره وسيلته الأساسية لخلق أجيال متقبلة وترضى به .

ولذلك فقـــد عول منذ البدء على دعم مؤسسات تربوية وتعليمية عن طريق الإرساليات التبشيرية لدوام استمرار تخريج أجيال جديدة وفق مفاهيم تعلى من شأن الغرب وحضارته وبطولاته ، وتثير الشبهات حول العرب والإسلام وثقافتهم ولغتهم وتراثهم .

ومن خلال مؤسسات التعليم والصحافة والثقافة الغربية كان الحرص على صياغة عقولنا صياغة من شأنها أن تجعلنا تابعين أو مستعبدين ، ومن خلال البقاء الاستعمارى فى العالم الإسلامى كله والبلاد العربية فرض المستعمر ثقافته بأساليب يغلب عليها القسر والاحتواء الغاصب والخداع والمغالطة والغموض وإستعمال الأساليب العلمية على نحو منحرف بعيد عما توصل إليه من حقائق ، مع تعصب واضح وبعد عن التسامح أو العدل ، ذلك أن الثقافة العربية قد ألفت أسلوب الوضوح واليسر والنظر المفتوح إلى الحق والرجوع عن الرأى إذا تبين أنه باطل ، ومن هنا نشأ ذلك الاحساس العميق بأن الثقافات العربية لا تصدق مع إدعاءاتها بأن لها منهجاً علمياً خالصاً مجرداً ، وتبين أن الهوى هو الذى يحكم ، وأن الهدف الاستعمارى القائم من وراء البحث العلمى هو صاحب الرأى الأخير ، وأن خصومة الاستعمار للثقافة العربية إنما هى هدف أصيل يرمى إلى تدمير هذه الثقافة بحسبانها القوة الوحيدة القادرة على منح هذه الأمة قوتها وحيويتها فى مواجهة الاستعمار والإحتلال ومقاومة الغزو على

النحو الذى قاومت به كل غزو وجه إليها طوال تاريخهـــا الملىء بالصراع الذى يفرضه الغرب على الإسلام والعرب .

وفى أكثر من معركة إستطاعت الثقافة العربية استمداداً من أصالتها وقيمها الأساسية الصامدة أن تحفظ وجودها ، دون أن تنصهر ، وكان أكبر معاركها مع التراث الهلينى الاغريقى الوثنى ، الذى انصهرت فيه الثقافة المسيحية من قبـــل ، أما الثقافة العربية فقد احتفظت بإستقلاليتها وذاتيتها عن أن تذوب أو تنصهر ، كانت قدرة الثقافة العربية فى أنها أخذت ورفضت ، ثم صهرت ما أخذت وأدخلته فى إطارها التوحيدى .

ومن الحقائق الواضحة التى كشفت عنها الثقافة العربية ، أنها لا تنمو إلا من خلال جذورها ، وبإستحياء قيمها ، وأن الثقافات الغربية مهما بلغت من قوة فانها لا تستطيع أن تنضج العقلية العربية التى تختلف فى مقوماتها النفسية والعقلية عن مقومات العقلية الغربية ، وهى تستطيع أن تستهدى بأساليب الفكر الغربى ، ومناهجه ، دون جوهره وقيمه ، وبغير أن تترك له أن يسيطر عليها أو يحتويها .

والمعروف أن الفكر الغربى لم يعرف طريق القوة إلا بعد أن تحرر من قيود الوثنية وامتص مفاهيم الفكر الإسلامى ، وهى قيم الحرية والعدل والقوة التى أخرجته من الأديرة والرهبانية والانعزال عن الحياة ، لقد كانت تعاليم الفكر الاسلامى هى العامل الحيوى الذى جعـــل الفكر الغربى ينفض عن نفسه قيود الجهود ، فلما نجحت الثقافة الغربية فى بناء فكرها العلمى على أساس المنهج العلمى التجريبى الاسلامى وأقامت حضارتها ، عادت تحت ضغط قوى مؤثرة ، هدفها السيطرة عليه وتدميره ، فأرادت (عمدت) إلى إلتماس قيم اليونان والإغريق الوثنية المادية والتمست طبيعتها القديمة التى لم يكن الدين جزء من تكوينها وعادت حثيثا إلى التحرر الكامل من قيم الدين والأخلاق .

فهى ترى «التقدم» قائماً على المفهوم المادى وحده بينما ترى الثقافة العربية استمداداً من الفكر الإسلامى أن الرقى المادى والرقى الروحى . هما حقيقة واحدة ، لا يعارض أحدهما الآخر . فهما وجهان من الحياة الإنسانية ، فهى تقبل بوضوح إمكان الرقى

المادى للإنسانية فى مجموعها ، لا لجنس منها دون جنس أو أمة دون أمة أخرى ، ولا ترى ما تراه الثقافة الغربية من سيادة الجنس الأبيض أو سيطرته أو تميزه بالنفوذ والسلطان على غيره من الأجناس .

وقد أخذ الفكر الغربى هذه النظرة من التراث الرومانى الذى كان يرى إن روما وحدها هى صاحبة الامتياز والسيادة وأن كل ما حولها عبيد ، أما الثقافة العربية استمداداً من الفكر الإسلامى فقد جعلت إطارها :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ولقد كان من أكبر المغالطات التى روجها التغريب والغزو الثقافى ، أن لا فرق بين العقل العربى والعقل الغربى ، وإن العرب والمصريين غربيون بالفكر نتيجة لارتباطهم بالثقافة اليونانية القديمة أو أنهم تجمعهم والعرب وحدة ثقافة البحر الأبيض المتوسط وهى وحدة وهمية غير صحيحة أو أن تشابه فى الأجسام والجماجم والرءوس أو الى غير ذلك من الإداعات التى رددها دعاة التغريب فى محاولة للتعمية عن الفوارق الذاتية والنفسية والعقلية الواضحة بين الثقافة العربية والثقافات الغربية وبين المزاج النفسى الذى كونته جذور أساسية مستمدة من الإسلام فى الأمة العربية ومن الوثنية الاغريقية فى الغرب .

ولقد رددت هذه المؤسسات القول بأن الثقافة عالمية ، وأكدت كل المراجعات الأصيلة أن العلم عالمى ، والمعرفة عالمية ولكن الثقافة قومية لأنها تستمد قيمها من جذور الأمة ولغتها ودينها وتاريخها ولذلك فهى لا تتلاقى إلا لقاء الاختيار ، تأخذ وتترك وفق قاعدتهـــا ، ولقد كانت الثقافة العربية متفتحة على الثقافات العالمية الإنسانية دوما ولكنها احتفظت دائماً بمقوماتها وذاتيتهـــا ومزاجها النفسى الخاص .

وإذا كان من حقنا النقل والاقتباس فإن علينا دوما أن نحتفظ بقيم الأساس نبنى عليها ونتحاكم اليها . وأن الحاضر هو امتداد الماضى ومقدمات المستقبل ، فلا انفصال بين الماضى والحاضر والمستقبل إلا من حيث مراحل النمو والاستمرار

والتطور ، ومن هنا فقد أخفقت كل دعوة إلى الانفصال عن الماضى . أو امتهان التراث ، فقد كانت معرفة الماضى ضرورية لبناء الحاضر .

* * *

ومن الملامح الواضحة للتغريب أنه يقود حركة لاخراج الوطنيين من قيمهم وثقافتهم ويدفع أمامهم موجات تتلوها موجات من الاقليمية ، وأخطار التحلل والإلحاد ، ثم لايلبث أن يحصى عليهم هزيمتهم أمام غزوه، ومن مثـــال ذلك ماكتبته جريدة (ستكتانير) البريطانية تتساءل عن هذه العزلة التى تعيشها الأمة العربية عن قيمها ، فتقول :

ماهى حقيقة الحركة القومية المصرية وما قيمها إذا كانت تتجاهل التقـاليد القومية ولاتظهر شعورها نحو ماضى بلادها الحر ، فالمصرى العصرى بدون استثناء تقريبا يفضل المظهر الـكاذب المموه وهو عادة مظهر فرنسى كاذب ويؤثره على تقاليده الثقافية ، ومصر بلد إسلامى متعلم وبها حركة وطنية ومع ذلك فإن وطنيتها تستنكر كل مظهر للروح الإسلامى ، والمصرى يحـــاول اليوم بإدراكه وشعوره أن ينسى طبيعته الإسلامية فتراه يقطع نفسه وينفصل عن أصوله الأدبية والثقافية فى الحين الذى يستسلم فيه عن عجز وضعف إلى العوامل العصرية الخالية من الحياة الحقيقية .

لقد رأى اللورد كرومر الخطر الكامن فى توسيع الشقة بين مصر الإسلامية ومصر السياسية ، ولاريب أن مصر السياسية تفقد تراثها شيئا فشيئا ومتى فاز الوطنى المصرى بالحكم الذاتى المطلق الذى يطلبه فإنه لايجد لديه شيئا من تقاليده الأدبية والفنية والثقافية يستطيع أن يستخدم هذا الاستقلال السياسى لفائدتها ، إن الوطنية دون الشعور بالتقاليد أو الجنس لاتصلح لأن تكون قاعدة تستطيع الطبقة المستقيمة أن تستمد منها إلى ثبات أو تشريع له قيمته » (١)

وقد علق على هذا الرأى السيد محب الدين الخطيب فقال : الغريب فى الشرقيين أنهم يتظاهرون بعدم التمسك بقيمهم تقربا الى الافرنج ، واسترضاء لهم والافرنج

---

(١) مجلة الفتح م ١٩٣٥

يبتسمون لذلك فى سرهم ابتسامة الاستخفاف ، ولايخفى على كاتب مقالة الشنكتاتر أن سياسة الاستعمار جاهدت طويلا لإفراغ سياستها فى القوالب بمالها من السلطان على مناهج التعليم والتربية وعلى حياة الصحافة التى تكون العقائد السياسية والادبية فى رؤوس قرائها، وبما لسياسة الاستعمار من الأساليب فى ترقية من يرون من المتعلمين إلى المناصب ذات التأثير فى حياة الشرق ، فساسة الشرق وقادته هم تلاميذ هؤلاء العاملين من الفرنسيين فى الغالب . »

. . .

وواضح أن هدف الغزو الفكرى هو مسخ شخصية الأمة ومنابع الإصالة والإبداع منها حتى يتوقف عن النمو وذلك عن طريق إشعار المواطنين بالتخلف.

وقد عمدت قوى التبشير والتغريب والارساليات التبشرية إلى هدف واضح هو « تحريف المقومات العلمية (١) والحضارية » حيث كتب الكثيرون صفحات زائفة مضللة عن التاريخ العربى والحضارة العربية الاسلامية محـــاولين توجيه البحث توجيها استعماريا ، فأنكروا على علماء المسلمين والعرب القدامى الاصالة الفكرية واعتبروا أن كل ماقاموا به هو ترجمات من علوم الحضارات القديمة ، وكان الهدف هو اسقاط مرحلة هامة من مراحـــل التطور الحضارى الإنسانى وذلك باغفال شأن الحضارة الاسلاميه العربية صاحبة الفضل على نهضة أوربا فى مطالع العصور الحديثة .

ثم تسلل العلماء الأوربيون للبحث عن العاميات ولبس ملابس التجار والدبلوماسيين والمبشرين وصــــاروا يعملون شتى الوسائل لإثارة العجز فى نفوس المواطنين .

ثم مضى الهدف إلى خلق « تبعية غربية » ، وحملت لواء هذا الهدف معاهد التعليم فى البلاد العربية التى عمدت إلى تقديم التجارب التى من شأنها الابقاء على تبعية

---

(١) للتوسع فى هذا البحث راجع التسلل الفكرى للدكتور ابراهيم العدوى

المتعلين للمراكز الاستعمارية فى أوربا ونشر المعارف التى تجعل أصحابها حيرى فى خضم الحياة]. »

ومن أخطر مخططات التبعية هى أن يحتقر المواطنون لغتهم القومية وإعلاء لغة المستعمر ثم الدفاع عن لغة المستعمر على حساب اللغة القومية واتصل هذا بعمل آخر هو التفتيت، رغبة فى القضاء على قوة الأمة فى وحدتها وتضامنها، بحسبان أن سلاح التفتيت أخطر سلاح شهره أعداء الأمة العربية.

وكان ماحرص عليه التغريب من البحث فى أصول المجتمعات قبل أن يوحدها الاسلام ثم اندفع الاستعمار إلى تمزيق هذه المجتمعات على أساس الطوائف الدينية والعنصرية فأحيا الاستعمار الفرعونية والفينيقية والبربرية وخلق الوطنيات الضيقة ليحول بين الأمة العربية وبين التضامن، وأشاع استخدام الأسماء المحلية كالمصرية واللبنانية فوقفت هذه الوطنيات الضيقة فى وجه الاستعمار متفردة.

ثم كان عمل الاستعمار هو تقديم قشور الحضارة وجـــوانبها غير الإبداعية والأصيلة، وحجب جوانب القوة عن العرب والمسلمين، ثم كان هؤلاء الدعاة بالإغراء إلى هذه الجوانب الانحلالية باعتبارها هى الحضارة نفسها، وكان السخط دائما منصبا على كل حركة يراد بها إيقاظ البلاد عن طريق الفكر الأصيل والمحافظة على الرباط الأساسى وهو الاسلام واللغة العربية وعمد الفكر الغربى إلى إبعاد الفكر الاسلامى والثقافة العربية عن مجال الحياة ومناهج التربية.

ومن هنا نشأت تلك الأزمة حيث وضع النفوذ الإستعمارى، الثقافة العربية فى مجال التبعية والولاء الغربى وسلط عليها تلك القوى الضخمة من التبشير والتغريب والشعوبية، فالنظرة إلى الاسلام التى تحملها الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية هى نظرة بعيدة كل البعد عن واقعنا، وأن تلك الأزمة بين العلم والدين هى فى الواقع أزمة غربية صرفة ولم تتعرض الثقافة العربية لشىء منها أساساً، على اعتبار أن الفكر الاسلامى وهو مصدر الثقافة العربية هو مبدع «المذهب العلمى التجريبى الحديث».

لقد كانت للغرب ظروف خاصة نتج عنها ذلك الصراع بين الدين والعلم نتيجة

لما إلتبس بالمسيحية الغربية من إنحراف عن طبيعتها ومن وثنية ورهبانية وتأييد الكنيسة للأمراء والإقطاع .

من هنا كان موقف الفكر الغربي من « الدين » بصفة عامة — استمدادا من تلك التحديات — موقف الخصومة والهجوم والنقد اللاذع ، فإذا نقل التغريب والغزو الثقافي هذه المعركة إلى ساحة الثقافة العربية ، كان الأمر غريبا كل الغرابة مختلفا كل الاختلاف للفوارق البعيدة بين الاسلام وبين الأديان الأخرى ، وبين مفهوم الدين نفسه وبين مفهوم الاسلام باعتباره ليس دينا فحسب ، ولكنه دين ومنهج حياة ، وأبعد الفوارق أن الاسلام هو الذى صاغ التيار العلمى الاسلامى الذى نبتت عليه الحضارة الحديثة أبعادها ، بينما واجه العلم في أوروبا موقفا مغايراً

وكذلك قذف الفكر الغربي الثقافة العربية بدعوات متعددة : منها المذهب الطبيعى والمادية الجدلية ، والتفسير المادى .

وجرت المحاولات لفرض مفهوم غربي للقومية فى محاولة لإقامه أسوار حصينة من العنصرية والعداء المتصل بالأجناس والدماء والشعوب ، بين العرب والشعوب الاسلامية التى يجمعها بها تاريخ طويل وفكر أصيل ، وقيم أساسية فى مجال النفس والعقل والذوق لاسبيل إلى انفصام عروته ، وكانت النظرة الغربية لهذه الدعوة التى حملتها إلى الثقافة العربية تتمثل فى ذلك الصراع بين القوميات الغربية .

والثقافة العربية لاتنكر حق الشعوب فى وحدتها وبناء كيانها . ولكنها لاتجعل من هذا البناء خصومة وصراعا للقوميات الأخرى خاصة تلك التى يربطها بها فكر وتاريخ وتراث ضخم ، ومقومات أساسية واحدة .

ومن ذلك محاولة تفريغ مفاهيم العلم والسياسة والاجتماع والاقتصاد من الطابع الأخلاقى الأصيل الجذور فى الثقافة العربية .

(٢)

وقد ركز دعاة تحرير الثقافة العربيه من غزوة الوثنية والتغريب والقومية على دعم مفهوم « الذاتية الثقافية » العربيه ، والحرص على كيانها الخاص واستقلالها . على اساس واضح

(اولا) الذاتية الثقافية لاتعنى الانغلاق عن ثمار الثقافات الأجنبيه وإنما تعنى التخلص من السيطرة الأجنبية ، إيمانا بأن جوانب كثيرة من هـــذه الثقافات لاتلائم حاجات هذه البلاد وأنها تحول دون تقدم ثقافتها تقدما سويا .

(ثانيا) إنعدم الانتباه والتكيف يولد نتائج خطيرة ، فإن النظم التعليمية أو الثقافية فى أى بلد من بلدان العالم لاتكون أنظمة قائمة بذاتها تعمل مفردة ، محررة من النظم العائليه والقومية السائدة فى البيئة التى تنتسب اليها وإنما تكون جزءاً من مجموعة الأنظمة الإجماعية الخاصه بتلك البيئة ، ممنى هذا ، أن النظام التعليمى القائم فى بلد من البلاد اذا انتقل إلى بلد آخر فانه ينتقل بمفرده وينفصل عن سائر النظم التى ترافقه فى منشئه الأصلى وأن من شأن ذلك أنه لايعطى نتائج مماثلة للتى يعطيها فى بيئته الأصلية(١) .

ومن هنا يبدو خطر الإضرار التى يتولد من الاقتباس بدون تأمل وتكيف لأن الاقتباس قد يؤدى إلى نقل النواقص التى كان يشكو منها ويسعى لازالتها المفكرون فى البلاد التى أنشأت ذلك النظام ، وهذه النقائص عندما تنتقل إلى بيئة جديدة قد تصبح أشد ضرراً مما كانت فى بيئتها الأصلية .

(ثالثا) لايجرر لنا أن نقتبس أى نظام ببيئته الأصلية بل نضع لأنفسنا نظاما خاصا مستنيرين فيه بتجارب جميع الامم التى سبقت فى مضمار التقدم والرقى دون أن نرتبط بنظام احدى هذه الأمم على وجه الانحصار .

(رابعا) فى كل ثقافة من الثقافات العالميه بعض العناصر الإيجابية وبعض العناصر التى لاتتفق مع تكويننا الاجتماعى ومزاجنا النفسى ، وعلينا أن نقتبس من الثقافات مايساعدنا على النهوض والتقدم دون أن نتقيد بالزام معين ، ثم نصهر هذا

---

(١) راجع ساطع المصرى فى بحث الاستقلال الثقافى .

الذى نقتبسه فى بوتقة ثقافتنا فيتحول إلى طبيعتها كما تنصهر البذور المستوردة فى التربة الجديدة فيصبح نباتاً قوميا ، وتصاغ وفق حاجتنا الروحية والعقلية فإذا لم تصلح هذه البذور للنماء والتشكل فهى غير مطابقة لحاجتنا .

(خامسا) إن أبرز الخلافات بين الثقافتين العربية والغربية هى أن الفكر الغربى يحل مشاكله على قاعدة القوة ، ويفصل الضمير عن العلم . ويقر السيطرة من الجنس الأبيض منشىء الحضارة على الشعوب الملونة كما يقر تسخير هذه الأمم للخدمة والعبودية ، دون إيمان بالقانون الأخلاق أو الانسانى ويتجاهل القيم الروحية والحقوق الضيقة الانسانية .

بينما تقف الثقافة العربية فى الموقف المخالف إيمانا بالحق بديلا للقوة واعتباراً بالقاعدة الأخلاقية مرتبطة بالسياسة والاجتماع والضمير مرتبطا بالعلم .

(سادسا) إن الخلاف بين الثقافتين واسع واضح عميق ، وجدرى لأنه خلاف عقلى ونفسى يصل إلى الحد الذى يشكل فى كل مثل أعلى مختلف متباين .

وقد صور الدكتور هيكل هذا المعنى حين قال :

« أعتقد أن الشرق قد ضل طريقه فى هذه العصور الأخيرة متأثرا بتعاليم الغرب فأصبح مثله الأعلى ماديا يحسب الحرية التى تسمو بها النفس إلى المكان الأرفع أن ينال الجسم وأن تنال الشهوات كل مبتغاها ، قد يكون للبيئة الطبيعية فى الغرب مايدفع إلى التطلع إلى هذا المثل الأعلى ، ولكن بيئة الشرق الطبيعية وتاريخه منذ العصور الأولى وتاريخه بنوع خاص منذ انتشرت الحضارة الإسلامية فى ربوعه يجعل هذا المثل الأعلى الذى يتخذه الغرب أمامه دون ما تتطلع إليه النفس الشرقية فهذه النفس تؤمن بوحدة الوجود وترى فى هذه الوحدة والاتصال بها والفناء الروحى فيها غاية ما ترجو ، لذلك كانت وأمثاله هذا الشرق تجرى بأن من اعتز بغير الله ذل ، ومن افتقر لغير الله هان ، ولا تعرف شيئا فى الحياة يعادل بقوى الله وقد أثر هذا فى الغناء والنفس والموسيقى والأدب » .

— ٣ —

يجمع الباحثون على تأكيد واجب المثقفين فى كل وطن ومسئوليهم فى الدفاع عن مقومات ثقافتهم وذلك بالتصدى للتيارات الاجنبية بقدر وافر من الإيمان والنشاط .

يقول الدكتور عمر حليق :

إن الثقافة العربيه مهددة بأدب اللذة والمجون الذى أصبح يؤلف الجزء الاكبر من الثقافة (الغربية) المعاصرة ، ويفرض ديكتاتورية على الثقافات الاخرى .

« أما الثقافة العربية فقد ساهمت فى جوهر الفكر الإنسانى وحافظت على كثير من خصائصها على مر السنين وتعداد القرون وحاضرها يشمل ٧٠ أو ٨٠ مليونا ويتصل بأربعمائه (١) مليون مسلم ، يحتلون قطاعا هاما فى مجالات السياســـة والاقتصاد والسلم والحرب ، ويتساءل لماذا يقف المثقفون العرب موقفا سلبيا ويتعلقون بأذيال لندن أو نيويورك أو موسكو أو باريس .

والقول بأننا فى فترة (هضم واستيعاب) لايبرر الانشقاق نحو التعلق والمحاكاة ، ويصف هذا بأنه الاستعارة الضالة ، وأن المستعير حين يكون سطحى الثقافة لن يستطيع أن يبدل طبيعة الوضع فيبقى الشىء المستعار ، غريبا ، يفرض على ثقافة لاقبل لها بتحويله أو طبخه من جديد .

ومن هنا تكون النتيجة أن تصاب الثقافة الأصلية بالتفكك والانحلال وتفقد الأمة طابعها الأصيل .

ويقول : إن الاقتراض من الثقافات الأخرى دون قيد أو شرط أو دون مراقبة أو محاسبة سيولد فى المجال الثقافى والاجتماعى حالة تجد عناصر الثقافة القومية نفسها قاصرة عن مناقشة العناصر الدخيلة أو المستعارة أو عاجزة عن هضمها ووضعها فى قالب قوى أصيل ، حين تفقد تلك الثقافة الأنصار من أهلها يكون مصيرها مصير

(١) تقدير المسلمين اليوم لايقل عن ٧٠٠ مليون وتعداد العرب ١٠٠ مليون .

الطفل الذى لم يجد من يرعاه ويحنو عليـــه فيشب ضعيف البنية ناقص التغذية مشلول النشاط .

ويرى الدكتور حليق أن الشرقيون فى نظر الغربيين عـــلم عن الانحطاط والضعة ، وكل مافى قاموس اللغة من صفات ونعوت سيئة ، وهذا التحامل ليس مقصوراً على فئة دون فئة ، فحضارات الشرق عند الغربى ، أمر عفا عليه الزمن فهو جزء من الماضى ولا مكان له فى حضارة العالم الجديد بالرغم مما فى الثقافة الشرقية من عناصر خالدة تصلح لكل زمان ومكان .

هذا الخلاف فى وجهات النظر يتبعه اختلاف فى طبيعة المجتمع العربى عن طبيعة المجتمع الغربى ، وهو اختلاف جوهرى فى التطور التاريخى والصناعى وفى العواطف والاحساسات والمشاعر وماتزال الثقافة العربية فى جوهرها أصيلة عريقة حساسة وخاصة بالنسبة لأدب المجون واللذة .

ويرى الدكتور عمر حليق : أن على الثقافة العربية أن تسلك سلوكا قوميا فتحتفظ لنفسها بالقيادة الفكرية والسيادة الثقافية بحيث تهيء للمفكر والفنان ورجل الدين أن يقوموا بوظائفهم .

« وإن عامل الحياة والنمو فى الثقافات لايكون بالاستعارة الضالة والمحاكاة والتقليد الأعمى بل باستيعاب الأسس العريقة لثقافات الأمم واختيار الأخرى مايستسيغه الذوق وما يهضمه العقل فيطعم بها ثم إلى ثقافته الوطنية مساهمة منقحة . كما فعل بناة الثقافة العربية حين اتصلوا بثقافات الإغريق والهند والفرس والرومان ، وكما فعل بناة الثقافة الأوروبية حين اتصلوا بالثقافة الإسلامية فى القرون الوسطى ، والخطر كل الخطر أن تفقد الثقافة أصولها ومقوماتها إزاء التقليد ، وما أطلق عليه « الحول » » .

يقول « ففقدان الحول لايكون بواحـــدة من إثنين : إما أن تكتب ألمعية المفكرين وحفظة الدين وأهل الفن كبتاً كما فعل أتاتورك فأفقـــد ثقافتهم طابع الحياة والنمو ، وأما أن يقف المثقفون موقفاً سلبياً أمام نشاط المقلدين يتركونهم يعبثون بالثقافة القومية وخصائصها » .

ويرى الدكتور حليق أن الدفاع عن الثقافة واجب وطني وأنه من أهم أنواع الالتزامات القومية شأنا فهي المصدر الذي يستمد منه السياسي دهاءه والاقتصادي كفايته والجندي معنويته واستعداده والمصلح الاجتماعي مواده الخام .

ويقول إن في عنق الكتاب والباحثين من أهل الثقافة أمانة مضاعفة إزاء موجات العبث والتحدي ، وإنه من الضروري مواجهة التيارات الغربية إلى تعصف بثقافات الأمم ، في قوة ومناعة ، فالثقافة لا تحفظ طابعها ومقوماتها العريقة إلا إذا صمد لها العارفون بها والمؤمنون بعزتها .

ويرد على الذين لا يعترفون بأن للفن والفكر حدوداً ومعالم جغرافية وزمنية ويقول إن هذا مناقض لطبيعة السلوك الإنساني فعلم الاجتماع ينفيه وعلم النفس لا يقره ، والمرء حيوان اجتماعي ، وهو يألف الجماعة التي تبادله مشاعره ومشاركة طبائعه وتبادله المحبة والألفة .

ويرى أن من حق الثقافة العربية أن تتحدى التيارات الدخيلة وأن تمحقها وأن تختار منها ما تستسيغه وما يتفق وثقافتها القومية ، وأن الثقافة العربية اليوم وهي تمر في عهـــد أحياء وتجديد أكثر ما تكون تعرضا للخطر ، خطر التيارات الدخيلة (١) .

---

(١) مجلة الرسالة (م ١٩٥٠)

(٨)

الثقافة العربية فى مواجهه

الحضارة الغربية

موقف الثقافة العربية من الحضارة

(١)

من شأن كل ثقافة أن ترتبط بحضارة وأن يكون لها موقف من الحضارة الأخرى والثقافة العربية لها ذاتيتها ولها موقفها من الثقافات المختلفة شرقية وغربية، كما أن لها موقفا من الحضارة المعاصرة . ولها أيضاً إرتباطها بالحضارة الإسلامية العربية .

والحضارة فى الثقافة العربية مفهوم واضح ، يختلف فى أسسه عن مفهوم الثقافات الغربية للحضارة ويقوم كل مفهوم تبعا لمقومات كل ثقافة والقيم الأساسية التى تخضع لها .

والسؤال الأول : ماهى الحضارة ؟

وإذا كان لنا أن نفرق بين مفهوم الحضارة ومفهوم المدنية ، قلنا إن مفهوم المدنية أوسع ، وهو أشمل للثقافة والحضارة معا وهو مجموع العقائد والأفكار والفنون والمؤسسات والعادات والنظم التى يقيمها المجتمع البشرى، أما الحضارة فقد جرى العرف على أنها تمثل ذلك التقدم المادى وطرق المعيشة والادوات التى يستخدمها أفراد المجتمع وهى تمثل بالجملة الجانب الاجتماعى الصناعى المتصل بالحياة والمجتمع ، وهو غير مايتصل بالفكر والفلسفات والأدب .

وإذا كانت الثقافة ذاتية وقومية فان الحضارة إنسانية وعالمية ، وإذا كانت الثقافة خاصة لأمة ما ، فإن الحضارة عامة وملك مشاع للبشرية .

وليست هناك حضارة واحدة ، ولكن هناك حضارات متعددة ، والحضارة العربية الحديثة لاتنفى وجود حضارات أخرى ماتزال حية من بينها الحضارة الإسلامية الغربية ، وهي مدنية فى جذورها وأصولها للمنهج العلمى التجريبى الإسلامى ، ومن

شأن الحضارة الإسلامية العربية أن نقتبس وننقل من الحضارة العصرية ، ولكن ليس من شأن هذه الحضارة أن تحتوى الحضارة الإسلامية أو تذيبها فى بوتقتها وذلك للخلافات الأساسية الواضحة والعميقة بين كل حضارة وحضارة .

ولقد ذاع رأى تغريبى يقول بالترابط بين الثقافة والحضارة فى مجال الإقتباس وأن على الشرق إذا أراد أن يصطنع الحضارة الغربية أن يصطنع الثقافة الغربية أيضاً ، وبطلان هذا الرأى ظاهر فإن الغرب عندما نقل من العرب والمسلمين لم ينقل إلا العلوم وما نقله من الثقافة إنما صاغه فى بوتقته وأضافه إلى أصول فكره وجرده من طابع الفكر الإسلامى العربى ، وهو فى ذلك يجرى مع طبيعة الاقتباس بين الثقافات ومن شأن الثقافة العربية أن تفعل ذلك ، فالعلوم وهى معارف عامة لاحظر على نقلها ، ولكن مفاهيم الثقافة تختلف بين ثقافة وثقافة ، ولذلك فلا تستطيع الحضارة الغربية ولها مالها من سلطان فى العالم كله ، ومالها من نفوذ مرتبط بالاستعمار أن تفرض مفاهيم فكرها وثقافتها على الثقافة العربية والحضارة العربية الاسلامية .

هذا هو مقطع الرأى فى مجال التفريق بين الحضارة والثقافة فى الاقتباس ، أما فى واقع الأمر فإن بين كل ثقافة وحضارة ترابطا لاسبيل إلى تجاوزه أو إنكاره فالحضارة هى تنفيذ للتصميم الذى تتمثله الثقافة وبناء الحضارة إنما يبدأ فى الثقافة أولا تخطيطاً ومشروعاً . ولذلك فأن أى حضارة إنما تستمد مقوماتها من ثقافة لها أسسها ومقوماتها .

وهدف الحضارة (والمدنية أيضاً) هى الرقى ، والارتفاع عن مفهوم البداوة والارتقاء بالإنسان فى السلوك وأساليب المأكل والمشرب والهندام ، والتغلب على المادة وفى مفهوم الثقافة العربية أن الرقى مادى وروحى ، وأن هدف الحضارة الاسلامية أن توجد إلى جانب التقدم المادى : التقدم الروحى وسيادة الأخلاق النبيلة والمبادىء الشريفة وتغليب معانى العدل والإخاء والتكامل الإجتماعى .

ولعل الحضارة الغربية قد وصلت إلى مفهوم أساسى هو أنها تقوم على ترقية الماديات والصناعيات دون اعتبار كبير للجانب المعنوى أو الروحى ، وأن نمو

الحضارة أصبح يهدد البشرية بسيادة الاله وعبودية الإنسان لها ، فضلا عن أن النمو المادى إلى جوار التوقف عن النمو الروحى قد خلق هوة سحيقة بين العقل والقلب وبين المادة والروح ، فنما جسم العالم بينما ضمرت روحه ، ويرجع ذلك فى الأغلب إلى أن الحضارة انحرفت عن إتجاهها الإنسانى ، وآثرت الإتجاه الوثنى الاغريقى القديم المرتبط بالتحلل والإنطلاق الغريزى والجسدى .

وقد كان من شأن هذين الخطرين أن وجد ماأطلق عليه « أزمة الحضارة وهو أمر تناوله بالدراسة كثيرون منهم سوركان وشبنجلر وتوينبى وغيرهم .

الحضارة :

اشتقاق من تحضر ، والتحضير هو التهذيب البطىء المتدرج، ويجمع الباحثون أن لـكلمة حضارة مفهومان : مفهوم يعنى الانتقال من وضع إجتماعى معين إلى وضع آخر أكثر تطوراً وهو ما وصفه ابن خلدون بالعمران وعرفه بأنه مجموع الأحوال التى تنجم عن الاجتماع الإنسانى مثل التوحش والتأنس والعصبيات والتقلبات المختلفة للبشر ، وما يتصل بأعمال الناس ومساعيهم من الـكسب والمعاش والعلوم والصنائع .

والثانى وهو مايعنى حالة خاصة لجماعة من الجماعات البشرية فى وقت معين وهو ماأسماه ابن خلدون الحضارة وعرفه بأنه غاية العمران ونهاية أمره .

وقد فرق شبنجلر بين المدنية والحضارة نفس تفريق ابن خلدون لجعل المدنية علماً على المعنى الحركى الديناميكى وجعل الحضارة تعنى المعنى الثابت (ستاتيك) .

* * *

ويجمع الباحثون على عدة حقائق :

أولا : إن الحضارة تصدر عن ثقافة أوعن دين وأن الحضارة العربية الإسلامية

تصدر عن الإسلام وأن حضارة العرب المعاصرة تصدر عن العلم وأن حضارات الشرق تستمد من البوذية والهندوكية .

ثانياً : إن التطور البشرى الحضارى يشتمل على شقين : (أولهما) المادى أى الخاص بالحالة الاقتصادية والنظام الذى يلائمها (ثانيهما) الروحى أو الفكرى الذى يتصل بالمعتقدات والقيم الخلقية والمعنوية .

ثالثاً : إن من مستلزمات الحضارة الصحيحة أن يقترن التقدم المادى بالتقدم الخلقى ويسايره جنباً إلى جنب .

رابعاً : إن الحضارة الصالحة هى التى ترتفع بالحياة الإنسانية جملة ، من نواحيها الفكرية والمادية والمعاشية والنفسية والخلقية والاجتماعية الفردية .

وأنها هى التى تفسح المجال لنمو العقل وتفتحه واكتشاف آفاق الوجود ، والتى تزيد من تماسك الأفراد فى المجتمع وإرتباطهم وتضامنهم وتكاتفهم .

وإن مهمة المدنية ترمى إلى نشر تعاليم الإنسانية وتعميمها على وجه الأرض .

وقد ربط توينبى ومالك بن نبى الحضارة بالفكرة الدينية ، فالحضارة عندهما تبدأ حين تدخل التاريخ فكرة دين معين أو مبدأ أخلاقى معين وتنتهى حين تفقد الروح نهائياً الهيمنة التى كانت لها على الغرائز المكبوتة .

ويرى توينبى أن الحضارة الحديثة الغربية قد قامت على الدافع الروحى ، أساساً .

* * *

وقد أشار بعض الباحثين (١) إلى أن الحضارات لا يتميز بعضها عن بعض بعناصرها المادية ولا حتى الثقافية وإنما أكبر ما تتميز به هو الفكرة الدافعة ، أى بالقوة المحركة التى ينبعث منها النشاط من الداخل وتسيرها فى سبل معينة .

---

(١) جان لاو وجان بنس (الثقافة والحضارة) ترجمة عبداللطيف شرارة .

وإذا كانت الحضارات الشرقية تقدم التأمل على العمل أو تغلب القدرية وإذا كانت الحضارات الغربية تغلب النظرة المادية ، أو تجعل من الإنسان سيداً مطلقاً للكون فإن الحضارة الإسلامية تقيم نظرة متكاملة جامعها الروح والمادة وتجعل الإنسان سيداً للكون تحت حكم الله وكيلا متصرفاً فى سبيل قيام نظام الإسلام ومنهج القرآن .

وإن عقلانية الحضارة الاسلامية ليست عقلانية الحضارة الهلينية ، وليست هى عقلانية مطلقة ، وإنما هى عقلانية روحيه بحسبان أن المعرفة الاسلاميه جامعه للروح والعقل معا .

مفهوم الثقافة العربية للحضارة بعامة

(١) يقوم مفهوم «الحضارة» فى الثقافة العربية على أساس من الفكر الإسلامى الذى يستمد مقوماته من القرآن الكريم فأول مقومات الحضارة الاسلامية الجوهرية أنها تستمد من وحى رسالة سماوية تمدها بالقوة والتماسك وتربط بين عناصرها عقيدة التوحيد التى تقوم على الموازنة بين الروح والمادة ، والعلم والدين ، والقلب والعقل ، والدنيا والآخرة . ويقوم نظامها السياسى على الشورى والمساواة واحترام حقوق الإنسان ، وتقوم الأسرة فى مجتمعها على المودة والرحمة ويقوم إقتصادها على تبادل المنافع واتخاذ المال وسيلة لا غاية واحترام الملكية الفردية غير المستغلة أو المعطلة للصالح العام ، والتشريع القائم على أسس مرنة وخطوط عامة يتيح الفرصة للإجتهاد والتطور مع ظروف الأزمنة وعوامل البيئات ، والإيمان بطلب المعرفة من كل وجه واستخدام العقل فى كسب المعارف وتسخير الطبيعة لسعادة الفرد والجماعة ، وتربط هذا كله قيم خلقية هى ضوابط الحضارة واطارها ، قوامها خلوص النية ونقاء الضمير والتمسك بقيم الحق والخير .

(٢) مفهوم الحضارة فى الثقافة العربية يتمثل فى أنها (١) حضارة جامعة إنسانية : لا حضارة الجنس السائد . (٢) حضارة وسطى تقوم على التوازن بين الروح والمادة فلا هى حضارة الزهادة ولا حضارة الغرائز (٣) حضارة فكر مفتوح متقبل لتيارات الفكر والحضارات المختلفة تأخذ منها وتترك وفق قاعدتها الأساسية (٤) حضارة لها أساس ومقومات تستمدها من القرآن : أساسها التوحيد وقوامها العدل والحق والإخاء والحرية . (٥) حضارة تكرم العلم وتشرف العقل ، ولكنها لا تنسى حاجة القلب والروح وتجعل قانون المعرفة فيها : قائماً على العقل والوجدان معا .

(٣) ربط الإسلام بين الارتقاء الروحى والارتقاء المادى وفتح بابهما على مداه فلم يحرم علماً نافعاً ولم يضع للعلوم حدوداً، وبذلك ربط بين المدنية والدين حيث يظن فى الحضارة العصرية وبعض الحضارات القديمة أنهما متعارضين بل لقد بلغ الإسلام بالأمر أن ربط بينهما ربطاً عضوياً فأعلن أن الدين هو ذروة المدنية فالمدينة التى تستحق هذا الاسم بنزاهة أصولها هى غرض دين الحق الخالص، فالمدينة الصحيحة لا تنافى الدين الحق، والعلم الصحيح لا يخالف الدين الحق فى شىء(١).

(٤) جعل الإسلام للأخلاق المكان الأرفع من عنايته لكل الاعتبارات، وهو إعداد النفس البشرية لتكون قادرة على حمل مسئوليته المهمة التى ناطها الإسلام بكل مسلم فوضع الأخلاق فى مستوى لم تضعها فيـــه أية فلسفة فى الأرض على شدة عناية هذه الفلسفات بها ويتمثل ذلك فى قول الرسول: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) فالإسلام يعتبر مكارم الأخلاق غاية الدين الحق وثمرة لوسائله المختلفة وقد عمد الإسلام إلى حياطه الدعوة إلى حسن الخلق بعملين هما هامين تحريم الينابيع الثلاثة للشرور: (الخمر والميسر والزنا) تحريماً لاهوادة فيه (٢) إيجابه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وقد أباح الإسلام لكل إنسان أن يستعمل حقه الطبيعى فى كل مالاينافى القانون العام و مالايجافى ناموس الأخلاق، فكان من أكبر معالم مفهوم الإسلام للحضارة حماية الأخلاق فى الأمم، وقد جعل أحاد الأمة قواماً بعضهم على بعض، فقرر أنه لايحل لمسلم أن يرى منكراً فيهز كتفيه ويمضى فى سبيله (٢).

(٥) إرتباط الحضارة بمنهاج إجتماعى متميز، قوامه الحرية والعدل والإخاء الإنسانى، بحيث تكون الحضارة عامل تقدم وسعادة للبشر جميعاً ولا يكون خيرها وقفاً على مجموعة خاصة ويكون للباقين الذل والكدح والعبودية، وحماية الفرد من قسوة الطبيعة أو سلطان الأعمال. وبذلك قضى على التفرقة العنصرية، والصراع

---

(١)، (٢) محمد فريد وجدى.

بين الطبقات ، وأقام أنظمة الرحمة والعدالة . ويمكن أن يوصف هـذا بأنه سماحة الحضارة وإنسانيتها ، فهى ثمرة جهد مشترك لـكل من عاش فى المجتمع الاسلامى مسلمين وغير مسلمين ، وتوفير الحرية لغير المسلمين وإحترام شعائرهم وإعطاء المرأة حقها وحريتها ، فالحضارة فى الثقافة العربية ليست قاصرة على طبقة دون طبقة ، ولا أمة دون أمة .

(٦) الموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل للطاقات وعن المادية الجامدة المفسدة لإنسانية الحياة وقوام هذا المفهوم الحضارى :

(٧) ليس هنـــاك انفصال بين القيمة الدينية والقيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى مفهوم الثقافة العربية للحضارة ، وإنما تتمثل القيم مجتمعة ككل فى تقدير كل موقف .

(٨) الحضارة الإسلامية تؤمن بوحدة البشرية لأنها تؤمن بوحدة الله وبوحدة الإنسانية وبوحدة الحقيقة وهى بالتالى تتوجه إلى العالم كله وإلى الإنسانية . ومن هذه الإنسانية فى الحضارة الإسلامية تنشأ الوحدة الثقافية والوحدة الاجتماعية المستندة إلى نظرة إلى الـكون واحدة ونظرة إلى الحياة واحدة وقد أكدت حلقات التاريخ الإسلامى أن الحضارة فى مفهوم الثقافة العربية هى حضارة إنسانية تجمع عليها الشعوب والأقوام فى صعيد واحد مشترك من المفاهيم الـفكرية ونظم الحياة التى تتحقق فيها المساواة بين البشر وإقامة العدل وسائر المثل العليا التى تتقـــدم بالبشرية ماديا ومعنويا ، وقد كان الإسلام هو جماع هذه المثل العليا وهو أساس الحضارة المثلى فإن الحضارة هى الموقف الذى تتخذه أمـــة من الأمم من الحياة والـكون ويتبع هذا الموقف تباين واضح فى مجالات كثيرة منها الفن والأدب . وذلك واضح فى إختلاف الفن الإسلامى عن الفن الصينى والأوروبى وكذلك فى الفرق بين فهم الإغريق للديمقراطية وفهمنا لها .

حقائق أساسية

وهناك حقائق أساسية فى بحث الحضارة أهمها :

أولا : إن الحضارة الغربية الحديثه استمدت مقوم نمائها من التراث اليونانى الذى حرره الفكر الإسلامى وأضاف إليه ومن المنهج العلمى التجريبى الذى هو ثمرة الفكر الإ. لامى .

ثانياً : إن الحضارة على هذا المفهوم ملك للبشرية وليس للغرب وحده .

فهى ثمرة جميع الحضارات التى سبقتها وأبرزها اليونانية (البذور الأولى للعقل) والمسيحية (تربية النفس) والعربيه الإسلاميه (تمام نمو العقل والإرتقاء بالنفس) .

ثالثاً : إن الحضارة الصحيحه تجمع بين التقدم المادى والتقدم الخلقى جنباً إلى جنب .

وأن يكون الخلق هو قوام الحرية ، وهذا هو الفارق بين الثقافة العربية والثقافات الغربية فى مفهوم الحضارة حيث يرى الغرب مفهوم الحرية فى إطلاق الغرائز والحريات أقصى مدى للحرية ، أما فى الثقافة العربية فالحرية مرتبطة بالأخلاق ولها ضوابطها .

ويقول لامارتين : أما الحضارة المادية فإن علماء الأخلاق يخشونها والفلاسفه يزدردونها والاقتصاديين يمجدونها ، ولكنهم جميعاً بعيدون عن أن يتفاهموا على وسائل رقيها وأن يضبطوا انحرافاتها وأن يدرأوا مفاسدها .

رابعاً : لكل حضارة « شخصية » متميزة بخواصها وصفاتها الملازمة ، ولهذه الشخصية إرتباط بمصادرها من ثقافة أوأمة أو دين أو تاريخ .

---

(١) من بحث للأستاذ محمد المبارك .

موقف الثقافة العربية من الحضارة الغربية

إن مفهوم الثقافة العربية للحضارة يختلف اختلافا أساسياً عن مفهوم الثقافة الغربية ولذلك فإن الأمة العربية والعالم الإسلامى بحسبان إستمدادهما من الفكر الإسلامى — يقفان من الحضارة المعاصرة موقفاً صريحاً يكشف عن « ذاتية » قيم الثقافة العربية وطابعها الاستقلالى الواضح ، ومفاهيمها المستمدة من تاريخها ولغتها ومزاجها النفسى والعقلى ، وإن كانت هذه الثقافة مفتوحة أمام الثقافات البشرية المختلفة ، إلا أنها تقف دائما على قاعدتها الأساسية وتتعامل مع هــذه الثقافات من خلال قيمتها الأساسية حفاظاً على كيانها وشخصيتها .

وتستمد الثقافة العربية مفهومها للحضارة من جوهر الإسلام نفسه ، الذى يتمثل مفهومه الحضارة فى أنها تقوم أولا : على أساس تحقيق توازن سليم بين الفرد والمجتمع ، فالإسلام يعترف بالفرد كوحدة اجتماعية وتعترف به على أنه صاحب إرادة تشكل الوضع الأساسى فى المجتمع فى حــدود المبادىء التى وضعها الإسلام وهى تعطى للفرد أيضاً حق الملكية وحق التمتع بثمرات ملكه ، ولكنه مع ذلك يضع قيوداً وحدوداً على إرادة الفرد وعلى مباشرته لملكيته بحيث يحقق توازناً سليما بين الفرد وحقوقه وبين وجــود المجتمع ومستلزماته(١) .

ثانياً : حرم الإسلام جميع طرائق الكسب التى تقوم على الرشوة واستغلال النفوذ أو الغش أو أكل أموال الناس بالباطل حتى يحول دون الأرباح الفاحشة والثروات الضخمة . وإلغاء الربا كلية .

ثالثاً : جعل للأسرة نظاما حكيما يقوم على المودة والرحمة ورعاية الواجب ، وشرع للميراث نظاما فريدا حكيما يتضمن تقسيم تركة المتوفى بين عديد من ذوى

---

(١) من بحث للدكتور محمد شقير .

قرابته حتى لا تتضخم الثروات وتتجمع فى أيد قليلة ، وحرم على كل مالك أى تصرف فى ملكه يؤدى إلى إضرار بالغير أو ينطوى على اعتـــداء على حقوق الآخرين .

رابعاً : الاهتمام بالفقراء والمعوزين ، وإقرار حق معلوم لهم فى مال الأغنياء، مع إشاعة روح التعاون والإيثار ، وبناء المجتمع على أساس أن المؤمن للمؤمن كالبنيان ، واعتبار التقوى ــ وليس المال والنسب والجاه والحسب ــ ميزان التفاضل بين الناس .

خامساً : إقامة الحدود والقصاص، والنهى عن أكل الربا وأموال الناس بالباطل والوفاء بالعقود ، وتنظيم أمر الكيل والوزن ، وكتابة الديون ، وإقرار مبدأ العمل .

سادساً . اعتبار القيم الأخلاقية محوراً أساسياً لبناء الحضارة والجماعة والربط بينها بحيث تكون هناك قواعد يرعاها الجميع ويعترف بها الخارجون عليها ، (هذه القيم توجد عن طريق الأسرة والمسجد والمدرسة(١)) .

* * *

تكشف هذه المفاهيم عن « ذاتية » واضحة « للحضارة » فى مفهوم الثقافة العربية يختلف اختلافاً بيناً وعميقاً عن مفهوم الحضارة فى الفكر الغربى وعن طبيعة الحضارة الغربية المعاصرة ، فى قيم أساسية كبيرة وعديدة أبرزها :

١ ــ السمية الأخلاقية التى تعتبر قاسماً مشتركا على الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

٢ ــ رفض الربا كأساس للنظام الاقتصادى .

٣ ــ الترابط بين الفرد والجماعة ، والجماعة والفرد .

---

(١) تاريخ الحضارة الإسلامية . أبو زيد شلبى ،

٤ — العدل الشامل .   ٥ — الإخاء .

٦ — التطبيق العادل للناس جميعاً لا لفئة خاصة .

بهذه السمات تمتاز عن الحضارة العربية ، بينما هى تشترك معها فى مختلف الجوانب الايجابية والحية وأهمها : التفكير العلمى ، واحترام العقل .

* * *

وإذا قال أندريه سجفريد : « إن حضارة الغرب تتميز بقدرتها على الاختراع فى عالم الآلة ، فإن مصدر هذا مستمد من الحضارة الإسلامية التى ابتدعت المنهج العلمى التجريبى ، أما الميزة التى اعتبرها سجفريد ذات قيمة وهى أن الإنسان سيد مصيره ، فإن الثقافة العربية تؤمن بسيادة الإنسان تحت حكم الله ، ولا ترى له مطلق التصرف أو الاستعلاء وترى أن السيادة لله وحده وأن منطلق الحضارة هو تحقيق إرادة الله فى الكون وأن الحضارة الاسلامية حضارة علمية أخلاقية بينما الحضارة الغربية حضارة مادية . وأن الحضارة الاسلامية عند ما تمتلك وسائل العلم الحديث والتكنولوجيا تستطيع أن تقدم للإنسانية حضارة جامعة بين المادة والروح ، وأنه لا سبيل إلى ما يقوله بعض قصار النظر من إعطاء حضارة الغرب المادية مدداً من روحانية الشرق فإن تركيب الحضارة الغربية هو تركيب متكامل على النحو الذى تقوم به الآن ، وأنه لا سبيل إلى تطعيم أى حضارة فى مقوماتها الاساسية بقيم حضارة أخرى ، وخاصة بالنسبة لمفهوم الترابط بين الدين والعلم الذى تتسم به الحضارة الاسلامية وحدها .

ومن الحق أن يقوم مفهوم الحضارة الاسلامية متكاملا كما يقوم مفهوم الحضارة الغربية متكاملا .

وحيث تتجه الحضارة الاسلامية إلى مفهوم الايثار والانسانية والاخاء تقف حضارة الغرب عند الفردية وحب السيطرة والنفوذ والاستعلاء ، ولذلك ارتبطت الحضارة الغربية بالتحرر من القيم الأخلاقية وإقرار مذهب اللذات ، والمتعة الفردية ، والتفرقة فى المعاملة بين الجنس الأبيض صاحب الحضارة والأجناس

الملونة ، وبذلك انبثقت من الحضارة وهذه الحركة الاستعمارية القائمة على أساس الاستغلال والاستعباد للأجناس الأخرى .

وإذا قيل أن حضارة الإسلام تقوم على جماع المادة والروح والعقل والوجدان والدنيا والآخرة فإن حضارة الغرب يمكن أن توصف بأنها حضارة مادية صرفة ، طغت فيها المادة على كل شيء ولونت كل القيم الوجدانية والعاطفية وأخضعت السلوك والمعاملات والأخلاق لمفاهيم المادة ، وخضع لذلك الفن والاقتصاد وقامت السياسة على مفهوم أن موطن الرجل الملون يبدأ من كاليه (الثغر الفرنسي المقابل للشاطيء الانجليزي على المانش)(١) وأنذر الامبراطور غليوم في أوائل القرن الحالي أوربا بالخطر الأصفر على الشعوب البيضاء وبأن إنهاء سلطان أوربا على العالم سيأتي من الشرق .

وتتأكد الدعوة في كل وقت بأن الجنس الأبيض يريد الاحتفاظ بحقه في السيطرة والسيادة ، وتجرى الدعوة إلى وحدة الشعوب البيضاء وأن مهمة الجنس الأبيض هي تدعيم الثقافة الأوربية في البلدان المستعمرة .

وبدأ أن الشعب الأوربي الذي كان يعلن حقوق الانسان في أوربا ويطالب بالحرية والإخاء والمساواة كان يذهب متحمسا إلى أفريقيا ، يسلب سكانها أبسط حقوق الانسان ، وفي أوربا يقولون إن الناس ولدوا أحراراً ولكنهم في أرض آسيا كانوا يقولون إن الناس عبيد وإن الرجل الأبيض وحده هو الذي له الحق في حمل أمانة حكم هذه البلاد .

. . .

وتتميز الحضارة الاسلامية بأنها:

(أولا) ليست حضارة السادة دون العبيد .

---

(١) عبارة أندريه سجفريد.
(٢) دكتور أنيس فريحة .

(ثانيا) الاندماج فى الشعوب لا السيادة عليها .

(ثالثاً) الترابط بين الدين والعلم وبين المجتمع والأخلاق ، بالإضافة إلى تباين نظرة الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية إلى الكون والحياة والعقائد والعادات والقيم والآداب والفنون .

وهناك خلاف أساسى قوامه التكامل بين الدين والمجتمع فى الحضارة الاسلامية بينما تقوم الحضارة العربية على أساس الفصل بين الكنيسة والدولة .

• • •

وتتسم الحضارة الاسلامية بالإبداع والذاتية ، التى أقامت لها طابعا مميزا ومنهجا خاصا ، هذه الذاتية المستمدة من جذور فكرها ، والتى أعطاها وقفة الصمود إزاء خطر جسيم تهدد اليهودية والمسيحية قبلها ، ذلك هو خطر الفلسفة اليونانية الوثنية الذى سيطر على اليهودية وابتلع المسيحية وأذابهما فى بوتقته ولكنه عجز عن ذلك بالنسبة للاسلام والفكر الاسلامى والثقافة العربية بعد صراع طويل شاق ، ولولا الأصالة العميقة الجذور لاستحال ذلك ولخضع الإسلام لما خضعت له اليهودية والمسيحية ، ولاستحال إبداع حضارة إنسانية امتدت على الزمن أجيالا وامتدت على هذا الكوكب فغطت مساحة كبرى منه فى قلب ثلاث قاراته الكبرى أثرت بالعطاء كل حضارة وثقافة قامت من بعد ، وطبعتها بطابعها ، أو أمدتها بأصولها ومقوماتها .

فالحضارة الإسلامية نسيج تام الصنع ، قام على ما قام عليه الفكر الاسلامى والثقافة العربية من تكامل ووسطية ووحدة « فهى ليست مزيجا بل مركبا فيها وحدة ، والوحدة هى أس القوة والابداع فى الحضارات كما هى أصل فى حياة الأفراد والجماعات » .

لقد اقتبست مما سبقها كأمر طبيعى لكل حضارة أن ترتبط بما تقدمها

ولكنها صهرت ما استقبلت فى بوتقتها وحولته إلى مادة قوة وطبعت كل ما أخذت بطابعها وظل كل من طابعها وجوهرها وذاتيتها واضحا قائما حتى فى ابان مرحلة ضعفها وأزمتها بعد دورة ألف عام من التاريخ .

يقول الباحث (ادلارد) وهو واحد ممن تثقف على أيدى العرب فى الأندلس : إن الابداع الذى عرفت به الحضارة العربية (الاسلامية) كان نتيجة دافع روحى ونظرة عالية من إيمان راسخ بوجدانية الحق :

« إنى والعقل رائدى تعلمت شيئا من أساتذتى العرب ، إن الله أعطى الناس العقل ليكون هاديا فيميز الحق من الباطل » .

إن أثمن الخدمات العلمية الملموسة التى قدمتها الحضارة الاسلامية وكانت مصدر بعث الفكر الغربى وقيام الحضارة الغربية المعاصرة هما : روح البحث والاعتماد على العقل .

(٤)

مفهوم الحضارة الإسلامية

(أولا) : قامت الحضارة الإسلامية على روح واحد ، وأصل الأصول فيها : «فكرة التوحيد» وبالتوحيد تفسر عناصر الاسلام جميعا ، والاسلام لم يبتدع فكرة التوحيد ولكنه سما بها إلى أبعد درجاتها حيث جعلها محور كل شيء وصاغها أدق صياغة وحررها من كل عائق أو معاكس ، والتوحيد هو شجب عبادة ماسوى الله فلا يؤمن بسلطان غير سلطانه والأصل في الوحدانية : التحرر من عبودية غير الله ، ومن كل سلطان غير سلطان الله ، فلا تفرقة بين الناس ، دين واحد هو دين الله والناس أمة واحدة ، وفي هذا معنى العالمية بأصفى أشكالها وأسمى صورها .

والوحدانية الكاملة تقوم على أصول أربعة :

١ — التحرر من عبودية غير الله

٢ — التوحيد أو العالمية

٣ — الروحانية الخالصة ، المثالية الخلقية

(ثانيا) : الاسلام يرمي إلى تحرير العقل من كل سلطان غير سلطان الله فهو لا يتقيد بنظر المجتمع ، والرأي السائد فيه الا إذا كان من عند الله ، يضرب عرض الحائط مايبديه المشعوذين من تأثير القوى الخفية التي من حق العقل أن يكفر بها وأن يتحرك دون حساب لهذه القوى ، والعقل من خلق الله ويخضع له فلا يشترك معه في الألوهية ، وقد أودعه في الانسان لا ليعبده الانسان ويخلص له من دون الله بل ليعرف الكون ويكتشف مايلزمه منه ، ويهتدي به في الظلمات التي ليس الدين أن يكشفها له والعقل مفهوم الاسلام واسطة لاغاية وهو آلة تتكسر على ما يتعدى ميدانها ولا يستطيع أن يتحدى مايقوله الله ، والعقل ليس إلها كاملا يخطيء ، وإنما هو نور مصباح يكشف في الظلمات ولكنه ينكسف أمام نور الله .

والعقل لايستطيع أن يكشف سر الخلق والكون وأن يضع مبادىء المعرفة بل الله يفعل ذلك . والفلاسفة المسلمون يرون أنه مادام نور العقل أضأل مـــن نور الله فلماذا لايتخذ نور الله كاشفا فى ميدان الفلسفة يسير نور العقل وراءه .

والعقل فى الاسلام يحرر من الخرافات ومن عبودية غيرالله ويفتح أمام المسلمين المجال فى الجبر والحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة .

لقد قيد الاسلام العقل فى النظرة الفلسفية العامة الشاملة وأطلق له الحرية فيما سوى ذلك من مشاهدة وتجربة واختبار وعدم خضوع للقوى الخفية وهذه هى الوحدانية التى حررت العقل من غير سلطان الله .

وقد أقر الاسلام وجود حقيقة واحدة هى من خلق واحد أحد ، فالعقول يجب أن تقبل جميعها إلى فهم هذه الحقيقة واكتشافها مها اختلفت فى أمزجتها وقوة إدراكها ومن شأن وحدة الحقيقة أن تؤدى إلى وحدة العقول .

والعقل الاسلامى يتفق فى نتائجه وطريقه مع الأخلاق .

فهو الذى يدل على الخير ويهدى اليه ، أما المكر والخديعة والدهاء المؤدية إلى السوء فليس من صنع العقل وإنما هى من صنع النفس الأمارة بالسوء ، ولو رجع الانسان إلى عقله رجوعا سليما لأباها .

وبالجملة فالعقل الاسلامى نور محرر من الشعوذة والسحر والقـــوى الخفية والخضوع لغير الله (١) .

(ثالثا) : تهذيب النفس أصل من الأصول فى الحضارة الاسلامية .

وتقوم روح الاسلام على تحرير الإنسان من شهوات النفس ، والتحرر من عبودية الناس .

وقد وضع الاسلام طرائق للتطهر النفسى كالعبادات والصوم ، ومن المعروف أن النفس غير الجسم ، والميول النفسية غير الاتجاهات العقلية .

---

(١) (يوسف العش) من مجلة الحضارة الاسلامية

وقد اتخذ الفلاسفة والصوفية من دراسة أحوال النفس وسيلة لرقيها فوصلوا فى ذلك إلى درجات عالية ، وبنوا بحوثهم على التجربة النفسية عن مجاهدة النفس فقالوا إنهم وصلوا إلى معرفة السعادة بل إلى الحصول عليها عن طريق المجـــاهدة والتهذيب .

والإسلام يدعو إلى أن يتحرر الإنسان من ميول النفس ورغباتها وأهوائها وخضوعها لغير الله(١) .

(رابعاً) المادة :

يرى الاسلام التحرر من عبودية المادة وطغيانها ، وذلك بتوجيه المال إلى صالح الأعمال فالمال واسطة لاغاية والمال ملك لله وهو رهين يسترد ، ويبقى لأجل معلوم ، ومبدأ الزكاة يقوم على توزيع واحد من أربعين من ثروة الموسرين ، فينفق فى حياته خلال (أربعين سنة) مايعادل أقصى ماجمع لديه من المال ، وبذلك تنتقل الثروة فى كل أربعين سنة من أيدى أناس إلى أيدى آخرين وقد حرم الاسلام كنز المال ، « والذين يكنزون الذهب والفضة » .

وليست الزكاة تكرما ولا صدقة بل « حق معلوم » وقد أقر الاسلام للسلطان أن يأخذ من مال الأغنياء مايراه لازما للفقراء(٢).

(خامساً) : « مهما أوغلنا فى البحث والتنقيب فيما سلف من الحضارات فلن نجد توقيتا معينا نستطيع أن نحدده بدءا لحضارة ما أو تاريخا لمولدها ، ولأن نعين حدا فاصلا يميز بين حضارة ولت وأخرى أشرق عليها النور وتبدت فى الوجود ولكن هناك استثناءاً واحداً هو الحضارة الإسلامية ، فلم يذكر تاريخ البشر فيما عرفه الناس من حضارات سوى حضارة واحدة برزت إلى الوجود من عالم الغيب دفعة واحدة ، واستوت للناظرين قائمة على أصولها فى فترة محددة من تاريخ البشر ، تلك هى حضارة الاسلام .

« فقد انفردت حضارة الإسلام وحدها بانتمائها إلى الحياة دون سابق عهد أو

(٢،١) يوسف العش — نفس المصدر

وانتظار ، وقد جمعت من فجر نشأتها كل المقومات الأساسية كحضارة متكاملة شاملة ، قامت فى مجتمع واضح المعالم ، له نظرته الخاصة إلى الحياة وله نظامه التشريعى الكامل ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضى ولا وليد تيارات فكرية متوارثة ، ولقد كانت هذه الحضارة وليدة حدث تاريخى فريد هو تنزيل القرآن الكريم وكان مردها إلى رجل فذ فى التاريخ هو محمد رسول الله .

وجاء الإسلام نظاما شاملا للحياة قد افتتح حقا حضارة جديدة (١) .

سادساً : تحدث القرآن قبل أن يدور بخلد إنسان بشىء عن نظرية التطور والارتقاء بأمد طويل ، أن الحياة ليست سلما من قفزات لارابط بينها ولكنها عملية عضوية حية مستمرة ، ومما يسر هذه النظرة إلى الحياة الإنسانية فى وحدتها واستمرارها أن يأتى الإسلام بكل فذ فريد مستحدث من أصول الفكر وأن يضم إلى ذلك بعض الأصول العقلية التى حواها الفكر القديم كذلك(٢) .

سابعاً : تتمثل حضارة الاسلام فى تلك النظرة الخاصة إلى المنهج الاجتماعى المتمايز ، والنظرة الخاصة إلى الفضائل الاخلاقية ، وهذا الأسلوب الذى رسم الإسلام لحياة البشر ، فقد استهلت حضارة الإسلام عهدها كاملة العناصر والأركان قد وصلت إلى تمام شكلها ونمائها دفعة واحدة لأنها لابد أن تنمو وأن تتطور كما تنمو الكائنات الحية .

ولهذا كان من الطبيعى أن تتصل حضارة الإسلام خلال الزمن ببعض العناصر والمقومات الخارجية عنها والتى جاءتها من حضارات أخرى .

لقد بدأت حضارة الاسلام رغم كل العوامل والظروف والمؤثرات كائنا حيا متكاملا متمايزا انبثق نجمها فكان ظهورها فى توقيت تاريخى محدد(٣) .

ثامنا : نقل الإسلام النظرة إلى الحياة والكون من النظرة الخرافية

(١،٢،٣) من بحث محمد أسد عن الحضارة الاسلامية

والميتافيزيقية والمجزأة إلى النظرة الشاملة الجامعة الموضوعية والتجريبية المنتظمة فى سنن وقوانين ، وفتح آفاق التفكير العلمى فسار البحث العلمى فى طريق جديدة ، وانتقلت العلوم الطبيعية من المرحلة العقلية النظرية عند اليونان إلى المرحلة التجريبية منذ القرن الثانى للهجرة ، وانتهت الكيمياء والفيزياء والفلك إلى مرحلة التجربة واكتشاف القوانين وظهر أمثال الجاحظ وابن الهيثم والبيرونى والرازى وأولاد موسى شاكر .

ولم يقتصر الأمر على الطبيعة الجامدة بل تناول الإنسان والحياة الاجتماعية . فقد انبثقت عن النظرة الإسلامية نظرة علمية إلى المجتمع أنتجت لأول مرة فى تاريخ الفكر البشرى تفكيراً علميا كتفكير ابن خلدون فى مقدمته والشاطبى ، الذين سبقهما مؤلفون فى حيـــاة الأقوام والمجتمعات كالبيرونى فى الآثار الباقية والمسعودى ، هذا إلى جانب الأفق الجديد الذى شق المسلمون إليه الطريق إلى معرفة النفس الإنسانية ونزعاتها وخواطرها ورغباتها وما تعانيه من صراع وتبدل وتطور مـــا نراه فى آثار الصوفية التى يعد الكثير منها بحق من أروع ما سطر فى العالم فى تصوير النفس والروح(١) .

تاسعاً : أنتجت نظرة الإسلام إلى البشر فكرة المساواة الحقيقية بل الشعور بالمساواة ، كما ولدت أيضاً فكرة العدالة بين البشر والشعور بمسئولية إقامتها فى العالم دون اعتبار الفوارق الجنسية أو الدينية أو غيرها ، لذلك لم تكن نظرة الشعوب إلى العرب المسلمين الذين دخلوا بلادهم نظرة الفاتحين المستعمرين ، بل نظرة من يحملون لهم الخير ، ويقيمون موازين الحق ، والعدل ، ويشعرون بالأخوة الإنسانية والمساواة بين عباد الله ، وهذا هو السبب فى أن البلاد التى دخلوها بقيت فيها آثارهم خالدة شاهدة عليهم .

(عاشراً) حررت الفكرة الإسلامية الشعوب من الخضوع المطلق للملوك والرؤساء إذ جعلت نظرتهم إليهم نظرة إلى أفراد من البشر مثلهم عباد لايمتازون عنهم بشىء إلا ما حملوا من أمانة وما يجب عليهم من أدائها .

(١) محمد المبارك : نظرة الاسلام العامة إلى الوجود وأثرها فى الحضارة .

وأعظم من ذلك كله ما بعثته النظرة الإسلامية فى النفس البشرية من يقظة الضمير الإنسانى وانتعاشه وحيويته ، ذلك الضمير الذى يتألم للشر ويحنق على الظلم ويتلهف لإقامة الحق وإشاعة الخير ويشعر بالمسئولية أمام الله عن التقصير فى أداء الأمانة فى هذه الحياة والاضطلاع بما أوجب الله من العمل والجهاد(١) .

(حادى عشر) حرر الإسلام الإنسان من الخرافة والشهوة والعصبية الخاصة وربطه بالكون والوجود والبشرية عن طريق ارتباطه بالله العالم الخبير وبالحياة الآخرة الباقية ، إن هذه النظرة تجمع فى نسق واحد : روحانية الدين وعقلية العلم وفعالية العمل وخلقية الغايات(٢) .

(١ ، ٢) محمد المبارك : نفس المصدر

(٥)

الحضارة والاستعمار

ارتبطت الحضارة الغربية المعاصرة ارتباطا عضويا بالإستعمار ، والتوسع ، والفتح ، والسيطرة على المناطق المختلفة فى قارتى آسيا وإفريقيا ، وذلك أن هذه الحضارة إنما نمت فى قارة أوربا وهى قارة لا تملك جميع وسائل الصناعة التى هى دعامة الحضارة ، ومن هنا كان اندفاعها للسيطرة فى العالم التماساً للخامات التى هى أدوات الصناعة ، وللأسواق التى هى مصادرها ، وقد أقامت الحضارة الغربية فلسفة تبرير لهذا الغزو تقوم على دعوى عريضة هى أن الغرب وأوربا والجنس الابيض والحضارة تحمل أمانة « تمدين » الشعوب الملونة والمختلفة ، وأنها فى سبيل ذلك ترتاد هذه الأقطار لتحمل معها المدنية والنور والحضارة وتمد هذه الامم والدول للنهضة .

وقد كشف الزمن وحده عن بطلان هذه الدعوى ، بعد أن أمضى الاستعمار أكثر من مائة عام منذ ظهوره الى اليوم ، دون أن يحقق لهذه الامم والبلاد التى استعمرها أى تقدم يذكر ، بل أنه حال دون تقدمها الذاتى الذى كانت قد شقت الطريق اليه ، وذلك بتعطيل كل مقومات نموها ، وتعميق أوجـــه الخلاف بين عناصرها ، وتجميد لغتها ودينها وثقافتها وإثارة الشبهات حولها ، وإعلاء لغته وثقافته وتاريخه .

وتبين بالحق أن الاستعمار كان يقوم بعمل بعيد الخطر فى احتواء هذه الامم والشعوب والسيطرة عليها وتذويبها فى كيانه عن طريق الغزو الثقافى الذى بدأه ببعثات التبشير لنقل أهالى الأوطـــان من أديانهم إلى دينه وصبغ الحياة الثقافية والاجتماعية جميعا بصبغة نفوذه السياسى والفكرى ، كما تبين أن الاستعمار انما كان حريصا على إبقاء نفوذه وإدامته ، وذلك بتحويل هذه الأفكار والامـــم الى أجزاء من أمبراطورياته الشاسعة ، وقد بدأ ذلك فعلا حين فرض ضم أقطار شاسعة فى افريقيا وآسيا الى بلاده ، ومثال على ذلك هذا القرار التى أصدرته فرنسا باعتبار الجزائر جزءا منها وأطلقت عليها « فرنسا الجنوبية » .

وقد كان الإسلام واللغة العربية والثقافة العربية هى الأخطار الأساسية التى

عمد الاستعمار إلى محاربتها رغبة فى القضاء عليها وإزاحتها من طريقـــه وفرض لغته وثقافته ودينه على هذه البلاد المستعمرة .

ومن الحق أن يقال إن العالم الإسلامى كان أحظ هذه المناطق ازاء الاستعمار وقد وجه إليها ضغطا أكبر ، ولـكن من الحق أيضا أن يقال أن العالم الاسلامى استمداداً من قيمه ومقوماته وفكره كان أكثر صموداً وأكثر مقاومة لهذا النفوذ .

ولم تكن محاولة الغرب فى فرض نفوذه على العالم الإسلامى والأمة العربية ، عن طريق الاستعمار والحضارة هى المحاولة الأولى ، ولـكنها كانت أضخم هذه المحاولات وأعظمها أثرا ، ويمكن القول بأن الحضارة قد ارتبطت بالاستعمار واتجهت الى المشرق وعبرت البحر الأبيض من جوانبه المختلفة فى سبيل تطويق هذه المنطقة ، وقد بدأت هذه المحاولة منذ القرن السادس عشر الميلادى ، واصطبغت هذه الحملات بالطابع التبشيرى المسيحى ، وربطت نفسها بالحروب الصليبية القديمة ، واعتبرت نفسها امتداداً لها وظل هذا المعنى قائمـــا فى ضمير الحضارة والاستعمار الغربيين طوال هذه القرون حتى صرح به اللورد اللنبى فى العقد الثانى من هـذا القرن حين قال عندما دخلت القوات البريطانية الغازية مدينة القدس : « الآن انتهت الحروب الصليبية » .

ومن أعظم ماركز عليـه الاستعمار لإدامة السيطرة العمل على تمزيق الـكيان الفكرى والاجتماعى وكانت الحضارة الغربية عامـــلا هاماً فى تأكيد السيطرة والاستعمار .

وقد التمست الحضارة الغربية مفهومها فى الاستعمار من النظرية الرومانية التى كانت تقول إن فى العالم فئتان : « نحن والبرابرة » يقول جان بول رو : لقد تغيرت العبارة وأصبحت أقل فظاظة ولـكنها لاتزال أقل وضوحا ، أما معناها فهو هو ، الغرب هو قبـــل كل شىء وطننا ، والبرابرة فى نظرنا أو الشرق هو كل آسيا وكل أفريقيا » .

ويمكن القول أن مفهوم الحضارة والاستعمار قد ارتبطا ارتباطا عضويا وفق مفهوم واضح هو أن أوربا هى أرض الجنس الأبيض المسيطر على العالم كله وافريقيا

وآسيا أرض الأديان والثقافات يجب أن توضع تحت الحماية وتظل مصدراً للموارد وأسواقا لبيع منتجات الحضارة .

ومن ثم فقد وضعت خطة أساسية ماتزال موضع التنفيذ : هي امتصاص ثروات هذه البلاد واستنزاف كل ما تملك أولا بأول بكل الوسائل والأساليب ، سواء بالتجارة أم بالسرقة .

وقد سيطر على هـــذا النفوذ الاستعماري الاقتصادي ، نفوذ اليهودية العالمية المسيطر على شئون المال والاقتصاد في أوربا ثم في أمريكا بعد ذلك ، واتصل ذلك بتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين ، كمقدمة لإقامة امبرطوارية استيطانية استعمارية في قلب العالم الاسلامي كبديل للاستعمار نفسه .

وقد ارتبط الاستعمار بايدلوجيه الفكر الغربي القائم على « نظرية الأمير » التي نادى بها ميكافيلي والتي سيطرت على السياسة الغربية والحضارة الغربية وذلك باصطناع كل وسائل الخديعة والتآمر في سبيل تحقيق الغايات وإنكار الأساليب الأخلاقية في مجال السياسة أو الاقتصاد ، ومن ذلك قامت مؤامرات الوقيعة بين المسلمين والمسيحيين والعرب والبربر والسنة والشيعة ، والدروز والموارنة .

وكان للقوى التغريبية ذات النفوذ الفكري كالماسونية والبهائية والتبشير أثرها البعيد المدى في عمليات الهدم والتمزيق والتآمر ، ومقاومة الثقافة العربية أساساً وذلك بإثارة الشبهات وحياكة المؤمرات والوقيعة بين العناصر المختلفة .

وكانت محاولة إخراج العرب المسلمين من مفاهيم الإسلام وقيم حضـــارتهم وثقافتهم ولغتهم وتراثهم وزعزعة عقائدهم وتشكيكهم في مقومات فكرهم كمقدمة لاستيعابهم وتذويبهم في أتون الحضارة الغربية العالمية وخلق طابع غربي في أسلوب الحياة أقرب إلى الإنحلال والإباحة والإلحاد .

هناك وجهة نظر غربية لمفهوم الاستعمار والحضارة يعرضها ليوناردوولف فى كتابه « الاستعمار والحضارة » فهو يرى أن الحضارة الاوربية الحديثة هى شىء مختلف كل الاختلاف عن كل الحضارات التى سبقت القرن التاسع عشر بعد أن تحطمت الحضارات التى كانت ترتكز على المملوكية والارستقراطية ، وأنه لما تضخمت الصناعة فى أوربا اضطرت الحضارة أن تبحث عن أسواق جديدة لصناعاتها وجلب المواد اللازمة للإنتاج والعمل ، ومن هنا شعرت أوربا بحاجتها إلى سائر العالم أن كان لها أن تنجح فى نظمها الجديدة فتنافست الدول الاوربية فى الاستئثار بالاقطار الآسيوية والافريقية لتجعلها ملاحق لتجارتها وصناعاتها وساعدها على ذلك سرعة المواصلات ، وقد كانت صعوبة المواصلات تحول بين أى حضارة مهما كانت قوية ممتازة أن تجتاح بقية الحضارات أو تجبرها على الاخذ منها فكانت العزلة تامة بين آسيا وأفريقيا من حيث أساليب العيش وسبل الحياة .

ويرى لوناردولف أن التطور الذى وقع فى أوربا بين ١٧٥٠ ، ١٨٥٠ هو تطور عظيم هائل لم تشهد مثله البشرية فى كل تاريخها المعروف ، ولعله أعظم قفزة قفزها الإنسان .

وعنده أنه لما كانت الحضارة الراهنة حضارة صناعية فى صميمها كان الاستعمار الحديث اقتصادياً صناعياً فى دوافعه وموجباته ، ولم تستطع آسيا أو أفريقيا له رداً لأنه أتاهما فجأة ، وبقوة ووسائل ليست فى طاقتهما ولا هى تدخل فى دائرة معرفتهما واختيارهما ، فهى فى الواقع حضارة استعمارية غازية بمقدراتها الحربية وطرق مواصلاتها السريعة . ويرى ليوناردولف أن حادث الاستعمار هذا لعله أعظم حادث عرف فى التاريخ من حيث السرعة والشمول ، ففى خلال مائة عام ١٨١٤ — ١٩١٤ استطاعت أوربا أن تخضع القارتين الآسيوية والافريقية وجنوب أمريكا لسلطانها الذى لا ينازع .

ويعتقد ليو ناردولف أن مشكلة الاستعمار الحديث إنما هى مشكلة نزاع بين حضارة صناعية آلية لابد لها من الاستعمار فى نجاحها وبين حضارات لاتريد الفناء فى هذه الحضارة الحديثة ، وإن مناهضة الاستعمار وقيام حركات التحرر إنما كان مصدرها ، تصادم الثقافات ، ذلك أن من خصائص الحضارة الاوربية الراهنة أنها تطغى على كل النظم والمؤسسات الاجتماعية فى الحضارات الأخرى ولا تعرف التساهل أو الهوادة فى فرض أمرها واتباع سيطرتها ، وهى تقوم على القوة الحربية فى أساليبها والتنافس الإقتصادى العنيف .

ويرى ليو ناردولف : أن النزاع الحالى بين الحضارة الحديثة وبقية العالم ليس نزاعا جنسيا أو دينياً أو وطنياً ، وإنما مصدره طغيان الحضارة الاوربية وأساليبها فى الاستعمار والاستغلال ، فالحضارة الغربية الراهنة فى مظهرها الاستعمارى الحربى الاقتصادى قد هددت حياة تلك الشعوب ورخاءها وسبل عيشها وعلاقاتها الاجتماعية بالزوال ، وإن كيان الحضارة الغربية الراهنة يقوم على التنافس الاقتصادى ، الذى لا يعرف سوى مبدأ الربح المادى .

وعنده أن أوربا لا تحس بوطأة مساوىء حضارتها ، ولكن آسيا وأفريقيا تحسان بهما إحساساً يهدد حياتهما ويكاد يفنيهما.

فالحضارة الراهنة التى أنجبت الاستعمار فى آسيا وأفريقيا وخلقت مشكلاته هى بعينها التى خلقت مشكلات الحروب البشرية والاقتصادية بين الدول الأوربية نفسها .

ولذلك فإن المشكلة ليست جنسية ولا دينية ولا قومية وإنما هى مشكلة من صميم الحضارة الراهنة ، وفكرة الوطنية نفسها هى نتاج الحضارة الاوربية الحديثة فهى غير معروفة فى آسيا وأفريقيا بمعناها الحديث .

والشعوب الآسيوية والأفريقية إنما تستعمل وسائل هذه الحضارة وسبلها كأسلوب للتحرر منها .

. . .

ويعلق (ليوناردولف) على الفارق الشاسع بين الاستعمار الرومانى ، وبين الاستعمار الحديث فنى ذلك الاستعمار لم ترغم روما بقية العالم على أخذ حضارتها بمقتضاها ، وإنما كانت تترك لهم كامل الحرية فى معظم طرق عيشهم وحياتهم ، لأن حاجة الرومان إلى الفتح لم تكن اقتصادية صناعية ، وإنما كان دافعها الأول هو حب الفتح ومطامع الملوك فى السلطان والتوسع الحربى ، وليس معنى هذا أن الحضارة الرومانية لم تمتزج بالحضارات الأخرى أو تؤثر فيها وإنما كل ذلك جاء تدريجيا فى رفق وهوادة ، حتى أن الرومان أخذوا من الحضارة الاغريقية الشىء الكثير ، مع أنهم كانوا من الغزاة الغاشمين . وقد بلغت هذه الحضارة الاغريقية فى أوج مجدها مستوى رفيعا من الاجتماع والنظم السياسية والاقتصادية والفنون ، وفتحت معظم شعوب العالم فكان لها فارس فى الشرق ومصر فى الجنوب والشعوب اللاتينية ، وفينيقيا فى الغرب ، واتصلت بحضارة تلك البلدان وأثرت فيها غير أنه لم يقم نزاع عنيف بينها وبينهم ولم تتلاش أية حضارة من تلك الحضارات من جراء هذا الاختلاط ، ذلك لأن الإغريق لم يحاولوا توحيد امبراطوريتهم الواسعة المختلفة الأشكال والثقافات فى شئون السياسة الاقتصادية أو النظم الاجتماعية الأخرى ، فقد كانت الحضارة الاغريقية متساهلة كثيرة التساهل مع الشعوب الأجنبية التى دانت لها ، وكذلك كان استعمار عصر الأحياء والنهضة (الرينيسانس) كان غايته التبادل التجارى فى المحصولات وفتح الأسواق الأجنبية وأخذ المواد الخام .

أما قصة الاستعمار الحديث فى آسيا فهى معروفة مشهورة ، ابتدأت أول بالمعاهدات التجارية بين الدول الأوربية والأمم الآسيوية كما حدث فى الهند ، ويتضح تصادم الثقافات جليا ناصعا فى الحركة التى بدأت تشتد فى أوائل القرن العشرين فهى فى الواقع ثورة واسعة ضد الحضارة الأوربية ونظمها الاستعمارية .

أما استعمار افريقيا فقد ابتدأ عام ١٨٨٠ وكانت الدوافع اقتصادية من غير شك ، وكان الرحالة الاوربى أو الوكيل التجارى لشركة من الشركات

يذهب إلى أواسط افريقيا ومعه ألوان من الهدايا والمنح يقدمها للأمير الإفريقى ثم يطلب منه إمضاء معاهدة مع الشركات التجارية لايفهم لغتها ، ويفهم أن هذه المعاهدة ستدر على شخصه وبلاده الرخاء والثروة ، وتم استعمار معظم بلدان افريقيا الوسطى على هذه الطريقة الخادعة .

فاستانلى حين قام بالنيابة عن ملك البلجيك بامضاء مثل تلك المعاهدة أصبحت الكونغو مستعمرة بلجيكية وبهذه الطريقة استولت انجلترا وفرنسا على مستعمرات فى أواسط افريقيا ولما نشب النزاع بين الدول الاوربية على تحديد أراضى مستعمراتها اتفقوا فيما بينهم على أن كل من أمضى معاهدة مع أمير من أمراء افريقيا على جزء من الشاطىء الافريقى من حقه الأرض الموازية لذلك الشاطىء فى داخل القارة الافريقية .

ويقول : « إن الطريقة التى اتبعت فى الاستيلاء على تلك الأراضى الافريقية كانت فى معظم الحالات وحشية موغلة فى الوحشية وأن تلك الطرق المبتذلة قد تركت من غير شك أثرها السيء ، فى العلاقة الراهنة بين سكان افريقيا وأوربا ، فإن تلك السبل الدنيئة إن دلت على شيء فهى تدل على أن الحضارة الأوربية تعامل الرجل الافريقى مثل معاملتها لأى حيوان أبكم ، ذلك لأن الرجل الأوربى يعتقد أن له الحق فى الاستيلاء على أرض الافريقى بالقوة والخداع(١)» .

ومن الحق أن يقال إن الاستعمار أعطى الحضارة طابع الغدر وأبعدها عن الطابع الانسانى الذى عرفته الحضارة الاسلامية فى انتشارها ، فضلا عن أن الحضارة الغربية لم تنقل إلى العالم إلا الجوانب البراقة والاستهلاكية والخاصة بالترف والمتعة المادية بينما حجزت عن هذه الأمم والشعوب عوامل القوة وحالت بينها وبين الوصول إلى مقدرات العلم والاختراع والتكنولوجيا ، ومنعتهم من إقامة أسباب الصناعة أو القوة العسكرية فى أرضها لتجعلها دائما ضعيفة فى حاجة إلى حمايتها ، وتجعلها دائما أسواق إنتاج ، وأرض خامات ، وشعوبا استهلاكية .

---

(١) من ملخص الكتاب ليونارد ولف (الاستعمار والحضارة) لماوية نور (المقتطف ابريل ١٩٣٤)

وبذلك ينفرد الغرب والجنس الابيض وحده بأسرار الصناعات والاختراعات وأدوات الإنتاج والصناعات الثقيلة وأسباب القوة العسكرية والصواريخ والذرة .
وقد قام ذلك على مخطط استعمارى دقيق ، هو أن يظل العالم مقسوما إلى قسمين الأول : صناع الحضارة وهم دهاقنة الاستعمار فى نفس الوقت الذين يظلون دوما السادة . والثانى : هى شعوب آسيا وافريقيا التى تظل دائما أرض الاستعباد ومصادر الثروة التى يمتصها الاستعمار لبناء الحضارة .

لقد نقل الاستعمار الى العالم الاسلامي الجوانب الضعيفة والإباحية من حضارته ، نقل مرافق اللذات والمتعة ، والخمور والمسارح والملاهي والقصص الماجنة وأباح في البلاد المستعمرة ما لا يبيحه في بلاده ، بعد أن سيطر على مقدرات البلاد ، أباح الربا والخمر والميسر ودعا إلى التهافت على اللذة والتفنن فيها ودعا إلى اطلاق الغرائز من عقالها وتجهيز المرأة بكل صنوف المفاتن والملذات .

وبذلك خلق ذلك الفساد الاجتماعي القائم على ضعف الأخلاق ، والتناحر والاختلاف ، وكانت هذه الحضارة قد أثبتت عجزها في بلادها عن تأمين المجتمع الإنساني أو إقرار الطمأنينة والسلام في ربوعه .

وقد اعتمد الاستعمار في نقل هذه الجوانب من الحضارة إلى العالم الإسلامي والأمة العربية أسلوبا عنيفا من أساليب الغزو الاجتماعي الذي نجح نجاحا لا حد له ، وكان أعمق أثراً من الغزو العسكري والسياسي ، وتغالت الأمم المستعمرة في احتضان هذه الجوانب من الحضارة .

يقول الدكتور هيكل : « لقد نشر الغرب حيث ذهب حضارة إستعمارية قامت على إضعاف الروح المعنوي في الشعوب التي نزل فيها وعلى قتل معنى الاعتماد على النفس في تلك الشعوب كما نشر بينها روحا ماديا قتالا للإيمان بكل المعاني السامية أو المثل العليا موطداً للإستعمار وآثاره ، هذا الروح المادي هو ما يعمل المستعمرون لنشره أنى ذهبوا لأنهم يرونه الصلة الوحيدة التي تربط الحاكم والمحكوم .

فالحضارة الأوربية التي ادعت نفسها حضارة العلم قد اصطبغت منذ زمن بعيد بلون أعطاها صبغته فجعلها حضارة الاستعمار ، وجعل العلم وجعل العقل وجعل النفس وجعل كل ما في الحياة من قوى في خدمة هذا الاستعمار الذي لا يبغي إلى نشر العلم أو الدعوة إلى عقيدة جديدة ، وإنما يبتغي استغلال ما سوى أوربا

إستغلالا مادياً بحتا ، والاستعمار على هذه الصورة أنانى بطبعه ، أنانى حتى ليستهين بالقتل وباستئصال الأجناس ، وبكل ما يقف فى سبيل غايته المادية الصرفة ، هذا الاستعمار قد استطاع أن يخفى لونه الحقيقى وأن يزعم لنفسه غايات هى تحضير الشعوب القليلة الحضارة ، فلما وقعت الحرب بتأثير أرباب المال فى العالم ، زادت العواصف الانانية نمواً فى نفوس تنطوى على حظ غير قليل منها » .

لقد كان حرص الاستعمار أن يقدم للعرب والمسلمين الجوانب المتحللة والاستهلاكية والإباحية فى محاولة للقضاء على القيم الأساسية لهم ، وذلك بإباحة القوانين الوضعيه وإباحة الزنا والخمر والتحلل الخلقى وتنازع المذاهب والأحزاب ، على مدى الخلاف الواسع العميق بين المزاج النفسى والعقلى العربى والغربى .

ولا شك أن الاستعمار يحرص على أن يبقى العرب والمسلمون فى حالة لا تمكنهم من مزاحمته فى مجال الحضارة ، وهو يهدف إلى أن تظل هذه القوة معطلة عن النمو ، تابعة ، مستهلكة ، وليست منشئة أو مؤثرة .

ومن هنا كانت دعوة الاستعمار إلى ما أطلق عليه : « وحدة الثقافة العالمية » .

وهى دعوة مشوهة ، ترمى إلى أن تنصهر ثقافة العرب وحضارة المسلمين فى بوتقة الفكر الغربى والحضارة الغربية ، وما هذه الأساليب والوسائل التى يتخذونها إلا وسائل لاحتواء الثقافة العربية ، ومحاولة تذويبها فى كيان غربى .

هذه الغاية ، هى الهدف الأساسى لحملات التغريب والغزو الثقافى فى الشعوبية وإذاعة دعوات الإلحاد والإباحية ، واحياء الشبهات ، ومحاولة إثارة العصبيات والقبليات والاقليميات ، والفرق المذهبية والعنصرية القديمة . والانتقاص من القيم الأساسية للثقافة العربية والفكر الإسلامى ، والحملة على الاسلام واللغة العربية والتاريخ ، والهدف هو تحويل الثقافة العربية عن قاعدتها وقيمها ، رغبة فى إبقاء هـذه الأمة فى موضع الضعف والتخلف ، كيانا مستعبدا ، خاضعا

الاستغلال البشرى والاقتصاد ، يـــدور فى فلك التبعية للفـكر الغربى والثقافات الاستعمارية .

ومن هنا كانت الدعوة إلى تحرير الثقافة العربية من الغزو الثقافى ومن آثار الوثنيـات والشعوبيات والتغريب بالتماسها قيمها الأساسية ومفاهيمها الأصلية التى لا حياة للمسلمين والعرب ولا نهضة ولا قيامة لهم إلا بها .

ومن حق أن يقال إن الثقافة العربية كانت دائماً قادرة علىمقاومة تذويبها فى كيان الفكر الغربى ولم تزل قادرة .

هل نحن بمقاييس الثقافة العربية نرى أن الحضارة الغربية المعاصرة صالحة لنا .

وهل هذه الحضارة اليوم فى دور العطاء ، حتى تبهر النفوس وتستولى على العقول ، وتثير الإعجاب فى نفوس أصحـــاب الثقافة العربية والحضارة الاسلامية العربية .

وهل هى حقا أعطت وما تزال تعطى غير الظواهر المادية والاستهلاكية والترفيهيه ، وهل استطاعت أن تعطى أهلها مفهوم الطمأنينة النفسية الذى بحث عنه الفلاسفة وتطلعوا إليه فى مختلف نماذجهم من « المدن الفاضلة » التى حاولوا فيها تصوير المجتمع الأفضل والأمثل .

الحق أننا قبل أن نجيب على كل هذه الأسئلة لنصل إلى رأى الثقافة العربية فى الحضارة الغربية المعاصرة يجب علينا أن نستعرض آراء عمالقة المفكرين الغربيين أنفسهم فى حضارتهم ، لنكشف عن أزمة الحضارة .

هذه الأزمة التى تتلخص فى مدى الاغراق الذى وصلت إليه الحضارة من جوانبها المادية بينما بقيت جوانبها العقلية والنفسية متخلفة مما أحدث بها ذلك الصدع العجيب الذى يدفعها إلى الهاوية بخطى وئيدة . ، فالذين يتنبأون بأنها فى طريق التحلل والزوال يرجعون ذلك إلى ما إشتملت عليه من ألوان التناقض وضروب التعارض مع القوانين الانسانية ، ومن أن ثقافتها لم تعد ثقافة حضارة . بل استحالت بتأثير الاستعمار والعنصرية إلى ثقافة إمبراطورية .

(١) ويقول فون باين السياسى الألمانى فى مذكراته :

نحن الآن على حافة الهاوية ، ذلك لأننا تقدمنا فى العلم حتى صرنا عبيد العلم

وتقدمنا فى الاختراع وتمادينا فى إستخدام الآلة إلى أن حكمتنا الآله ، ولم يبق إلا بارقة أمل ضعيفة ، لا أظن أننا سنهتدى إليها ، هذا الأمل الوحيد فى النجاة ، هو أن نؤمن بأن هذا الكون له خالق ، وأن هذا الخالق قد وضع له قوانين وما على الانسان إلا أن يسير طبقاً لهذه القوانين فإن فعلنا ذلك تحررنا من العبودية ، وإستطعنا نحن أن نحكم العلم والاختراع .

(٢) يقول أرنولدتوينبى : نحن البشر بكل تقدمنا العقلى وقدراتنا الفنية نبدو وكأننا وقد ورثنا نفس العناصر الحيوانية والآلية التى كان يملكها أجدادنا البدائيون دون أن يطرأ عليها تغيير مذكور ، فلم تستطع القوة الآلية للعلم بكل ما أتت به من أعاجيب أن تقضى على شهواتنا الحيوانية ومكنتنا عن طريق الكهرباء والقوة الإشعاعية أن نخترق الأركان المظلمة للطبيعة المحيطة بنا ولكن الظلام مازال يخيم على كياننا الداخلى فنحن نتحكم فى قوى الطبيعة ولكن طبيعتنا الحيوانية تتحكم فينا .

(٣) تقول الكاتبة الفرنسية مدام سفت بوانت :

إنى أتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة التى تزعم أنها ألقيت على عاتقها فى الأجيال الأخيرة ، أعنى المهمة التى ترمى الى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه الأرض وتؤدى إلى الاتحاد ، ويمكن للإنسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لاغير ، وهما : وسيلة حب الذات ووسيلة حب الخير ، أما الغرب فإنه لم يقع إختياره الا على الوسيلة الاولى . وسيلة الانانية وحب الذات ، وكان إختياره لها جريمة ، وكان ذلك سبب ضياعه ، وإضمحلال نفوذه ، لأن الوسيلة التى لجأ إليها قذرة ملعونة ، إن الانانية تقضى على الخير وتلتهم كل بر .

لقد أراد الغرب أن يوحد العالم ولكن تحت سلطانه ولمصلحته ، والعالم لايساس الا بالعدل وبالحب بالإخاء وبرد الحقوق الى أهلها ، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة ، نعم ، لقداعتمد على القوة وحدها وتعدى حدود الله وعبث بالشرائع الدينية وخالف تعاليم المسيح عيسى الذى أمر بمحبة الناس أجمعين ،

لقد أضاء الشرق دياجير أوربا بنور تعاليه ، وما هذه العلوم الذى يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق .

ليس الذى يحجب النور عن الانظار هو مدنية الشرق القديم ، بل الوحشية الغربية ودين القوة وحب الذات والأنانية التى يعمل بها الغرب ، إن الغرب يجرم وقد اختار الرذيلة على الفضيلة وأنه بالتجائه إلى الوسائل التى لا تقرها الانسانية قد أثبت أن مدنيته أفلست .

(٤) يقول الفيلسوف جود : إن الداء الذى أصاب مدنيتنا ناشىء عن الهوة الفاصلة بين قوتنا وحكمتنا ، ولتخطى هذه الهوة وسيلتان أولاهما وقف تقدم العلوم الطبيعية التى تزيد قوة الانسان وتوجيه العناية إلى العلوم النفسية التى تصلح من روحه ، والوسيلة الثانية هى جمع شتات العالم كله ، ولا سبيل الى سد هذه الثغرة إلا باحياء هذه القيم الأخلاقية العليا وليس ثمة وسيلة الى احياء هذه القيم إلا باحياء العقيدة الدينية فى النفوس .

(٥) يقول شفايتسر : إن أوربا صرفت اهتمامها الى «معرفة» العالم أى الى العلوم والتطبيقات العلمية لمختلف الأفكار التى تنبهها التجارب والأحداث الى الذهن البشرى ، وليس فى هذه جميعا مايحتم أفضلية سلوك على سلوك ، أو يقرر الأخذ بفضيلة دون مراعاة النفع الذى ينجم عنها ومامن أخلاق يمكن اكتسابها عن طريقه معرفة العالم .

(٦) يقول بول هازار فى كتابه «أزمة الضمير الاوروبى» : خيل الى الناس أنه لاشك فى وصولهم المقرر بفضل العلم الى السعادة وأن الانسان قد ينظم هذا العالم المهزوم فى سبيل راحته وجـــده .

(٧) يقول الدوس هكسلى : إن العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان وتعيش فى ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد . والمادية البحتة التى تجرد الانسان من كل مشاعر الانسان بلاحب ولا تعاطف وأنها تتبادل الاتصال الجنسى على نحو ماتفعل السائمة . إن العالم يمارس الحياة بطريقة غريزية لاتقوم على منطق أو تفكير وأن المجتمع الذى أخذ يتحلل من قيود

الزواج ولم يعترف بالأمومة انما يستهلك مائة سنة فى خمسين سنة بالعقاقير والاجهاد العصبى والخروج عن الطبيعة وخاصة من يكبت انفعالاته ويتظاهر بالكذب والنفاق .

إن أزمة الانسان متعددة الجوانب ، فهى أزمة ناجمة من المفاهيم الخاطئة والوعى الناقص ، ان الخيبة والخراب انما ترد إلى تمرد الناس عن حياة الروح واندفاعهم وراء المادة وقصر جهودهم على الربح والشهوات واعراضهم عن المثل العليا(١) .

(٨) ويكشف دكتور هارى المير بارنس مواطن النقص فى الحضارة المعاصرة فيقول :

لم يحدث فى عصر سابق مثل هذا التوتر الذى يشهده اليوم بين الفن الصناعى والنظم الاجتماعية ، لدينا علوم جديدة ، حضارتنا المادية متشعبة متعددة النواحى ، وذات كفاية ترتفع كثيراً عن مستوى مثيلاتها فى العصور السابقة ، وعلى عكس هذا فإن أنظمتنا وأوضاعنا العقلية وتفكيرنا الاجتماعى (وهى التى نحاول بها جميعا) أن نسيطر على الحضارة المادية والانتفاع بها ، انما هى عبارة عن مركب عتيق مما ظفرت به الانسانية منذ العصر الحجرى حتى مطلع القرن الثامن عشر ويتمثل أهم سبب لانهيار حضارتنا فى النمو العظيم الذى ما كان يخطر بالخيال للعلوم والفنون فى العصر الحاضر من ناحية وفى قصور نظم حياتنا وتفكيرنا الاجتماعى من الناحية الأخرى .

---

(١) يرى هكسلى أن فساد العالم يتركز فى الاتجاه الحاث على الاستمتاع ، وقد شاع هذا الاتجاه فى أقوال المؤلفين والشعراء والخطباء والممثلين داعيا الى التمادى فى سبيل الدعاية للحياة المستهترة والإباحية وقد بالغوا فى مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مرذولة مبغوضة كالسم الذى ينقلب داء بعد أن كان دواء ، ويرى هكسلى أن المثل العليا حقائق زاهية لاشك فيها لأنها ضرورية للعالم وهى الوسيلة للقضاء على الفلسفة المادية التى أعجب بها هواة الملذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها وأن النفوس البشرية لتضيع فى سبيل هذه الملذات وتفقد الثقة بالفضائل وقد أجمعت أرقى العقول فى سائر الأزمنة والأمكنة على أن غاية الانسانية هى السلام والمحبة ، والعدل ، ومن المحبة الأخوية نشأت فكرة الوطنية وهى فكرة إذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الأوطان .

إن الفجوة الآخذة فى الاتساع بين العلوم والفنون الديناميكية من ناحية وبين أنظمتنا وتفكيرنا الاجتماعى من ناحية أخرى هى المظهر الأهم الفاصل لما نسميه التأخر الحضارى ، والحرب اليوم أشد خطر يهدد الحضارة ، وهى منافية تماماً لقواعد الأخلاق .

(١٠) اعترف تشارلز فرنكل (رئيس دائرة الفلسفة فى جامعة كولومبيا) ، بأن الانسان الحديث يمر بأزمة عنيفة ، وأن المجتمع الغربى حافل هذه الأيام بالمشكلات الاجتماعية والأخلاقية على الرغم من بحبوحة العيش التى يتمتع بها . والسؤال عنده هو : هل ترجع المعضلة الحضارية إلى طبيعة الحضارة ذاتها أم إلى فساد القيم والمثل التى ترافقها ؟ ويقول إن الأزمة هى انقطاع الاتزان بين ما يخلق الإنسان وبين الأهداف المثلى التى يترتب على البشر التزامها فيما وراء الاختراعات العظمى والكشوف الجبارة ، هذه الأزمة هى أزمة خوف وحيرة وقلق وهلع . إنها أزمة انخلاع القلب والعقل ، والخوف من الموت بالذرة .

وهـــذا هو تمزق وجود الإنسان فى المجتمع الحديث ، وتمثل أكبر تحدى يواجه الحضارة . لقد نجح الإنسان فى التغلب على الطبيعة وتسخيرها عارية عن طريق العلم والصناعة فأخذته عزة الخلق وكبرياء الإبداع ونمت قدرته على حساب إيمانه وأصيبت القيم الدينية والأخلاقية بالجمود والتخاذل .

(١١) ويعرض (جاتيان بيكون) فى بحثه عن انهيار القيم وأزمة الحضارة فيقول: منذ السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أخذ التطور الذى طرأ على أوضاع الحياة والفكر يتزايد حتى بلغ من شدته أنه اليوم يوحى إلينا بتحول حقيقى ، لا مفر لنا إزاءه من إعادة النظر فى جملة المبادىء التى توجه الوجود الإنسانى والتى بالقياس إليها تصدر الأحكام على أفعالنا وقد أصيب من جراء هذا التحول ما نسميه بالفلسفة الإنسانية والأخلاق والحضارة والثقافة ، أى تلك القيم تضبط تصرفاتنا وتخلع على سلوكنا صفات معينة .

لقد جلب لنا التراث اليونانى اللاتينى فيما وراء الثقافة مغزى أخلاقيا هو

الشعور بتفوق الإنسان على كل ما فى الكون وبامتياز ذاتى يتمثل فى عقل الإنسان وإرادته وذكائه المجرد ، أى فى كل ما يتيح له الإفلات من الغرائز ومن حتمية الطبيعة .

والإنسان فى نظر ، الفلسفة الإنسانية يثبت امتيـــازه بانفصاله عن الطبيعة وسيطرته عليها فإن الخلق المسيحى يصبو إلى الوصول إلى حالة التزهد والنسك تنطوى على إنكار الغريزة وجميع القوى البيولوجية ولا سيما الجنس ، ومنذ القرن الثامن عشر فقد الإيمان المسيحى مكانه فى بعض القلوب .

وقال الملحدون من اتباع المذهب العقلى فى القرن التاسع عشر بإمكان وجود أخلاق لا علاقة لها بالدين ، ولأسباب شتى وجدت هذه القيم منذ أواخر القرن التاسع عشر ، مهددة وتزعزعت ثم ما ابثت أن تقوضت .

وقد فرضت العلوم الطبيعية علينا نظرة الحتمية ودعتنا إلى الشك فى حقيقة الشعور بالحرية والمسئولية وهما دعامة الأخلاق التقليدية ، وتوصل فرويد إلى الجنس وقال إن قوى غير خلقية تسيطر على الإنسان . ورأى ماركس فى قيم الفردية والحرية والعدالة التى وضعتها البرجوازية مصالح رأسمالية مقنعة . وبعد نظام خلقى قائم على التقشف جاء مذهب ينادى بالحرية الفردية وبالتطور وبتحقيق كلى للذات .

(١٢) ويقول ليو بولدفابس : إن الرجل العادى فى أوربا ، ديمقراطيا ، فاشيا ، رأسماليا ، اشتراكيا ، مفكرا ، عاملا ، إنما يعرف دينا واحداً ، هو عبادة الرقى المادى ، والاعتقاد بأنه لا غاية فى الحياة غير أن يجعلها الإنسان أسهل . وكنائس هذا الدين هى المصانع الضخمة ، ودور السينما ، ودور الرقص ، وكهنتها هم رؤساء المصارف والمهندسون والممثلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة .

إن الحضارة الغربية لا تجحد الله فى شدة وصراحة ، ولكن ليس فى نظامها الفكرى موضع لله فى الحقيقة ، ولا تعرف له فائدة ولا تشعر له بحاجة .

(١٣) ويقول برتراند رسل: إن عناصر الحياة ثلاثة : الغريزة والعقل والروح ، وإن الحضارة الحديثة قد اهتمت بالعنصرين الأولين ، وهما الغريزة والعقل ، ولكنها لم تهتم مطلقا بالروح ، إن العقل يرينا أنه من الخير أن نفعل كذا ولكن عنصر الروح وحده هو الذى يمكننا من أن نشعر شعوراً إنسانيا عاطفيا وأن نحس إحساس الآخرين ، فالغريزة والعقل لا يحلان المشكلة ولابد من انسجام العناصر الثلاثة : الغريزة والعقل والروح وتنميتها تنمية قائمة على الانسجام حتى تسير الحضارة فى طريقها السوى .

(١٤) ويقول كارل ياسيرز فى كتابه « مستقبل الإنسانية »

بدعتان طاغيتان من بدع العصر هى الماركسية والفرويدية فى عالم محروم من الله . ظهر كارل ماركس نبيا واتخذ القوالب التى يستطيع هذا العالم أن يقنع بها وأن يهلل لها ، وكان طبيعيا أن تسيطر على النفوس أساليب فرويد ومدرسته فى منهج مهزوز مكدود ، فى عالمنا المقلوب هذا قد أحس الناس بحاجة شديدة إلى التحرر ، وجاء التحليل النفسى فزودهم بذلك الوهم ، إننا هنا بصدد عملية جبارة من عمليات الاستهواء الذاتى الذى هو نتاج صادق لهذا العصر المفتون والذى يسير جنباً إلى جنب مع أساليب السحر والتعاويذ التى استولت على عقول الناس .

ومن الموجودات مالا تبلغه المعرفة العلمية ثم أن العلم لا يفسر لنا القيم ، إذا فرضنا أن العلم لا يستطيع أن يفسر لنا الكون كله فهناك أشياء لا يمكن أن تفسر : هى الشخص العالم نفسه .

(١٥) ويرى ألبرت اشفيتسر فى كتابه «فلسفة الحضارة» : إن السبب فى انحلال الحضارة هو سبب أخلاقى لأن الحضارة تنهار إذا أعوزها العامل الأخلاقى حتى حيثما تكون العناصر الخلاقة الأخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة .

وازدهار الحضارة تصحبه دائما آداب توقير الحياة ونظرة شاملة إلى الكون تبرر هذا الاتجاه الأخلاقى ، وتعمل على الأخذ به فى النظم الاجتماعية وسلوك الأفراد

وتفكيرهم ، وفى الأزمنة التى سادت فيها هذه النظرة إلى الكون مصحوبة بهذا الاتجاه الأخلاق ازدهرت الحضارة ونمت .

واليوم أصبحت وجهة النظر الأخلاقية للكون مساوية القوة ولذلك أخذ العالم يتخبط فى الظلام الدامس . ومن العوامل التى آزرت الانحلال وزادت من خطورته موقف الإنسان الاقتصادى ، فإنسان العصر الحـــاضر مرهق بالعمل ، وهذا الإرهاق يحول بينه وبين القدرة على التأمل وحصر الذهن فى التفكير .

إن مشكلة الحضارة مشكلة أخلاقية ، إن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية إنسانية إلا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وخلال حسنة ، وإذا أعوز الأساس الاخلاق تداعت الحضارة .

ولن تستطيع البشرية المشاركة فى التمتع بخيرات الرقى المادى مالم تكن فى الوقت ذاته متطلعة نحو غايات أخلاقية يتقى بها الانسان شر الاخطار التى تقترن بالرقى المادى ، إن طبيعة فلسفة الحياة التى تعتمد على التوفيق بين التقدم المادى والرقى الأخلاق فى التأكيد الأخلاقى على معنى الحياة والكون .

والتقدم الأخلاقى هو جوهر الحضارة حيث تتجه الارادة الانسانية نحو الخير المادى والروحى ، للأفراد والمجاميع التى تضم هؤلاء الأفراد . والخير الجزء والكل بمعنى أن تكون أعمالهم أخلاقية ، أما التقدم المادى فلا يعد الجوهر الخالص للحضارة إذ يحتمل الشر والخير على السواء .

وتتمثل الأخلاق عنده فى إعلاء كل ما هو روحى أو متصل بالسلوك الخير للانسان .

(١٤) ويقول (أوزفالد شبنجلر) فى كتابه [أفول الغرب] : إن الحضارة دستوراً أخلاقيا يتمثل فى العقيدة وقوة النفس وتلازمه بساطة الظواهر وأن الدستور الحضارى

لا يعتمد العقل أبداً ولكنه يعتمد على الوجدان ، هذا الوجدان المتمثل فى الشعور لا الحس .

والعقلانية فى شتى مذاهبها هى فلسفة مدنية لا حضارية ، لذلك عندما تدخل الحضارة الطور العقلانى ، من تطورها ، تبلغ خريف عمرها ، وتهوى إلى درك المدنية ثم تتابع انحدارها إلى الانحلال .

إن الحضارة الغربية مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وفناء .

ويبدأ عهد الاضمحلال عندما يختنق الالهام الجياش القوى فى الأدب والفن ، والفلسفة الوحيدة التى يفهمها الناس فى هذه الظروف هى فلسفة : كل واشرب فإنك ميت فى الغد .

والمدنية الغربية يشع منها اليوم الاضطراب والقلق فى نفوس أبنائها ، وقد أخذت تنقل القلق والاضطراب إلى الشرق .

ويرى « جود » في بحث عن إنحطاط الحضارة : إن سر الانحطاط هو خطأ الإنسان في فهم حقيقة مكانته في الكون وإقامة مستقبله على دعائم هذا الخطأ ، ومصدر هذا الخطأ هو مقصد الانسان في الاعتراف بوجود العنصر غير الانساني ولا الطبيعي ، هذا العنصر هو عالم القيم الذي لا يملك الانسان سوى الخضوع له والاعتماد عليه . وسبب انحطاط العصر في رأي جود هو إنكاره هذا العالم وتأبيه عليه وإسقاطه « عالم القيم الذي يشمل قيم الخير والحق والجمال » .

فالعالم اليوم يفرط في الذاتية ، والإسراف في الذاتية مدعاة إلى الشك في عالم القيم بل وتدرجه إلى إنكارها إنكاراً تاماً ، ومتى أنكرنا عالم القيم أختلت موازيننا وأصبحنا في ليل من الشك مظلم .

ويرى ماكس نوردو في « كتابه الانحطاط » : إن أهم أعراض هذا العراء النفسية هو عدم الشعور بفروض الآداب ، فالمصابون به لا يعرفون ما يسميه الناس قانون الحشمة واللياقه فتراهم لأقل باعث من شهوة أو هوى يقترفون الإثم والجريمة .

ويقول : ولا يتحتم أن يكون المصاب بداء الانحطاط خلوا من النبوغ والعبقرية، وعنده أن منشأ هذا الداء (الانحطاط) هو ضعف الأعصاب وإنتهاك القوى وهما نتيجة لسببين رئيسين : أولهما الإنهماك في الشهوات والملاذ ، وثانيهما ما كابدته أوربا في القرن السالف وما تكابده الآن من الثورات والحروب ، وأن تفشى الغلظة والوحشة في الشعوب عقب الحروب قد أصبح من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل ، وقد عرف الناس أن الشعوب المتحاربة تخرج من الحرب أسوأ أخلاقا وأخشن طباعا مما كانت عليه .

ولما كان هـــذا الداء (الانحطاط) شاملا لم يخل منه فريق من المفكرين

والكتاب والشعراء والمصورين والموسيقيين فقد خرج جانب عظيم من مؤلفات الأجيال الحاضرة بعاهات هذا الداء ومشوهاته ومقاذره . وهو على ذلك أروج من الكتب السليمة النقية القيمة ، وقامت الجماهير المصابة العليلة فأجلست على أريكة دولة الآداب والفنون رجال أدهشوا القراء ببدائع الخيال وروائعه ولكنهم أصفار من الآراء الناضجة والأفكار المنتجة الخصبة ، مجردون من المبادىء القويمة والمذاهب السليمة منحرفون عن سنن الحق والمنطق والطهر والفضيلة ، يشحنون مؤلفاتهم بأصناف الباطل والخرافات والخزعبلات ويصمونها فوق ذلك بأفانين الفسق والفجور والإثم والرذيلة . والجماهير الحمق السخيفة تسميهم قادة الدنيا وأعلام الهدى ومصابيح المستقبل ، وما هم الافئة من المرضى المصابين ولولا مزية الخيال القوى والأسلوب الرائع لكان المستشفى أولى بهم من غرفة الكاتب والمؤلف .

ويصف (ماكس نوردو) وجه أوربا فى أواخر الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) ويتنبأ بما تصل إليه من بعد فيقول : إن أوربا قائمة فى حومة داء ذهنى قتال ، أدنى حومه موت أسود من الانحطاط فلا جرم إذا تساءلنا ماذا يكون بعد ذلك ، إذا كان هذا الداء لم يبلغ بعد أقصاه . وأنه سيزداد شدة وعمقا واتساعا ، فلا بد أن يأتى زمن تفتح فيه الظواهر المقصورة اليوم على سكان مستشفيات المجاذيب فقط ، فقد شاعت فى المجتمع الاوروبى وصارت من أحواله وصفاته العادية ، وإذ ذاك نرى الحياة وقد أخذت الصورة الآتية أو نحوها :

- بدلا من الحانات تنشأ أماكن لتعاطى الأثير والكحول والأفيون ويزداد عدد المصابين بفساد حاستى الذوق والشم .

- تؤسس أندية الإنتحار فى كل مدينة ، وإلى جانبها تقام أندية التذابح أى قتل الاعضاء عن إتفاق وتراض .

- تفسد العلاقة الجنسية بين الذكر والاناث فساداً يستدعى تغيير النواميس المشروعة والعادات المألوفة ملاءمة للحالة المستجدة فترى المخنثين الذين يصبحون

يومئــــذ السواد الأعظم من الناس ، يلبسون أزياء نسائية لونا وتفصيلا ، أما النساء فلا يستطعن إذ ذاك ارضاء الرجال إلا إذا لبسن أزياء رجالية ، أحذية طويلة غليظة بمهامين ونظارات على عيونهن وعصى وسياط فى أيديهن وسجار طويل فى أفواههن .

وتشرع القوانين القاضية بتزويج الرجل بالرجل وإباحة مواطأة الأخوات والأمهات ومواطأة الحيوانات والموتى .

وبذلك يصبح العفاف والتقى من خرافات الماضى ، ويعد الشغف بسفك الدماء مرضاً بسيطاً ، ويشتد ضعف العقل، وينسلخ الناس عن الأديان المعروفة ويتكون عدد عظيم من الشيع الروحانية والسحرة ، ويشتد مبالغة الشعراء والمدونين فى تعمية أغراضهم وإخفاء مقاصدهم واستعمال الرموز الغامضة والكنايات المبهمة بدلا من الجمل الواضحة والعبارات الصريحة .

ونرى العالم المتمدن قد استحال إلى ساحة مكتظة بالمرضى ، يملأون الجو بعويلهم المؤلم ، ويتلوون متأثرين بجميع صنوف الأوجاع(١) .

ويقول : هذا الفساد للحضارة الإنسانية ، هذا الهرب الوقتى من وجه الواقع ، وقد زاد عدد المنتحرين يوماً بعد يوم على نسبة ما تستهلك من الخمر ومن المواد المخدرة الأخرى فى كل مكان .

ويشكو الناس اليوم من ضياع الأخلاق فهل يسمح الإلحاد بها ، وقد أزال الإيمان من القلوب وأزال معه المبادىء الصالحة . الإلحاد نفسه قد أصبح مرضا شائعا ليس فى حقيقته إلا وجها من وجوه عدم الارتياح فى كل ما هو موجود ، فالقول بأن كل شىء باطل وبأن ليس فى الوجود شىء جدير بالطلب ولا بالمحاولة، هذا القول لا يكون له سلطان على النفس إلا إذا كان صاحبها يحتقر كل شىء ويعتبره ناقصا ، ا . هـ .

* * *

(١) « ماكس نوردو » متنبىء من أكبر قادة الماسونية الصهيونية .

ويرى أرنولد توينبى : أن الحضارة الغربية تعانى اليوم أحد الأزمات فهى حضارة علمانية لاحقة بالمسيحية تعيش على بقايا مختلفة من المبادىء المسيحية المشوهة ، وهى فوق ذلك مأخوذة ببدعة تقديس الفرد بفكرة الإنسان الجماعى مجسدة فى أنظمة الدول الفاشية والنازية والشيوعية والقومية الاقليمية .

وقد حسب هيجل أزمة العالم سياسية فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق الدولة المثلى . واعتقد ماركس أنها أزمة اقتصادية فحاول حلها بالدعوة إلى تحقيق النظام الاشتراكى ، أما توينبى فعنده أن الأزمة روحية .

ويرى توينبى أن الحضارة الغربية المتدهورة لايمكن إنقاذها إلا بالدين ، ذلك لأنها مصابة بالخواء الروحى الذى يحول الإنسان إلى قزم مشوه يفتقد عناصر وجوده الإنسانية ويعيش الحد الأدنى من حياته ، وهو حد وجوده المادى فحسب ، بما تصيبه بأمراض السأم والروتينية ، وفقدان الهدف من كل ما يأتى به ، ويحول حياته إلى جحيم مشوب بالقلق والحيرة الذهنية ، والتمزق النفسى ، خواء روحى ، يحول المجتمع إلى قطيع يركض بلا هدف كما يركض القطعان ، دونما تفحص لمعنى مسيرته الهوجاء ، كما يضطر المدركين أحيانا إلى إعلان انشقاقهم (لا انتمائهم إليه) وبذل جهود حياة من أجل الوصول إلى النظام والهدف اللذين يخلصانهم من المأساة ويقول : لم تعن الحضارة مطلقا بالإنسان وحضارته من حيث تكامل وجودهما بشقيه الروحى والمادى .

والأزمة فى نظر توينبى « أزمة روحية » والإنسان بما هو فعل وحرية ومسئولية وإيمان ومحبة وبما هو جوهر إنسانيته ، تلك الطاقة الروحية الخلاقة القادرة ، أن تولد وأن تسخر بالتالى جميع مايتعلق عنها من النشاطات العقلية والمادية فى سبيل تحقيق الغاية المثلى من وجودها .

ولذلك يلح توينبى على الانسان ويبصره ويدله على طريق الحق والحياة ، طريق الله ، ليسلكها ويرتقى عبر القلق ، وعبر التناقض ، إلى الغاية من وجوده ومن وجود العالم معه .

* * *

ويرى سوركن فى كتابه (أزمة عصرنا) أن كل مظهر من مظاهر الثقافة الغربية يعانى أزمة حادة غير مألوفة ، وأن الثقافة الغربية مريضة معتلة سقيمة الجسم والروح ، ويرى أن الثقافة الحسية التى نعيشها اليوم قد غربت وأن الثقافة الغربية الآن تضرب فى الظلام حتى تصدع فجر الثقافة الروحية فتملأ أضواءه الآفاق ، وفى الظلام تلم بالإنسان الأحلام المزعجة وتدانى له الأشباح الرهيبة ولكن متى طوى الظلام زالت المخاوف واطمأنت النفوس .

وعنده أن الأزمة ليست أزمة وضع أو نظام اقتصادى أو سياسى فاسد وإنما هى أشمل حياة الغرب من جميع أقطاره فهى أزمة فى الفن والعلم والأدب والفلسفة والدين والقانون والاقتصاد والسياسة والاجتماع .

وهى أزمة تغلغلت فى كل ناحية ومشت جميع نواحى الحياة وهى اليوم تنقض كل ما أبرمته الثقافة التى عاشت وازدهرت خلال أربعة قرون وكل ثقافة من هذه الثقافات .

وهو يرى أن كل ثقافة هى جماع تام موحد له طابعه وشخصيته وملامحه ولها قيمها الخاصة ومعابدها ، ولها دياناتها وفلسفتها وعلمها وفنها وقوانينها وآدابها فإذا طرأ عليها تغيير شمل هذه النواحى جميعا .

فالثقافة الغربية فى العصور الوسطى كانت فكرة الاعتقاد بالله هى الغالبة عليها المستأثرة بها ، ففنها المعمارى ونحتها وتطويرها كان يعبر عن فكرتها الدينية ، وكانت فلسفتها متمشية مع الفكرة الدينية ملائمة لها ، وكان علمها خاضعا لفكرة الله مؤيد لها دائر حولها ، وكانت أخلاقياتها وقوانينها وآدابها متأثرة بالوصايا المسيحية الأخلاقية ، وكان نظام الأسرة خاضعا للنظم الدينية فالزواج رباط مقدس لاتنفصم عروته ، وحتى تنظيمها الاقتصادى كان متأثرا بوجهة النظر الدينية ، وكانت أساليب الحياة على اختلاف أنواعها ترمى إلى تأكيد الصلة بين الله والإنسان وتجعلها أسمى الأهداف وغاية الغايات ومعقد آمال الإنسانية فى الخلاص والنجاة .

وعنده ان ثقافة العصور الوسطى كانت ثقافة موحدة ولم تكن خليطا من الثقافات المختلفة ، وكانت تسيطر عليها الفكرة الدينية وكان (الله) فى رأى هذه الثقافة هو الحقيقة والفكرة الصادقة وما خلافها باطل زائل (وهذه هى الثقافة الروحية (ideational) .

قد أدت هذه الثقافة مهمتها وبلغت رسالتها واستنفذت قوتها ، وبدأت تنتابها بوادر الضعف فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) وبدأت بذور جديدة فى النمو والاستطالة كانت تختلف عن الثقافة القديمة اختلافا شديدا .

فالحقيقة الكبرى فى نظر هذه الحضارة هى الحس والعالم المنظور ، فما نراه وما نسمعه وما نشمه وما نلمسه وما نتذوقه هو الحقيقى والواقع ولا حقيقة وراء ذلك وكل ما تجاوز الحس لا قيمة له ، فإذا فرض أن وراء الحس شىء فلا قيمة له ولا سبيل إلى إدراكه فكأنه بالقياس إلينا غير موجود ، ويمكن إهماله وعدم التعويل عليه ، وكان هذا هو المبدأ المغاير للمبدأ السابق ولم تقف الحركة واستمر الجانب الثقافى الروحانى فى الانهيار وألح عليه الضعف فى حين أن الجانب الحسى أخذ يقوى ويستحصد حتى تم له الغلبة وخلا له الجو وساد فى قرون التالية وبدأ سلطانه التام فى القرن السادس عشر وبلغ الذروة فى القرنين ١٨ و ١٩ . ويسمى سوركن هذه الثقافة بالثقافة الحسية الخالصة لأنها تقوم على الاعتقاد بالحس وحده ولا تؤمن بغير الواقع المحسوس فهى حسية تجريبية أرضية دنيوية ، ويبدو الإيمان بالواقع الملموس فى كل ناحية من نواحيها : فى الفلسفة والدين والأخلاق والقانون والاقتصاد والسياسة .

فأزمة الثقافة الراهنة فى رأى سوركن سببها إنحلال الثقافة الغربية الحسية الخالصة ، وقد سادت هذه الثقافة قرونا عدة وفرضت نفسها على كل ناحية من نواحى الحياة فهى حينما يدركها الخلل يسرى الداء إلى مختلف أجزائها وتشيع الفوضى بنواحيها المختلفة .

فليست الأزمة الراهنة أزمة أوضاع وصور وأشكال وإنما هى أزمة إنهيار عام وتحلل شامل، هذه الأزمة هى أزمة إنهيار الثقافة الحسية .

وستخلفها ثقافة أخرى ، ولكن هذا الدور هو دور الاضطراب الذى تنهار فيه الثقافة القديمة البالية وفيه تشتعل الحروب والثورات والأزمات ، كل هذه إرهاصات بالثقافة القادمة .

ويرى سوركن أن الانتقال من مرحلة ثقافية إلى مرحلة ثقافية أخرى رغم مافيه من الآلام والأحداث الجسام لايستوجب البقاء على الحضارة ، والاعتقاد بأنه سيدركها الوفاة ويطيح بها الموت ، والأزمة الراهنة تكشف عن إنحلال الصورة الحسية لثقافة المجتمع الغربى ، وبدأ مرحلة يطلق عليها المرحلة الحسية الروحية المختلطة (indealistic)(١) .

---

(١) مايراه سوركن وشبنجلر وماكس نوردو هو من تنبؤات بروتوكولات صهيون ، أمابالنسبة لأزمة الحضاره فالمرض صحيح ، واما بالنسبه لأحلام الغد فالنصر للفكرة الانسانيه الاصيلة وان يكون النصر للحلم الصهيونى الماسونى أبداً

هذه الآراء إذا حللناها وجدنا أمامنا عدة حقائق هامة لابد للثقافة العربية أن تضعها فى اعتبارها فى مواجهة الحضارة الغربيه .

أولا : الحضارة الغربية تعانى أزمة حادة بسبب نمو الجوانب المادية وبطء نمو الجوانب الروحية ، فقد نما جسم الحضارة وتباطأ نمو عقلها حتى اختل التوازن بين القوى الفاعلة والقوى المنفعلة ، وهو مايعبر عنه باختلال التوازن بين العقل والقلب .

ثانياً : إنفصال الضمير عن العلم وتجريد العلم من الضمير .

ثالثاً : أزمة الحضارة تصدر عن سبب أخلاق فالحضارات لا تنهار إلا إذا فقدت العامل الاخلاق حتى حينما تكون العناصر الخلاقة الأخرى من الحضارة مزدهرة ناشطة .

رابعاً : إنحسار المسيحية وتقهقرها أمام هذه الوثنية الجديدة فقد كانت تعاليم المسيحية الروحية والخلقية تخفف كثيراً مما عند الأوروبيين من ضراوة وشراسة ، فقد شوهت الحضارة الكثير من معالم المسيحية وعكست عليها وثنيتها القديمة وغلبت عليها طبائعها الوحشية غير المصقولة .

خامساً : أولت الحضارة اللذائذ الحسية والمنافع المادية المرتبة الأولى، وجعلت العقل خادماً لها ووسيلة لريادتها ، ولقد ارتقى العقل حتى اغتر بنفسه وتمرد حتى خيل إليه أن الوجود الذى اكتشفه من صنعه هو .

سادساً : أصبحت غاية الفرد اللذة والمنفعة وغايته الجماعية كثرة الإنتاج وزيادة المال .

سابعاً : التقهقر التوجيه والاتجاه نحو الوثنية ، وانصراف الناس عن عبادة

إله واحد الى عبادة آلهة موضعية كالطبقة الاجتماعية أو الفرد أو الأمة .

ثامناً : كان لنظرية النسبية التى دخلت مجال العلم وتسربت إلى جميع حقول الفكر أثرها فى انتفاء الحتمية العقائدية ، وزرع الشك فى كل مطلق .

تاسعاً : يرى الكثيرون أن أزمة العالم هى أخلاقية قبل كل شىء ، وأن تجديد الفكر السياسى فى أوربا والعالم إنما يتحقق بإخضاع السياسة لمقتضيات الشرف والأخلاق والعدالة .

تكشف الحقائق الصريحة عن فوارق جوهرية بين مفهوم الحضارة في الثقافة العربية وتطبيقاتها في الحضارة الاسلامية وبين مفهوم الحضارة في الفكر الغربي وتطبيقاتها في الحضارة المعاصرة .

أولا — أبرز هذه المفاهيم : الارتباط بين العقل والروح في المفهوم الثقافي العربي والحضارة الاسلامية والخلف بين العقل والروح في الفكر الغربي والحضارة المعاصرة .

ومن هنا يبدو الخلاف واضحا في « أخلاقية الحضارة » التي تعنيها الثقافة العربية والحضارة الاسلامية على نحو واضح صريح أكيد يشبه أن يكون قاسما مشتركا على الجوانب الفكرية والإجتماعية المختلفة .

فإذا تميزت الحضارة اليونانية بعبادة الجسد والحضارة الرومانية بحلبات المبارزة الوحشيه والحضارة الهندية بنظام المنبوذين وتخصيص بغايا لخدمة المعابد والحضارة المصرية الفرعونية بعبادة فرعون ، والحضارة الغربية بالإيمان بالتقدم والعصرية بديلا عن الدين فإن ميزة الحضارة الاسلامية هي أخلاقية العلم والمجتمع والسياسة والاقتصاد ، ومن هنا تبدو أزمة الحضارة المعاصرة واضحة وصريحة وهي الحيرة الذهنية والروحية بعد أن كبر حقل العالم وصغر عقله .

وليس هناك لذلك علاج بأن تطعم الحضارة الغربية نفسها بروحانية الشرق كما دعا إلى ذلك بعض الفلاسفة وحاول أن يختار روحانية الهند ، إن التركيب الوثني العازل بين المجتمع والدين هو من طبيعة تكوين هذه الحضارة ومجتمعاتها ولا سبيل إلى إجراء تطعيم لها إلا أن تعاد صياغتها من جديد .

وميزة الحضارة الاسلامية فى هذا أنها حضارة متكاملة تجمع بين الدنيا والآخرة ، والعقل والقلب ، والعلم والدين ، وتجعل من الدين سياجا للمجتمع كله .

وقد أثبت هذا التكامل والشمول فى الحضارة الاسلامية قدرته على البقاء وملاءمته للعصور ، ونفوذه إلى المجتمعات الوثنية ونجاحه فى تشكيلها ، وقربه إلى الطبيعة الانسانية والفطرة .

ولقد منح هذا التكامل للحضارة الاسلاميه معنى العمل فى الحياة ، دون رهبانية أو نسك ، وتوجيه العمل لله فى انتظار البعث والجزاء فارتفع العمل عن المعنى الذاتى الضيق ، وأصبح عملا واسع المجال ، اجتماعى الأثر والاتجاه .

وكان إرتباط الروح بالمادة عاملا على قيام مفهوم « التوحيد » والايمان بإله واحد خالق لهذا الكون ومدبر له ، وكان هذا التوحيد عاملا هاما فى منح النفس الإنسانية تلك الثقة التى دفعتها الى العمل دون خشية من الغد أو قلق من المجهول . وهذا هو ما أعطى الحضارة الاسلامية تلك النماذج الصادقة الإيمان ، التى تدافعت فى مختلف ميادين البطولة : العلمية والحربية والحضارية .

فقد مكن هذا المفهوم للمسلمين من مواجهة حقائق الحياة وتجاربها بصبر وشجاعة.

ولقد رفع مفهوم الأخلاق فى الحضارة الاسلامية النفس الانسانية — عن رغبة لاعن رهبة — فأعطاها القدرة على البذل والعطاء واحتمال الألم والتضحية ، ايمانا بالغايات الكبرى ، واستطاعت هذه المفاهيم أن توفق بين حياة الروح وحياة الجسد فى الانسان والمجتمع الاسلامى على النحو الذى دفعه للعمل دون انحراف نحو الرهبانية أو الترف .

وكان للاسلام والشريعة الاسلامية أبعد الأثر ليس كالأديان الأخرى

مقصورا على أصول العقائد والأخلاق ، بل يتناول تفاصيل الحياة ودقائقها ويضع القواعد للعمل والزواج والميراث .

ثانيا — ومن أبرز القيم التى قامت عليها الحضارة الاسلامية وتختلف فيها عن الحضارة الغربية اختلافا جذريا (الكرامة الانسانية والاخاء) حيث لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى ، ولا فضل لحاكم على محكوم إلا بالعمل الصالح .

أما الحضارة الغربية فقد قامت على مفهوم الحضارة اليونانية ، هذا المفهوم الذى أقره أفلاطون فى جمهوريته ، وهو المجتمع المنقسم إلى سادة وعبيد ، وقد أقر ارسطو نخر الفكر الغربى الحديث هذا التقسيم إلى سادة وعبيد ، فجعل العبيد عبيدا بالطبع ، حيث العلم مقصوراً على طبقة معينة ، والرفاهية مقصورة على طبقة خاصة ، أما الاسلام فقد دعا إلى الاخاء ، ودعا إلى العلم حين افتدى أسرى بدر بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، وحين صفى الاسلام الرق والاستعباد حيث حرض على الفداء ، وأحسن معاملة الأسرى ، وحين دعا الاسلام إلى تمجيد العمل ورفع شأن الانسان العامل الذى يسعى فى الأرض .

بينما أقرت الحضارة الغربية تلك التفرقة بين الجنس الابيض والأجناس الملونة فى ادعاء لم تؤكده وقائع التاريخ أو حقائق العلم بتفوق الأجناس الآرية عقلا وجسما ، هذا التفوق الذى جعل من حقها السيطرة والاستعمار باسم تمدين الشعوب المتأخرة فى مراوغة تستهدف استغلالها وامتصاص خاماتها واتخاذها أسواقا لصادراتها .

وحيث نادت الحضارة الغربية بالاخاء والمساواة والحرية وقصرت هذه المفاهيم على بلادها وأهلها ، بينما اصطنعت الإذلال والعبودية للإنسان فى كل مكان سوى أوربا ، فضلا عما اعتبرته الحضارة الأوربية من حق فى أن تكون

مناهجها آراء زاهية يجب أن يتقبلها الناس كاملة . والقول بأنه لا مكان اليوم لغير قيم هذه الحضارة .

بينما لاتقر الثقافة العربية هذا الادعاء ، ذلك لانه من العسير أن يتحقق لهذه الحضارة احتواء الحضارات والأمم والمجتمعات بما هى عليه من تمزق واضطراب يعترف به أهلها وحكماؤها ، وبينما هى أقل قدرة على العطاء من الحضارة الاسلامية التى قدمت للإنسانية الحرية والإخاء والعدل على نحو لم تستطع الحضارات الجديدة بل أن تصل إليه .

ومن العسير على الجماعات البشرية وخاصة المجتمع العربى ربيب الحضارة الاسلامية أن يتحطم فى وقت قريب أو بعيد أو أن يستسلم أمام تيار الحضارة الغربية أو يعتنق مفاهيم الغرب أو قيمه ، فقد أخذت الحضارة الاسلامية ورفضت من الحضارات المختلفة ، كما أعطت أيضا ، ولكنها أجرت هذا العمل كله على قاعدتها ووفق مقوماتها الأساسية وجعلت من هذه المقومات سياجا لوجودها الاجتماعى ، والمسلمون والعرب اليوم أكثر يقظة إلى حملة الاستعباد الفكرى التى يحاول الغرب سوقهم اليهم ، وهم أقدر على المقاومة والعمل على تحرير ثقافتهم من عوامل الغزو .

ومن حق الثقافة العربية ومن ورائها المجتمع الاسلامى أن يقف صفا مرصوصا ، فى وجه كل طغيان حضارى أو ثقافى غربى ، وأن تكون قادرة على كشف هذا الغزو الفكرى والاستعمار الثقافى ودحض هذه الحملة التغريبية الضخمة التى تحاول أن تذل الثقافة العربية لهذه التيارات التى تناقض جوهر فكرها ومنابع ثقافتها .

ولتكن قيمها الأصيلة أساساً للاقتباس والنقل ، وفق المقياس العربى الاسلامى الأصيل .

ثالثا — إنفصال الضمير عن العلم وابتعاد الضمير عن التوجيه والقيادة وتجريد العلم من الضمير ، واعتماد مبدأ القوة بدلا من الحق فى حل المشاكل ، هو خلاف جذرى عميق بين مفهوم الحضارة الغربية والحضارة الاسلامية ، والقاعدة الأخلاقية مصدر من مصادر الحضارة فى الاسلام فقد حدد فى القرآن « الضمير المسلم » تحديدا جوهريا قوامه الإخاء والسلام وعدم العدوان أو التسلط .

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولافساداً » .

(٩)

موقف الثقافة العربية من

الفكر الغربي

بين فكرين

قبل أن تقبل رياح الفكر الغربى مع الغزو الاستعمارى الغربى ، كانت الثقافة العربية التى تستمد جذورها من الفكر الإسلامى قد حددت من منذ وقت بعيد خطوطها العامة ، وشكلت قيمها الكبرى التى أقامت عليها من بعد وجودها ومفاهيمها ، ذلك أن الأمة العربية كانت خلال خمسة عشر قرناً متصلة إتصالا عقلياً وروحيا وتاريخيا لا ينقطع بالاسلام فى قيمه العليا القائمة على التوحيد .

ولذلك فقد بدأ الصدام فى اللحظة الأولى لوصول أولى رياح الفكر الغربى إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط الجنوبى ، فقد كانت هذه الرياح تحمل مفاهيما وقيما مغايرة تمام المغايرة للقيم العربية الإسلامية وإن بدأ أن هناك من ناحية الاصطلاح تشابها كالحرية والعدل ، غير أن مفاهيم القيم كانت مختلفة بين الإسلام والغرب .

ذلك أن الفكر الغربى كان يستمد مقوماته الأساسية من مصدرين أساسين هما :

الفكر اليونانى الهلينى الإغريقى الوثنى المتشكل فى إطار من المسيحية التى حرفتها أوربا ولم تقبلها كرسالة سماوية وإنما أخذت منها وتركت وفق مزاجها النفسى وتركيبها الحضارى الاجتماعى الذى عرفته الحضارة الرومانية وورثته النهضة الأوربية الحديثة من بعد .

أما العطاء الإسلامى فقد قام أساساً فى مجال العلوم والطبيعيات والفلك والطب ، أما الجانب الإنسانى الاجتماعى والسياسى فإن أوربا لم تأخذه كـكل وإنما عمدت إلى جوهره الإسلامى ففصلته عنه ثم أضافته إلى تراثها اليونانى المسيحى فتشكل على نحو آخر .

ولذلك فقد كانت استطلاعات أمثال رفاعه رافع الطهطاوى وغيره تحاول أن تستكنه أبعاد الدستور والحرية والحياة النيابية وغيرهما مما هو قائم فى الغرب وتجد

له جذوراً مستمدة من الفكر الإسلامى (١) .

ولاشك كان الفوارق العميقة بين فكر يقوم أساساً على التوحيد ويستمد مفاهيمه من القرآن ويواكب النفس العربية الإسلامية فى تشكيلها الذاتى ومزاجها النفسى، ويتصل بالفطرة إتصالا وثيقاً محرراً من قيود التألية والتثنية وعبادة الفرد وعبادة الجسد . والتماس الحق والعدل ، كان كل هذا المفهوم وهو أسس الفكر الإسلامى وجذوره الأعلى ، لابد أن يتعارض ويختلف مع مفهوم الثقافات الغربية المستمد من الوثنية اليونانية والقائم على مفاهيم تعلى من شأن الفرد والطبيعة ، وترفض الغيبيات والقيم العليا ورسالات السماء وما حوته من مضامين وقيم .

ولقد كان التغريب والغزو الثقافى الغربى وهو جزء أساسى من رسالة الاستعمار والسيطرة الغربية يعمد إلى فرض هذه الفلسفات والمذاهب الغربية بما فيها من تعارض واضطراب وزيف . وذلك حتى يصيب الثقافة العربية بالتمزق والانهيار ويجعلها غير قادرة على التماسك أمام تلك التيارات التى تهز العقيدة وتضلل العقل وتبعث الحيرة والشك والارتياب .

وقد جرى هذا الغزو فى نفس الوقت الذى عمد فيه النفوذ الغربى عن طريق سيطرته على الثقافة والتعلم والتربية — إلى إقصاء القيم الإسلامية العربية وعزلها عن نطاق التعليم أو عرضها عرضا هامشيا مشوها ، مع إبعاد كل ما يتصل بها من جوانب القوة أو البطولة أو عظمة الأثر التاريخى الممتد .

وذلك رغبة فى تذويب الأجيال الجديدة فى بحار واسعة من الفكر الغربى وحصره فى دائرة واحدة لايتعداها ومن ثم لايرى بعد غيرها ولايفكر من خارجها كما جرى تغييب التراث الاسلامى والتاريخ الاسلامى ، فإن عرض فمن جوانب الضعف والتشكيك والاضطراب حتى يبدو فى نظر الشباب الجديد وكأنه شىء قد انتهى أمره ، وأن البديل الإيجابى له إنما هو الفكر الغربى وحده .

---

(١) إذا أردت التوسع فى هذا الصدد فراجع كتابنا (يقظة الفكر العربى)

ولقد استطاعت الثقافة العربية أن تواجه هـــذا الصراع وأن تتجاوز هذه المرحلة وأن تفرض وجودها ومكانها وتزيل كثيرا من الشبهات وتصحح كثيرا من الأخطاء المتعمدة .

وقد صحب هذا الغزو الفكرى غزو تربوى تعليمى عن طريق الارساليات التبشيرية التى انطلقت فى العالم العربى كله وتركزت فى بيروت والقاهرة . وكان لها دورها الخطير فى تنشئة أجيال تحمل الأمانة للغرب وتعارض مفاهيم الثقافة العربية وتعمل على إعلاء القيم الغربية ومحاولة إذابة الفكر العربى الاسلامى فيها .

(٢)

استطاعت قوى الثقافة العربية أن تكشف عن الزيوف التى فرضها الفكر الأوربى ، وعملت على تحرير ذاتها من قيودها ، وأعلنت وجوب إعطاء الثقافة العربية طابعها الاسلامى المميز لها . ومما قاله فى ذلك أحد قادة الفكر المبرزين :

« إن تاريخ كل أمة يكسبها آخر الأمر مزاجا خاصا لافكاك لها منه وقد ظلت مصر منذ أربع عشر قرنا إسلامية التاريخ والسياسة والمجتمع والثقافة إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز لتمثل بمزاجها إلى الشيوع فى جميع الثقافات الأخرى .

ولما كانت التربية الاسلامية على ضوء المنطق وضوء العلم الحديث تشتمل فى جميع أحكامها ومنابعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة أصبح لزاما أن نخلص من هذا الخلط فى سياستنا التعليمية وأن نتخذ سياسة جديدة أساسها هذا المزاج الاسلامى ودعامتها هذه الروح الاسلامى . مع تأكيد قابلية المزاج الاسلامى الفريدة فى نوعها لكل تطور واحتفالها بالعلم وتقديسه .

« فالصلاة وهى فريضة واحدة وركن من أركان العبادات ، لم تخرج عن النسق الكامل الذى جاء به الاسلام جملة وتفصيلا : تربية الجسد ، تربية العقل ، تربية الروح ، هذه العناصر الثلاثة فى التربية هى بعينها مايصفه العلماء بأنها التربية الكاملة . إن مصر بتاريخها الاسلامى الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية ، كما كشف كثير من الباحثين أهداف النظام التربوى الغربى الذى فرض على مدارسنا وجامعاتنا والذى استهدف « إنشاء أجيال تتنكر لشخصيتها الاسلامية وتبغض دينها وتنظر إلى تاريخها الحافل بالأمجاد نظرة الاحتقار وتعتبر حضارتها الرائعة شيئا أكل عليه الدهر ، وتؤمن بأن نظام حياتها للفكر والعمل أصبح باليا » .

وعارض الباحثون ما وصف بأنه « النموذج الإنسانى الغربى » الجدير بالاحتذاء ، وذلك انطلاقا من القاعدة التى تقول « إنه لايمكن أن يكون هناك

ثقافتان متماثلتان كل التماثل لأن كل ثقافة هى تاريخ مستقل لايتأثر بتاريخ أى ثقافة أخرى ، وإذا ما تأثر فهو لايغير أبداً من جوهره . وكل مايبدو نجاحا لها حققته إنما تمثل أشكالا كاذبة تتنافى مع أصالته الحقيقية .

وقد استطاع الباحثون أن يلتمسوا من الفكر الغربى نفسه مايدللون به على صدق موقفهم وعلى زيف دعوى الاستعماريين والتغريبيين . فقد أشار شبنجلر إلى هذا المعنى فى التفرقة بين الحضارة والثقافة فقال : إن الثقافة تولد وهى تحمل معها صورة وجودها ، وهى على صلة عميقة بالمكان الذى وجدت فيه ، ولا يمكن أن يقوم بنيانها إلا بالمبادىء التى قامت من أجلها والأسس التى شيدت عليها صروحها ، وإنما يضطرب مفهومها حتى تنشأ ظروف تحد من حريتها ، ولكن هذه النفس الأولية المحدودة الحرية تسعى حتى فى مثل هذه الظروف إلى طبع الثقافة المتأثرة بها بطابعها كما هو الواقع » .

وفى ضوء هذا كله علت الصيحة التى تقول :

- يجب ألا ننخدع ببريق الثقافات الغربية الحديثة ونقبل عليها إقبالا أعمى .
- يجب ألا نغفل عن أن الثقافات الغربية بما بلغته من رفعة وعمق لاتستطيع أن تنضج العقلية العربية التى تختلف فى مقوماتها عن العقلية الغربية .
- يجب أن نستهدى بالفكر الغربى دون أن نترك له أن يسيطر على عقولنا أو يتحكم فى أهوائنا (١) .

وقد أشار العقاد فى سجال بينه وبين عبد الرحمن الرافعى حول (هل التراث الشرقى يكفى) فقال :

إذا تكلمنا عن التراث الشرقى والتراث الغربى خرجت من حسابنا العلوم الطبيعية التجريبية لأنها حقائق إنسانية عالمية ، إذن فالتراث الشرقى هو التراث الذى عليه صبغة الشرق وينتمى إليه ، أما العلوم الطبيعية فليس عليها صبغة شرقية

---

(١) بتصرف عن نصوص للأستاذ عبد العزيز محمد الزكى .

ولا غربية والواقع أن الشرقيين لايمكن أن تنضج لهم حياة عقلية من غير تراثهم الذى ينتمى إليهم ويصطبغ بصبغتهم .

« والتراث الشرقى الذى لايشاركهم فى خصائصه مشارك من العالمين هو التراث المشتمل على مالهم من أشعار ومواعظ وأمثال وحكايات وآداب وقواعد سلوك وفى طليعته روح العقائد الدينية والحكم النفسية والفكرية وما يصاحب ذلك من فقه وشريعة ودين .

أما التراث الغربى الذى يمكن أن ينقل إلى الشرقيين فهو قسمان :

قسم يمكن أن يمتزج بحياتهم وهو من نوع تلك الحياة .

وقسم لايمتزج بحياة الشرقيين ولايدخل لهم فى عقل ولا روح وهذا غريب عنهم وهم غريبون عنه (١) .

وفى مجال استعراض قضية الاقتباس كان الرأى دائما هو : إن الاقتباس قاصر فى مجال الحضارة وحدها .

« أما الثقافة فهى من الأمور التى لايمكن اقتباسها أو نقلها من الخارج بل هى من الأمور التى لابد من تكوينها فى النفوس تكوينا مع الاستفادة بثقافات الأمم الأخرى(٢) » .

أما الاسلام فلا ينتسب إلى أمة من الأمم، والمكتسبات والمكتشفات العلمية تنتقل من بلد إلى بلد دون أن تحتاج إلى تحوير أو تكييف فهى بمثابة ثروة بشرية عامة ، أما الثقافة فهى بعكس ذلك ، تختص بكل أمة على حدة وترتبط قبل كل شىء وأكثر من كل شىء بلغة الأمة وآدابها لأن اللغة (واسطة التفكير) فضلا عن كونها واسطة لنقل الآراء والأفكار ولتبليغ الأحاسيس والانفعالات . (التفكير بمثابة التكلم سرا والتكلم بمثابة التفكير جهرا) .

---

(١) الرسالة م ١٩٤١ .

(٢) بتصرف عن ساطع الحصرى (الثقافة العربية وثقافة البحر المتوسط) .

وقد حمل هؤلاء الدعاة التغريبيون لواء الدعوة إلى :

(أولا) مهاجمة الدين بصفة عامة ومهاجمة الاسلام بوصفه دينا ومحاولة وضع العلم الحديث فى مواجهته .

(ثانيا) إثارة الشبهات حول الشريعه الاسلامية وقدرتها على تحقيق أنظمة كامله للمجتمعات الحديثة وتغليب القانون الغربى عليها .

(ثالثا) إثارة دعوى الأجناس والفروق العنصرية وإثارة دعوات الإقليميات والقوميات الضيقة لتزيق وحدة العروبة والاسلام والدعوة إلى العالمية فى الفكر والحضارة .

(رابعا) إذاعة الدعوة إلى العامية بديلا عن اللغة الفصحى والهجوم على البيان العربى ومحاولة نقد آى القرآن .

(خامسا) إثارة الشبهات حول التاريخ الاسلامى العربى والدعوة إلى إقليمية التاريخ ومصريته .

(سادسا) طرح قضايا الفلسفات اليونانية والغربية بما تحمل من وثنيات وتعدد تخالف مخالفــة صريحة للفكر الاسلامى والثقافة العربية القائمة على التوحيد .

(سابعا) إذاعة القيم الغربية فى التعليم والتربية .

(ثامنا) محاولة إقامة المجتمعات العربيــة على أساس الأنظمة الليبرالية والديمقراطيه الغربية .

(تاسعا) إثارة النظريات الاجتماعية المختلفة .

(عاشرا) التبشير بالبهائية والصوفية وغيرها من المذاهب المنحرفة .

(١)

التحديات فى وجه الدين والاسلام

بدأت الحملات التغريبية توجه إلى الثقافة العربية من خلال أرسخ الحصون وأقواها ، وهو الاسلام نفسه ولكى تكون الحملة بارعة فقد أريد لها أن توجه إلى (الدين) بصفة عامة جرياً وراء القول بأن الأديان قد انتهى عهدها وأن العلم الحديث قد أزاحها من مكانها وذلك بعد أن جمدت الأديان وتوقفت عن أن تحقق مايراد منها من تجاوب فى مواجهـــة الحضارة ومكتشفات العلوم . وكان ذلك كله مما ردده خريجو معاهد الارساليات الأجنبية من اللبنانيين غير المسلمين جاريا فى نطاق الحملة الضخمة على الدين والمستمدة من كتابات الأوربيين بالنسبة للمسيحية وموقفها من النهضة الأوربية ، وما يتصل بذلك من موالاة الكنيسة للإقطاع والأمراء ثم معارضتها لثمرات العلوم والحضارة . بينما لم يكن هناك مجال مطلقا لمثل هذه المعركة فى العالم الاسلامى ولا فى مواجهة الاسلام نفسه الذى كان بطبيعته دين العلم وفى أحضانه انشأ المنهج العلمى التجريبى الذى هو أساس الحضارة الغربية الحديثة .

غير أن الحملة كانت بارعة وعنيفة وهدامة وكانت تتحرك من خلال إثارة قضايا كثيرة فى مقدمتها حرية الفكر ومحاولة تصوير بعض المواقف التاريخية مما حدث لابن رشد وغيره على أنه مصادرة للفكر فى الاسلام وكان على رأس هذه الدعوة جميعها النفوذ الأجنبى الاستعمارى فى مصر بقيادة اللورد كرومر الذى حمل لواء الهجوم على الاسلام واتهمه بالقصور والتراجع فى عصر العلم وجرى فى هـــذا المجرى الدكتور شبلى شميل وكانت مجلات المقتطف والهلال وجريدة المقطم وكتابات فرح انطون وجرجى زيدان وصروف وفارس نمر كلها تجرى فى هذا المجرى وكان شبلى شميل وقد ترجم نظرية دارون من خلال أقسى كتابها وأعنفهم مادية وهو (بخنر) وظل يجادل على صفحات المقتطف والمقطم فى سبيل تحويل نظرية دارون إلى دعوة عامة إلى المادية لايقف فى وجهها شىء وخاصة مايتعلق بالدين والأخلاق وقيم المجتمعات وغيرها .

وقـــد تصدى لـكرومر وداروين وبخنر وشبلي شميل وفرح انطون كتاب كثيرون في مقدمتهم الشيخ محمد عبده وفريد وجدى ورشيد رضا وعلى يوسف في الطور الأول ثم عبد العزيز جاويش ومحمد أحمد الغمراوى وتوفيق البكرى ورفيق العظم وغيرهم كثيرون ففندوا ما أثاروا من الشبهات وردوا الأمور إلى مكانها الحق وكشفوا عن وجه الزيف في هذه الحملات التى أريد بها تنحية الاسلام عن مكان الصدارة وضرب حركة اليقظة العربية الاسلامية لافساح المجال لدائرة التغريب الضيقة المغلقة لكي تسيطر وتقود حركة الفكر .

ولقد تبين من بعد أن حركة الماسونية إحدى القوى العاملة في الدولة العثمانية من أجل تحقيق أهداف اليهودية العالمية كانت تطرح هذه النظريات والأفكار . وكان هؤلاء جميعا من خريجي معاهد الارساليات التبشيرية في لبنان هم أيضا من أعضاء المحافل الماسونية وأنهم كانوا الطلائع التى أرسلت إلى مصر لتقود حركة الصحافة والفكر والثقافة تحت لواء الاحتلال البريطاني والتى كان من ثمرتها بعد ذلك مدرسة لطفى السيد .

ولقد كشف رجال اليقظة الفكرية الاسلامية حقيقة الاسلام وجوهره وكيف أنه ليس دينا لاهوتيا فحسب وإنما هو دين ودولة ونظام ومجتمع ، وأنه لم يقف أمام تطور العلم بل أعان عليه وأنه كان مصدر النهضة واليقظة وهو الذى قدم للإنسانية أولى ثمراتها .

أما الفكر الغربى فقد استبعد الدين استبعاداً كاملا في نهضته ، نتيجة لموقف الكنيسة منه إزاء العلم وإزاء الحريات الاجتماعية ولقد كانت المسيحية الغربية دينا روحيا خالصا وقد دعت إلى الرهبانية ولم يكن بنظام مجتمع ، ومن هنا غلبت فلسفة الرومان ووثنية اليونان ومن ثم فقد انفصل الفكر الغربى عن المسيحية والكنيسة جميعا ودعا إلى اعتناق دعوات أخرى كدعوته إلى عبادة الفرد أو عبادة القوة .

أما الفكر الاسلامى فقد كان غنيا عن مثل هذه المواقف نتيجة للشمول والتكامل

الذى عرف به الاسلام ، وحيث لم يكن هناك من حاجة المسلمين والعرب فى أن يعتنقوا مناهج الغرب أو يواجهوا الاسلام بمثل ماواجه المسيحية .

ولم تكن حاجتهم إلى أكثر من تنقية المنابع وتحرير المصادر والتماس الأصول العامة للإسلام فى مفاهيم الصدر الأول منه نقيا صافيا مستمدا من القرآن نفسه ومن السنة النبوية الصحيحة .

وهذا مادعا إليه المصلحون من أمثال محمد بن عبد الوهاب وجمال الدين الافغانى ومحمد عبده حيث بدأت حركة اليقظة من داخل الأمة نفسها ومن خلال فكرها ولم تكن قد تأخرت حتى جاء الغرب فأوقظها ذاك، أن حركة اليقظة بدأت فعلا قبل اتصال الغرب بالمشرق العربى بأكثر من خمسين عاما ومن قلب الجزيرة العربية .

كما دحضت حركة اليقظة ماذهب إليه دعاة التغريب وخصوم الاسلام والفكر الاسلامى العربى من أن الاسلام هو مصدر الضعف والتخلف الذى مر بالمسلمين فى القرون الأخيرة وكشفوا عن حقيقة أساسية وهو أن إنصراف المسلمين والعرب عن الاسلام وتخلفهم عن أصوله ومفاهيمه ومقاصده إنما هى السبب الحقيق فى تخلفهم وأنهم لو استمسكوا بمقوماته فى مجال السلم والحرب والاجتماع والسياسة وأعدوا ما أمرهم به قوة دائمة وحصانة للثغور وحماية ورهبة وهيبة لعجز الاستعمار الغربى عن السيطرة عليهم والادالة منهم ، وأن هذا منطلقهم نحو الحرية والقوة والعزة أن يعودوا مرة أخرى إلى التماس مفاهيم الاسلام ومقوماته .

التحديات فى وجه الشريعة الإسلامية

كما وجهت حركة الغزو الثقافى التغريبى حملة ضارية إلى الشريعة الاسلامية واتهمتها بأنها شريعة صحراوية ظهرت فى عصور قديمة وأنها لاتصلح للعصر الحاضر ولاتحقق للمجتمعات الحديثة ماتقصد اليه من حضارة ورفاهية ، كما حاولت بعض الأقلام اتهام الشريعة الاسلامية بالنقل من القانون الرومانى . وقد أشار دعاة التغريب فيما بعد أن الاستعمار الغربى وحركة التغريب إنما استهدفت أن ينزل القرآن من فوق عرشه فى أنظمة الحكم والاجتماع والاقتصاد والتربية والتعليم وذلك من أجل تغليب القانون الاوروبى القائم على أساس فصل الدين عن الدولة . وقد جرت هذه الحملات فى ظل الإجراءات الاستعمارية التى قامت فعلا بفرض القوانين الاوروبية على أنظمة السياسة والقضاء والمعاملة بين الناس وإقصاء الشريعة الاسلامية عن مجال الحكم والمجتمع . كما فرضت فى مجال الجامعات دراسة القوانين الأوروبية التى أصبحت نظاما مطبقا فى المحاكم ودوائر القضاء مع دراسة يسيرة للشريعة الاسلامية التى انحصر نطاقها فى أضيق مجال .

غير أن كتاب اليقظة الفكرية الإسلامية من رجال الفقه والشريعة والقانون واجهوا هذه التحديات فى قوة وكشفوا عن فساد ماذهب إليه اللورد كرومر وغيره من المستشرقين وأبانوا عظمة الشريعة الاسلامية وخلودها وقدرتها على التجاوب مع مختلف المجتمعات فى مختلف العصور .

وكان من أكبر مارکز عليه الباحثون خطأ الإدعاء بأن للشريعة الرومانية أثر فى الشريعة الاسلامية وأبانوا كيف أن الشريعة الاسلامية تقوم على قواعد العدل المطلق ومقتضيات العقول والشريعة الرومانية تقوم على المصالح والمنافع الدنيوية مما يفبنى عليه أن الشريعة الإسلامية تمثل مصلحة الفرد فى الدنيا والآخرة بينما تمثيل الشريعة الرومانية مصلحة الجماعة وحدها .

فضلا عن أن القانون الرومانى قد بدأ بمثابة عادات ونما وازدهر عن طريق الدعوى

والإجراءات الشكلية بينما الشريعة الاسلامية بدأت كتابا منزلا ووحيا من الله ونمت وازدهرت عن طريق القياس والأحكام .

وإن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة واحدة لم يرد فيها الفقهاء بعده شيئا قط أما الفقه الرومانى فإنه حديث لم يعمل به إلا فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد أما قبل القرن الحادى عشر فإنه لم يكن معروفا حتى عند الرومان أنفسهم ومعنى ذلك أن الفقه الاسلامى قد قرر وصنف قبل ظهور الفقه الرومانى بقرون وأن مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد القوانين الرومانية للرومان أنفسهم . وهناك من يرجح أن الفقه الرومانى انما جاء مقتبسا من الفقه الاسلامى والدليل هو أن الفقه الاسلامى قد ألف وصنف قبل أن تبرز القوانين الرومانية (١) .

ولقد تحطمت مختلف الإدعاءات التى وجهت الى الشريعة الاسلامية على صخرة عاتية بعد أن كشفت نصوص الشريعة الاسلامية مدى ما تحمل من أسس تشريعية صالحة للمجتمع الانسانى بشهادة المنصفين من رجال القانون الغربى أنفسهم .

وكان أقوى هذه الاعترافات ما أبرزه مؤتمر القانون الدولى المقارن المنعقد فى لاهاى عام ١٩٣٢ والذى أكد مركز الشريعة الاسلامية كمصدر للتشريع وقد قرر أن الشريعة الاسلامية مصدر من مصادر القانون المقارن وهى صالحة للتطور ومسايرة للمدنية الحديثة وأنها جديرة بأن تشكل مصدراً ممتازا من مصادر القانون المقارن مع استقلالها الكامل عن التشريع الرومانى .

كما كشفت بعض النظريات القانونية الحديثة عن مصادر لهـــا فى الشريعة الاسلامية ومنها نظرية الاعتساف التى ابتكرها القانون المدنى الألمانى عام ١٧٨٧ .

يقول العلامة كهلر الألمانى : إن الألمان كانوا يتيهون عجبا على غيرهم فى ابتكار

(١) راجع آراء صالح بن على الحامدى العلوى ، دكتور عبد الرازق السنهورى . فارس الخورى فى كتابنا الاسلام والثقافة العربية ص ٢٨٨ / ٢٩٠ .

نظرية الإعتساف والتشريع لها فى القانون المدنى الألمانى الذى وضع عام ١٧٨٧، أما وقد ظهر كتاب الدكتور محمود فتحى وأفاض فى شرح هذا المبدأ عن رجال الشريعة الاسلامية رأيان أن رجال الفقه الاسلامى تكلموا عنه طويلا ابتداء من القرن الثامن للميلاد فإنه يجدر بالعلم القانونى الالمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ لأهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الألمان بعشرة قرون وأهله هم حملة الشريعة الاسلامية .

وكان المؤلف قد توصل إلى نص فقهى للامام الشاطبى يقول بمنع استعمال الفعل المأذون به شرعا إذا لم يقصد منه فاعله إلا الاضرار بالغير وهذا هو عين نظرية التعسف فى استعمال الحقوق التى لم تعرف فى الغرب بمعناها التحليلى الواسع إلا مؤخرا .

وقد تناولت الأبحاث الرد على ما أدعاه المستشرقون والمبشرون ودحض ما ذهبوا إليه ومما قاله الدكتور صبحى محمصانى إن مازعمه بعض المستشرقين من أن الشريعة الاسلامية مقضى عليها بالخمول قول فاسد ، ذلك أن أبرز ملامح الشريعة الإسلامية :

(أولا) أن الاجتهاد واجب فيها والتقليد الأعمى محرم .

(ثانيا) أن الشريعة الإسلامية ليست مذهبا واحدا بل مجموعة المذاهب .

(ثالثا) أن توسيع الفقهاء فى أولية للتشريع ومصادره والأخذ بمبادىء الإنصاف المطلق بطريق الإستحسان والاستصلاح ، كل ذلك كان له أثر فى جعل الشريعة الإسلامية من أعدل الشرائع وأقربها إلى المثل الاجتماعية العليا .

(رابعا) إن قاعدة تغيير الاحكام تطبق فى جميع المسائل التى لا يوجد فيها نص من القرآن والسنة .

هذا ولم تلبث أن تعددت المؤتمرات الغربية التى أعلنت تقديرها للشريعة الاسلامية وكانت بعد مؤتمر لاهاى عام ١٩٣٢ أربعة مؤتمرات :

١ — مؤتمر القانون الدولى فى لاهاى ١٩٣٧ الذى أعلن اعتبار الشريعة

الاسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام واعتبار التشريع الاسلامى قائما بذاته ومستقل وغير مأخوذ من التشريع الرومانى .

٢ — مؤتمر المحامين الدولى فى لاهاى ١٩٤٨ .

٣ — جمعيه القانون الدولى العام .

٤ — أسبوع الفقه الاسلامى فى باريس ١٩٥١ وقد قرر المؤتمر :

(أولا) اعتبار مبادىء الفقه الاسلامى ذات قيمة تشريعية لايمارى فيها .

(ثانيا) اختلاف المذاهب يحوى ثروة تشريعية هى مناط الإعجاب ومنها يستجيب الفقه الاسلامى لجميع مطالب الحياة .

(٣)

التحديات فى وجه القوميات والأقليميات

كانت الدعوة إلى عزل البلاد العربية عن العالم الإسلامى وعزلها عن بعضها البعض من أخطر الدعوات التى صاحبت النفوذ الأجنبى والإحتلال الغربى . فى مصر إرتفعت الدعوة إلى مصر المصريين والدعوة إلى الفرعونية، وفى الشام ارتفعت الدعوة إلى سوريا للسوريين ، وارتفعت كذلك دعوات الأشورية فى سوريا والفينيقية فى لبنان ، وفى المغرب ارتفعت دعوة البربرية. ثم طرحت دعوات متعددة إلى البحر المتوسط وإلى الرابطة الشرقية وإلى القوميات المحلية وإلى القومية العربية بمضامين مختلفة معزولة عن أصول الثقافة العربية ذاهبة إلى الماضى البعيد السابق للاسلام ، أو بمضامين علمانية منتزعة نفسها من الوجود العربى بمقوماته الإسلامية الأصيلة ومتصلا بالغرب، وجرت الدعوة إلى وحدة الثقافة العالمية ووحدة الحضارة العالمية وكلها دعوات يراد فى مجموعها بها شىء واحد ، هو عزل الأمة العربية عن وجودها وعن ماضيها وعن تراثها وإذابتها إذابة كاملة فى أتون الفكر الغربى وذلك تمهيداً لإحتوائها وابتلاعها .

وقد فشلت دعوات الإقليميات فشلا ذريعاً فلم تصلح لان تجد لها طريقاً إلى نفوس المسلمين والعرب بعد أن عزلتها أربعة عشر قرنا كاملة من الفكر الإسلامى والثقافة العربية بمالها من ذاتية خاصة ومزاج نفسى له طابعه ومقوماته .

وقد حاول دعاة الفرعونية والآشورية والفينيقية إيجاد سند من التاريخ أو التراث أو اللغة يستطيع أن يربط العرب والمسلمين بذلك الماضى السحيق فعجزوا عن ذلك تماماً وتبين أن الشقة بعيدة وأن النفس العربية الإسلامية قد تحولت تحولا كاملا بحيث لم يعد فى الاستطاعة ردها إلى الوثنية القديمة بأساطيرها وخرافاتها بعد أن تحررت منها بالتوحيد وبلغت إلى ذروة البلاغة بالقرآن .

وجرت الدعوة إلى فكرة « مصر المصريين » التى كانت تحمل هدف فصل المصريين عن الأمة وعن العالم الاسلامى ، وكان أبرز حملة لواء هذه الدعوة لطفى السيد ثم جاءت فيما بين الحربين مدرسة « التمصير » التى دعت إلى تمصير اللغة والفكر والقانون والتاريخ والثقافة ، وحاولت أن ترتبط بالفرعونية القديمة والأهرام والنيل الهيلوغريفية فعجزت عن أن تجد من ذلك كله مقوما واحداً صالحاً لعقد عروة واحدة بين الحاضر وبين ذلك الماضى السحيق بمعابده وهياكله وكتاب الموتى. ثم كانت الدعوة المتفرعة منها الى أن المصريين هم من أبناء البحر الابيض المتوسط وهم من الغرب لا من الشرق وأن صلتهم باوربا أوثق من صلتهم بالجزيرة العربية ، وأنهم مع الغرب فى العقلية والثقافة التى ارتبطت فى ظل اليونان والرومان وامتدت هذه الدعوى الى سوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش وقد كانت الدعوة فى دوافعها السياسية ترمى إلى الارتباط بالجامعة الفرنسية وهى دعوة تقول إن لحوض البحر المتوسط وحدة جغرافية وتجارية واجتماعية وفكرية قوامها : الفكر اليونانى والنظام الرومانى والدين السامى ، وأن الذين ساهموا فى إبداع هذه الحضارة : الفينيقيون أصحاب الفضل فى استنباط الحروف الهجائية ومن نماذج مصرية ويونانية ورومانية. وقد حاول الاستعمار الفرنسى أن يذيع دعوى أن اللبنانيين ليسوا عربا بل فينيقيين ، وأن حضارتهم هى حضارة البحر المتوسط وأنهم لا يمتون للعرب بصلة وقربى إلا باللغة .

وقد واجه الفكر الإسلامى والثقافة العربية هذه المعركة كما واجه أفكار التجزئة الأخرى وأعلن زيفها وأكد خلطها واضطرابها وعجزها عن الإصالة الطبيعية المستمدة من روح الفكر الإسلامى وقال إن الثقافة أمر معنوى ولا يمكن ربطه بالعوامل الجغرافية .

بل إن البحوث مالبثت أن كشفت عن حقيقتين بارزتين كانتاهما السهم الأخير فى مصير هذه الدعوات ، ذلك أن الفرعونيين كانوا فرعاً من فروع الأمة العربية وأنهم جاءوا أساساً من الجزيرة العربية ، وقد أشارت نظريات كثيرة مستحدثة

منصفة إن أوائل المصريين الأقدمين قدهبطوا من أرض آسيا إلى وادى النيل من أمثال بروكس الألمانى وابيرس ولوث وليبلن النرويجى ، وكان أول من أثبت هذه النظرية هومل الألمانى حيث ذهب إلى أن الحضارة المصرية بحذافيرهـا كلها إنما هى مشتقة من الحضارة البابلية . أما الأخصائيون فيقولون بمجىء أوائل المصريين إلى هذا الوادى من صحراء لوبيا .

واستطاع أحمد كمال باشا الأثرى أن يصل فى أبحاثه إلى إثبات أن اللغة العربية واللغة المصرية القديمة من أصل واحد . وأن اللغة المصرية ماهى الا لغة قبـائل الأعناء التى سكنت مصر وماجاورها من الأقاليم وهى أصل اللغة العربية بلامراء .

وقد أرجع كل كلمات اللغه المصرية القديمة إلى اللغة العربية وأكد نظرية مجىء المصريين الأقدمين من بلاد العرب من باب المندب فالحبشة فالسودان فمصر . وقال فى النهاية إن العنصرين المصرى والعربى يرجعان إلى أصل واحد ولغة واحدة.

وقد أورد فى قاموسه ألوفا من الكلمات الهيروغليفية الموافقة اللغة العربية الحضرية ، إما موافقة تامة أو موافقة بضرب من التحريف أو القلب والإبدال .

ومن ناحية أخرى تكشف أيضاً أن الفينيقية موجة من موجات الهجرة العربية وقد واجه أحمد زكى باشا الملقب شيخ العروبة هذه الدعوة فى إبان ظهورها فكشف عن زيفها وأشار إلى مايؤكد ارتباطها بالأمة العربية .

فقد كشفت الحفريات والأبحاث على أن الفينيقيين هم الكنعانيين والآراميين القدماء وهم من الجنس العربى يقينا. وقد أشار هيرودت إلى هذه الحقيقة عندما قال: إن الفنيقيين كانوا يقطنون ساحل بحر ارتيريا أحد سواحل بحر العرب قبل سكناهم ساحل البحر الأبيض المتوسط .

وقد أكدت أبحاث عدد من الباحثين منهم فرانسيس لنورمان ورنه دوسو ونيكار أن بلاد العرب كانت الموطن الأصلي للبابليين (الكلدان) والكنعانيين (الفينيقيين) والآراميين (السريان) وأنهم خرجوا من بلاد العرب فوجا بعد فوج (١).

• • •

ولم تكد ريح الإقليمية تخفت حتى كانت الدعوة إلى تمزيق وحدة العروبة والإسلام بالدعوة إلى القوميات الضيقة المبتورة عن ماضيها وأصولها والمنعزلة عن كيانها الفكري العربي الإسلامي الأصيل.

وهي دعوات متعددة متضاربة يعتمد بعضها على الأرض ويعتمد بعضها على العنصر السامي ويعتمد بعضها على اللغة وهي في مجموعها تجري على النسق الذي خرجت عليه الدعوة الطورانية التركية بل إن بعض الذين شاركوا في هذه الحركة حملوا لواء الدعوة إلى القومية العربية وقد حاولت هذه النظريات أن تبتعد تماماً عن الواقع العربي الأصيل، وأن تعتمد على النظريات الوافدة التي استقدمها هؤلاء الدعاة كالنظرية الألمانية والنظرية الروسية والنظرية الإيطالية والنظرية الفرنسية وكل منها يعتمد على فكرة تباين مايعتمد عليه الآخر، وكل منها يستمد نظريته من وجوده وظروفه ومقوماته.

غير أن حركة اليقظة العربية الإسلامية كانت قد قدمت فعلا النظرية العربية الأصيلة وهي نظرية « وحدة الفكر » التي هي أقوى من وحدة اللغة والأرض وأصدق تعريفاً بجوهر الأمة العربية والثقافة العربية من نظرية المشيئة أو أي نظرية أخرى.

---

(١) راجع (اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب) للسيد محب الدين الخطيب.

غير أن النفوذ الغربى فى مجال الفكر والمسيطر على حركة التغريب والغزو الثقافى كان حفيا بأن يؤيد نظريته الوافدة التى خرجت أساساً من معاهد الإرساليات التبشيرية ومحافل الماسونية والتى تستهدف عزل لبنان فى كيان خاص وضرب كل تقارب بين البلاد العربية حتى تبقى مفرقة مضطربة بين النظريات والبيانات الإقليمية ، فضلا عن محاولة عزل القومية العربية عن أمرين يلح التغريب والاستعمار على عزلها عنهما ، (الأول) هو التراث والماضى والتاريخ والقيم الأساسية المستمدة من الإسلام (الثانى) هو الانغلاق والعدوان والخصومة مع القوميات الأخرى والاستعلاء بالجنس أو باللغة أو بغيرهما . ويمضى الحريصون على تأكيد هذه الخطوات الغربيه أن الأمة العربية لم تكن أمة إلا بفضل الإسلام وأنها لم تكن أمة قبل ذلك , وأن الإسلام هو الذى حفظ اللغة العربية وأقامها لغة أمة ولغة فكر ، وأن الفكر الإسلامى هو الأساس الثقافى والفكرى والاجتماعى والقانونى للعرب جميعاً .

وأنه إذا كانت أوربا قد استبعدت الدين عن مفهوم القومية فإن لها ذلك لظروفها وأوضاعها الخاصة ، أما الإسلام فهو ليس دينا لاهوتيا كدين أوربا وإنما هو منهج حياة ونظام مجتمع وهو حضارة وفكر ، وأنه ليس للعالم الإسلامى من مصادر ثقافية غيره ، للعرب والترك والفرس والهند كما للمسلمين والمسيحيين واليهود وأرباب الأديان الأخرى جميعاً ، فقد امتصت الحضارة الإسلامية منذ أربعة عشر قرناً ثقافات الأمم وفلسفاتها ومثلها وصاغتها من جديد بحيث أصبحت ثقافة عامة لكل من يعيشون فى هذه المنطقة وأن وسمت بالثقافة العربية أو الفكر الإسلامى .

واذا كان الإسلام دين للمسلم فهو ثقافة وفكر وحضارة لأصحاب الأديان الأخرى وذلك أمر قد كشفت عنه جميع الأبحاث والدراسات وأكدته .

فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست كعلاقة أى دين بأى قومية: « وسوف يعرف المسيحيون العرب عندما تستيقظ فيهم روحهم الكامنة ويسترجعون طبعهم الأصيل

إن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شيء فى عروبتهم » (١) .

والواقع أن العروبة لا تصارع الإسلام ولا تقف فى الوجه المضاد وأنها حلقة من حلقات الترابط الفكرى الواسع الجامع لكل من استظل بالثقـــافة العربية من أجناس وأديان .

وليست اللغة إلا طابع الوحدة الفكرية فلماذا نأخذ بنظرية وافدة تقول باللغة ولا نستمد نظريتنا من الواقع العربى الإسلامى الذى يقوم فيه « الفكر » مقام الوحدة الأساسية .

وهكذا فشلت كل دعوات تغريب الثقافة العربية فى مجال الإقليميات والقوميات

---

(١) عبارة لكاتب مسيحي معروف .

(٤)

التحديات فى وجه اللغة العربية

واجهت اللغة العربية أقسى ألوان التحدى فى سبيل القضاء على وحدتها وتغلب العاميات الإقليمية عليها وقد بدأت الحملة من منطلق مقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية التى دخلت المتاحف مخلية الطريق للغات الإقليمية واللهجات المحلية لترتفع إلى مكان اللغات فى أوربا بعد ظهور البروتستانتينية وترجمة الإنجيل إلى اللغات المحلية ، وحاول الدعاة أن يربطوا بين القدرة على الاختراع والابتكار فى الأمم وبين هذه اللهجات على النحو الذى أعلنه « ويلكوكس » فى مصر وماردده كولون فى المغرب وماسنيون فى سوريا وكلها محاولات تستهدف القضاء على وحدة اللغة العربية الجامعة للعرب بوصفهم « أمة » والجامعة للمسلمين على أساس وحدة الفكر التى يعد القرآن سندها الأعظم والأقوى .

ولما كانت حركة التغريب الموالية للاستعمار والنفوذ الأجنبى تستهدف تمزيق وحدة المسلمين والعرب فقد كان التركيز على « اللغة » عاملا هاما وقد جرى هذا التركيز بوسائل متعددة وأساليب كثيرة ، فقد عمدت القوى الاستعمارية إلى إيقاف نمو اللغة العربية فى البلاد الإسلامية وخاصة فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا وغلبت اللغات الغربية والإقليمية كما فعلت ذلك فى مصر وسوريا والسودان والمغرب جميعا حيث غلبت لغة المحتمل وسيطرت على التعليم والثقافة ولونت الفكر والثقافات والعقليات بآثارها التى حملت الولاء للغرب ، ومن ناحية أخرى شجع الاستعمار العاميات فى البلاد الغربية وحاول كثير من المستشرقين والمبشرين خلق سناد تاريخى من التراث كالأغانى والأمثال لتعزيز دعوى العاميات والإقليميات وجرى التغريب فى ذلك شوطا طويلا .

وكان الدعاة المتصدرون يحملون لواءاً براقا يطلق عليه « تمصير اللغة » كما فعل أحمد لطفى السيد فى مصر ومن بعده سلامة موسى ثم كانت الدعوة إلى كتابة العربية

بالحروف اللاتينية وهى الدعوة التى تبناها عبد العزيز فهمى وسلامه موسى . ولم تكن غريبة على مختلف أجزاء البلاد العربية ، وفى لبنان جرى التركيز على العامية اللبنانية وكتابتها بالحروف اللاتينية . ومضى سعيد عقل وغيره من دعاة الاقليمية الضيقة شوطا طويلا فى سبيل عزل لبنان عن الفكر الاسلامى والثقافة العربية .

وامتدت الأبحاث إلى محيط له طابع على زائف ، وذلك بالحديث عن مقدرة اللغة العربية على مجاراة العصر واحتواء المصطلحات الجديدة ومحاولة وصمها بالعجز عن ذلك والمطالبة بإدخال المصطلحات الأجنبية بأعيانها دون تعريبها .

ودعا كثيرون إلى تحرير اللغة العربية من كل قيد وتقريبها من العامية وخلق لغة وسطى والانصراف عن الأسلوب العربى البليغ .

ومما أذاعه بعض خصوم اللغة العربية دعوى أن العامية المصرية والسورية إنما هى لغة قديمة هى اليونية أو الكنعانية ، وأن هذه هى أصل لغة الحديث ولاصلة لها بالعربية الفصحى وأنها دخلت مصر قبل أن تدخلها الفصحى بألفى سنة ، وأنها هى أخت العربية وليست العربية نفسها (١) .

وقد دحضت الأبحاث العلمية الصحيحة هذه الإدعاءات الباطلة .

كما تبين أن الهدف من هذه المحاولات جميعا هى :

(أولا) إيقاف اللغة العربية عن النمو فى المناطق الاسلامية التى هى لغة الفكر والثقافة والعبادة لدى سبعمائة مليون من المسلمين .

(ثانيا) منافسة العامية لها منافسة واسعة بما أضفى عليها محاولات تاريخية مضللة ومن عمل على جمع الفلكلور والأمثال والقصص الساذجة القديمة .

(ثالثا) خلق لغة وسطى بين العاميه والفصحى وذلك لانزال مستوى الثقافة العامة إليها وعزل اللسان العربى والثقافة عن مستوى القرآن الكريم من الفصاحة . ومن وراء ذلك كله هدفا خطيرا : هو إقصاء القرآن عن اللغة، وعزل العالم العربى وتفتيت

---

(١) أنظر ولكوكس ورسالته في كتاب (الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر) .

وحدته ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل لقد دخلت أخطار العامية وسمومها إلى مجامع اللغة العربية التى كان إنشاؤها بمثابة مقاومة لأخطار هذه الحملة فقد تبنت بعض المجامع تعديل (مناهج النحو) وتبديل الخط العربى وما يسمى « تطوير » قواعد الصرف والبلاغة وهى محاولات استهدفت هدم اللغة العربية على المدى البعيد من خلال حصونها الأساسية . وتجرى هذه المحاولات على نهج الأبحاث الغربية التى تنقل نقلا دون تقدير للفوارق البعيدة بين لغة ولغة وبين لغات الغرب كلغات مستحدثة لا تزيد أعمارها عن أربعمائة عام وبين اللغة العربية التى تبلغ خمسة عشر قرنا من الزمان ، وقد أغمضت هذه الدعوة الطرف عن عامل هام وخطير فى محاولات التطور واستحالتها بالنسبة للغة العربية وهو القرآن الكريم الجامع لأصول هذه اللغة والحافظ لها ، ذلك أن اللغة العربية ليست ملك العرب وحدهم ليتصرفو فيها على هذا النحو أو غيره ولكنها ملك لأصحاب الفكر الإسلامى أنفسهم .

وفى هذا يقول العلامة مصطفى صادق الرافعى :

« إن فى العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذى يجب أن يؤدى على وجهه العربى الصحيح ويحكم منطقا وأعرابا بحيث يكون الاخلال بمخرج الحرف الواحد فيه كالزيغ بالكلمة عن وجهها ، وبالجملة عن مؤداها وبحيث يستوى فيه اللحن الخفى واللحن الظاهر ، ثم هذا المعنى الاسلامى (الدين) المبنى على الغلبة والمعقود على أنقاض الامم والقيم على الفطرة الانسانية حيث توزعت وأين استقرت، فالامر أكبر من أن تؤثر فيه سورة حق أو تأخذ منه كلمة جهل ، إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية فلا يزال أهله مستعمرين بهمتميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكما ولولا هذه العربية التى حفظها القرآن على الناس وردهم إليها وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الاسلامى ولاتراخت به الأيام إلى ما شاء الله ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة » .

التحديات فى وجه الأدب العربى

وكذلك واجه الأدب حملة تغريبه وإخراجه عن خصائصه ومقوماته وتحكيم مناهج النقد الغربى فيه وسيطرتها عليه وبذلك جرى إبعاد أعظم فصوله وأبرع قيمه فى ظل المقاييس الأوربية الوافدة وحجزه فى دائرة شعر الغزل والمجون وأدب المحسنات اللغوية من بديع وجناس ، وإدارة مضامينه وتاريخه وتطوره حول هذه الفنون وحدها بعـــد أبعاد الأدب الرصين الأصيل من كتابات الغزالى وابن تيميه وابن حزم وابن القيم وعشرات غيرهم ، ووصف هذه الآثار بأنها فقها أو فلسفة أو علما . ولقد أدخلت حركة التغريب فى مجال الأدب العربى عديد من النظريات الوافدة والمفاهيم الدخيلة غير المحررة ، بما يخالف طابع هذا الأدب وذاتيته ومزاجه النفسى وكان أبرز هذه الدعوات الضالة (محاولة عزل الأدب عن الفكر العربى الاسلامى جملة وإعطاءه الحرية فى الحركة خارج دائرته) وذلك باسم المنهج الغربى الذى يسمح للأدب ان يقارف أساليب الكشف والإباحة دون أن يرى فى ذلك حرجا على قيم المجتمعات وهو ما يتعارض تماما مع منهج الأدب العربى المستمد من الفكر الاسلامى أساسا وقـــد كانت نظرية (لا أخلاقية الأدب) من أخطر النظريات التى فرضت على الأدب العربى الحديث مستمدة من الأدب الأوربى ذى المصادر اليونانية الوثنيـــة الإباحية . مما لا يتفق مع طبيعة النفس العربية ، وليس فى مجتمعنا وبالتالى فى أدبنا صورة (تاييس) مثلا فى المتاجرة بالغرائز فى ظل الرهبانية أو تمجيد الوثنية والابيقورية واللا أدرية .

ومما أدخلته أساليب الأدب الغربى الوافدة وضع القرآن تحت سلطان النقد والقول فى أساليبه بالضعف والقوة على النحو الذى عرفه الغرب بالنسبة للتوراه ، وقد فشل الدعاة إلى مثل هذا اللون ، فقد كانت التوراه فى نظر نقاد الأدب

تراثا شعبيا ولم تكن كتابا منزلا ، بينما القرآن ليس كذلك ، بل هو النص الموثق المنزل الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى ليس هو بمثابة « أدب » كتبه قلم من أقلام البشر حتى يمكن أن يخضع لمناهج النقد .

ولقد كان الأدب العربى دائما هادفا وواقعيا وأخلاق النظرة ، وكان واضحا فى دلالاته بعيداً عن الغموض أو الرمز فقد نشأ فى آفاق مفتوحة ، بعيدا عن الظلام والأضواء والغيوم والمواصف التى لونت الآداب الأوربية بألوان الخيال والأساطير وأبعدتها عن الواقعية والوضوح الذى عرف به الأدب العربى .

ولقد سقطت مختلف النظريات التى حاولت أن تصور النفس العربية من خلال الكتب الزائفة التى كتبت تحت سلطان الشعوبية الفكرية التى أثارتها الباطنية الفارسية القديمة والمجوسية ومختلف فلسفات الهند واليونان . وسقطت دعوى المدعين فى جعل أمثال ألف ليلة وليلة أو الأغانى أو الشعر المنسوب إلى عمر الخيام من مصادر النفس العربية أو المجتمع الاسلامى (١) .

كما سقطت فكرة عزل الأدب العربى عن الفكر الإسلامى أو محاكته بعيداً عن الشمول والتكامل بحسبانه جزءاً من أجزاء هذا الفكر ينبع فى مجموعه من القيم الأساسية ويتجاوب معها ولا ينفصل عنها أو ينحرف .

وقد كان العلامة محمد أحمد الغمراوى من أبرز من تصدوا لمثل هذه النظريات الوافدة فدعا إلى أن يتحقق بين الفن والأدب وبين الدين (أى الاسلام) تلك الوحدة المتحققة بين الدين والعلم . ذلك أن العلم والدين اجتمعا على استحالة التناقض فى الفطرة فإذا كانت (الفنون والآداب) من روح الفطرة وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة : دين الاسلام فى شىء . فإذا خالفته فى أصوله ودعت صراحة أو ضمنا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها وعاقت الإنسان أن يعمل بالفضائل التى جاء الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له

---

(١) حررنا هذه الشبهات بتوسع فى كتابنا (خصائص الأدب العربى) .

من الرق فى النفس والروح ، إذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا أو غير هذا فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق وأخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق .

وإذا كان من شأن من يعمل أو يكتب باسم الفن والأدب أن يتجاوز فى تأثيره مابيننا فيحول بين الإنسان وربه ويدخل عليه الشك فى دينه فى أى صورة من الصور ولأى حد من الحدود فكان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو باسم الأدب زورا وإفكا ولذلك لابد أن يكون بين الفن والأدب وبين الاسلام تمام التطابق والاتفاق . .

التحديات فى وجه التاريخ العربى الإسلامى

جـــرت المحاولات على صياغة مناهج لنقد التاريخ العربى الإسلامى تختلف عن طابعه وجوهرة الأصيل . فقد حاول دعاة التغريب عرض التاريخ الإسلامى على مذاهب مادية وإقتصادية بعيدة كل البعد عن التعرف إلى مضمونه ومداه . ولذلك فقد عجزتْ هذه المذاهب عن أن تفهم التاريخ الإسلامى العربى فهما صحيحاً . وكانت فى نفس الوقت عاملا سيئاً فى انتقاص هذا التاريخ . ووضعه موضعاً بعيداً عن حقيقته .

والواقـــع أن التاريخ الإسلامى يجب أن يفسر على أساس النظرة الإسلامية وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس ضرب من الخطأ العلمى لايجوز أن يرتكبه باحث جاد أو مؤرخ يبتغى وجه الحق وحده .

والواقع أن منهج البحث الغربى يقـوم على أساس تجزئة الـكون والطبيعة والفصل بين العلم والدين ويبرز ذلك فى مؤلفات مشاهير الغرب من أمثال كولن ولسن وغيره . أما منهج البحث الإسلامى فيقوم على أساس وحدة الـكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، وان الاسلام هو النظـام الوحيد الذى يحقق هذا الإنسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد ، فى نظام الدين ، والسماء والأرض فى نظام الـكون ، ويسلـكها فى طريق واحد : هو الطريق الى الله ، وأن الإسلام ـ والاسلام وحده ـ هو الذى يجمع بين العلم والدين فى وحدة تامة غير متنافسة (١) .

---

(١) عن بحث للأستاذ أحمد نصيف الجنابى

ويكشف الباحث الغربى المسلم (ليوبولد فايس) الفرق بين وجهة النظر الاسلامية والغربية فيقول : إن وجهة النظر الاسلامية مخالفة على كل حال لوجهة النظر الغربية الآلية ، إذ أن الاسلام يعتبر وجود الامكان الروحى لمجموع البشر صفة كاملة ، أى أنه شيء وضع فى بناء الطبيعة البشرية ولايسلم أبداً كما يفعل الغرب بأن الطبيعة تخضع لعملية تبدل ارتقائى كالذى يحدث للشجرة فى نموها ، ذلك لأن أساس تلك الطبيعة (أى النفس الانسانية) ليس كمية عضوية فحسب ، والخطأ الأساسى فى التفكير الأوربى الحديث ناتج عن اعتبار التزايد من المعرفة المادية ومن الرفاهية مرادفاً للترقى الانسانى الروحى والأدبى . وذلك يقوم على جحود الغربيين لنفس مفارقة المادة منفصلة عنها ومخالفة لها . أما الاسلام الذى بنى على أرجه من الادراك المطلق فإنه يعتبر وجود النفس حقيقة لاتقبل النقاش .

ويظهر أهم أوجه الخلاف بين المنهجين ، فى أن الفكر الغربى يبعد أبعاداً كاملة الجانب الروحى ويكتفى بالمادى فقط بينما يجمع الفكر الاسلامى بين الروح والمادة . وبالإضافة إلى هـــذا الانحراف فإن الغربيين ينظرون إلى أنفسهم أنهم محور العالم .

ويقارن (ألفرد كانتول سميث) فى كتابة « الاسلام فى التاريخ الحديث » بين احساس المسيحى والهندى والماركسى والمسلم تجاه التاريخ فيقول بالنسبة للمسلم :

« التاريخ فى نظر المسلم هو سجل المحاولة البشريه الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة ، لأن الحاجز هو نتيجة الماضى والمستقبل متوقف على الحاضر ، فالمفهوم الاسلامى واضح الايجابية » .

ويرى (اليان وايد غراى) ان وجهة نظر المسلمين للتاريخ هى نظرة بناءة ، وهى قائمة على التطابق بين إرادة الانسان وإرادة الله .

ويعارض كثير من الباحثين النظرية الأوروبية فى تفسير التاريخ الإسلامى وفى مقدمتهم العلامة تريتون فى كتابه (الإسلام : عقيدته وعبادته)

فيقول : « إذا صح فى المعقول أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيـــام الدول وسقوطها فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبتهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات أقدامهم فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الفريدة ، فرأوا أنها تقع فى هذا الشىء الجديد ألا هو الاسلام » .

والواقع أن الذين يعملون فى حقـــل التاريخ الإسلامى فى الغرب فى الأغلب هم كتاب استعماريون أو خصوم فى العقيدة أو من الصهيونيين وكل هؤلاء لايرون فى التاريخ الإسلامى إلا أنه شر كبير ، ومن هنـا تجىء محاولاتهم لإثارة الشبهات حوله وربطه بالنظريات التى لاتحقق تقديره تماماً .

ويقول الدكتور عبد العزيز الشناوى فى هذا الصدد : إن من أعلام المؤرخين (الأوربيين) من يكمن فى كتاباتهم روح التعصب والحقد والكراهية لكل ماهو شرقى ولكل ماهو غـــير مسيحى وهؤلاء يكشفون فى معظم الأحوال عن هذه الروح جهارا ولكنها تبدو من ثنايا السطور » .

ولقد حاول جرجى زيدان فى مجال تاريخ التمدن الإسلامى أن يثير عوداً من الشبهات التى رددها المستشرقون من أجل تزييف التاريخ الإسلامى وهدم جوانبه القوية مع الأعراض عن أسباب العظمة فيه والتوسع فى جوانب الضعف ، ومن أخطر مارردده اتهام العرب بحرق مكتبة الاسكندرية وقد واجهت كتابات جرجى زيدان نقداً صريحاً علمياً كشف أخطاءها وأهواء صاحبها .

وكذلك جرى كثير من المؤرخين على إعلاء النزعة الإقليمية التاريخية بتمجيد

صفحات التاريخ القـــديم الوثنى كالفرعونية والفينيقية وغيرهما ومحاولة إعلاء طابع الوطنية منعزلا عن وحدة التاريخ العربى الإسلامى ، وقد كان للإستعمار والنفوذ الغربى فى ذلك أبعد الأثر فى محاولة تجزئة العالم الإسلامى وإثارة الخلافات بين شركاء اللغة والثقافة والجنس .

كما ذهب كثـــير من المؤرخين إلى إثارة النقد للجوانب القوية فى التاريخ الاسلامى وانتقاص كثير من أعلام الاسلام والعرب وبطولاتهم ، وإشاعة الريبة وتوسيع شقة الخلاف بين الصحابة والتابعين وإنكار شخصيات تاريخية لها دورها الخطير مثل إنكار طه حسين لشخصية عبدالله بن سبأ ودوره فى تمزيق جبهة المسلمين وكذلك الاعتماد على مصادر زائفة أو مشكوك فيها (١) .

---

(١) راجع ذلك بتوسع فى كتابنا (المساجلات والمعارك الأدبية)

التحديات فى وجه الفلسفات

منذ أن بدأ الغزو الاستعماري حملت الصحف لواء الدعوة إلى الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة الغربية الحديثة . وحاولت أن تربط بين الاسلام وفلسفة اليونان، وعندما بدأت الدراسة فى الجامعة المصرية وضع المستشرقون تعريفا للفلسفة العربية أو الاسلامية بأنها الفلسفة اليونانية مكتوبة باللغه العربية واستعملوا فى ذلك نصوصا لرنيان وغيره كان الهدف منها تصوير المسلمين والعرب وليس لهم فلسفة خاصة أو منهج فكرى معين ، وإنما هم مرحلة من مراحل الفلسفة اليونانية القديمة كانوا حفظة هذه الفلسفة اليونانية حتى أسلموها للفلسفة الغربية الحديثة فلم يزيدوا عن أن يكونوا مرحلة انتقال فى العصور الوسطى الذى توقفت فيها الحضارة الاوروبيـــة بين سقوط روما سنة ٤٠٠ ميلادية وظهور النهضة ١٥٠٠ ميلادية .

ثم جاء لطفى السيد بعد الحرب العالمية الأولى فتصدر ترجمة الفلسفة اليونانية وترجم لأرسطو وردد ماقاله الغربيون عن شأن العرب والمسلمين فى الفلسفة إلى أن ظهرت الحقائق الساطعة وانكشف زيف هذه الدعوى بظهور المدرسة المنصفة التى حققت هذا الأمر وأعلنت موقف الفكر الاسلامى من الفلسفة اليونانية ودوره فى إنشاء فلسفة خاصة تستمد وجودها وكيانها من الاسلام نفسه متصلا بالنفس العربية وقائمة على مفهوم الحضارة الاسلامية ومضمونها الذى يختلف كل الاختلاف مع الفلسفة اليونانية والغربية على السواء .

ولقد جاء ذلك أيضا رداً على ذلك الاتهام الذى روجته دوائر التغريب والغزو الثقافى بإنكار أثر الفكر الاسلامى فى الحضارة الغربية ، حيث لم تلبث

أمثال جوستاف لدبون وتوماس كارليل وعشرات غيرهم أن أعلنوا فى صراحة ذلك الدور الضخم البارع الذى قام به الفكر الاسلامى فى بناء منهج المعرفة وإنشاء المنهج العلمى التجريبى الذى صاغت عليه أوربا الحضارة الحديثة .

ولقد أوضحت الدراسات المنصفة كيف أن الفكر الاسلامى قد تشكل فى طابعه الأصيل المتكامل من خلال القرآن نفسه وأنه تعرف إلى الفلسفة اليونانية بعد أن قعدت قواعده وأقيمت قوائمه ، فهى لم تضف إليه شيئا وإن كانت قد حاولت أن تجرحه عن مضمونه وجوهره القائم على أساس التوحيد ولما كان القرآن هو أساس الثقافة العربية والفكر الاسلامى فقد رفض من الفكر الهلينى الوثنية والتماثيل والصور وتعدد الآلهة .

كما رفض الفكر الاسلامى رأى أرسطو فى الله واعتبر ماقام به ابن سينا والفارابى والكندى مجرد محاولات للتقريب بين أصول الفكر الاسلامى وبين الفكر اليونانى غير أن هذه المحاولات لم تحقق شيئا ولم يلبث المفكرون المسلمون أن أقاموا مفهومهم الفكرى الكامل بعيداً عن منطق أرسطو بل لقد بلغوا أبعد من ذلك عندما هاجموا هذا المنهج الفلسفى وعارضوه بمنطق القرآن كما فعل ابن تيميه .

ولقد واجه الفكر الاسلامى تراث اليونان فنظر فيه نظرة النقد والمراجعة فقبل من نصوصه ورد ، ثم شكل هذه النصوص مرة أخرى وفق جوهره ومنطقه وفى ضوء آيات القرآن الداعية إلى النظر فى الكون حتى استوى عملهم هـــذا منهجا جديدا لم يعرفه اليونان ، قام أساسا على أساس التجربة التى لم يعرفها اليونان أصلا .

وقد أشار المفكرون المسلمون إلى أن الخلاف كان جذريا بين الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامى فى نقاط كثيرة أهمها أن معرفة اليونان بالنجوم كانت خرافات

فى الأكثر ومحاولات فى الأقل وقد شكل المسلمون من النظر فى النجوم علما صحيحا وأنكروا خرافاته ، وإذا كان المسلمون قد أخذوا (الجبر) من اليونان فى درجته الأولى فقد بلغوا به إلى (الدرجة الثامنة) وأن المسلمين هم الذين استعملوا الأرقام الحسابية بما فيها الصفر فتمكنوا من بناء المعادلات البسيطة والمركبة .

وقد انتقد الجاحظ أرسطو ، وأنكر الغزالى على اليونان أن يكون فى السماء حيوانا وأن تكون للكواكب أنفس .

ولقد بلغت فتنة (الاغريقية اليونانية الهلينية) مدى بعيداً فى الفكر الاسلامى والثقافة العربية ودعا دعاتها من التغريبيين إلى تدريس اللغتين اللاتينية واليونانية فى الجامعات وحرضوا على ترجمة القصص اليونانية وذلك فى محاولة خلق علاقة ولاء تاريخية بين المسلمين والعرب وبين الثقافات اليونانية الوثنية الملحدة ، غير أن المدرسة التى بدأها مصطفى عبد الرازق وامتدت فى تلاميذه وعلى رأسهم الدكتور سامى النشار قد استطاعت أن تحرر الثقافة العربية والفكر الاسلامى من هذا الزيف وأن ترد الأمور إلى أصولها .

وترى هذه المدرسة أن ما يطلق عليهم فلاسفة الاسلام (الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد) ليس إلا إمتداداً فكرياً للمدرسة اليونانية للفلسفة ، وأنهم كانوا دوائر منفصلة عن تيار الفكر الاسلامى الأصيل ، لفظهم المجتمع الاسلامى وأعلن أنهم لايمثلونه فى شىء ، وأن الفلسفة الاسلامية الحقيقية إنما تتمثل فى كتابات علماء أصول الدين (المتكلمين) وعلماء أصول الفقه (الأصوليين) وأن الفكر الاسلامى بعامة لم يقبل المنطق اليونانى على الاطلاق وكان له منهجه الخاص فى العلوم العقلية واللغوية بل والعلوم العلمية أيضا ، هو الذى تشكل فى صورة «المنهج التجريبى الاسلامى» الذى سبق المسلمون به الأوربيون وقد تأكد فى ظل هذا التحقيق العلمى كله دور المسلمين فى الحضارة والفكر الإنسانى بأنهم لم يكونوا عالة على اليونان ولم يكن فكرهم الفلسفى موصول الوشائج بالفكر

اليونانى ولم يكن المسلمون أبداً صورة من صور اليونان حقيقة أو مشوهة ، بل كان لهم الكيان المستقل والينبوع الذى تفجر منه النور المشرق الذى سطع فى أوربا عبر أسبانيا وصقلية ، هذا النور العظيم الذى انبعث أساسا من الأصل الإلهى العظيم (القرآن) على يد الرسول الأعظم محمد بن عبد الله .

* * *

ولقد كان للثقافة العربية موقفها من تحديات التغريب فى إنكار دور العرب والمسلمين فى بناء الحضارة والعلم فقد استطاعوا أن يصلوا إلى مقطع الحق فى ذلك ، بعد أن برز علماء غربيون حملوا لواء المؤاخذة لكتابهم المتعصبين الذين أنكروا فترة الألف عام الاسلامية بين سقوط الحضارة الرومانية وظهور الحضارة الحديثة بما أطلق عليه فى الغرب « العصور الوسطى المظلمة » وفى ذلك يقول العلامة بريفولت :

« إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا » :

« إنه يدين لها بوجوده نفسه »

« فالعالم القديم لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية واستجلبوها من خارج بلادهم وأخذوا عن سواهم ولم تتأقلم فى يوم من الأيام فتمزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

« وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الإيجابية والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقـــة المستمرة والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريبا عن المزاج اليونانى ولم يقارب البحث العلمى لشأنه فى العالم القديم إلا فى الأسكندرية فى عهدها الهلينى .

« أما ماندعوه العلم فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربى .

« إن روجر بيكون درس اللغة والدين والعلم العربى والعلوم العربية فىمدرسة اكسفورد على خلفاء معلمين فى الأندلس وليس لروجر بيكون ولا لسميه (فرنسيس بيكون) الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى إبتكار المنهج التجريبى فلم يكن روجر إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلامى إلى أوربا المسيحية وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق » .

هذه الشهادة ليست هى الأولى وليست هى الأخيرة فقد فتح باب الكشف عن دور المسلمين والعرب حتى لم يعد لتلك الشبهات المخزية التى رددها بعض كتابنا التابعين للفكر الغربى والموالين للتغريب ، لم يعد لها إلا أن تكشف عن خديعتهم وتضليلهم .

التحديات فى وجه التربية والتعليم

لقد كان التعليم وكانت التربية من أخطر المناهج الثقافية التى تعرضت لخطر التغريب والتزييف ، فقد كان الاستعمار يعرف أنها الباب الاول والأكبر لتركيز نفوذه ، ولذلك فقد عمد إلى إنشاء المدارس الأجنبية وسمح للارساليات التبشيرية بأن تركز نفوذها وتحتوى أبناء المسلمين والعرب فى معاهدها التى كانت قد أعدت مناهج غاية فى الخطورة ، ثم انتقلت هذه المناهج بفضل النفوذ الاستعمارى إلى المدارس الوطنية التى كانت تحت إشراف الاستعمار .

وكان الهدف هو القضاء على اللغة العربية والتاريخ والاسلام والقرآن وتزييف كل معالم هذه الثقافة العربية الاسلامية والغض من قدرها وإثارة الشبهات حولها ، وتغذية الشباب المتعلم العربى الاسلامى بجوانب معينة من الثقافة الغربية أعدت على نحو خاص تستهدف أمرين :

(الاول) اخراج الشاب المسلم العربى من قيمه ومجتمعه وتحقير كل صور هذا المجتمع العربى الاسلامى وتراثه ولغته .

(الثانى) إعلاء شأن الدولة المحتلة وتاريخها وبطولاتها ولغتها وخلق جو من التبعية والولاء الفكرى والروحى بين أبناء الأوطان العربية الاسلامية وبين الدول المحتلة المستعمرة ومحاولة تصوير هذه العلاقة بأنها صداقة فى ظل وحدة الفكر العالمى أو وحدة الثقافة البشرية إلى غير ذلك من أساليب المغالطات والتمويه . وكان الهدف من وراء ذلك تذويب الثقافة العربية فى بوتقة الفكر الغربى المستعمر وإزالة عوامل القوة والمقاومة والإيمان بحق الأمم فى حرياتها وقيمها ومفاهيمها .

ولقد قاست الثقافة العربية نتيجة هذه التحديات التى واجهت التعلم والتربية نتائج بعيدة المدى كان أشدها خطراً اعتماد أساليب التربية الغربية والتنكر

لأساليب وأصول التربية العربية الاسلامية القائمة على الدين والخلق وعلى الايمان بالله وعلى كلمة القرآن وعلى البلاغة العربية والقيم الروحيه والفكرية والاجتماعية الاسلامية .

ولقد ترددت دعوة المصلحين ورجال حركة اليقظة العربية الاسلامية ولم تتوقف لتحرير مناهج التربية والتعليم من خطر الزيف الغربى الوافد الذى أفسد معالم النفس العربية والعقل العربى افساداً شديدا اذ ربطه بفكر اخر له مقوماته وذاتيته وطبيعته المختلفة بل المتباينة .

ودعت هذه الصيحات إلى الاستقلال الثقافى الذى لا يعنى كراهية الثقافات الأجنبية ولكن يدعو إلى الاقتباس منها على ضوء حاجة الامة وشخصية الانسان العربى ومقومات فكره ، ذلك أن التقليد الغربى فى مجال التربية والثقافة من شأنه أن يقضى على الشخصيه والذاتية ويفنيها فى الطابع الأجنبى .

ولقد أشار المصلحون إلى أن نظام التعليم فى أى بلد لا يكون نظاما قائما بذاته يعمل بمفرده مجرداً عن النظم الاجتماعية السائدة فى البيئة التى ينتسب اليها وإنما يكون جزءا من مجموعة النظم الاجتماعية والخاصة بتلك البيئة ، وهو يعمل معها ويؤثر فيها ويتأثر بها على الدوام :

فإذا انتقل هذا النظام التعليمى إلى بلد آخر ، منفصلا عن سائر النظم التى ترافقه فى منشئه الأصلى فإنه سوف لا يعطى أية نتائج إيجابية أو مماثلة (١) ولقد تصارع نفوذ التعلميين الفرنسى والانجلو أمريكى فى البلاد العربية وأحدث انقساما فكريا مزعجا بين المثقفين بل أحدث ولاءاً مزدوجا خطيرا .

---

(١) بتصرف عن رأى بعض خبراء التربية والتعليم

فضلا عن أنه أبعد اللغة العربية وأحيا على حسابها اللغتين الانجليزية والفرنسية مما أعان دعاوى المستشرقين والمبشرين فى الهجوم على اللغة العربية ومحاولة إذاعة العاميات فى العالم العربى .

وكانت مدارس الارساليات فى معظم أجزاء البلاد العربية خاضعة لنفوذ الاستعمار ومتحررة من الرقابة بحكم سطوة الامتيازات الأجنبية ومن هنا فقد استطاعت أن توجه خريجيها توجيهات مسمومة خاضعة للاستعمار والصهيونية .

وقد شهد هاملتون جب المستشرق الانجليزى المعروف أن إنماء التعليم تحت الإشراف الانجليزى فى مصر والهند ، جعل نصيبا من الحق التهم التى ترمى بها المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ فقد ربى فى التلاميذ خروجا على الأنظمة الاجتماعية .

وأشار سير بانيكار إلى هذا الأثر فى كتابه (مشكلات الدول الاسيويه والافريقية) حين قال : لم يكن من مصلحة الاستعمار أن تروج تربية حيوية تدعو إلى الانطلاق . كان يراد التقليل من قيمة الثقافة الوطنية وتمجيد فضائل السيد الأجنبى وإبراز أهداف التربية الاستعمارية وإثارة الروح الانهزامية فى نفوس المواطنين لتتمكن من التحكم بهم وبجيرانهم دون عناء كبير .

غير أن المسلمين والعرب واجهوا هذه المدارس بعمل ضخم فى مجال التعليم وهو إنشاء المدارس الأهلية والوطنية الاسلامية العربية وكانوا قادرين على استيعاب أكبر قدر من الشباب واستطاعت الأصالة العربية الاسلامية أن تتحكم فى نفوس عدد كبير من الذين تلقوا دراساتهم فى الغرب وفى هذه المعاهد ليفهموا الحقائق ويعودوا إلى المنابع ويلتمسوا ذاتيتهم وفكرهم الأصيل وأن يتحرروا من سلطان الغرب وسلطان التغريب ويعملوا على خلق فكر عربى حر قائم على الأسس العربية والأمجاد والقيم الاسلامية وتحطمت إلى حد كبير محاولة الغزو الثقافى فى تدمير الذاتية العربية الاسلامية عن طريق التربية والتعليم .

كانت دعوة التغريبيين منذ بدأ الاحتلال الغربى هو اتخاذ النظـــام الليبرالى الديمقراطى الغربى أسلوبا سياسيا للبلاد العربية ، وكان لطفى السيد وسعد زغلول وعبد العزيز فهمى على رأس هذا النظام وذلك بإنشاء الدستور والنظام البرلمانى الذى أثبت فشله فشلا ذريعا بعد ثلاثين عاما وهو النظام الذى مازالت بعض أقطار العالم العربى تأخذ به وتسير عليه وليس ريب أن هذه الأنظمة الوافدة قد بدت متعارضة مع طابع النفس العربية والمزاج الاجتماعى الاسلامى .

وكذلك بدت التحديات فى مجال علم النفس والأخلاق والنظريات الاجتماعية والاقتصادية بحيث استوعبت مختلف فروع الثقافة العربية والفكر الاسلامى .

واستجاشت النفس العربية بالدليل الصحيح ووجهة النظر الصائبة فى مواجهة كل هذه النظريات فلم تدع قضية من هذه القضايا دون أن تقول فيها الرأى الصحيح ووجهة النظر العربية الأصيلة المستمدة من مضامين الفكر الاسلامى .

وعجزت كل هذه المحاولات عن استيعاب العربية أو احتوائها أو إذابتها فى أتون الفكر العالمى الذى يتطلع الاستعمار إلى إذابة الأمم فيه وخاصة الأمـــة العربية الاسلامية ذات المنهج الأصيل المفرد المختلف فى جوهرة اختلافا بينا عن جميع الفلسفات البشرية المعروفة والذى يقوم أساسا على التوحيد وتستمد منهجه من القرآن : النص الموثق الذى لم يحرف ولم يأتيه الباطل .

وسيطول الصراع بين تحديات التغريب وبين أصالة الثقافة العربية ولكن حركة تصحيح المفاهيم ستظل قادرة دوماً على تحرير القيم الأساسية من كل زيف .

(١٠)

البناء على الاساس

البناء على الأساس

مايزال الفكر العربى متميزاً بقيمه ومفاهيمه وأسسه الواضحة منذ استكمل هذا الفكر تكوينه وقد كونته وصنعته : الأمة واللغة والاسلام . وسيظل كذلك واضح الشخصية ، مستقلا ، تعجز كل القوى عن أن تذيبه أو تنفيه أو تقضى عليه .

وترجع هذه القدرة على البقاء إلى أصالته ومرونته وحيويته وإنفتاحه على الحركة والأخذ والعطاء ، وطبيعته السمحة غير المعقدة ، التى تلتقى بالثقافات والحضارات فتأخذ منها وتدع ، وتتجاوب معها ، دون أن تفقد مقوماتها الاصلية أو تنحرف أو تنحاز ، أو تنطوى أو تصهرها بوتقة أى ثقافة أو حضارة .

وقد أكد تاريخه الطويل هذه الظاهرة ، وأصبحت بالتجارب المتعددة من لقاء الثقافات والحضارات المتوالية خلال أكثر من ألفى عام ، تكاد تشبه الحقائق الخالدة التى لاتتخلف ، ومن طبيعة الثقافات الغالبة دائماً أن تسيطر وأن تستوعب ثقافات غيرها من الامم فى باطنها بغية أن تطوى هذه الأمم فى نطاقها ، ولكم إنطوت ثقافات أمم مغلوبة فى ثقافات غالبة ، وضاعت مقومات فكر هذه الامم يوم هزمت لغتها وفكرها ، الا الفكر العربى فقد كانت خصائصه قادرة دائماً على أن تتصل بالثقافات دون أن تفنى فيها ، ولقد تزول الدولة والكيان السياسى بقدرة الغالب وسلطانه ، ولكن لاتزول قيم الفكر ولاتنهار وأن غابَ عليها مع نفوذ المستعمر

تحول وفق فى المفاهيم ولكنها تظل مع ذلك تقاوم ولاتستسلم ، وقـــد تضعف ولكنها لاتموت .

ولقد واجه النفوذ الغربى هذا الفكر العربى فى مرحلة من مراحل الضعف ومن هنا استطاع وهو المسيطر بسلطانه السياسى والعسكرى ونفوذه الفكرى أن يؤثر فى بعض المفاهيم ، وأن يضعف بعض القيم وأن يثير بعض الشبهات . ومن عجب أن الضربة لم تفقد الفكر العربى الوعى بل كانت حافزاً له على الحركة ورد الفعل .

ومن هنا سارع الى تجديد أساليبه ، وإبراز جوهره ، وإعادة صياغة قيمه على نحو جديد ، قوامه بعث للمفاهيم الأصيلة ، والكشف عن قدرتها على الالتقاء مع الحضارة والتطور والحياة .

كان الغرب قد هاجم العالم العربى محتلا مستعمراً ، وفق خطة واسعة بعيدة المدى تهدف إلى السيطرة ، وكانت خطته الجديدة فى أوائل القرن التاسع عشر بديلا لخطة الحروب الصليبية التى انتهت قبل ذلك بثمان قرون (١٢٩١ م) بهزيمة الغرب واندحاره . كان الباعث الظاهر هو البحث عن الخامات والأسواق ، ومن وراء هذا الباعث التسلط الغربى وفق نظرية الرجل الأبيض ممدن العالم وصاحب الحضارة ، وعلى أساس نظرة الحضارة الرومانية بأن ماسوى أوربا عبيد ومناطق إستغلال .

ومن هنا كانت خطة الغزو الاستعمارى تحمل طابع التفوق الحضارى وإستعلاء الجنس ، والتفرقة بين الشرق والغرب ، وكان هناك إلى جانب مفهوم خاطىء متعصب ، ذلك إيمان فى أعماق النفس الغربية بإجلاء العرب والمسلمين عن مناطق كانت تابعة للغرب وللرومان ولأوربا سيطر عليها العرب وهى كل ماسوى الجزيرة العربية وكان هنـاك إحساس عميق بأن

هزيمة الحروب الصليبية إنما كان مصدرها الفكر العربي أساساً ، هذه القيم المؤمنة بالحرية والكرامة والقادرة على المقاومة ، ورد العدوان ، ودحر الغاصب ، والتى لاتقبل أبداً أن تذوب فى غيرها من الثقافات أو تعيش خاضعة مهما طال بها المدى ومن هنا وضعت مخططات إخضاع العالم العربى باخضاع فكره وتحويله عن مفاهيمه الاساسية والقضاء على قيمه الاصيلة ، وكانت هذه معركة أشد ضخامة من المعركة فى ميدان الحرب والسياسة ، ذلك لأن المعركة القضاء على مقومات الفكر العربى كانت تعنى بقاء النفوذ الأجنبى وسيادته وسيطرته بعد انتهاء السلطان السياسى والعسكرى جميعاً .

ومن هنا بدأت الحملة الضخمة التى شنها النفوذ الغربى ممثلا فى دعاته أمثال كرومر ، ودنلوب ، ولافيجرى وليوتى وغورو وعشرات غيرهم من ممثلى الاستعمار فى العالم العربى ومن ورائهم ويلكوكس ووليمور وزويمر ممن حملوا لواء دعوات التغريب والشعوبية والتبشير وأثاروا عشرات الشبهات حول العرب والإسلام واللغة العربية والقرآن والتاريخ والتراث .

ولقد واجه الفكر العربى ممثلا فى أقلام أعلامه ودعاته هذه الحملة البعيدة عن منهج العلم والقائمة أساساً على التعصب والتحدى وراءها ذلك الهدف البعيد الذى صورنا ، واجهها الفكر العربى فى سعة أفق ، وسماحة طبع واستعلاء عن الهجاء والحقد والتعصب ، وكشف عن حقيقة موقفه من كل شبهة تثار .

غير أن معركة التغريب لم تتوقف ، وهى تتحول بمضى الزمن فى صور مغايرة وتصطنع أساليب جديدة ، ومن حق الفكر العربى أن يواجهها دائماً ولايتوقف عن « تصحيح المفاهيم » التى يريد التغريب والشعوبية فرضها فى ظل تطور الأمة العربية القوى الناهض المندفع اليوم إلى آفاق القوة والحرية .

ورسالة (تصحيح المفاهيم) فى إعتقادى هى اليوم عمل أساسى ، ما دام يقوم على أساس مستنير ، يستهدف الغاية العليا التى ترمى إلى وحدة الأمة العربية والتقائها فى طريق فكرى واضح المعالم ، بعيداً عن شبهات التغريب وأهواء الشعوبية ، ذلك أن من أكبر الأعمال التى تحمى نهضتنا اليوم ، هى حماية الفكر العربى من حملات تحويله من ، مقوماته الأساسية ، فى ظل اندفاعنا القوى فى ركب الحضارة العالمية ، ان إيماننا بالحركة والتطور والتجدد لاحد له وإيماننا بثورتنا التحررية العربية التقدمية أكيد وصادق .

هذا إيمان نابع من مفاهيمنا الأصيلة فنحن لانتخلف ولانتوقف فى ركب الحياة ، والحضارة فى مفهومنا : إنسانية الأصل والطـــابع ، وهى حظ مشترك بين الامم ، تخلفنا عنها فترة ، ثم نحن نعود اليوم فنشارك فيها ونحمل أماناتها ، ولقـــد كان لنا فى ركبها دور ، وفى بنائها أثر ، وفى تطويرها عمل إيجابى واضح ، ونحن اليوم لاننكرها ، وإنما ننكر انحرافها وحين نأخذها لانأخذ فكرها ، وإنما نأخذ مايزيد شخصيتنا قوة وحياتنا إيجابية .

ونحن لا نقف إزاء التطور بل نمضى معـــه فى وعى بـكياننا ومكانتنا وشخصيتنا وقيمنا ، كل شىء نقبله نستطيع أن نصوغه بو تقتنا فنحن أولا نفرق بين الثقافة والحضارة . فالثقافة فـكر والحضارة مادة . وليس ضروريا أن نمارس الثقافة إذا مارسنا الحضارة . وفـكر الغرب (بجزئيه الغربى والمـاركسى) يتسم بالمادية ، لعله اتخذ الطابع المادى نتيجة لامتزاج مفاهيم الـكهنوت مع وثنية الاغريق ووقوف الـكنيسة إزاء النهضة دون فهم حقيقى لمدلول الدين أو طبيعة المسيحية الأصلية . أما فـكرنا (العربى الاسلامى) فلم يقف أمام أى تطور وبه استطعنا فى الماضى أن نقبل ما نشاء من الثقافات العالميـة ونرفض ، وهـذه القدرة الديناميكية الحية لم تـكن تتحقق لنا إلا لأن لنا أساس فـكرى ، نؤمن به ويملأ أعماق نفوسنا .

القاعدة فى هـــذا الأساس أننا أمة لها طابعها وكيانها وشخصيتها ومقوماتها وهى لا تتوقف عن النمو والتطور ، وتفتح نوافذها على كل الثقافات لتأخذ منها ولـكنها تأخذ بحكمة وبصيرة ما يزيد شخصيتها قوة لا ما يمحو هذه الشخصية .

إذا لم يكن هـذا إيماننا فلا أقل من أن نقلد الغرب الذى يجعله الـكثيرون موضع القدوة ، فهو عندما نقل ثقافتنا العربية حولها إلى مجال فـكره ولم يتحول معها .

إن نظرتنا إلى ثقافة الغرب ، يجب أن لا تـكون مقدسة ، بل قابلة للنقض ، إذ علينـا أن نؤمن بشخصيتنا فى مواجهة كل ثقـافة أو حضارة ، فنحن نؤمن بأنفسنا أولا . وفى ظل هـذا الإيمان نقبل أو نقتبس دون حرج ، ولـكن بوعى وحصافة ، لن نـكون تابعين ، أو صورة منقولة للآخرين ، فإننا إذا فعلنا

ذلك فقدنا شخصيتنا بطابعها الواضح ، ولم نصل إلى شخصية الآخرين ، سنكون (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) .

من حق إيماننا باستقلال شخصيتنا أن نأخذ ما نريد من أى ثقافة ونحوله إلى كياننا .

إن أساس قيمنا هـــو ارتباط الروح بالمادة وامتزاج الدين بالفكر ، وثقافتنا منذ ثلاثة عشر قرنا هى ثقافة مزدوجة فيها الإيمان والعلم ، وهذا سر عظمة شخصيتنا وقوة حيويتها وإيجابيتها . فإن الذين فصلوا الروح عن المادة ، وأسقطوا حجاباً كثيفاً بينهم وبين هذا المزيج ، واكتفوا بالقيم المادية قد غلبت على مجتمعهم الحيرة والقلق والاضطراب ومازالوا يصارعون بين المذاهب من ماركسية ووطنية وعلمية وعنصرية وفوضوية ورأسمالية وجماعية وفابية وفاشية وفردية ودولية ليجدوا نموذجا كاملا لمجتمع ونظام ، فلم يجدوا منذ القرن الخامس عشر شيئاً إلا مزيدا من الاضطراب والتجارب التى لا تنتهى إلى شىء . ذلك لأن عنصراً أساسياً ينقص الفكر الغربى والثقافة الغربية (بجزئيها الغربى والماركسى) ذلك العنصر هو ما عبر عنه كثيرون من الفلاسفة والفكرين أمثال: شبنجلر وهيجل وتوينبى : الروح ، الدين .

وهـــذه هى أزمة الإنسان المعاصر ، وأزمة الحضارة ، ولاشك أن الحيرة والاضطراب الفكرى الذى يمر به الفكر فى الشرق هو نتيجة لهذا الصراع بين جزئى الفكر والحضارة . ومزيج الروح والمادة .

وليس اعتمادنا على قيمنا الأساسية معناه إنفصالنا عن دائرة التطور أو الحركة الحية ، إنما يقوم هذا العمل على أساس أن مقوماتنا كاملة عريقة ذات تاريخ وفكر

وحضارة ، هى التى ستعطى النور لطريقنا فى رحلة الحياة ، فان هذه القيم لم تعقنا أبداً إزاء التطور والنهضة طوال القرون الأربعة عشر ، بل لعلها هى التى أعطتنا القوة على الاستمرار والحياة ، فلم نمت قط ، فإن ضعفنا فترة أو جمدنا عن الحركة فإنما كان مصدر ذلك تخلينا عن « مقوماتنا الأساسية » .

• • •

فإذا عرفنا مدى ما يدبر لفكرنا « العربى الإسلامى » من مؤامرة للقضاء على مقوماتنا كأساس للقضاء على كياننا ، استطعنا أن نعرف حاجتنا الكبرى إلى اليقظة والوعى فإن كانت الجيوش الأجنبية قد جلت عن معظم أجزاء وطننا الأكبر فإن جيوبا ماتزال حية تصارع قد خلفها الاستعمار السياسى وأعطاها قوة الحياة خلال فترة حكمه الطويلة التى استمرت منذ ١٨٣٠ تقريباً إلى اليوم .

هـذه المؤامرة التى رسمها الغرب إنما تهدف إلى استمرار بقاء نفوذه فى صورة أعوانه ، ولا يبقى هذا النفوذ إلا إذا تحطمت القيم الأساسية لأمتنا وحلت محلها قيم أخرى لن تجعلنا غربيين ، بل خلقا ممسوخاً لا هو من الشرق ولا من الغرب .

وتبدو صورة هذا العمل تحت لواء حركة « الشعوبية الفكرية » الجديدة فى وطننا العربى والإسلامى . وهو غزو جديد ثقافى يقيم دولة « الاستعمار الفكرى » وأساسها « تغريب الشرق » . وتحمل هذه الحركة دعاوى « الحرية والتجديد والتقدمية » مثل هذه الألفاظ المطاطه التى لم تتحدد بعد دلالاتها ، وهى تسلك طريقا سهلا هو تحطيم الماضى واعتباره تراثا يدخل المتحف ، وهذا رأيها فى اللغة الفصحى والكتابة بالعامية والسخرية من القيم الروحية والدين وهذا هو التحرر ، وليس من شك فى أن هذه الدعوة سهلة ، تجد من يستجيب لها من شبابنا الذى لم يجد تكوينا روحيا فى أسرته ولا مدرسته ، والذى لم تتح له مناهج

التعليم ، تربية ، أصيلة ، ومن هنا تستطيع هذه الصيحات المغرية ، بكلماتها البراقة — وقد أتيح لها البروز وأعطتها الصحف فى بعض عواصم العالم العربى فرصة الذيوع — أن تصل إلى الكثيرين بينما لم يتح مثل ذلك للكلمة الموجهة ، فالصحافة قد عرفت طريقها بعد الحرب العالمية الثانية على أنها أداة إرضاء القارىء تعطيه ما يرغب فيه من متع وتسلية وهى تفهم أن تلك وظيفتها وأن ليس من عملها التوجيه أو التوعية الفكرية والثقافية إلا بقدر ميسور ، وربما كان هذا التحديد بالذات لعملها مخالف لما كانت عليه من قبل ، أو نتيجة لثقافات محرريها واتجاهاتهم ومفاهيمهم المرتبطة بالفكر الغربى فى الأغلب ، مع حساب دقيق للتوزيع وإغراء القارىء بشراء الصحف على أساس أنها سلعة تجارية ، ولاشك أن هذا الفهم قد تحول (اليوم) فى ظل يقظتنا الجديدة ومضى يشق طريقاً جديدا — ولكن الذى يعنينا هو آثاره ونتائجه (فى الفترة الماضية) فلا شك أن الصحافة اليومية إذا توفر لها عمق الوعى بهذا الخطر الجديد الذى يواجه أمتنا وفكرنا ، لكان دورها هاماً ونتائجه بعيدة المدى فى تعميق « المفاهيم الأساسية » لأمتنا .

* * *

أقول هذا وأمامى فكر غربى ينظر إلى أمتنا وقيمنا فيصدقنا القول ، لست أورده إلا لأنى أعرف قدر ما يفعل ذلك فى نفوس ألفت إلى فترة بعيدة أن ترى فى فكرها رأى الأجنبى عنها ، فإذا كانت تهتدى به فى جانب تدمير شخصيتها فما أولاها وهى بصدد تكوين طبيعة استقلالية لها ، لاتأخذ كل شىء ولا تترك كل شىء ، أن تفهم وجه النظر الأخرى . يقول جوستاف لوبون : إن تهذيب الشرق بالمعارف العصرية الأوربية لن ينفعهم إلا إذا كان ضمن دائرة عقيدتهم وقوميتهم وأن العلوم العصرية لا تفيدهم إلا إذا قرنت بتربيتهم الروحية وسارت جنبا إلى جنب مع أوضاعهم وعقائدهم . أما إذا مضت خارجة عن دائرة تقاليدهم وعقائدهم فإنها تزيدهم انحطاطا وفساد أخلاق ، ولاشك أن جوستاف لوبون كان يعرف

تماماً تجربتنا فى أوائل هذا القرن إزاء الغزو السياسى والفكرى من الغرب ـ والطريق الذى اضطررنا إلى أن نسلكه مرغمين دون أن يتاح لنا القدرة على مقاومة التبعية للفكر الغربى إلا بعد عدة عقود من هذا القرن .

وفى نطاق هـــذا الرأى نرى الشيخ محمد عبده يحادث الفيلسوف البريطانى « سبنسر » فنجد أن رأى هذا الفيلسوف (المادى) الفكر فى الغرب واضح الدلالة ، يقول : محى الحق من عقول أهل أوربا بالمرة واستحوذت عليهم الأفكار المادية فذهبت الفضيلة ، وهذه الأفكار المادية ظهرت فى اللاتين أولا فأفسدت الأخلاق وأضعفت الفضيلة ثم سرت عدواها إلى الغربيين » .

وهنا تبدو حقيقة « القلق » والحيرة التى تضطرم الفكر الغربى كله ، وهـــو ما اعترف به الفلاسفة من بعد وحاولوا جاهدين فى سبيل الوصول إلى حل له ينقذ الحضـارة من الانهيار .

وقد صور « لاسكى » أزمة الحضارة فعزاها إلى انفصال المادية عن الروحية وهما يمتزجان فى الفكر العربى امتزاجا يحول دون الوقوع فى هذه الأزمة التى يعانيها الغرب منذ عدة قرون .

يقول « لاسكى » لقد أطفأ العلم أنوار السماء ولا طريق للخلاص إلا فى ظـــل الحاضر العاجل . منذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل فى الصناعة الجديدة . والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التى تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا ، دون أن يساندها مبدأ ما ، لن يصلح لها أى معنى ، إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف .

وقد التمست فى بعض المذاهب الشاملة شيئا يكون دينا أو كالدين ،

ولم تستطع القومية أو الديمقراطية أو الفاشية أو الماركسية أن تسد فى قرن أو قرنين مسد الدين الذى أشبع العقول والقلوب من قرون وقرون .

وعالجت الحضارة العربية بعض أزماتها فى ميدان علم النفس تحاول أن تسد الثغرة الروحية فى بناء الحضارة المادية بعلم يسير على مناهج العلوم التجريبية المادية . ونجح علم النفس حين تواضع وأخفق حين جمح ينشد فلسفة نفسية كاملة أو دينا جديداً وأشار فى نجاحه وإخفاقه إلى الضمير الغائب (إلى الدين) .

هذا النموذج ونماذج كثيرة تستطيع أن تعطينا رأى الغرب فى ثقافته وفكره ، وتكشف عن مصدر حيرته وقلقه . وتصور أزمة الحضارة ، هذه الأزمة التى لايعرفها فكرنا العربى الإسلامى فى أسسه وقيمه ، والتى أخذت تتسرب إليه اليوم نتيجة لخطأ فى النقل والاقتباس . خطأ مصدره القصور عن بناء التطور الفكرى والثقافى على أساس المقومات الأصيلة لأمتنا وشخصيتنا وفكرنا وستزداد هذه الحيرة كلما بعدنا عن الجذور والأصول .

والرأى أنه يتحتم علينا إلا نوغل فى الرحلة وراء الفكر الغربى المستورد إلا مسلحين بقيمنا ، وأن نتنبه إلى مؤامرة « الشعوبية » التى تستهدف تمييع المفاهيم وتحويلنا إلى شخصيات ممسوخة ليست شرقية ولاغربية . فإذا وعينا مكانتنا وشخصيتنا ومايراد بها ، أمكن أن ننقل ماشاء ونأخذ وندع ، ونكون أكبر من أن يغمرنا طوفان أى فكر أو تجرفنا رياح الشعوب .

تلك هى قضية أمتنا اليوم ، وأما أمتنا فى هذا الجيل ، فقد انقسمت

فيها العقدة التى كانت تقول « إننا نعيش على هامش الحضارة ، ولذلك فنحن نتشبث بتراثنا القديم » ، لم يعد لهذه العقدة مكان اليوم ، فنحن نعيش فى عصر الصناعة والعلم العربى ، وقد وصلنا إلى أول الطريق فى مجال التكنولوجيا والبناء الحضارى فى عوالم الماكينة والذرة .

غير أننا نجدنا فى هذا المجال أحوج مانكون إلى أن لايجرفنا فكر الحضارة المادية تابعاً (للآلة) فنحن نأخذ الآلة ولكن لا نأخذ فكرها ولكن نبدع أيدلوجيتنا النابعة من أعماق ثقافتنا وفكرنا وقيمنا وقد قطعنا على أنفسنا العهد إلا نستورد أو نكون تابعين للآخرين .

هذه هى مهمة جيلنا المفكر اليوم وهذه أمانته ، أن ندفع « الشعوبية الفكرية » فلا ندعها تدمر قيمنا وشخصيتنا ومقوماتنا الأساسية ، ندفعها باليقظة والفهم لجوهر فكرنا . وبعد فهذا اجمال له تفصيل .

الاستعمار الفكرى

لقد تحررنا من عبودية الاحتلال الأجنبى وبقى أن نتحرر من عبودية الفكر . جلت الجيوش عن بلادنا ، ولكن بقيت قوى الغزو الفكرى مقيمة . إن أقوى هذه القوى هى «الشعوبية» وأن أقسى مانواجهه الآن أننا لم نزل غير قادرين على أن نفكر على مستوى الأمة الكبرى . مازال تفكيرنا فى أغلب أجزاء العالم العربى إقليميا رغم إيماننا بالوحدة . مازال نقدس الحدود الموهومة التى وضعناها . مازال نواجه أنفسنا مجردين من شعور الثقة بأنفسنا وشخصيتنا وأمتنا ، وقدرتها على أن تأخذ مكانها الإنسانى . مرجع هذا إلى ذلك النقص فى تكويننا الفكرى حين نواجه قيمنا ولغتنا وتاريخنا . هذا التراث نحن لاننظر إليه بعين الفخر أو الغرور التى تخدرنا أو تصرفنا عن واجبنا فى معركة الحياة والتطور والواقع . ولكننا ننظر إليه كعامل دافع يعطينا إيمانا بأننا أهل لأن نأخذ مكاننا الحق على وجه هذا الكوكب .

لقد خرج المستعمر من وطننا ولكنه خلف لنا « بذورا » لم نواجهها بعد مواجهة جادة . ربما كان لبقية من « عقدة الأجنبى » فى نفوسنا أثر فى الزهو باعتناق آراء الغير . وهذا هو النظر السطحى للأمور . وإذا كنا لانمتنع عن قبول كل ماتقدمه الثقافات والحضارات العالمية ولانغلق أبوابنا إزاءها . فان علينا أن نواجهها ونحن على درجة عالية من القوة والكفاءة والرشد الفكرى . فليس هناك من يرمينا بالنقص عندما نقوم مايقدم لنا . بل هو النقص كله أن نقبل مايميع شخصيتنا أو يدمر مقوماتنا . كذلك فعل الغرب عندما واجه حضارتنا وثقافتنا ونحن فى أوج القوة وهو على أعتاب النهضة . إنه لم يأخذ كل ماعندنا ولكنه أخذ مايزيده قوة ويحفظ كيانه وشخصيته . أفلا نفعل كما فعل . أفلا نكون أقدر وأرشد حصافة وذكاء من أن ندمر مقوماتنا .

وقد تنبه المفكرون والكتاب منذ وقت بعيد إلى قضية الاحتلال الفكرى والغزو الثقافى غير أن هذه الصيحات كانت تتوقف كثيرا . فلا تصل إلا إلى عدد قليل . أما اليوم فقد حق أن تتصل وأن تصل إلى كل الأسماع . إن فكرة الغرب فى سيطرته على الشرق تهدف أساسا إلى الإخضاع الفكرى لا المادى والاقتصادى والسياسى وحده . وشعارهم فى هذا (من يحتل أرضك يحتل فكرك) ومن يسلب بلدك يسلب روحك . فإذا كان الاحتلال العسكرى قد انتهى أو أوشك على النهاية فإنه قد خلف الاحتلال الفكرى الذى لا يمكن إجلاؤه إلا بعد فهم عميق لدقائقه وقدرة واعية على التحرر منه .

وهدفنا هو أنه لا تصبح العقلية العربية عقلية قومية غربية بحال . إننا لن نغلق النوافذ ولن نوقف النظر والاقتباس من الفكر الإنسانى فنحن شركاء فيه أساسا ولكننا لا ندعه يجتاحنا ويفرض مقوماته علينا . فيقضى على قيمنا الأساسية .

إن مكونات فكرنا الأصيلة التى تعتمد أساساً على اللغة العربية وروح الدين وتاريخنا وشخصيتنا ذات الملامح الواضحة يجب أن تكون أساساً لكل علاقات (الأخذ والعطاء) فى دنيا الفكر والثقافة .

أما إذا انهارت هذه المقومات فمعنى ذلك هو أن نصبح « شيئاً متميعاً » غامضاً ، ليس هو نحن أساساً ولا هو غيرنا .

هذا هو مصدر الخطر . أن نقبل كل شىء دون أن يكون منسوجاً على أحجامنا . لابد من هذا التحفظ فى مواجهة الفكر الغربى . وليس هذا أمراً ينقص من قدرنا . بل إنه على العكس سيعطينا قيمة ووزنا فى نظر غيرنا . ان كل شجرة من أشجار الفكر الإنسانى لنا فى جذورها بذرة

ولنا فى تكوينها أثر . ولكنها حين قامت فى حضانة الغرب إنما قامت على أساس مقومات تتفق مع ثقافته وبيئته وتراثه . والفكر الغربى يقوم أساساً كما أجمع على ذلك أغلب كتابه على مقومات هى :

(١) التراث الرومانى واليونانى (٢) المسيحية الغربية (الخاصة) وهى غير المسيحية السمحة (٣) المفهوم المادى الصناعى . وهذه مقومات تختلف أشد الاختلاف مع مقومات فكرنا . ولذلك فإن القول بالتقاء الفكر العربى الاسلامى مع الفكر الغربى إلتقاءاً كاملا أمر عسير ، وإذا كان الغرب حين إتصل بالفكر العربى الإسلامى فى أوائل النهضة لم يتميع أو يضيع فيه ولم يتحول إليه ، وإنما أخذ منه وأعطى ما كون له بناء حياته على أساس من مقوماته الفعلية . فما أحرانا أن نقلد فى هذا (الأساس) .

على أننا اليوم بعد أن قطعنا مرحلتين من أضخم مراحل التطور وذلك بالتحرر من النفوذ الأجنبى العسكرى والسياسى وإنشاء العمل الصناعى والعلمى والتكنولوجى الواسع على نفس القيم التى يقف عليها الغرب . وصلنا إلى الطائرة النفاثة التى تسبق سرعة الصوت وتفجير الذرة وصناعة الصواريخ . فما عاد موقفنا هو موقف المغلوب والغالب بقدر ما أصبح موقف دعم أسس البناء فى مجال الفكر . مؤكدين طابعنا وقيمنا أساساً حتى لاتنهار ونحن فى طريق الثورة الصناعية .

ومن حقنا أن نأخذ حضارة الغرب دون تحفظ . وأن نأخذ فكره فى تحفظ كما فعل هو من قبل ، وكما فعل أسلافنا العرب فى القرن الرابع الهجرى ، ذلك أن مقومات فكرنا الاساسية تختلف عن مقومات فكره فى جوانب فعالة كانت وما تزال بعيدة الأثر فى طريقنا الطويل وطريقه ، فنحن نمزج الروح

بالمادة والضمير بالعقل بينما يجنح الغرب إلى المادة وحدها والعقل وحده ويجعل هدفه السيطرة على العالم وفرض سلطانه السياسى ونفوذه الفكرى ولايقبل تقديم الحضارة إلا مغلفة بالفكرة الاستعمارية الوثنية والمادية .

وخطأ الغرب يتركز فى اعتقاده أن الحضارة الغربية هى كل شىء ، وأنه لاشىء هنالك، بينما نؤمن نحن بامتزاج قوى الروح والدين والضمير مع قوى المادة والعقل ونجد من مفاهيمنا ما يعطينا من هذا المزاج حياة أكثر أمناً وإشراقاً وإيجابية ، ولم يكن هذا الفهم معوقا لنا يوما عن العمل والإنتاج والتطور .

وإذا كان الغرب يطمع فى أن يفرض فكره على الإنسانية فإنه سيجد مقاومة كبرى مارستها أمم العالم العربى الإسلامى وهى مكبلة بالقيود ، فهى أكثر استطاعة لها اليوم بعد أن انكشفت عن جيوب الاستعمار الفكرى فى عالمنا المتمثلة فى دعوة « الشعوبية » الفكرية التى تنشر رأيها فى حـــذر ودقة وتتخذ من بعض القضايا الغامضة سبيلها إلى بث سمومها ومن ورائها قوى تعينها بالأموال وتفتح لها أبواب الصحف الأنيقة التى تصدر فى بعض أجزاء العالم العربى .

* * *

وإذا كنا فى خلال سنوات الاحتلال الأجنبى قد فرض علينا الفكر الغربى فى مناهج التعليم وبرامج البحث وفى مجال الصحافة والتأليف وقام من كتابنا من دافع عنه ودعا إليه فإن ذلك إنما كان يمثل مرحلة الاضطرار ، هذه التى دافع عنا خلالها كثير من الأبرار ، ممن عرفوا الفكر الغربى وارتادوا مناهله وهاجموا فرضيته علينا فى ظل سلطانهم ونفوذهم ، وإذا كنا فى فترة الاحتلال الأجنبى قد قاومنا فما أجدرنا

اليوم أن لا نستسلم للصورة الجديدة « دعوى الشعوبية » التى أحلها النفوذ الأجنبى كحلقة جديدة فى عملية الغزو الثقافى والفكرى .

وعلينا ألا نستسلم فى ظل اقتناع بأننا قد تحررنا من الاحتلال والسلطان السياسى والعسكرى للغرب ، فان استمرار الغزو الفكرى على هذا النحو الذى يقوم به الآن وفق مخطط شعوبى تغريبى إنما يرمى إلى أبعد من الاحتلال . أنه يرمى إلى القضاء على مقومات هذه الأمة وفكرها وشخصيتها جميعا وإسقاطها نهائيا .

(٤)

الشعوبية الفكرية الحديثة

حلت « الشعوبية » مكان « الاحتلال » فالغزو الثقافى الذى مارسه الاستعمار خلال إقامته فى وطننا فى مدى قرن تقريبا قـــد خلف قوى قائمة بعد جلائه العسكرى والسياسى . هذه القوى تعمل ليبقى النفوذ الأجنبى وليقضى على مقومات أمتنا حتى لا تستطيع أن تتجمع فكريا وتتوحد لتواجه الحياة قوة ضخمة ذات نفوذ ولتبقى له بعد ذلك سيطرته الاقتصادية .

والشعوبية الفكرية الحديثة إنما تحاول القضاء على (١) شخصيتنا (٢) قيمنا الفكرية والروحية (٣) تراثنا (٤) لغتنا العربية الفصحى (٥) تاريخنا .

وقد تشكلت هذه الشعوبية منذ الثلاثينات من هذا القرن فى صورة أحزاب وهيئات وجماعات ذات طابع براق . على مستويات مختلفة : قومية ضيقة وإقليمية سياسية وشعوبية فكرية ، حاولت أن تشق طريقها وتجمع حولها الشباب الغض تصنعه وفق مخطط دقيق مدروس .

وقد مهد الاستعمار لها الطريق بدعوات مختلفة :

(أولا) العودة إلى الثقافات والحضارات القديمة كالفينيقية والفرعونية والبابليه والاشورية .

(ثانيا) التفرقة بين عناصر الأمة الواحدة والدين الواحد فابتعث قضايا الصراع بين الأجناس والمذاهب والأديان .

(ثالثا) الكشف عن الآثار القديمة واستغلالها فى هذه الدعوات .

(رابعا) رفع صوت الآداب الإقليمية واللهجات الإقليمية والتراث الإقليمى .

وليس كيد الشعوبية موجه إلى العرب وحدهم أو إلى الإسلام كدين ولكنه موجه أساساً للقضاء على مقومات « الفكر العربى » الذى هو المصدر الأول للحياة العقلية والروحية لهذه المنطقة فى محاولة لإثارة الشكوك وخلق التفرقة ، والانتقاص من التاريخ والتراث . وتشويه الماضى وهدم اللغة والاغضاء من فضل العرب والمسلمين على الحضارة مع الاعلاء من شأن الفكر الغربى والحضارة الغربية وأعلام الغرب وأبطالهم فى مجال السياسة والفكر والاختراع والعمل على تجزئة الفكر العربى الإسلامى والقضاء على روح وحدته . والفصل بين الماضى والحاضر وفرض النظريات الغربية فى مجال القومية ودراسات التاريخ والأدب وتقييم التراث . وإذاعة الفلسفات والنظريات والمذاهب العربية المتعددة المتضاربة . التى انطوت فى الغرب أو ما تزال موضع النظر والشك ، فهو يعرضها علينا كأنما هى قضايا مسلم بها . وأبرز المذاهب والفلسفات التى يدفعها بقوة إلى فكرنا : النظريات المتصله بالتشكيك فى القيم الروحية والمثل الإنسانية والتى تحاول تعرية الإنسان وإبراز حيوانيته وتصويره فى صورة المندفع وراء غرائزه وذلك فى سبيل تحقيق هدف خطير هو القضاء على القيم الأساسية للفكر العربى الأخلاقى القائم على تكريم الإنسان والتسامى به ودفعه إلى مجال « الإنسان الكامل والاعلى معا » .

* * *

وقـــد اعتمدت الشعوبية الفكرية الحديثة — وهى تستهدف القضاء على المقومات الأساسية لفكرنا العربى الإسلامى — اعتمدت على تراث قديم لها محاولة إعادة بعثه من جديد . وكان الشعوبيون القدامى قد جروا فى محاولة ضخمة لتزييف قيمنا . وأثاروا عديدا من الشبهات حول مختلف القضايا ثم جاءت الشعوبية الحديثة المتحركة فى حضانة الاستعمار والغزو الفكرى فاستغلت هذه

الآراء وأخذت تبعثها من جديد . كما وجد المستشرقون والمبشرون — الذين يتسمون باسم العلماء — فى آراء الشعوبية القديمة زادا ضخما استعانوا به فى حملتهم الضارية .

وقد ساير كثير من كتابنا ومفكرينا هذا الاتجاه على غفلة منهم أو متابعة ورضى لقاء نفوذ وجاه ومال . كما مكن النفوذ الأجنبى للقائمين بالحركة الشعوبية الشعوبية الحديثة فى العالم العربى فرصة السيطرة على بعض منابر الصحافة والجامعات ونوافذ التوجيه للرأى العام .

. . .

والرأى أننا لسنا فى حاجة إلى مراجعات علمية أو قاموسية لتحديد معنى « الشعوبية » فنحن نعتقد أن كل من يهاجم مقومات فكرنا وشخصيتنا ويزدرى تاريخنا ولغتنا أو يحاول القضاء على مقوم من هذه المقومات بالتشكيك فيه أو نقضه أو انتقاصه إنما هو شعوبى يتحرك فى فلك التغريب والغزو الثقافى .

وكل محاولة لتغليب العامية أو هدم عامود الشعر أو انتقاص التاريخ والتراث والدين إنما تجرى فى هذا التيار .

ولسنا نريد أن ندخل فى مجادلات حول القضايا المثارة كالعروبة والاسلام أو الدين والعلم أو حرية الفكر أو تقييم التراث . فليس هناك ما يمنع أن يمارس الباحث حقه كاملا فى النظر والبحث ما استقامت مفاهيمه أصلا على نفس الأصول التى ارتضتها هذه الأمة أساساً لقيمها ومفاهيمها ، ولابد أن يتوفر صدق النظرة وإخلاص النية والإيمان الأكيد بقيم هذه الأمة .

ولسنا فى هذا ندعو إلى تقديس تراثنا أو المبالغة فى تقدير فكرنا أو النظر

إليه نظرة الاستعلاء أو المبالغة . وإنما نحن نتطلع من خلاله إلى قدر واضح من الثقة بأمتنا وشخصيتها وقيمها . هذا القدر لايسمح بازدراء موارثيها ومقوماتها . وعلى هذا القدر وحده نحكم على سلامة الرأى الفاحص والرأى المثار .

أما المبالغة فى التقدير — فهى كالغلو فى الانتقاص — كلاهما منبوذ مكروه بعيد عن مقاييسنا على أساس مفهوم « وسطيه » الفكر العربى ، فى نظرة (لا إفراط فيها ولا تفريط ولا تقديس فيها ولا ابتذال) . فكلاهما بعيد عن الحق والواقع .

فإذا لم تكن النظرة على هذا النحو ، اتهمت بأنها شعوبية وعدت من أعمال التغريب والغزو الثقافى ، فى محاولة لتدمير قيمنا وشخصيتنا ومقومات فكرنا .

ونحن نعرف أن الدعوة « الشعوبية » تنبعث من مصدرين أكيدين :

١ — خصومة الغرب للفكر الإسلامى العربى والأمة نفسها ، محاولة لمنعها من القوة والوحدة والغلبة .

٢ — حقد عناصر كثيرة مختلفة فى داخل وطننا العربى لهذا التيار الجديد القوى محاولة لمقاومته والغض منه .

وإذا كان من المؤكد أن هذه اليقظة الفكرية التى تشرق فى عقل الأمة العربية والعالم الإسلامى ستجد طريقها الأصيل عندما تؤمن بقيمها الأساسية وتتخذها قاعدة لها فإن الشعوبية تعمل جاهدة على التأثير فى هذا الخط وتضليل السارين إليـــه وإثارة الشبهات والضباب حوله ، إبقاءاً على النفوذ الأجنبى ووجودها الشخصى .

(٥)

مقومات الفكر العربى الإسلامى

الفكر العربى فكر قومى يدخل فيه تاريخ العرب وحدهم ، والفكر الاسلامى وحدة يتمثل فيه فكر المسلمين وثقافتهم . أما الفكر العربى الاسلامى ، فهو اصطلاح جديد يجمع فى مضمونه المقومات الأساسية لروح أمتنا وضميرها . وقد اتخذناه فى مقابل اصطلاح الفكر الغربى (بشقيه) حتى لا نقع فى الخلط لو أننا اكتفينا بعبارة الفكر العربى(١) .

وليس أدل على إصالة مقومات فكرنا العربى الاسلامى من قدرته على الحياة خلال أربعة عشر قرناً دون أن يموت بالرغم من فقدان القوة السياسية والعسكرية واضطهاده بهذا العنف فى حملات ضاربة تمثلت فى (١) إخراجه من الأندلس (٢) إخراجه من شرق أوربا وجنوبها (٣) حملات التتار (٤) الحملات الصليبية (٥) الغزو الغربى الحديث (٦) الحملة الصهيونية القائمة .

ولاشك ان لفكرنا العربى الاسلامى رسالة وهدف وطريق مفتوح قادر على الحركة والتطور ومواجهة الأحداث والأزمنة والبيئات والحضارات المختلفة .

كما أن لكل فكر مقومات واضحة تفرق بينه وبين غيره وتكشف عن استقلاليته وطابعه المميز . وأبرز هذه المقومات فى الفكر العربى الاسلامى اللغة والعقيدة والأخلاق والتاريخ والقيم والتراث والثقافة والشريعة الاسلامية .

فالفكر العربى الإسلامى يقوم على مقومات اللغة العربية والعقيدة كمصدر

---

(١) عالجنا فى الفصول الاولى من هذا البحث العلاقة بين الفكر الاسلامى والثقافة العربية .

السانى (روحى مادى) جامع . والإسلام بحسبانه فكر وحضارة ونظام مجتمع . والتاريخ بانتصاراته وهزائمه والقيم التى رسمتها هى عصارة اللغة والعقيدة والتاريخ والتراث الذى تستمد منه الأمة جذور حياتها ومايتصل بذلك من الثقافة فى مجالاتها المختلفة .

ومن هنا يبدو الخلاف واضحا بين مقومات فكرنا ومقومات الفكر الغربى التى تتكون من عناصر تختلف عن هذه العناصر وتكون طابعا متميزا .

هذا الخلاف فى الأسس ليس مانعا من الأخذ والعطاء . والامتصاص والنقل والتلقى لثمرات الفكر البشرى وهضمها وتحويلها إلى كياننا مادمنا نقيم هذا الالتقاء على قاعدة واضحة من مقومات فكرنا وشخصية أمتنا .

تتمثل هذه القاعدة الأساسية فى خصائص واضحة أبرزها التوحيد وامتزاج المادة والروح والعقل والعاطفة والدين والعلم وفق طابع انسانى وعالمى واضح . وفى بساطة ووضوح ، مع مرونة قادرة على الحركة ووحدة الفكر والفهم .

وفى فكرنا طابع العلم والتجربة والبرهان ، مع حرية العقل وسعة الأفق والقدرة على الهضم والتمثل والامتصاص . والانفتاح أمام مختلف الثقافات والأفكار . وفى فكرنا طابع الوسط والقصد . حيث يقوم بين المحافظة والتطرف ، ويجمع بين التحليل والتأليف ، ويمزج بين الواقعية والقيم ، ويتسم بجرأة الفكر وحرارة الشعور ، مع إعتدال فى الملكات المتعارضة .

وتبدو هذه الخصائص فى أسس أربعة :

(أولا) طلب العلم فى فكرنا فريضة ، والوضوح مظهر .

(ثانيا) النأى عن الأممية قانون : (لا يكون أحدكم أمعه ، يقول إذا أحسن الناس أحسنت وإذا أساءوا أسأت) .

(ثالثا) القدرة على قول كلمة الحق : أحب من سبم الخسف أن يقول « لا » .

(ربعا) مقاومة كل عدوان على أرضنا أو فكرنا وحمايه مقوماتنا .

(خامسا) امتداد الرأى بالروح (إن موتا فى الحق لهو عين البقاء وحياة فى ذلة هى عين الفناء)

. . .

فى ظل هذه الأسس الواضحة الثابتة لفكرنا نتحرك ونتطور ونتلقى ونعطى دون أن نتخلى عن مقوماتنا . وبها ننظر إلى خطين واضحين : [داخلى وخارجى، قديم وحديث] ونتحاكم بها فى أمرهما .

(أولا) الماضى والتراث .

(ثانيا) الفكر العالمى الوافد .

فكل ما اتصل بهذه المقومات من ماضينا وتراثنا فهو خيط ممتد لاينقطع وكل ما يضيفه الفكر العالمى الوافد من قوة فنحن نقبله ونمتصه ونحوله إلى كياننا .

ونحن بهذا لانجمد ، نتحرك فى قوة فوق قاعدة عريضةهى ضمير أمتنا وملامح شخصيتها التى لاتتخلف ولاتزول . والتى امتدت على الأجيال حية نابضة بالقوة وبقيت صامدة عندما زال سلطاننا السياسى وسقطت الدولة الكبرى .

وإذا كان هناك من سبب جوهرى لزوال هذا السلطان وسقوط الدولة فإنما هو التفريط فى هذه المقومات والإلتقاء بالحضارة والفكر والحياة من دونها .

ولاسبيل لنا اليوم إلى أن تقوم نهضتنا وتنبعث أمتنا إلا على قاعدة أساسية من فكرنا ومقوماتنا الواضحة . كذلك فعل الغرب أول نهضته ، لم تبدأ من الجديد الوافد وإنما امتدت إلى القديم وارتبطت به حتى بلغ فى ذلك حد التعصب عندما أكد الغرب أن فكره الحديث يرتبط بالفكر اليونانى والرومانى على الرغم من انفصال دام ألفى عام بين أفلاطون وديكارت (٤٣٠ ق م — ١٦٥٠ م) .

لقد عاد الفكر الغربى الحديث فبعث الفكر اليونانى والرومانى وارتبط به واتخذه مقوما أساسيا بعد أن انفصل عنه أكثر من ألف عام ، أما الفكر العربى الإسلامى فإنه لم ينفصل عن قاعدته منذ أربعة عشر قرنا ومازال مقوماته هى مصدر قوته . فإذا انفصل عنها سقط وذبل فإذا عاد اليها استيقظ من جديد ودار فى الفلك دورة جديدة .

إسلامية الفكر العربى

« الفكر العربى الإسلامى ، الذى هو عصارة مفاهيمنا وقيمنا ومقومات وجودنا الروحى والمعنوى هو فكر عربى اللغة أسلامى المضمون . بما يحقق صدق القول بـ (إسلامية الفكر العربى) وهذه الكلمة لا تعنى العقيدة الدينية وإنما تعنى الجوانب الأخرى فى عالم الثقافة والعقل والضمير .

فالإسلام فى جوهره يختلف عن الأديان التى وضعت مفاهيمها موضع المقارنة به فهو واسع منها أفقا . وليس هو عقائد دينية لاهوتية فحسب وإنما هذه العقائد جزء منه ولكنه بالاضافة إلى ذلك فكر وحضارة ونظام مجتمع .

وإذا كان جانب العقائد الدينية هو ما يخص المسلمين وحدهم فان الجانب الآخر وهو ما أطلقنا عليه كلمة « إسلامية » إنما يعنى كل من عاش فى هذه المنطقة ويعيش ، لأنه عصارة ميراثه الحى الممتد المتصل بالحياة . النابض بالحياة والذى لم يكن تراثا (ligeca) بالمعنى الغربى الذى يعنى « المتحفية » .

فالإسلامية التى أضاءت للانسانية طريقها فى ظلمات العصور الوسطى ليست من صنع المسلمين وحدهم وإنما هى عصارة فكر المجموعة التى عاشت فى هذه المنطقة بكل ما تملك من ثقافات مسيحية ويهودية وهندية وفارسية ويونانية وحضارات فينيقية وفرعونية ورومانية . إذن فليست هذه الثقافة وهذا الفكر ملكا للمسلمين وحدهم وإنما هو ملك للعرب والفرس والأتراك والهنود وكل من استظل بلواء هذه الثقافة ممثلة فى الأديان والحضارات والثقافات المختلفة هذا الفكر كله هو الذى صور ضمير المنطقة وأعطاها سمة واضحة هى ما نطلق عليه كلمة «الشرق الإسلامى» أو (العروبة الحنيفية) وقد حظى العرب منها بنصيب كبير حين حفظت لغتهم هذا الميراث

واحتضنته فقد كانت العربية الفصحى هى لغة هذه الثقافة ومن هنا صح ما ذهبنا إليه من « إسلامية الفكر العربى » .

وقد أعان على خلق هذا الميراث ولا أقول « التراث » حتى لا أقع فى المفهوم الغربى لكلمة (Legace) التى تعنى بالتراث كل ما مات من آثار الفكر القديم والذى يتمثل أساساً فى آثار اليونان والرومان الفكرية التى امتصتها الثقافة الغربية الحديثة وطوتها فى أعماقها وجعلتها عنصرا أساسياً من عناصر تكوينها .

أقول : أن الذى أعان على خلق هذا الميراث هو سماحة الإسلام الذى أفسح لكل الملل والنحل من جناحيه وأتاح لكل العناصر أن تتعايش تحت لوائه ، وأن تتفاعل مع قيمه الأساسية ولقد عاش فى هذا النطاق أحرار فى معتقداتهم مفكرون وفلاسفة كبار وفقهاء وعلماء أبدعوا خيوط هذا الميراث الذى تكون واكتمل وأصبح يمثل « ضمير » هذه الأمة تصويرا يتشابه فيه المسلم والمسيحى على السواء لأنه من صنع الأجيال كلها متضافرة مجتمعة بعقلياتها وثقافاتها .

فلا ضير أن يطلق عليه « الفكر العربى الإسلامى » .

ثم هو من بعد هذا خلاصة وجداننا وعصارة مزاجنا الذى يختلف اختلافا واضحاً عن الوجدان الغربى والمزاج الغربى .

لقد كان قوام فكرنا دائما مستمدا من مفهوم الاسلام الجامع بين الروح والمادة فهو انسانى الطابع وليس روحيا خالصا ولا ماديا خالصا .

• • •

هذه هى «وحدة الفكر» الأساسية التى تقوم عليها مفاهيمنا وبها يتميز طابع أصيل فى الفكر العالمى والإنسانى الحديث وبها ننظر إلى الفكر الغربى (بشقيه) فنأخذ منه أو ندع .

والفكر العربى الإسلامى ، ما زال يستطيع أن يعطى ، فإن آفاقه لم تتفتح بعد وما تزال ذخائره مطوية لم تجد من يكشف عن جوهرها ويقدمها بصورة عصرية كما أتيح ذلك لتراث اليونان والرومان . ولذلك فهناك عذر كبير للجانحين أو ذوى الظن السيء ، هذا الظن الذى تكون لديهم فى ظل شكوك وشبهات ألقيت إليهم . ووجدوها مبسوطة ومطبوعة على ورق فاخر ومظهر حديث دون أن يجدوا من يدلهم على مايدحض شبهاتها أو يكشف زيفها بتقديم ذخائر فكرنا العربى الإسلامى يبرز مافيه من نظريات وآراء هى قوام «ضمير» أمتنا فى مجالات الحياة والمجتمع .

والعيب فى هذا أن الاستعمار الفكرى هو الذى فرض علينا منهج العمل فى مجال احياء التراث عندما وجدنا نتجه إليه . فما أحييناه من التراث إنما كان بتوجيهه وكان أبرز ما أحييناه كتاب «الاغانى» الذى أعطى أهمية ضخمة لا حد لها ، وكتابات ابن عربى والسهروردى شعر أبو نواس وبشار وكان لهذا قصد مدبر . فالأغانى كتاب يحاول أن يعطى للمجتمع الاسلامى صورة عصر شك وفسق مجون وقد اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى إصدار هذا الحكم وأذاعه به ، ومؤلفه أبو الفرج الأصفهانى (٣٥٦ هـ) كان شعوبيا منحرف المذهب ، أراد بكتابه بث روح التدمير فى فكر الأمة العربية كما عرف بأنه كان مسرفا أشنع

الإسراف فى اللذات والشهوات . وكان لهذين الجانبين من تكوينه الفكرى والخلقى أثر فى كتابه ، فقد حفل هذا الكتاب بأخبار الخلاعة والمجون فهو لا يعنى إلا الجوانب الضعيفة من أخلاق من ترجم لهم مع الأغضاء عن جوانبهم الجادة .

ولقد أثار هذا الكتاب (٢١ مجلدا) اهتمام المستشرقين واهتم به تلاميذهم فى العالم العربى واعتمد عليه كثيرون منهم فى كتابة تاريخ الإسلام وتاريخ الأدب العربى كما فعل جرجى زيدان وطه حسين وغيرهما .

وإذا كان المؤلف قد أعلن فى مقدمة كتابه أنه إنما يعنى به امتاع النفوس وأن مؤلفه كتاب أدب لا كتاب تاريخ وأنه حاول جمع ماتناثر فى الاندية من الاسمار والنوادر فإن ذلك لم يحل دون فرض هذا الكتاب كمصدر علمى فى أبحاث الكتاب والعلماء .

وقد ذكر الدكتور زكى مبارك فى كتابه النثر الفنى كيف أن المسيو ماسينون المستشرق الفرنسى وجهه إلى الاستفادة من كتاب الاغانى فى تصويره لحياة الحجاز فى القرن الأول للهجرة وكيف تحرر هو من ذلك .

والعجب أن هذا المؤلف الشعوبى قد نقل أخبار الفسق والمجون معنعنة كالأحاديث النبوية . وساق الأخبار الماجنة المتداولة كأنها حقائق علمية تاريخية لا تقبل الشك مروية بالسند فظن الناس إن كل ما يروى بالسند يكون علما دقيقا فاطمأن الناس إلى الاغانى وحاول المستشرقون أن يعطوه أهمية أكبر ، ليس فى أبحاث الأدب وحدها بل فى أبحاث التاريخ أيضا .

. . .

وكذلك كان الاهتمام بدراسات المنحرفين فى كل مجال من مجالات الفكر العربى الإسلامى ، كان الاهتمام بالسهروردى وابن عربى لأنهما دعوا إلى مذهب ليس أصيلا فى فكرنا بل مفترضا . والاهتمام بأبى نواس وبشار هو محاولة لتصوير العقل العربى قاصرا عن إعطاء مثل هذا الفن الوافد . وأنهما بمفاهيمهم المحسوبة قد بلغا القمة وكذلك جاء إبراز جوانب اضطراب العقيدة فى المعرى ومحاولة هدم المتنبى والشك فى أبوته وأصله . كل هـــذه من محرفات القول ومحاولات الهدم .

(٧)

وسطية الفكر العربى الإسلامى

أبرز مميزات الفكر العربى الإسلامى : وسطيته التى أعطته طابع ، وحدته ، ووسطيته الفكر مرتبطة بوسطية الأمة من حيث المناخ والمكان والبيئة فضلا عما يتسم به فكرنا من الجمع والمزاوجة بين الدين والدنيا والمادة والروح والعقل والضمير حيث لا يجنح إلى التطرف ولايذهب غاية المدى فى الجمود أو الطفرة ، ولا فى الرخاوة أو العنف .

فيه تلك المرونة والحيوية ، والقدرة على الحركة ، والملاءمة والإلتقاء بالحضارات والثقافات وأفكار الأمم ، فيه مرونة الحركة مع ثبات القاعدة ، هذه القاعدة الثابتة هى مصدر قوته ومدد حيويته .

فنحن لانقف عند الماضى وننظر دائما إلى الخلف . ولاتندفع وراء الفكر المستورد فنغرق فيه . وإنما نأخذ من ماضينا القوة التى تدفعنا إلى الحركة والحياة مؤمنين بشخصيتنا وقيمنا وقدرتنا الدائبة على العمل .

ولعل أبرز جوهر فكرنا الأساسى إننا لسنا أمعات ، ولا تابعين ، ولا نسير خلف الركب ، ولانتمثل فكر الآخرين ، إيمانا منا باننا نمتلك خير ماتمطى الإنسانية من زاد ، ولكن هذا الإيمان بذاتنا وقيمنا وتاريخنا الحافل بالبطولات لايدفعنا إلى التوقف ، ولايحملنا على التخلف ، ولا يملأ قلوبنا بالغرور ، وإنما هو يدفعنا إلى مزيد من تأكيد قدرتنا على الحركة أو التطور والحياة حتى نكون مؤثرين متفاعلين .

وإذا كانت دورة التاريخ قد وضعتنا موضع التخلف فى خلال ثلاثة قرون من

عمرنا الطويل فإننا نحطم الآن أغلال القيود التي ظلت تكبل حريتنا أيا ، كانت هذه القيود ، حطمنا قيود الاحتلال السياسى والعسكرى ، ومهمتنا الآن تمزيق أغشية النفوذ الفكرى والغزو الثقافى ممثلا فى الشعوبية ودعاة التقليد .

ونحن إذا كنا لا نقلد الماضى فنحن أيضا لا نقلد الآخرين ، وإذا كنا لا نتخذ من التراث وحده منهج حياة فنحن لا نستورد فكر الآخرين .

إن قوة شخصيتنا واستقلالها ، وقدرة فكرنا الخلاق المتحرك تجعله قادراً مادام محتفظا بقواه الاساسية أن يمتص عصارة كل فكر ويسيغه ويحوله إلى كياننا ، كل ما هو جدير بأن نتنبه له : هو أن نكون على وعى كامل بالمؤامرات التى تدبر لفكرنا ، ومواجهة الشعوبية وكشف خطواتها وموالاة إيقاظ جيلنا وتنبيهه وكشف الحقائق الخافية عنه ليعرف خصوم فكره وخصوم أمته وحتى لا ينخدع بأساليبهم البراقة وكلماتهم المعسولة .

ونحن إذ لا نأخذ آراء القدماء قضايا مسلمة فنحن لا نأخذ آراء الغرب قضايا مسلمة أيضا .

• • •

وتبدو وسطية الفكر العربى الاسلامى فى ذلك الإلتقاء والإمتزاج بين العناصر التى يراها الفكر الغربى متعارضة . فالمادة والروح والعقل والوجدان والإنسانية والإقليمية والعلم والدين ، والواقعية والقيم ، تلتقى جميعها فى الفكر الإسلامى وتمتزج .

وإذا كان فكر الشرق قد اتسم بدعوة الروح المطلقة وعرف فكر الغرب بدعوة المادية المطلقة ، فقد عرف الفكر العربى الإسلامى بذلك المزاج العجيب

الرائع من المادية والروحية على حرية فى العقل وسعة فى الأفق ، ومجاراة الزمن والبيئة وبساطة مع وضوح ومرونة . وقدرة على الحركة مع الحيوية ، وانفتاح على الآفاق والثقافات تعطى يسر الأخذ والعطاء .

وهذا معنى « الوسط » فى فكرنا العربى الإسلامى .

والوسط فى اللغـــة اسم لما بين طرفى الشىء . وأن أوسط الشىء أفضله وخياره ، فوسط القلادة الدرة ، وهى أنفس خرزها ، وفلان أوسط نسبا أى أرفع مجداً ، ولاتتصل عبارة « الوسط هنا » بما يتردد عن اليمين واليسار فى مجال السياسة وإنما الوسط هنا لقاء بين الطرفين البعيدين وهو ليس لقاء « هيجل » الذى ينتهى إلى التحلل والسقوط ليبدأ يمين متطرف ويسار متطرف وينشأ منهما وسط . وإنما هو « وسط » متجدد قائم على قاعدة أساسية يتسم به الفكر العربى الإسلامى صادرا من مزاج الأمة وضميرها وجوهر عقائدها ومناخها .

وإذا كان هنـاك مايختلف به الفـكر العربى الإسلامى فى أسسه عن الفـكر الغربى فانه يتمثل فى هذه المزاوجة بين الروح والجسد ، والمادة والروح ، والعقل والضمير .

ومن أوضح الأزمات التى تمر بالفـكر المعاصر بعامة الآن أزمة هذا الفصام بين القوى المتلاقية ، وغلبة المـــادية ، ولقد كشف كثير من المفكرين جوهر هذه الأزمة فى امتـداد العقل وتقلص الروح ، فقد نما عقل العالم وتقلص ضميره ، نتيجة تخلية عن القيم الإنسانية والروحية التى تعد أساسا من أسس الفـكر العربى الإسلامى ومصدرا من مصادره . فأبرز معالم

الفكر العربي الإسلامي هو « الوسط بين المحافظة والتطرف . والمثال والواقع والجمع بين التحليل والتأليف وبين الجمود والطفرة » .

ومن هنا جاء إيماننا بالانفتاح على الداخل والخارج معا ، وارتباطنا بالقديم والوافد معا ، دون أن نقدس الماضي أو نحرقه ، ودون أن نستسلم للجـــديد الوافد أو نرده .

ذلك أن لنا قيمنا الأساسية ومن فوقها نبني ونتحرك ، ونأخذ وندع ، وفق مفاهيم واضحة وفي ظل شخصية لها طابعها .

وفي أعماقنا تلك القوة الإستقلالية التي تؤمن بالتراث فلا تستورد نظريات الآخرين ولا تستسلم للماضي ولا تتوقف جامدة إزاء التطور ، فهي تأخذ من القديم والجديد والداخل والخارج في مزاج قادر على البعث (القـــديم) والإمتصاص للفكر الوافد . وأمامها عبرة الماضي في التخلف ، وعبرة الفكر الوافد في أرضه هذا الفكر الذي لم يعط أهله القدرة على الإستقرار والطمأنينة النفسية والذي مازال يرسم حولهم هالات القلق والاضطراب .

وما زالت لنا قدرتنا على الحركة وإيماننا بأننا نستطيع أن نعطي ونأخذ وعلى حد قول جورج سارتون عنا : إن الهزائم السياسية التي منينا بها لم تزعزع ثقتنا بأنفسنا ومكاناتنا ودورنا .

. . . .

وإذا كنا اليوم نعود مرة أخرى لنقاوم انحرافنا عن « وسطية » فكرنا ونبعث مقوماتنا الأساسية كمنار نهتدي به في الطريق الطويل فليسمح هذه ظاهرة

جديدة على فكرنا وإنما كنا هكذا دائما ، ما أن ينحرف بنا الطريق حتى يظهر من يكشفه لنا ويرفع الرماد الكثير الذى غطى على مجراه الأصيل .

وعندما نقل الفكر اليونانى فى القرن الثالث جرى المسلمون طويلا فى مجارية فلم تلبث أن قامت الدعوة إلى المنابع الأولى ورد الانحراف والاندفاع .

وعندما تفشت الشعوبية الفكرية وأخـــذت تبلبل الفكر العربى الإسلامى برزت حركة المقاومة واضحة فلم يلبث الرأى الأصيل أن قضى على الرأى الدخيل .

ثقافتان وحضارة واحدة

يبدو أن هناك ضرورة حتمية لتحديدمفاهيم الالفاظ التي يجرى تداولها كثيراً هذه الايام . أول هذه الألفاظ اختلاطاً على الفهم ، الثقافة والحضارة ، فقد جرى إستعمال كلمة ، الحضارة ، بدلا من كلمة ، الثقافة ، عند كثير من الكتاب على أساس أنها أوسع مدى وأشمل . وأن الحضارة تضم الثقافة تحت جناحها . غير أن هذا جرى دون تعمق لمعنى اللفظين اللذين يجب التفريق بين مفهومهما ومضمونهما حيث تبدو أهمية لاحد لها لتحديد معنى كل منهما توقيا الخلط بينهما وإستعمال كل منهما في مكانه .

ولاضرورة لإعادة ماقاله عشرات الباحثين في التفرقة بين مفهوم الثقافة ومفهوم الحضارة . وغاية مايجمع عليه المفكرون في هذا هو أن الثقافة فكر والحضارة مادة ومجتمع .

ولاشك أن الحضارة نتيجة الثقافة . وأن كل حضارة بدأت فكرة أولا ثم انبثقت منها الحضارة . غـــير أن تطور الحضارات على مدى العصور قد بلغ درجة من النضج البشرى لم تعد هناك حضارات منفصلة ترتبط باقليم دون إقليم أو أمة دون أمة . وهذه الحضارة التي نعيشها اليوم ، لا يصح إطلاق لفظ الحضارة الغربية عليها . وإنما هي حضارة بشرية إنصبت في بوتقتها مختلف الحضارات والثقافات القديمة والمتوسط كحضارات مصر وبابل وأشور . وحضارات اليونان والرومان والعرب والمسلمين . ومن عصارة هذه الحضارات وتجاربها الواسعة المتعددة المراحل

قامت هذه الحضارة فى القرن الخامس عشر واستمرت إلى اليوم وشملت العالم كله .

والحضارة هنا فى تقديرنا هى الآلة والماكينة والعلوم التكنيكية والاختراعات والكشوف والذرة والصواريخ عابرة القارات .

أما الثقافة فهى الفكر بقطاعاته المختلفة من لغة ودين وأدب وتاريخ وهنا تبرز أمامنا ثقافات متعددة لها طابعها المستقل المختلف فى كل ثقافة عن الثقافة الأخرى .

وأبرز مايبدو هذا الاستقلال واضحا فى ثقافة الشرق والغرب . ثم فى ثقافة الشرق تبدو ثقافة الفكر العربى الاسلامى لها طابعها المتميز عن ثقافات الهند والصين وإن اتسمت ثقافة الشرق بالطابع الروحى .

وتبدو ثقافات الغرب متميزة أيضاً ممثلة فى ثقافة الغرب والثقافة الماركسية والثقافة اليهودية ولكل طابعه الواضح وأن اتسمت ثقافة الغرب بالطابع المادى .

ومن بين هذه الثقافات تبدو ، الثقافة العربية الاسلامية ، ولها طابع مزدوج واضح الملامح فى الارتباط بين الروح والمادة والعقل والمادة والضمير . ومن هنا يبدو أن هناك ثقافتان وحضارة واحدة .

(١) ثقافة الغرب (بشطريها الغربى والماركسى) وهما يقومان على أساس واضح وقاعدة واضحة هى : مادية الفكر .

(٢) الثقافة العربية الإسلامية : وهى تقوم على قاعدة الربط بين المادة

والروح ومن المعتقد أنه لاسبيل إلى تغيير الأساس أو القاعدة فى كلتا الثقافتين ولاسبيل إلى حمل أى ثقافة منهما إلى تبنى قيم الثقافة الأخرى. وليس معنى هذا هو التوقف عن الأخذ والعطاء وهو بين الثقافات ظاهرة حتمية وناموس أزلى، هذا الأخذ والعطاء الذى لا يفقد كلا الثقافتين طابعها الأصيل . ليس معناه جمود ولكنه يعنى التحرر عن الاذابة . وفى تجربتين قديمتين تم هذا فى حرية كاملة وسلامة تامة . فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) عندما نقل الفكر العربى الإسلامى وترجم آثار اليونان والرومان وإختار منها ماوافق مضامينه وقيمه الأساسية . وفى القرن الرابع عشر الميلادى نقل الفكر الغربى آثار الفكر الإسلامى وقد لونها بطابعه وأضاف إليها وحذف منها وفى كلا التجربتين لم يفقد كلا الفكر الغربى أو الفكر العربى الاسلامى طابعه وشخصيته .

ثم قامت الحضارة على هذه الأسس التى صنعتها الحضارة الإسلامية التى كانت فى أرض الغرب (الأندلس) وفيها بدأ الإمتداد الحضارى متصلا ، أخذ العرب فكر اليونان والرومان ، مضافا إلى ثقافات الفرس والهنود والمصريين والصهر كله فى كيان واضح ثم أفضى إلى الغرب فى عصر النهضة فصنع الحضارة البشرية الحديثة التى هى فى الواقع جامعة التكوين بحكم اشتراك الامم والشعوب كلها فى بناء أساسها وأن تحولت إلى طابع لاإنسانى فى توجيهها مرتبطة بالاستعمار والقيم الفكرية الغربية التى آمنت (١) بالمادية و (٢) والعنصرية (٣) وتمييز الرجل الأبيض (٤) واستنزاف الشعوب والسيطرة عليها .

ومن هنا مضت « الحضارة » فى طريق مفتوح وامتدت إلى العالم كله الذى يعيش الآن فى آلاتها وأدواتها . ولكن هل امتدت الثقافة الغربية

فسيطرت على الفكر الإنسانى . هذا هو ما لاشك فيه . فان تجربة اليابان فى أوائل القرن كانت واضحة وضوحا تاماً حيث اقتبست الحضارة ورفضت الثقافة الغربية وتجربة الهند أيضاً التى مضت فى طريق الحضارة وحافظت على قيمها الثقافية وطابعها الاساسى .

ونحن فى عالمنا « الشرق الإسلامى » وفى قلب الأمة العربية نجد أن الغرب قد حاول خلال مرحلة الاحتلال لأرضنا منذ ١٨٣٠ تقريباً الى ١٩٥٤ الجلاء عن المغرب الى ١٩٥٦ (الجلاء عن مصر) ١٩٦٢ الجلاء عن الجزائر أن تفرض هذا الفكر عن طريق المدرسة والصحيفة والكتاب والفيلم السينمائى .

وفى ظل قوى غاصبة وقوى حاكمة مؤيدة للاحتلال استطعنا أن نقاوم ولم نستسلم حتى إذا أتيح لنا أن نتحرر من الاحتلال العسكرى والسياسى بدأت مواجهتنا لهذه القوى تأخذ طابعها جديداً .

فقد خلف الاستعمار العسكرى السياسى جيوباً فى وطننا تمثل الغزو الفكرى والثقافى وتحمل أمانتها القيم الغربية وهى تحـاول أن تخفى اليوم هدفها فتتألف فى قوة متجمعة يمكن أن يطلق عليها « الشعوبية الفكرية » وتجد من بعض صحف العالم العربى مايفسح لها إذاعة آرائها وبث سمومها .

وعندى أنه مادمنا قد أخذنا بعض جوانب الحضارة أساساً مفروضة علينا فى ظل النفوذ الأجنبى فقد استطعنا بعد التحرر من هذا النفوذ . أن نأخذ الجانب الأقوى . جانب الصناعة والآلة والذرة والصواريخ عابرة الفضاء . هذا الجانب الذى حرص الغرب على أن يحول بيننا وبين بناء مصانعه أو القدرة على السيطرة عليه.

وكان هذا التحول فى واقعنا بعد التخلص من النفوذ الأجنبى بالغ الاهمية والخطور فلم تعد الحضارة ترف وملابس وعطور وارضاء للغرائز — وهو الجانب الوحيد الذى قدمه لنا الغرب من الحضارة خلال فترة إحتلاله — والرأى إننا قد حققنا بذلك استكمال موقعنا من الحضارة التى هى ملك بشرى مشاع .

بقى الأمر فى مجال الفكر وهو مالا سبيل إلى نقله أو اقتباسه وإنما يجرى الأمر فيه وفق قانون أساسى وناموس أزلى هو أن لكل أمة مقوماتها الأساسية ، هذه المقومات التى تمثل قيم فكرها وملامح شخصيتها وهو مالا سبيل إلى التخلص منه . وهو ماحاول الغرب خلال أكثر من مائة عام أن يقضى عليه دون جدوى .

هذا الأساس يجب أن يبرز ويتضح ويصبح أساساً معترفا به فى مواجهة الفكر الإنسانى أما النظرية التى كانت سارية ومعترفا بها وهى أخذ خير ما فى القديم . وخير ما فى الجديد فهذا تمويه شعوبى يراد به القضاء على مقوماتنا الأساسية أو وضعها فى كفة ميزان مع الجديد الوافد .

فاذا تحدد هذا الأساس واتضح أمكن محاكمة (القديم والتراث) من ناحية (والوافد من فكر الأمم الينا) من ناحية أخرى محاكمة واضحة للأخذ والرفض والإبقاء والحذف .

ونحن فى هذا كله نؤمن بالفكر المفتوح المتطلع إلى ثمرات الفكر الإنسانى من الشرق والغرب والقديم والجديد . وقد كنا ولا نزال دائماً قادرين على الحركة والتطور فى مرونة وحيوية . ولسنا نخشى أن يغلب فكر على مقوماتنا المعطية لخير مافى الفكر الإنسانى أساساً ، والتى عاشت

عمرها كله لم تواجه أزمات القلق والاضطراب أو التجمد والتحجر أو التميع والانفراط .

ولاشك بين الفكر العربى الإسلامى وبين الفكر الغربى أبعاد واضحة وإختلاف صريح فى أسس كل منهما . ليس معنى هذا أن التقارب والإلتقاء لايقع . فذلك أمر مقبول لدى الفكر العربى الاسلامى المتفتح المتطور المرن . القابل للثقافات الانسانية والفكر العالمى على أساس من قيمه ومقوماته . ولـكن الأمر العسير الذى لا نعتقد أنه يقع هو امتزاج الفكر العربى الاسلامى والفكر الغربى فى فكر واحد وينسى دعاة هذا الامتزاج أنه لابد له لـكى يتحقق أن « يذوب » أحدهما فى الآخر وينصهر ، وهذا أمر جد عسير .

ولقد جرت المحاولات لهذا ودعا دعاة التغريب والشعوبية من قبل إلى أن نأخذ فكر الغرب وجاء من يدعو إلى أن نأخذ فكر الماركسيه وفشلت كلا الدعويين وإن أخذنا من الفكرين على نحو معين وهو ماندعوه « بالامتصاص » وهو غير النقل والاقتباس .

وليس من شك أن بين الفكرين والثقافتين فروق وان يلتقى الاثنان التقاء إنصهار وإذابة . أما فى مجال الحضارة فإن الامتزاج قائم وكائن ويسير ودائرة النقل والاقتباس مفتوحة وجائزة .

هذا هو الفرق بين الثقافه والحضارة . فالفكر يقوم أساساً على مقومات ثابتة ، تتطور فروعها وتتحرك ويدخلها التجديد والتحول والتغير ، أما الحضارة فهى نمط من الحياة يمكن تغييره دون تحول أسس الفكر . فقد أخذت اليابان حضارة الغرب ولم تأخذ فكره وكذلك فعلت الهند .

ونحن لا نستطيع أن نأخذ لغة الغرب ولا مفاهيمه الروحية ولاتاريخه ولا مثله ولا قيمه . وإنما نستطيع أن نأخذ حضارته فى البيت والشارع وفى الماكينة والآلة والصناعـة والحضارة التكنيكية . أى اننا نلبس

أثوابا عصرية فنحن لانستعمل الآن الجمل أو الناقة أو نأكل أو نشرب أو نقيم فى مساكننا أو نتحرك على النحو الذى كان يتحرك عليه القدماء ولكننا حين نفكر لابد أن نعرف أن لنا أسسا أصلية وقيماً واضحة هى قاعدتنا فى تكوين شخصيتنا ومجتمعنا وفكرنا .

ومن الميسور أن يمتزج العالم كله فى مجال الحضارة ولكنه لايمتزج فى مجال الثقافة والفكر . ليس معنى هذا أن « الانسانية » لاتستطيع أن تلتقى على « وحدة فكر » وانما معناه أن فكر الغرب سيظل بارزاً بقيمه ومفاهيمه المستمدة من الفكر اليونانى والثقافة الرومانية والمسيحية والمادية وكلها أسس أكيدة لفكر الغرب الحديث لاسبيل الى تخليه عنها بينما يقوم الفكر العربى الاسلامى على أساس ترابط الروح والمادة والتقاء العقل والضمير متمثلة فى جوانب السياسة والاجتماع والقانون .

القاعدة قبل الاحياء والاقتباس

هل أتيح الشرق سبيل الاختيار حين واجه الحضارة الغربية والفكر الاوربى أم فرض الغـــرب حضارته ومفاهيمه فرضا عـلى الشرق بقوة الاحتلال والاستعمار .

وهل لو كانت قد أتيحت الفرصة للعرب والمسلمين وكانت لهم القدرة التى تمكنهم من الموازنة ، هل كانوا يقبلون فـكر الغرب كله .

إن للشرق الاسلامى مع الغرب تجربتين فى « اقتباس » فـكره : الاولى فى عصر الترجمة ووقتها كان العالم الاسلامى قادر على أن يأخذ وأن يدع . وقد أقبل على تطعيم فـكره بالثقافات الشرقية والغربية بمحض اختياره وبقوته الذاتية القادرة على الاستيعاب دائما والمدفوعة إلى امتصاص عصارات الفكر الانسانى وتحويله إلى كيانها . لم يتوقف عن ذلك إلا بعد أن أتم دورة كاملة فى فلك الإنسانية فى مدى (٨٦٠ عاما) ٦٥٦ م — ١٥١٨ م) .

أما التجربة الثانية وهى تجربتنا التى نعيشها اليوم فقد بدأت إثر حملة الغزو الاستعمارى الحديث عام ١٨٣٠ م تقريبا . حيث لم تكن عملية الاقتباس فيها بالخيار أو بالإرادة الذاتية ، ومن الحق أن يقال أن الشرق الاسلامى كان قد صحا قبل ذلك على صيحات من أعماقه بالتجدد واليقظة والعـودة إلى المنابع الأولى والتحرر من الأغشية والقشور التى أضافتها عصور التخلف ، غير أن الغرب كان فى انقضاضه ظالما لم يترك له حق المفاضلة فى أن يأخذ أو يدع لانه كان حريصا على

تنفيذ مخطط معين . هو أن يثير حوله عواصف وأعاصير متشابكة ، ويفتح أمامه طريق له تيارات متعددة . ليضطرب فكره فيعجز عن أن يختار . ثم يقف من ماضيه موقف المستهين به . فيرفض تراثه كله ويتحول إلى صورة مظهرها غربى وقوامها شيء متهافت هش لا قيمة له .

غير أن هذه المؤامرة لم تفتك به لأنه رفضها . وان اضطرب معها ثمة ، غير أنه استطاع أن يواجهها ويصمد أمامها بإحياء مصادر فكره الأصيلة وتجديد روافده غير أن الخطة التى وضعت إذ ذاك للمقاومة كانت مبتورة ولم تكن ناضجة كاملة فقد كانت خطة حرب سريعة لم تقم على التدبير الواسع أو التقدير العميق هذه الخطة هى التى كانت تقول :

« نأخذ من الغرب أحسن ماعنده ونحيى من ماضينا خير مافيه ونخلق مزيجا من الشرق والغرب والماضى والحاضر » .

تلك كانت القاعدة التى عاش عليها فكرنا طوال مائه عام تقريبا .

غير أننا اليوم نجدنا فى حاجة إلى إعادة النظر فى هذه القاعدة بعد أن ثبت عدم قدرتها على الحياة مع تطور تيارات التغريب وتوسع قاعدتها . وتحولها من « التغريب » الصريح إلى دعوات « الشعوبية » المحتجبة وراء مظاهر القيم والمفاهيم، وهى حركة أدق وأخفى من حركات التبشير والإلحاد والتغريب .

لذلك كان علينا أن نكشف عن خطأ هذا المخطط وقصوره فالواقع أنه ليس الأمر أن نأخذ من الفكر الغربى أو نحيى من الفكر العربى الإسلامى ولكن الأمر الذى يسبق هـــذا أهمية هو أن « نتعارف » على « الأساس » الواضح الصريح لفكرنا وأمتنا وشخصيتنا وأن نؤمن بقيمنا الأساسية التى نبنى عليها

تطورنا الفكرى وأمتنا . فإذا وحدناهذا الأساس ـ وهو موجود ـ اتفقنا عليه ، فقد تحققت لنا ، وحدة الفكر ، التى تحول بيننا وبين البلبلة والاضطراب فى تيه نظريات الغرب (بشقيه) فإذا وجدنا أنفسنا فى مجال وحدة الفكر كان من السهل علينا مواجهة تيارات الفكر العالمى كله دون أن تقتلعنا أو تمسخنا .

ولا شك قد ثبت بعد مرور خمسة عقود على ظهور نظريةالتسوية بين الاحياء والاقتباس : انها نظرية قاصرة وأن هناك وجوه كبيرة لنقضها وضعفها . وآية ذلك أنها لم تحقق النتائج الموجودة منها فإلى أى حد يمكن الاخذ من القديم أو نقل الحديث وماهو القانون المعترف به الذى يقرر صلاحية القديم أو الجديد أو الناموس الذى ينظم عملية المزج .

وعلى هذا فقد اضطربت أمور التقاء القديم بالجديد وذهبت نظريات إلى التطرف فى النظرة العامة فأنكر قوم القديم كله ودعوا إلى التخلص منه لأنه لا يوائم التطور . ودعا آخرون إلى نقل الفكر الغربى كلية دون تحفظ ووقفت أقوام إزاء القديم موقف المحافظة أو الجمود أو الاعتدال .

بدراسة هذه النظرية ونتائجها أمكن الحكم عليها بالسقوط لاضطرابها أساسا ولأنها تركت دون قانون ينظمها لها أو يحدد لها مفهوما واضحا .

ولهذا اعتقد أنه آن الأوان لإلقاء نظرة جديدة قوامها عمق الفهم والانتفاع بالتجربة واتساع الأفق . يدعونا لذلك عدة أمور :

(أولا) أننا منذ عقد كامل من الزمن نواجه مفاهيم متجددة فى الفكر العربى تقوم على أساس التقاء المفاهيم ، ورفع الحواجز ، واتحاد الإجزاء ، فى ظل تطور حركة اليقظة العربية . من هنا بدأت النظرة الإقليمية الضيقة التى كانت تمثل أساس الدراسات

والأبحاث . بدأت هذه النظرة تتوقف وتبدو متخلفة وبدأ حملة لوائها يوسمون بالشعوبية .

(ثانيا) بدأ الأفق مفتوحا للبحث المنطلق والحر فى مجـــالات الدراسات التاريخية والفكرية وأصبح فى استطاعتنا اليوم أن ننظر فى حرية إلى تاريخ المنطقة فى العصر الحديث كله نظرة النقد والتقويم دون ضغط أو قيد بعد سقوط النفوذ السياسى المحتل والنفوذ الحاكم المرتبط به .

(ثالثا) انتهاء « عقدة » « النقص » التى عايشت الفكر العربى فى فترة الاحتـــلال الطويلة منذ عام ١٨٣٠ وذلك بعد دخول الأمة العربية مرحلة البناء الحضارى بالماكينة والآلة والأسلحة والعلوم التكنيكية وكشوف الفضاء .

• • •

وإذا كنا قد فرضت علينا خلال فترة الاحتلال من ثقافة الغرب وحضارته ماشاء الغرب المحتل أن يفرض وبنفس الأساليب والوسائل وعن طريق أجهزته الممثلة فى التعليم والصحافة وكتابات المستغربين .

وإذا كنا قد جرينا شوطا طويلا فى هذا المجال المضطرب فقد آن لنا أن نحرر مفاهيمنا ليس فى مضمون فكر الآخرين بل ومن وسائل وصوله هذا الفكر إلينا .

وإذا كنا فى الماضى قد اضطررنا إلى قبول مضامين هذا الفكر بحكم فرضها علينا فقد أصبح من حقنا اليوم وقد انتهت قوة الاحتلال الفارضة أن نقف موقفا استقلاليا واضحا إزاء مانقبله أو نرفضه .

ومن هنا كان لابد من إلغاء النظرية القديمة التى وضعت فى ظل النفوذ الأجنبى المسيطر بقوى الاحتلال ونفوذه . وأن يقوم مفهوم جديد للتعامل مــــع الفكر المستورد . وإذا كانت عقدة النقص فى حياتنا الفكرية قد انتهت ، هذه العقدة التى صورها ابن خلدون فى قوله « إن المغلوب دائما مولع بتقليد الغالب » فقـد حق لنا أن نتحرر فى النظرة إلى كل تيارات الفكر الانسانى .

وقاعدتنا هى أننا نعيش دائما بفكر مفتوح قابل لتلقى كل ما يقدمه الفكر الانسانى كذلك كنا وكذلك نحن الآن . ولنا تجربة سابقة ، غير أننا نقف مـن هذا الأمر موقف الإرادة القادرة على حرية الأخذ والعطاء وفق نظرة استقلالية منبعثة من أعماق ذاتنا المريدة .

فنحن أولا أمة لها شخصيتها ولها كيانها ولها مقوماتها الاساسية منذ وجدت ولاتزال ، تصادم التيارات والأحداث ، وتواجه الغزو العالمى ممثلا فى القوى العسكرية والحشود الحربية طوال تاريخها ولا تستسلم ، وتواجه الغزو الفكرى والثقافى ممثلا فى الآراء والمـذاهب والدعوات والقيم دون أن تغرقها هذه الموجات أو تقضى عليها .

ولقد كانت امتنا دائما قادرة على الحياة طالما استمسكت بمقوماتها وحافظت على شخصيتها . ولقد أكدت هذه الأمة دائما حيويتها وذاتيتها وقدرتها على الحركة والعمل والتطور ، فى مواجهة عوامل التجمد والتخلف والتوقف من ناحية الداخل وعوامل التطرف والغزو والسيطرة من الخارج . وكانت دائما قادرة على المضى فى موكب الحياة مزودة بقيمتها الأساسية التى لم تكن مصدر تخلف ، بل كان التخلف نتيجة فعلية لانصرافها عن هذه المقومات ومحاولتها مواجهة الحياة بدونها ، وتكشف كل الأحداث فى تاريخها عن أن مصدر تخلف فى حياة هذه الأمة وفكرها إنما

جاء نتيجة لاندفاعها بعيدة عن مقوماتها . أو عندما خالفت ناموسها الأساسى ، وقد أداها ذلك إلى العجز عن الحركة وتوقف مقدرتها عن الأخذ والعطاء .

فالأساس الحقيقى لقيام فكر جديد هو مواجهة القديم والمستورد على أساس قاعدة أساسية تتمثل فى مقوماتنا الحقيقية وفى ظل شخصيتنا الأصيلة ، هنا تصبح النظرة إلى التراث وإلى الوافد من الفكر الغربى صادقة وسليمة . فإن هذا الأساس هو الميزان الصادق والقانون الجديد لإقرار ما يبقى من التراث وما يقبل من الفكر الوافد .

النظرة إلى التراث

القول بأن « التراث » هو الشيء الميت اصطلاح غربي ، فليس كل التراث فكر ميت وإنما يعنى التراث جذور الحى وقوائم الواقع . وقواعد المنارات السامقة فالتراث هو الأساس الذى حمل المقومات الحية التى ماتزال تتفاعل فى مجتمعنا وفكرنا وحياتنا ألوف السنين والتى لا سبيل إلى التخلى عنها .

ولو أننا تخلينا عن فكرنا كله للزم أن نستعين بتراث من ننقل منهم لنجعله قاعدة للفكر الجديد ، والغربيون أنفسهم عندما أقاموا فكرهم الحديث وثقافتهم المعاصرة التمسوا أسسها فى مصادر ثلاث هى : التراث اليونانى والفكر الرومانى والمسيحية .

وما تزال هذه الأسس تحكم تطور الفكر الغربى وتتصل به . وما من نظرية جديدة أو مذهب إلا وله بهذه الجذور صلة .

ولا يستطيع مثقف أو باحث فيلسوف أن يقدم نظرية جديدة دون أن يكون قد استوعب كل التراث ، وامتصه،واتصل به اتصال الفرع بأصله . ومامن نظرية فى عالم الفكر الغربى ولا فلسفة ولا مذهب إلا وهى استيعاب وتطوير للنظريات السالفة لها ، الممتدة واحدة بعد أخرى إلى الثقافات الثلاث اليونانية والرومانية والمسيحية .

ولقد بلغ الغرب فى تقديره للجذور مبلغاً لاحد له، بلغ حد التقديس ، حتى لقد اضطر الغربيون فى سبيل الحفاظ على مقوماتهم الأساسية والإصرار على ينابيعهم الخالصة إنهم أنكروا فضل الحضارات الشرقية القديمة على الفكر اليونانى

وعدوا رحلة علمائهم وأدبائهم إلى الشرق ليست ذات صلة مطلقة بالاقتباس من الفكر الشرقى القديم القائم على مواريث بابل وأشور والفراعنة » .

والتراث العربى الإسلامى أولا ملك العقل الذى عاش فى الشرق منذ بزوغ فجر هذا الفكر ، شاركت فيه كل الثقافات الفارسية واليونانية والهندية وتركت حضاراتها فى مضمونه بعد أن امتصها وخلق منها على أساس من قيمه الذاتية وملامحه الأصلية فكرا عرف بهذه المنطقة وعرفت به .

فلا سبيل إلى التعصب فى نسبة هذا التراث إلى المسلمين وحدهم حتى يكون ذلك مصدرا لإنكاره وازدرائه .

ويمكن القول بأن هذا التراث يتشكل من فصيلتين : فصيلة حية نابضة هى كل ما يتصل بتكوين الإنسان، وما يتصل بالاجتماع والضمير والأخلاق من دين وشرائع وقيم . وهذه الفصيلة من التراث لا يمكن أن توصف بأنها تراث لأنها لم تتجمد بعد فى صورة نصوص يمكن الرجوع إليها وبحثها ولكنها إذا كان يصح القول يمكن أن تسمى بالتراث السائل المتحرك المتطور النابض بالحياة المتفاعل مع الفكر والثقافة والمجتمع والذى مازال بالرغم من سقوط الشرق الإسلامى والأمة العربية تحت براثن الاستعمار حيا متفاعلا .

أما الفصيلة الأخرى المتصلة بالفنون والآداب والعلوم وما يتبعها من موسيقى وبناء ونحت وشعر وأبحاث فى الفلك والكيمياء والجراحة والرياضيات فهذه لا تمثل إلا علامة على دورنا فى حلقات تطور الحضارة . ونحن إزاءها لا نطلب أكثر من الاعتراف بها . وبأثرها وإيجابيتها . وبأنها لم تكن قط مرحلة نقل وإنما كانت مرحلة بناء وإضافة وتطور وإبداع .

ومن هنا كانت استحالة اعتبار الفصيلة الأولى من التراث ماضيا يمكن أن ينطوى ويموت وتسقط الحجب عليه فتزيحه عن حياتنا الفكرية اليوم إذ لا سبيل إلى ذلك عقلا ولا جدلا .

ونحن لا نقف من هذا التراث موقف الجمود وإنما نتطور به ونفتح آفاقه لكل مظهر جديد من مظاهر الحياة وذلك إن سمينا أساساً إنما هو لنواكب ركب الحضارة ولا نتخلف عنه . غاية ما فى الأمر أننا نواليه على صورتنا الأساسية ومقوماتنا التى لا تحول بيننا وبين الخطو الواسع إلى الآفاق المفتوحة .

ونحن ننظر إلى التراث بروح « طليقة » مرنة وما دمنا لا نرفضه ولا نكرهه ولا نحتقره فإننا نستطيع فى حرية أن نأخذ منه وندع . وننقده . ونقول رأينا فيه صريحاً واضحاً : هـــذا الرأى الذى لا يتسرب إليه التحامل اذ العبرة بالرأى الأساسى فى كل شىء . ذلك أن الشعوبية تحتقر تراثنا وتزدريه أساساً مهما حاولت أن تضفى على رأيها صفة العلمية أو تدارى موقفها منه بعبارة المجاملة فهى لا تستطيع أن تخفى موقفها . أما نحن فلا ننكر تراثنا ولا نحتقره . بل نقف منه موقف الجزء الحى من كياننا ومن هنا تكون نظرتنا له مرنة طليقة .

كذلك موقفنا من تاريخنا فهو فى كثير من صفحاته مفخرة من مفاخرنا ، وفى صفحات أخرى يرسم صورة فرقتنا وهزائمنا ولكننا نقف منه جميعاً موقف التقدير والإعجاب بانتصاراته والعبرة من هزائمه .

ونحن فى هذا نرفض النظريتين : النظرية « القديمة » التى تؤمن بالتراث إيمانا أعمى والنظرية « العصرية » التى تنكره إنكارا تاماً ونتخذ مذهبا وسطا بين النظريتين

قوامها التقدير الكامل لتراثنا والنظر إليه فى طلاقه ومرونة وليس شىء فى عالم الفكر القديم والحديث يمكن أن يؤخذ كله أو يترك كله .

والذين يدعوننا لأن نأخذ التراث كله كالذين يدعوننا أن نأخذ الفكر الغربى كله . كلاهما مسرف فى دعواه . ونحن فى هذا نؤمن بالمدرسة الوسطى التى تقيم فكرها على أساس أصيل وتأخذ من كل شىء بقدر ما يعطى شخصيتنا قوة النماء والتطور والحياة .

وليست هناك قوة تستطيع أن تنتزع أمتنا من روابطها الماضية ومن تراثها، وليست هناك قوة تستطيع أن تفرغ أمتنا فى قالب الثقافة الغربية والفكر الغربى الخالص ، فذلك أمر يخالف طبائع الأشياء ونواميس الكون. والروابط بين القديم والجديد والحركة من الماضى إلى المستقبل قوانين لا تتخلف .

ونحن لا نعادى النزعة السلفية ولا نرفض النظرة العصرية ولكننا لا نقبلهما قبولا أعمى وإنما نعرضهما جميعاً على المقومات الأساسية التى ارتضيناها لفكرنا وشخصيتنا فى رحابة صدر صادقين فى التقدير للسلفية والعصرية جميعاً فهما وجهين لحقيقة واحدة .

وأمامنا فى هذا تقدير كامل لتطور الإنسانية، فعجلة التاريخ ماضية لا تتوقف وصورة الماضى لا يمكن أن تعود ، ولا سبيل إلى أن يكون إعجابنا بمجتمع ما سبيلا إلى إعادة تطبيقه . ولكن الصورة تستطيع أن تعطينا من ذخيرة التراث ما يضيف إلى حاضرنا قوة ، خاصة ونحن نقدر أن المقومات الأساسية متصلة مستمرة لم تنقطع ولم تتوقف .

ونحن لا نستطيع أن نتجاهل الماضى كلية فى فكرنا العربى الإسلامى المعاصر وإلا فإننا نفقد شهادة الميلاد وصحة النسب والفكر الغربى المعاصر يقوم دائماً على

شهادة ميلاده المتصلة باليونانية والرومانية والمسيحية .

فنحن فى فكرنا المعاصر لا شك أننا نمثل حلقة من حلقات الفكر العربى الإسلامى الممتد . لم تنفصل عنه . ولم تتحول عن أصوله الجوهرية ، فإذا بلغنا قمة النهضة فلا يكون هذا ميلاد جديد . وإنما يكون مرحلة جديدة فى خط متصل وإذا امتصصنا اليوم عصارة من الفكر الغربى (بشقيه) فإن هذا ليس غريبا عنا . فقد فعلنا ذلك من قبل . ولم يحولنا هذا عن ملامحنا الاصيلة أو يفقدنا شخصيتنا أو مقوماتنا الأساسية .

وموقفنا من الفكر الغربى يقوم على أساس إيماننا بالأخذ والعطاء . فلقد أعطينا من قبل . فلا ضير علينا أن نأخذ . فقط نأخذ ونحن مسترشدين لنأخذ ما نريد لا ما يفرض علينا وبمحض إرادتنا واختيارنا . وما نحتاج إليه وما يزيد شخصيتنا قوة وحياتنا قدرة على الحركة والتطور .

وحدة الفكر

إن بناء أمتنا اليوم ليتطلب فى الاهم الالزم تحديد مقوماتنا الاساسية وذلك حتى نلتق على وحدة الفكر التى هى لباب العمل وقاعدته . حيث يستطيع البناء أن ينمو قوياً . ان أمتنا اليوم قد تحررت من الاحتلال العسكرى والسياسى وتخلصت من عقدة «النقص» فانطلقت فى مجال الصناعة والعلم التجريبى ، وأخذت تنظم مجتمعها على أقرب الانظمة السياسية والاقتصادية انبعاثاً من واقعها وقد التقى المشرق والمغرب العربيين وتحطمت القيود التى كانت موضوعة للتفرقة بين غرب آسيا وعرب أفريقيا . وبدأ للأمة العربية صوت جهير وواقع واضح .

ومن هنا فقد جاء الوقت الذى لابد أن تحدد هذه الامة مقوماتها الاساسية وتؤمن بها إذ لابد من الالتقاء على وحدة الفكر أساساً كأمر بعيد الاهمية فى بناء وحدة الأجزاء .

وليس الالتقاء على وحدة فى الفكر صعباً وعسيراً بل هو يسير غاية اليسر إذا أخرجنا من تقديرنا تيارات الشعوبية التى تحاول أن تثير الشكوك والشبهات فقد أثبت تاريخ الادب العربى المعاصر منذ أوائل الاحتلال حتى الآن لمن تناوله ككل فى العالم العربى من المحيط الى الخليج أن هناك إلتقاءاً كاملا على أسس واضحة وأن الاستعمار بقواه وفكره

ونفوذه والاحتلال بسلطانه وغزواته وتياراته ـ ودعوة التغريب بسلطانها المبثوث فى مناهج التعليم ونفوذ الصحافة والتأليف لم تستطع أن تغير شيئاً كثيرا .

فنحن نلتقى حتما على أسس واضحة قوامها الربط بين العروبة والإسلام بين الوحدة فى مجال من يتكلمون اللغة العربية والأخوة فى مجال من يدينون بالاسلام . والاسلام هنا هو تلك القيم الفكرية والروحية والاجتماعية التى عاشت عليها لهذه الأمة بجميع عناصرها وأديانها وتمثلت فى جوهر ضميرها ولم تكن هذه القيم مستوردة أو منقولة أساساً ولكنها كانت نابعة من أعماق النفس والعقل العربيين معا ، وهى عصارة التقاليد والعادات والمفاهيم التى تعارفت عليها هذه الأمة .

ونحن إذا تحررنا قليلا من تلك المظاهر الغالبة ورجعنا إلى الفطرة لوجدنا هذا الالتقاء واضحاً فى عناصر فكرنا القائم على الدين والتاريخ واللغة والتراث . وعلى ذلك الامتزاج الواضح الذى يزاوج فيه بين الروح والمادة والعقل والضمير والعلم والدين .

هذه الوحدة تبدو واضحة فى مضمون الفكر العربى الاسلامى وفى الأمة العربية لاتتخلف ولاتتوقف .

وهى الأساس الأصيل لبناء وحدة الأمة . فنحن نؤمن بقيمنا الأصلية أساساً لشخصيتنا ذات الطابع الواضح وفكرنا ذى الملامح الصريحة القائمة على عناصر الدين والتاريخ واللغة والتراث ممتزجة متجمعة . هذا الفكر المفتوح المرن القادر على مواجهة الفكر الانسانى المعاصر فى مختلف تياراته

ومذاهبه ودعواته مؤمناً بقدرته على « الامتصاص » لخير مافيه دون أن يكون مستذلا له أو مستوردا مع رفض التبعية والولاء . متحرر من كل سيطرة لثقافة أخرى عليه . فهو يمتص مايزيده قوة . وما يدفعه إلى الحياة والتطور . ولقد كان فكرنا دائماً قادراً على ذلك متمكنا من الحركة فى ظل قاعدته الأساسية ومفاهيمه الأصيلة .

وعندى أننا لن نستطيع أن نقيم هذا البناء الوحدوى لأمتنا إلا إذا إلتقينا على قاعدة أساسية نرتضيها مهما اختلفت الثقافات والمفاهيم فى عملية المواجهة بالحضارات والثقافات العالمية .

ونحن إذ نحاول أن نلتقى على قاعدة وحدة الفكر نعرف تماماً إختلاف الثقافات فى الوطن العربى وتصارعها وكيف امتـــدت تيارات متعـددة ومذاهب مختلفة إلى أمتنا ، فى العراق ومصر والسودان غلبت الثقافة الإنجليزية وفى المغرب كله وسوريا ولبنان غلبت الثقافة الفرنسية ، وهناك كثيرون عرفوا الثقافة الامريكية . ثم انفتح الفكر الماركسى على الفكر العربى الإسلامى فى أواخر الاربعينات فأضاف تيارات جديدة وقد تعلق كثير من شبابنا فى العالم العربى بهذه المذاهب وارتبطوا بها نتيجة للمعاهد الأجنبية التى تعلموا فيها أو البعثات التى أرسلوا إليها وقد تصادف أنهم فعلوا ذلك دون أن يتزودوا بقـوة قادرة تحفظ عليهم كيانهم الفكرى وذلك هو التعرف أولا إلى المقومات الأساسية لفكرنا وأمتنا . ولو أن شبابنا تعرف إلى هذه المقومات فآمن بها واعتنقها عقيدة فكرية وروحية ثابتة لما انزلق إلى هذه المذهب أو ذاك أو اضطرب إزاء نظريات الفكر الغربى بشقيه : وعندى أن الذى ينقصنا

أن يلتقى شبابنا منذ مطالع حياته بأصول فكرنا المستمدة من القرآن الكريم ويؤمن بأن أمتنا لها شخصية ذاتية خاصة لا تمتزج بغيرها ولا تذوب . وأن يصدق الحب لها ويؤمن بها ، هنالك تقوم وحدة الفكر التى تجعلنا فى حصانة إزاء التيارات والمذهب والدعوات الغربية التى تذتاشنا من كل طريق . والتى لانستطيع أن نغلق نوافذنا دونها وإنما نواجهها غير متخلفين ولا تابعين فنرى فيهـــا على ضوء « قاعدتنا الأساسية » الرأى فنأخذ منها وندع ونحول خيرها إلى كياننا فنزداد به قوة وبذلك نمتص ما فى الفكر الانسانى من ذخائر وروائع وآيات دون أن نتحول عن قاعدتنا . هذه القاعدة التى قامت أساساً على مقومات حية فيها قدرة على المرونة وفيها طابع الإنسانية وفيها حيوية التطور والالتقاء مع جميع البيئات وخلال كل العصور(١) .

---

(١) بدأ البحث عن علاقة الفكر الاسلامى بالثقافة الغربية بهذا الفصل أساسا عام ١٩٦٤ وأوردناه هنا لتسجيل مراحل التطور فى دراسة هذه القضية (١٩٧٠)

خاتمة

قيم الفكر الاسلامى

أساس بناء الثقافة العربية

لكى تضع الامة العربية خطة أساسية لإنشاء جيل قادر على حمل أمانة النهضة والسير بها إلى أبعد مدى لابد من فهم لمعانى هذه الكلمات التى يتحتم تجديد معانيها أساسا وهى :

١ — شرق وغرب ٢ — ثقافة وحضارة ٣ — تربية وثقافة وتعليم

(أولا)

(فى الغرب) : تقوم الثقافة على أسس ثلاث : أدب اليونان وحضارة الرومان والمسيحية .

وقد كانت المسيحية بالنسبة له مستوردة ، ليست من نبت بلاده ، ولذلك فقد صنعها على طريقته . ثم نحاها حين وقفت فى وجه نهضته ، وقد اعتمدت أساسا على روح (الوثنية) فى الأدب والثقافة اليونانية الرومانية التى لا تؤمن بالتوحيد أساسا وترى العلاقة بينها وبين الإله علاقة صراع ، وتضع نفسها فى موقف تحدى الله والطبيعة والحياة فى معركة متصلة ، ثم جاءت الحضارة الغربية قائمة على أساس النظرة العلمية المادية الأساس ، منكرة الجانبين الروحى والغيبى انكارا تاما ، ومن الفكر الغربى المادى الأساسى انبثقت الماركسية ، فاذا كان الغرب هو مادية الفكر فان الماركسية هى مادية الحياة .

٢ — أما الشرق ، فهناك الشرق المقابل للغرب ، الشرق الروحى الصرف فى مقابل الغرب المادى الصرف ، وهو شرق : الهند والصين واليابان المعتمد على مذاهب الكنفوشيوسية والبوذية والهندوسية . أما الشرق « العربى الاسلامى » فهو هذه المنطقة التى تتسم بروح الاسلام وطابع اللغة العربية فان فكرها عصارة مزيج الروح والمادة ، والنفس والجسم . والدين والعلم ، والعقل والقلب ، ولذلك فان انصهار الفكر العربى الاسلامى فى الفكر الغربى أمر مستحيل لاسبيل اليـــه الا فى حالة واحدة هو أن يتجاوز الفكر العربى الاسلامى عن مقاوماته الاساسية .

(ثانيـــا)

من هنا تبدو ضرورة التفريق بين الثقافة والحضارة ، فالثقافة هى (ضمير الأمة) . أما الحضارة فهى مظاهر حياتها ، ولقد امتدت الحضارة الانسانية منذ بابل وأشور ومصر الفرعونية فى رحلة طويلة إلى اليونان والرومان ، فالعالم الاسلامى من الاندلس إلى الهند وقد شارك المسلمون والعرب فى هـذه الحضارة الانسانية مشاركة فعلية بانشاء المذهب العلمى التجريبى الذى كان أساس الطور الأخير للحضارة التى عرفت من بعد بالحضارة الغربية .

وقد بلغت الحضارة الآن ذروتها فى الترف والرفاهية والمتاع المادى . وهى على هذا النحو ملك مشاع الأمم والشعوب والبشرية كلها تأخذ منها ماتشاء ، وقد استطعنا بعـد أن رفعت قيود الاستعمار أن نأخذ جانب القوة منها وأن نصل إلى المدى فى اقتباس الحضارة .

٢ — أما « الفكر » فلا سبيل لاقتباسه لاختلاف المقومات الأساسية للأمم والشعوب وقد اقتبست اليابان الحضارة منذ أواخر القرن الماضى دون أن تقتبس

الفكر ، وكذلك فعلت الهند ، والواقع أن الفكر العربى الاسلامى يقوم على قيم ومقومات لها طابعها المخالف والمتميز لوجهات النظر الغربية وأبرز هذه المخالفات والمميزات : التوحيد وموقف الانسان بالنسبة للكون والحياة ورعاية العرض والكرامة والشرف والفضيلة فى مجال الروابط بين الرجل والمرأة .

٣ — ومن هنا تبدو روح « المادية الغربية » فى التحرر من القيم الروحية واطلاق الغرائز واعلاء القيم المادية ، وتعرية الانسان ، واعتبار دوافعه كلها مرتبطة على نحو مفاهيم « فرويد » أو اعتبار أن الدين نبت من الارض ولم ينزل من السماء كما يقول « دور كايم » أو تغليب المصالح على القيم كما تقول فلسفة (الذرائع — البرجماتزم — وليم جيمس) وفصل الدين عن التربية والتعليم كما تقول فلسفة ديوى ، أو أنه (لا إله والكون مادة) كما تقول فلسفة ماركس .

٤ — كل هذه المقومات للفكر الغربى وشقه الماركسى ، تختلف اختلافا واضحا عن مفهوم القيم الأساسية للفكر العربى الاسلامى ، ومن هنا لم يكن ميسورا أن نقتبس الفكر أو — ننقله ، وانما يمكن أن ننظر فيه وندرسه ونناقشه على أساس أن تكون هناك أرضية فكرية للأمة قائمة على قاعدة من مقوماتها الأساسية فى مفاهيم الدين والحياة ، فاذا قامت هذه القاعدة أمكن اطلاق النظرة إلى الفكر الانسانى ، والاقتصاص منه بما يزيد شخصيتنا قوة وفكرنا انطلاقا ، فنحن لانغلق الابواب أمام الفكر الانسانى ولكنا نفتحها . ونحن معتمدون أساسا على قاعدتنا التى تحول دون انصهارنا فى ثقافات الأمم أو تمييع هذه القاعدة بما يضعف من مقومات فكرنا وملامح شخصيتنا وهو هدف التغريب والغزو الثقافى الذى يعمل جاهدا من أجل القضاء على هذه المقومات .

(ثالثــا)

١ — على ضوء هذه المفاهيم نستطيع أن ننظر إلى موضوع بناء الأمة العربية وانشاء جيل قادر على أمانة النهضة وحماية البنـــاء ، وهنا تبرز ثلاثة مفاهيم أساسية : هى التربية والتعليم والثقافة بتركيبها الطبيعى .

« فالتربية » هى بناء التكوين النفسى والروحى والفكرى للانسان وتبدأ عادة من البيت .

« والتعليم » وهو بناء المفاهيم التى تؤهل هـــذا الانسان للعمل العقلى أو اليدوى أو الوظيفى فى شتى مجالات الحياة : العلوم والآداب والقانون .

« والثقافة » هى توسيع مجالات الفكر والعلم والفن وترقيتها وتعميقها بحيث تتيح له القدرة على المشاركة فى تطويرها وانمائها .

٢ — ومن هنا تتضح أهمية توجيه النشء فى الميادين الثلاث من أجل بناء جيل جديد قادر على حماية النهضة وحمل امانتها .

ولن يتحقق هذا الا بإتاحة الفرصة للجيل القائم الذى يشرف على الجيل الجديد بتقديم أكبر قدر من التوجيه والرعاية فى هذا المجال .

(رابعــا)

وفى مجال «التربية» وهو المجال الأساسى والأعمق لبناء الانسان تبدو الاسوة أو «القدوة» وهى الوسيلة الكبرى للعمل . فاذا لم تتوافر كانت هناك صعوبة كبرى فى بناء الشخصية القوية القادرة . وإذا كانت البيئة لا تحقق صورة طيبة فيها مقومات الدين والخلق والفضائل والاستقامة والصدق . كانت مراحل التعليم والثقافة أعجز عن أن تقدم ذلك .

٢ — وليس شيء يستطيع أن يعطى الناشيء فى هذا المجال ، كما تعطيه « روح الدين » التى يمكن أن تقـــدم فى صورة بسيطة يسيرة ، وإذا نظرنا إلى شخصية الإنسان الذى نطمع فى تشكيله وجدنا أن أبرز ما نتطلبه فيه هو القدرة على مقاومة وسائل الإغراء حتى لا يتحول إلى الترف والمتعة وينزلق إلى الشهوات والأهواء . وكل النهضات والحضارات التى عرفتها الأمم قد تحطمت تحت تأثير الانزلاق فإذا أعطى الحضانة بالتربية الاسلامية لم تستطع مؤامرات الهدم أن تقضى عليه ، واستطاعت شخصيته المتماسكة أن تقاوم ، ولا شيء يستطيع أن يصنع هذا الجيل غير التماسك الروحى والخلق وان يتم ذلك بغير الانفطام عن الشهوات . ليس قطعا هو إلغاء جانب الرفاهة فى حياة الجيل فذلك ليس مما يمنع ، بل مما يجب أن يبقى ، وإنما يحميه ولا يجعله غاية وجود — روح الدين — فالدين يعطى قوة الروح ويدفعها فى سمو عن الإغراء واللذات العارضة ويحمى من الانزلاق أو الرخاوة ويعطى تلك الطبيعة القادرة على التماسك والصلابة .

٣ — وبناء الشخصية على أساس القيم الروحية والفكرية والاجتماعية النابعة من الفكر العربى الاسلامى يستطيع أن يعطى هذه القوة ، ليس فكر الإنعزال والسلبية ، ولكنه الفكر الذى يجمع بين العقل والروح ، والعاطفة والعقل والدين والعلم . فهو يؤمن بحقه فى الحياة ولكنه لا يجعل المادة غايته ، وهو يرى له حقه فى الحياة وحفاظه على ما يملك من مقدرات ، وايمانه بأن الاستشهاد فى سبيل عرضه وماله وأرضه . كل هذه دعائم تدفعه إلى حماية الأمانة وحمل لواء النهضة .

(خامسا)

والحق أنه عندما تطلعت الأمة إلى فجر اليقظة كانت تحمل أملين كبيرين .

الأول بناؤها من جديد واعطاؤها قوة الحركة والاندفاع فى مجال الحضارة

حتى تصل إلى مستوى الأمم الراقية .

الثانى بناء شبابها على نحو يمكنه من حمل أمانة النهضة والقدرة على مواجهة كل التحديات .

ذلك أن النفوذ الأجنبى الذى سيطر على هذه المنطقة إنما كان يهدف إلى جعل هذه الأمانة تابعة لأسواق الغرب ومصانعه واقتصادياته . ولما كان ذلك عسيرا بالدرجة الأولى لما تملك هذه الأمة من مقومات فكر وشخصية وتاريخ وتراث ، فقد كانت حملته الكبرى موجهة نحو القضاء على هذا الكيان والتشكيك فيه وإذابته وتمييعه ، وإحلال قيم جديدة غريبة فى مكان قيمه الأساسية .

ولقد كانت هذه الأمة بمقوماتها قادرة على صد كل عدوان . والدفاع عن نفسها ضد كل مغير ، لاتقبل أبدا السيطرة أو العبودية ، فقد أعطتها ، قيمها الأصلية ، معينا نابضا بالحيوية من الحرية والقوة والكرامة . كما منحتها كل هذه المقومات القدرة على الحركة فى حيوية مكنتها دائما من تقبل الجديد ، فلم تقف يوما موقف الجمود إزاء التطور ، ولم تتخذ موقف التخلف أمام الفكر الإنسانى الوافد من الشرق أو الغرب بل كانت لها القدرة على مواجهة هذا الفكر ، وتقويمه ، وامتصاص مايزيدها قوة على الحياة والحركة دون أن تكون مستوردة أو تابعة .

وقد كانت دائما تأخذ مكانها فى الصدارة والقيادة وتستمر فيه ماحافظت على مقوماتها الأساسية ، هذه المقومات التى مزجت فى دقة وقوة بين : الروح والمادة والعلم والدين ، والعقل والوجدان ، وكان هذا طابعها الواضح الذى يعطيها ملامح شخصيتها ، المتميزة عن غيرها ، فإذا ماتخلت عن مقوماتها الأساسية واجهت الأزمة والتجميد والانهيار .

ومن هنا كانت مؤامرة « التغريب » التى فرضها النفوذ الأجنبى على هذه الأمة من أجل القضاء على مقوماتها ، هذه المقومات التى تحمى الأمة من الموت أو الإنسحاق أو التبعية ، فلقد كان الغرب يصر دائما على أن هذه الأمة لاتستطيع أن تصبح فى مصاف الدول الراقية إلا إذا أخذت « حضارة الغرب » وكان الغرب حريصا على الا يعطيها هذه الحضارة الا مرتبطة بثقافته وفكره ومفاهيمه . وكان يظن أن الحضارة ملزمة لنا بفكرها وثقافتها . وأن على الأمة أن تأخذ قيم الغرب فى الفكر حتى تعد نفسها لحضارته .

غير أن هذه الأمة كانت مؤمنة أساسا بأن « الحضارة » ليست ملكا للغرب وحده وإنما هى ملك للانسانية كلها ، وقد شاركت فيها من قبل وبنت فى كيانها حائطا عريضا ، بل أن جذور هـــذه الحضارة كانت من صنعنا ، وأن دورنا فى إنشائها كان كبيرا ، فضلا عن أنها ليست حضارة الغرب وحده ، بل هى عصارة الثقافات والحضارات التى صنعتها مصر وبابل وأشور واليونان والرومان والعرب والمسلمون جميعا .

وأن هذه الحضارة باعتبارها : تلك النهضة العلمية فى مجال التكنولوجيا والآلة والكشف والصناعة والذرة فانها تستطيع أن تنتقل من مكان إلى مكان دون أن يترتب على ذلك استيراد المذاهب والنظريات والمقومات الفكرية وأن لكل « أمة » فكرها ومفاهيمها وقيمها ومقوماتها الأساسية التى تستطيع بها أن تصنع نهضتها وتقيم عليها بناء حضارتها .

وقد فعلت ذلك اليابان من قبل وكذلك فعلت الهند .

(سادسا)

كان هذا الفهم القائم فى ضمير أمتنا فى مطالع اليقظة وفجرها . وكان ذلك تماما هو المعنى الحى القائم فى روح فكرها . هذا الفكر القائم على ذلك المزيج المتسق من الروح والمادة والعلم والدين والعقل والوجدان . كل هذا هو التحدى

الأول ليقظتنا ، تحدى النفوذ الغربى الذى كان حريصا على العمل للقضاء على القاعدة الأساسية لأمتنا .

وقد استطعنا بناء الحضارة الجديدة على المقومات الأساسية لفكر الأمة وروحها . وبذلك حطمنا النظرية الكاذبة التى عاشت على أقلام دعاة « التغريب » سنوات وسنوات هى أن إستيراد الحضارة لابد أن يمتزج به إستيراد الفكر والثقافة .

ونحن نرى اليوم أننا قد أصبحنا فى مجال النهضة العملية والصناعية وفى مجال الآلة والكشف والصناعة والذرة والصواريخ التى تسبق سرعة الصوت على قدم المساواة مع الحضارة الغربية . ومع ذلك فقد أقمنا ذلك البناء الحضارى على مقومات « فكرنا العربى الاسلامى » الواضحة المعالم . ودون أن نستبدل قيمنا الروحية والفكرية والاجتماعية بقيم الغرب .

وهذه هى معجزة مقوماتنا القادرة على أن تأخذ « الحضارة » فى أعلى درجاتها ثم تبنى حياتها على أساس قاعدة عريضة من فكرنا وقيمه .

ولقد حقق هذا تحررنا من « العقد » النفسية ، فلقد كنا ننظر إلى الغرب نظرة الاكبار ، وننظر إلى أنفسنا نظرة القلة ، وكنا نجرى وراء الغرب نقلده فى سذاجة على قاعدة ابن خلدون التى تقول « أن المغلوب مولع بتقليد الغالب » أما اليوم فقد انحلت هذه العقدة ، فقد أخذنا « الحضارة » وأصبحنا نقف فيها على نفس المستوى الذى تقف فيه الأمم المتحضرة . ولم يعد هناك سبيل لذلك الاحساس بالقصور الذى كان يدفعنا إلى « التقليد » ولنا من مقومات فكرنا فيض غزير من « القيم » التى تنشىء الأجيال وتصنع الرجال وتبنى القيادات فى مختلف المجالات .

وليس معنى هذا أننا وقد بلغنا مكان الأمم المتحضرة أن نغلق فكرنا ، فما كان ذلك شأننا أبدا خلال تاريخنا الطويل الخصب ، بل كنا دائما ، نأخذ ونعطى بفكر مفتوح ، قادر على أن يواجه فى ظل قاعدته ومقوماته الأساسية كل فكر ، فيأخذ منه مايزيده قوة وحياة ، ويمده بالقدرة على الحركة والتطور .

وبذلك تبدو الصورة واضحة ، أمة تبنى على أساس من قيمها ومقوماتها ، لتكون منارا عاليا يعلو فيه من جديد صوت الشرق واسمه ، ومن هنا كانت المرحلة القادمة من البناء غاية فى الأهمية .

(سابعا)

تلك هى بناء « الإنسان » الذى يعطى هذه النهضة « قوة الاستمرار » وقوة الروح ، الإنسان الذى سيحمى هذه الحضارة ، ولطالما كان بناء « الإنسان » هو الصعب العسير ، هذا الجيل الجديد ، سيكون أحوج بالدرجة الأولى إلى مفاهيم أمته وقيمها الروحية والفكرية والاجتماعية لتكون أساسا وقاعدة لنظرته إلى الأمور وتقويم المذاهب والنظريات ، حتى لايكون مستورداً أو تابعا ، أو ضائعا فى متاهات الرؤى والطوبيات ، فهو إذا عرف قدر ميراثه وتراثه وقيمه أحس بكرامته وعرف أثره فى بناء الحضارة ، وتطوير الإنسانية ، فلا يعتوره الشعور بالنقص ولا القصور ، ولايجده مضطرا لأن يندفع وراء بريق الفكر الوافد من الشرق أو الغرب ، الذى لن نغلق أمامه الأبواب ، وسيظل بين أيدينا نأخذ منه وندع حسب حاجتنا ووفق مفاهيمنا ، وعلى ضوء ملامح شخصيتنا الأصيلة ، أن بناء « الإنسان » سيعطى هذه النهضة قوتها على البقاء والاستمرار . هذا الجيل الجديد الذى سيحمل على أكتافه أمانة الحضارة الجديدة ، لابد أن يكون قائما على قاعدة ضخمة عالية من الإيمان بالله ووطنه وأمتـــه وقيمه ، مفطوما على الشهوات ، محررا من المفاهيم الخاطئة مبرءاً من شبهات الفكر وشكوك العقيدة طامحا مؤمنا .

ان المقومات الأساسية التى اتخذناها قاعدة لبناء أمتنا ، ستكون نفس المقومات التى تكون قاعدة بناء الانسان ، وأن شباب هذه الأمة فى ضوء مفاهيم فكرنا العربى الاسلامى ، سيكون متحرراً من « أزمة الفكر » كما تحررت الأمة من « أزمة الحضارة » سيجد من مفاهيمه الأساسية مايهديه إلى بناء كيانه قوياً حياً قادراً على حمل الأمانة وحماية النهضة . سيتحرر هذا الشباب من الانحلال والترف والمادية ويسترد ثقته بالقيم الفكرية والروحية والاجتماعية .

(ثامنا)

والتربية أصلا هى تنمية الكائن الحى حتى يستكمل جميع خصائصه وذلك بتهيئته العوامل الضرورية لنموه ، والتربية عـلم غايته النهوض بالانسان إلى مرتبة تمكنه من الكمال من حيث سلامة جسمه وتفتق عقله واتساع تجاربه . وفى فكرنا العربى تتميز التربية بطابع خاص ، أبرز ملامحه تأديب النفس وتزكية الروح وتثقيف العقل وتقوية الجسم ، فهى تربية دينية خلقية صحية جسدية ممتزجة متكافئة لايبغى نوع منها على حساب الآخر . والتربية فى الفكر العربى هى تهذيب الشخصية وتزويد قواها الفكرية والبدنية بكل مايصلحها للعمل والعلم . فتجمع قوة البدن إلى قوة الروح وتقوم التربية الحقة أساساً على الاعتماد على النفس ، والكرامة ، وحرية الارادة ، والجرأة الأدبية ، والصراحة والصدق ، والاستقامة فى الرأى والعمل . وتتمثل آداب المعلمين فى الفكر الاسلامى فى عدة مقومات (١) قدرة المتعلم على السؤال والبحث عن الحقيقة (٢) الرفق بالمتعلمين وتفهيمهم بالقدوة (٣) تقديس حرية الرأى وتفهم الأحكام فهما صحيحاً .

وفى الأثر : علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف .

وقـــد أشار عمر بن الخطاب، إلى حرية الرأى فى حديثه مع القاضى حين دعاه إلى الفهم لما يتلجلج فى الصدر ومعرفة الامثال والأشباه ، وقيـــاس الامور عليها دون أن يمنع ذلك من مراجعة النفس فى أى رأى أن وجد من الحق ما يرده عنه .

ونظرة الفكر العربى الاسلامى إلى التربية منطلقة غير متزمتة ، فالاخلاق ليست قيودا ولكنها وسائل لتنظيم الحرية ، وهى لاتعيق التطور بقدر ما تحفظ الشخصيـة الانسانية من الانهيـار والضعف والرخاوة ، وليس فى فكرنا العربى زهادة ولا انعزال ولاموانع تحول دون المتعة بحقها ، ولكن جوهر فكرنا يؤمن بالاعتدال ، فهو لايبيح الاندفاع ولا العنف ، ولا أخذ شىء بغير حقه ، ووسائطه الطبيعية المشروعه .

وليس صحيحا فى قيمنا الانفصال بين العقيدة والأخلاق فليس من المنطق أن يستجيب الناس للعقائد ثم لايتحقق التطبيق فى مجال الالتزام الاخلاقى والانسان السليم فى نظر فكرنا العربى مزيج متوازن من العقل والروح ، والعاطفة والغريزة لايطغى فيه جانب على جانب .

لا « ميكافيلية » فى سلوكنا المستمد من مقومات فكرنا العربى ، فنحن لانخدع ولا نقول بالغاية التى تبرر الواسطة ، أن نظرية (لا أخلاقية السياسية) نظرية وافدة وفكرنا لايقبلها .

وقد أشار كتاب « التربية الاسلامية فى العصور الوسطى » إلى مفهوم التربية فى الفكر العربى فقال : أن التربية العربية تهدف إلى انشدان الحقيقة والخير لذاتهما ، وعندما تدرس سير العلماء المسلمين الذين انقطعوا للعلم نعجب بالتصوف العلمى والجلد

اللذين كانا يتجليان فلا غرض مادى ولا هوى سياسى ولاسعى لشهرة زائلة ، بل وقف العقل والنفس للوصول إلى الحقائق والسعى إليها . وأن التربية فى مفهوم الفكر العربى كانت تعنى بالاخلاق والفضائل ، وقد أدرك المربون بالبداهة أن تدريب العقل واستيعاب الحقائق إنما هى جزء من عملية تدريب الطالب ولكن الغاية القصوى هى تهذيب النفس وتقويم الأخلاق .

وقد كان فهم العلماء والمربون فى الفكر العربى أرضية لأحدث النظريات العالمية فى التربية وليس غريبا أن يقال أن الفكر الانسانى يحاول اليوم الاهتداء بالنظرية العربية والانتفاع بها بعد أن لم تتحقق تجارب « ديوى » الغاية من بناء الشخصية الإنسانية ، فديوى لا يرى « الدين » إلا نتاجا للظروف السيئة من الحياة ، فلا يذكر الانسان ربه إلا فى الازمات وحالات الضعف وعنده لذلك أن الدين لايصلح لأن يكون من مقومات المدنية ولاالتربية وقد جرى فى ذلك على مفهوم الاغريق الذين دعوا الى تحرير التربية من العقيدة وبالرغم من ان نظرية ديوى لم تحظ بالاقرار من دوائر التعليم والتربية فى مهادها وبلادها فانها نقلت إلى العالم العربى فى ظل فترة إحتلاله وسيطرة النفوذ الأجنبى عليه . والمعروف أن شعار الجامعات فى أوربا وأمريكا « الدين والمعرفة » وأنه قلما تخلو جامعة هناك من كنيسة تقام بها صلاة الصباح وهى ماتسمى صلاة التوجه إلى الجامعة .

وقد واجهت نظرية « ديوى » فى التربية معارضة ونقداً فى بيئتها الاساسية فنشرت مجلة تايم نيو مجازين فى (٣١ / ٣ / ١٩٤٨) بحثاً أشارت فيه إلى فشل نظرية ديوى القائلة بأن الله والفضيلة كلها غايات قابلة للنقاش والجدل ، ومن ثم فلا جدوى من مناقشتها وفى مكانها يجب أن تحل غاية أخرى هى « الانسجام مع الحياة » وقال الكاتب أن الطلبة قد

لانقطاع صلتهم بتقاليدهم ، وأن هناك حاجة كبرى إلى التفكير فى الأهداف السليمة للتربية وأنه لابد أن يكون هدف التربية الأول تزويد الفرد بثقافة صحيحة تقنعه بأن هناك تاريخاً وأهدافاً وراء هذه التربية .

(تاسعا)

فالفصل بين التربية وأبرز مقومات الفكر العربى هى نظرية الاستعمار ومعنى عزل مقومات فكرنا عن التربية والتعليم هو بناء شخصية هشة طرية لاتملك القدرة على حمل أمانة النهضة أو مقاومة الأخطار التى تراد باليقظة أو مواجهة وسائل الاغراء أو مؤامرات القضاء على الحريات ، ولقد كان النفوذ الغربى قادراً على أن يدمر الأمم التى يسيطر عليها عن طريق واحد هو اباحة الترف والمتع والشهوات والأهواء دون أن يكون لهذه الأمم من مقومات فكرها مايدفعها إلى التماسك أو يردها عن الانزلاق ، وأن مؤامرات القضاء على نهضات الأمم تأتى من طريق واحد هو تدمير عناصر التماسك فى شخصية شبابه ، ودفعه إلى مغريات الغرائز واللذات ومن هنا يعجز عن مواجهة الخطر ، والأمة العربية اليوم حين تصنع نهضتها الجديدة فى مواجهة تحديات الغزو الثقافى الأساسية لاتكون محتاجة إلى شىء قدر حاجتها إلى الارتباط بمقومات فكرها لتخلق ذلك التماسك الروحى والخلقى الذى يحقق الانفطام عن الشهوات . ولايعنى هذا إلغاء الرفاهية أو المتعة وإنما الحماية من الانحراف والانحدار وألا تكون هذة المتعة هى غاية الغايات . فجوهر القيم الأساسية لفكرنا العربى تعطى قوة الروح وتدفع النفس للسمو عن الاغراء واللذات العارضة وتحمى من الانزلاق والرخاوة وتعطى الطبيعة القادرة على التماسك والصلابة لاعن قوة البدن أو معدات المقاومة ولكن عن قوة الايمان .

(عاشرا)

فالتربية فى مفهوم الفكر العربى الأصيل على هذا النحو تعطى « الوسطية » المعتدلة ، دون أن تذهب النفس الانسانية وراء الزهد والسلبية ولاتندفع

وراء المادة واللذة الخالصة ، وتجمع بين العقل والروح ، ولقد عاد الفكر الغربى ليلتمس من الفكر العربى مفهومنا فى التربية فتقول جريدة التيمس اللندنية فى مجال إعادة النظر فى أمر التربية « أن أساس تكوين المواطن الصالح هو شخصية صحيحة متسقة ، ولكن كيف تكون شخصية الفرد دون اعتبار لآرائه ومعتقداته . أن الدين هو اسمى أنواع المعرفة ينبغى أن يعطى فى صراحة وفى غير مواربة — اسمى مكان فى التربية » .

ومن حقنا هنا أن نصحح بعض المفاهيم ، فقد حاول كثير من كتاب الغرب أن يصوروا أنهم هم أول من دعا إلى مجانية التعليم والواقع أن الفكر العربى الاسلامى هو الذى أعلن هذا الحق مبكراً قبل أربعة عشر قرنا ، كما حاولوا أن يكونوا أصحاب القول (بالعلم من المهد إلى اللحد) وهى عبارة نبى الاسلام : محمد « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » وفى القرن الرابع للهجرة كتب العلامة « أبو الحسن المقابسى » دراسته فى التربية والتعليم المسماه « رسالة أحوال المعلمين والمتعلمين » ونادى فيها بأمرين سبق فيهما علماء التربية فى العصر الحديث وهما (أولا) أن التعليم حق لكل صبى ، وأجب على الدولة وهى مكلفة به فاذا لم يكن أهل الصبى قادرين على الانفاق عليه ودفع أجر معلم الكتاب كان لابد أن ينفق عليه من بيت مال المسلمين (ثانياً) تعليم البنات : تمثلا بقول الرسول محمد « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

وقد تناول عدد من أعلام الفكر العربى الاسلامى موضوع التربية فوضعوا أسسها التى ماتزال منارا يهتدى به كل باحث وبذلك سبق الفكر العربى الاسلامى إلى « تقنين » أصول هذا الفن ، وفى مقدمة هؤلاء ابن سينا والغزالى والعبدرى وابن خلدون ، فقد دعا ابن سينا إلى أن

يكون أساس التربية مراعاة ميول الاطفال واستعدادهم ، وأن يكون التأديب بطريقة يتجلى فيها الحزم الممزوج بالرفق ، وأن يجنب الصبى معايب الاخلاق بالترهيب والترغيب ، والاعراض والاقبال . ويرى الغزالى أن كل تربية لاترمى إلى ترقية الخلق ، السامى وتقويته ليست جديرة بهذا الاسم ، والعلم وحده لايغنى بدون الأخلاق . والتربية الخلقية هى فى الواقع تربية إجتماعية ، ويجب أن لاينظر إلى الخلق على أنه شىء شخصى محض ، لايهم سوى صاحبه وإذا كان الغرض من العلم كسب المعيشة وحده ، فان ذلك يضيق الأفق العقلى ويحرم المرء الترقى الصحيح ، فالمهارة فى فن ما ، إذا كانت مقرونة بفساد الخلق وضعف فى النفس لاتكسب صاحبها راحة البال ولاتجعل الناس تقدره قدره » .

(حادى عشر)

ومن هنا يبدو بوضوح أن أحداث نظريات التربية الحديثة هى من منهج الفكر العربى الذى كان له أصالة اقــرار منهج « البحث العلمى الحديث » .

ومنذ وقت طويل ونحن نسمع صيحة تدعونا فى العالم العربى إلى إصطناع المنهج العلمى الحديث الذى اتخذه الغرب . وذلك لتطبيقه على الفكر والتاريخ والأدب العربى . وتقول هذه الصيحة ، أن المنهج العلمى الحديث له قواعد أصلية أساسها البحث والملاحظة والاستقراء . ويقتضى المذهب أن تمحو من نفسك كل رأى ، وكل عقيدة سابقة على البحث وأن تبدأ بالملاحظــة والتجربة بالموازنة والترتيب . ثم الاستنباط القــائم على المقدمات العلمية للوصول إلى نتيجة علمية خاضعة للبحث والتمحيص .

والواقع أن الغرب لم يكن هو الذى دعا إلى هذا المنهج وإنما كان قد اتخذ أساساً له من مذهب الفكر العربى الاسلامى فى البحث الذى دعا إلى العقل والبرهان . « قل هاتوا برهانكم » والاقناع بالحجه ، وتقديم العقل على ظاهر النص .

وقـد أجرى الامام الغزالى على هذه الطريقة حيث أعلن فى كتبه أنه جرد نفسه من جميع الآراء ثم فكر واستدل ، حتى وصل إلى ماوصل إليه من رأى على أساس الدليل والبرهان .

ولذلك فإن ماأدعاه الغرب من إيمان المسلمين والعرب بالعقلية الغيبية محض افتراء لا أساس له . فقد وصفت العقلية العربية بأنها جزئية تنتقل من الجزء إلى الجزء الآخر . دون أن تربط بين الأجزاء . ولاتبحث فى المقدمات والنتائج ولاتعنى بالتحليل وهذا مالايتفق فى الحق مع مقررات العقل العربى الاسلامى ولا الفكر العربى عامة الذى أثبت على طول القرون علميته وبراعته فى الشك والنقد والبحث على البرهان للوصول إلى الحقائق على أساس المنطق والمقدمات والنتائج ووفق أسلوب التحليل .

ويصور ابن رشد منهج البحث العلمى العربى فيقول : يجب علينا إذا ألفينا ممن تقـدموا من الأمم السالفة نظراً فى الموجودات واعتباراً لها بحسب مااقتضته شرائط البرهان أن ننظر إلى هذا الذى قالوه من ذلك وما أثبتوه فى كتبهم . فما كان منها موافقاً للحق، قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعـذرناهم . ان كل ما أدى إليه البرهان والعقل . وخالفه ظاهر الشرع فان ذلك الظاهر يقبل التأويل .

ويقول الامام الشافعى فى تصوير منهج البحث العلمى : أن هــذا

العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه . لقد أدركت سبعين ممن يقولون : قال رسول الله — عند هذه الأساطين فما أخذت منهم شيئا ، وان أحدهم لو أؤتمن على بيت المال لكان أمينا إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن (١) .

وهذا كله يعنى أن يقوم البحث العلمى على أساس تقدير أهمية من يحمل العلم والقدرة على فحص النصوص ومطابقتها للحق على أساس البرهان والعقل . وبذلك وضع الفكر الاسلامى العربى قواعد البحث العلمى وأصول التفكير وحصرها فى الملاحظة والاستقراء وتحكيم العقل .

(ثانى عشر)

وقد أعلن الفكر الإسلامى نظرية المعرفة قبل الفكر الغربى بسبعة قرون . هذه النظرية القائمة على أساس الاختيار المحسوس والاستقلال والتجربة دون التقليد : قال ابن حزم : إن المعرفة تكون أولا بشهادة الحواس ، أى باختيار لما تقع عليه الحواس وما يقرل العقل أى بالضرورة من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس وببرهان راجع من قرب أو بعد إلى شهادة الحواس وأولها العقل . . وقال ابن حزم : « إن التقليد حرام وعلى أساس نظريته التى هى من صميم الفكر العربى خالف كثيرا من الأقوال التى كانت معتمدة فى زمنه وهو القائل بأن الغرض من الفلسفة والشريعة إنما هو « إصلاح النفس » .

وفيما يتصل بهذا ، يضاف ماعرف الفكر الاسلامى من أصول النظريات السياسية المستقلة عن الفكر الإغريقى والرومانى وقد سبقت ما انتجه العقل الاوربى .

---

(١) اقرأ هذا البحث بتفصيل أوسع فى كتابنا (أضواء على الفكر العربى الإسلامى) .

وقد صور الغزالى فى كتابه « المنقذ من الضلال » أسلوبه العلمى فى فهم الاسلام فأشار إلى أنه لم يقتنع بالدين التقليدى ، واتجه إلى أن يعلم حقائق الأمور وأن يبنى دينه على يقين . : ولذلك بدأ بالشك فى كل ذلك ، حتى يقوم البرهان على صحته ، وقال بالنص : كل ما أعلمه على هذا الوجة ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى . . وتطبيقاً لنظرية « المنهج العلمى الاسلامى » نقد الفليسوف « النظام » آراء أرسطو ، كما نقدها « الجاحظ » أيضاً ونقد « البيرونى » نظريات اليونان والهند فى الرياضيات « ووقف ديكارت موقف « الغزالى » فى كتابه « المنقذ » .

وقد تحدث العلامة (بريفليف) فى كتابه « البحث العلمى » عن دور العرب ، فأكد أن الطريقة التجريبية هى من صنع العرب وحــدهم لم يسبقهم اليها باحث أو مفكر . وقال أن كل ماعمله « بيكون » أنه كان تلميذاً مخلصاً للمسلمين فتلقى أفكارهم كما تلقى منهم الطريقة التجريبية التى ابتكروها ونقلها إلى أوربا المسيحية وظل يعترف بهذا دون ملل وكان يؤكد أن علوم المسلمين كانت له ولمعاصرية الطريق الوحيد للثقافة الصحيحة وقال (بريفليف) أن محاولة أسناد الطريقة التجريبية لغير العرب ليست إلا حلقة من حلقات التضليل وليس إلا تصحيفاً فى فهم المصدر الحقيقى للحضارة الأوربية ، ومن المؤكد أن « بيكون » لم يبتكر الطريقة التجريبية كما يدعى المتأخرون . وقال . أنه لا يوجد جانب واحد فى الحضارة الأوربية دون أن تكون ثقافة المسلمين واضحة التأثير فيه وأن تأثيراً أخطر وأوضح فى الروح العلمية وفى الدراسات التى تحتاج إلى التجارب لاثباتها .

(ثالث عشر)

وبعد ، فهل طبق الغرب منهج البحث العلمى الحديث عندما بحث تاريخ الاسلام وفكره وأدبه ولغته ؟؟ وهل تجرد كتاب الغرب ومحوا من أنفسهم احقادهم وخصوماتهم عندما نظروا إلى هذا الفكر الغنى الخصيب ؟؟ لقد عجز العلماء

والكتاب الغربيون عن أن يطبقوا هذه النظرية التي نقلوها من المسلمين ثم ادعوها لأنفسهم . عجزوا عن تطبيقها في كل ما يتصل بالعرب والمسلمين والقرآن . واعتمدوا على الأهواء . وفرضوا فروضاً ثم بحثوا عن أدلة عنها . يقول الدكتور « حسين الهراوى » أنى لأعلم أن المستشرقين ينقصهم في مباحثهم عن الاسلام الروح العلمية . وأن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرف العلم وهى أنهم يفرضون فرضاً ثم يلتمسون الدليل عليه . فاذا وجدوا في القرآن ما يهدم نظريتهم تجاهلوه ، وألتمسوا الآيات التي تناسب المعنى المراد ، ولا مانع من بترها ، إذا اقتضى الحال ، أو تحريف معناها حسب الرغبة ، فيخرج القارىء من كلا منهم وهو يتهم الاسلام بالتلفيق » .

والحق : أن الغرب كان ظالماً مرتين (أولا) عندما أدعى أنه صاحب المنهج العلمى (ثانيا) وعندما عجزت أهواؤه عن أن ترده إلى الحق ، فى تطبيق المنهج العلمى على الفكر الاسلامى .

(خامس عشر)

يقودنا هذا إلى مراجعة قضية البحث عن الجذور والارتباط بأسس قيمنا ومفاهيمنا فقد كان من أبرز الدعوات الوافدة على عالمنا العربى منذ الاحتلال الغربى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر : دعوى أن الاتصال بالماضى مذمة ، وأن الأمم الناهضة قد انفصلت عن ماضيها وأن استمرار الارتباط بالماضى يعوق التقدم ، ويحول دون بلوغ الأمة المكانة المرموقة فى ركب التطور .

وقد حملت هذه الفكرة أقلام دعاة التغريب والخادين فى ركبه ممن يكتبون باللغة العربية ومضت تزين الدعوة وتحاول أن تعززها بأكاذيب خادعة ، حتى خلقت

فى الجيل الذى نشأ فى ظلها عقدة الانفصال القديم كأنما هو شىء مزدرى .

وبذلك نشأ فى الامة العربية جيل سطحى يجرى وراء البريق ويأخــذ بالقشور ويحاول أن يقلد الغرب . فإذا قرأ لم تمتد يده إلا الى تلك الكلمات الساخرة بأمجاد أمتنا . المحاولة بث الشكوك والاوهام بالاديان والقيم والمثل العليا الجارية وراء الاهواء والاوهام والخرافات والاكاذيب الخادعة .

وعلا صوت موجة الانفصال عن الماضى والتنكر للقديم على كل صوت ، فقد كانت تحملها صحف ضخمة الاسم ، ذائعة ، تدخل كل قطر من الأقطار العربية تكتب بها أقلام شهيرة ، فكان للدعوة فى نفوس الشباب المتطلع أثر عميق .

كان ذلك فى الثلاثينيات من هذا القرن ، ودعوة « التغريب » التى يقوم بها مفكروا الغرب على أشدها ، غير أن الوقائع كذبت هذه الدعوة وأنكرتها .

فقد تبين أن الغربيين الذين يحملون هذه الدعوة إلينا لايؤمنون بها فى بلادهم . وأنهم هم أنفسهم لم ينفصلوا عن ماضيهم ، ولم يقطعوا علاقتهم به بل أنهم حينما بدأوا حياتهم الجديدة فى عصر النهضة (الرينسانس) جعلوا من التراث اليونانى فى (الادب) والرومانى فى (القانون) قاعدة أصيلة أكدوها ووقفوا عندها طويلا ، وجددوا أساطيرها القديمة التى علاها الغبار فأحيوها بأسلوب حديث ، وعلى نحو مثير يأخذ بالالباب فى إخراج جميل واعداد يسير وصور وأغلفة جميلة وأذاعوا ذلك فى الصحف والأندية وأدخلوه كتب المدارس وأشادوا به وبلغوا فى ذلك مبلغاً لاحد له .

ثم جاءوا فأنشأوا أدبهم الجديد على هــذا « الاساس » وربطوا بين فكرهم

الجديد وبين هذا القديم برباط وثيق ، حتى أنهم لينفضون الطرف عن أى أدب لايتصل فيه الحديث بالقديم ، ولا الحاضر بالماضى ، وأن أى كاتب لايفعل ذلك فهو فى نظرهم مقصر عاجز ، جدير بأن يقصى عن مكان الشهرة والتبريز .

وليس هذا التراث اليونانى فى حقيقته إلا بعض القصص والأساطير القديمة التى أغضى عنها العرب حين ترجموا التراث اليونانى فى الفلسفة والعلم ، لأنهم لم يجدوا فيها فنا جديدا أوثقافة نافعة ، بل مزيجاً من الخيال المغرق ونداء الغريزة وألاعيب الحواة .

وبينما يفعل الغرب هذا نقف نحن هذا الموقف الشائن ، تحت ضغط سيطرة « عقدة الأجنبى » الذى دعا بيننا دعوته الباطلة فصدقناها وأخذنا بها .

وقع هذا بالنسبة لتراثنا العربى الاسلامى الضخم الحافل بالآثار الحية النابضة بالقوة والإيجابية . هذا التراث المتصل بالحياة نفسها فى جميع فنونها الروحية والعقلية والقانونية والاقتصادية والعلمية .

هناك حيث نجـــد العشرات بل المئات من أعلام الفكر والأدب أمثال ابن خلدون والمتنبى وابن حزم والجاحظ والغزالى وابن تيمية وابن القيم وعشرات لهم آثار حية باقية على الزمن مرتبطة بالحياة لاتنفصل عنها ، وهى مازالت تنبض قوة وتجرى مع التطور والزمن .

(سادس عشر)

يحدث هذا بينما نجد الغرب فى بدء نهضته يقوم على أساس هـذا التراث فيترجمه ويبدأ به ويأخذ منه ثم يمضى على هداه ، ويعترف بذلك أعلام منصفون من كتاب الغرب وفلاسفته أمثال سيديو وجوستاف لوبون وتوماس أرنولد .

فنحن الذين حملنا « أمانة الحضارة » ابان العصور الوسطى المظلمة التى عاشتها أوربا ، عنـــدما كانت تمضى فى ظل ليل الجمود ، كانت منارات الأندلس والمغرب والقاهرة وبغداد ودمشق تشع حضارة وثقافة وتحمل لواء التطور والنهضة وينشىء المنهج العلمى التجريبى .

ومن ثم فقد كانت دعوى الانفصال عن الماضى خدعة كبرى ، اذاعها المغرب بيننا ليفصلنا عن شخصيتنا الأصيلة النابضة بالحياة ، وحتى يجعلنا صورة مشوهة من الغرب ، كان الهدف هو فصلنا عن اللغة العربية وعن القرآن الـكريم وعن الاسلام وعن الأمة العربية وعن تراث أربعة عشر قرنا لم تستطع أن تفنيه مؤامرات هولاكو فى بغـداد حين أقام بالـكتب جسراً على نهر الفرات ، ولا النار التى أوقدها الـكردينال فى فى ساحات الأندلس حيث حرق بها آلاف الأسفار والـكتب .

ومازال الـكتب الباقية بعد هذا تكون تراثاً ضخماً حياً ، ليس منعزلا عن الحياة وليس هو من الأساطير والخرافات وإنما هو قوة كبرى تحمل فكرا حياً نابضاً يضع الحلول لازمات البشرية وقضايا الانسان فى معركة التطور ويحمل مع ذلك القيم والمثل العليا الهادية إلى حياة أفضل ، ما أجدرنا اليوم أن نجعلها أساس نهضتنا وأن نعيد بعثها على النحو الذى صنع به الغرب أساطير اليونان المغرقة فى الجنس والخيال .

(سابع عشر)

واليوم يعود الغرب ليعلن فى صراحة أن حضارته المادية قد بلغت غايتها فى العنف والعسف ، وأنها فى حاجة إلى « سناد » من ثقافة غير مادية ، هذه الثقافة العربية المستمدة من الاسلام والتى تميزت عن ثقافة الشرق « الهند والصين » المتسمة

بالروحية الخالصة وثقافة الغرب (أوربا وأمريكا) المتسمة بالمادية الصرفة ، هنا في هذه (الأمة الوسط) يجد الغرب ثقافة تمتزج فيها الروح بالمادة ، وحاجة الدنيا بحاجة الروح والعقل والمصير ، ثقافة الانسانية والتوحيد والالتزام الأخلاقي .

وبعـــد فان القاعدة هي أن الانفصال عن الماضي هو علامة الهزيمة والانهيار ، فكل حاضر لاماضي له لامستقبل له .

* * *

والحق أن بناء الشخصية العربية الجديدة في ظل اليقظة والثورة والبناء الصناعي على أسس قيم الفكر الاسلامي العربي هو مصدر القوة التي تحمي البناء ، ذلك أن قيم هذا الفكر تجمع بين المادة والروح والدنيا والآخرة ، والعقل والقلب ، وتمزج بينها جميعاً . ولا تذهب وراء المادة واللذة الخالصة ، كما لاتذهب وراء الزهد والانعزال والسلبية . فهو فكر يؤمن بحق الحياة ويدعو إلى التفوق والصدارة وبناء على الحق والعدل . ولكنه لايجعل المادة غايته .

* * *

وبناء الشخصية العربية وفق أصول فكرها يقوم أساساً على مفاهيم أساسية واضحة:

• نحن أمة لها فكر حي متحرك متطور قادر على التجاوب مع الحضارات في مختلف الأزمنة . وفي كل مكان على هذا الكوكب .

• ولنا « شخصية » ذات طابع مميز لايذوب في شخصية أخرى ، وهي لاتتعالى بمكانها ، وإنما تحافظ على مقوماتها مع فكر مفتوح على العالم تأخذ منه وتعطي .

• ولنا « تاريخ » عريض ملىء بالأمجاد ، أبرز صوره هي قدرتنا على مقاومة

الغزوات المتتابعة وهزيمتها واعطاء « الانسانية » نماذج من النوابغ والأعلام فى مختلف مجالات الفلسفة والفقة والفكر والفن والعلوم .

• لنا « لغة » خصبة قادرة على مواجهة الحضارات والثقافات ، عاشت متطورة قادرة على الحيـــاة ، لا تموت ولا تتجزأ ، لأنها لغة الأمة ، ولغة القرآن .

• لنا « تراث » من الفكر العربى الاسلامى الحى ، مايزال متصلا بالحياة تتمثل فيه مفاهيم رائدة قادرة على أن تعطى الانسان قيمه ومثله . وتحل قضاياه ومشاكله وترسم علاقاته بالله والكون والنـاس .

المراجع والمصادر

دكتور محمد البهى — الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغرب

محمد المبارك — ذاتية الاسلام

دكتورة بنت الشاطىء — قيم جديدة للأدب العربى

الدكتور على سامى النشار — مناهج البحث عن مفكرى الاسلام

الدكتور عمر فروخ — التبشير والاستعمار

الدكتور محمد حسين هيكل — الشرق الجديد

الدكتور محمد أحمد الغمراوى — النقد التحليلى لكتاب الشعر الجاهلى

مالك بن نبى — الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة

محمد عبده — الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية

محمد أسد — الاسلام على مفترق الطرق

دكتور محمد محمد حسين — الحضارة الغربية والفكر الاسلامى

محمد بهجت الأثرى — الاتجاهات الحديثة فى الاسلام

جلال مظهر — مأثر العرب على الحضارة الاوربية

عبد المنعم خلاف — المادية الاسلام وأبعادها

محمد الغزالى — التعصب والتسامح بين المسيحية والاسلام

فتحى عثمان — أضواء على التاريخ الاسلامى

محمد خليفة التونسى — الخطر اليهودى

أنور الجندى — معالم الفكر العربى المعاصر؛ الاسلام وحركة التاريخ؛ القيم الاساسية للفكر الاسلامى والثقافة العربية

رقم الإيداع بدار الكتب / ٤٨٩٧ / ١٩٧١

مطبعة المعرفة